AL-SHAYBI

AL-SILAH BAYNA AL-TASAWWUF
V.1

2274
.87656
.375
V.

2274.876563.375 v.1
al-Shaybī
al-Silah bayna al-tasaw-
wuf

DATE ISSUED DATE DUE DATE ISSUED DATE DUE
SEP 23 JUN 15 '71
DUE JUN 15 1991
DUE JUN 15, 1996
DUE JUN

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 019684453

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الصلة بين التصوف والتشيع

(رسالة جامعية)

الجزء الاول

التشيع والزهد

تأليف

الدكتور كامل مصطفى الشيبي

دكتوراه في الفلسفة (كمبردج)

ليسانس في اللغة العربية (الأسكندرية)

مطبعة الزهراء - بغداد

١٣٨٢/١٩٦٣

ساعدت جامعة بغداد على نشره

الصلة بين التصوف والتشيع

(رسالة جامعية)

al-Ṣilah bayna al-taṣawwuf

الجزء الاول

التشيع والزهد

تاليف

الدكتور كامل مصطفى الشيبي

دكتوراة في الفلسفة (كمبردج)

بمسانس في اللغة العربية (الاسكندرية)

مطبعة الزهراء - بغداد

١٣٨٢/١٩٦٣

تقـــديم

اصل هذا الكتاب رسالة جامعية كتبت تحت اشراف الاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، وناقشتها لجنة مؤلفة منه ومن المرحوم الاستاذ محمود الخضيرى والاستاذ الدكتور على سامى النشار ، فنالت درجة الماجستير فى الآداب بدرجة جيد جدا من قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى آب ١٩٥٨ .

وغرض الكاتب من هذه الاشارة هو ان هذا البحث ، وان استغرق الفراغ منه خمسة اعوام كاملة ، كان أول رياضة عقلية له فى فترة من غرور الشباب وحماسه وتسرعه . وكان لابد ان يظهر فى البحث آيات على هذه الاوصاف . على انى رجعت الى البحث من جديد فاعملت فيه يد التؤدة والتهذيب بقدر الاستطاعة واضفت اليه الكثير خلال اعدادى رسالة الدكتوراه فى كمبردج غير انه بقى يحمل طابعه البارز .

ويحسن ان انبه الى ان هذا العمل قد قام على اساس من الاكثار من النصوص بغية جمع ما تفرق منها فى مكان واحد فيتاح للباحثين تدبرها من جديد واستخلاص النتائج التى يمكن استخلاصها منها ان بالنفى او بالاثبات او بالملاءمة . ومسألة أخرى يهمنى ان اؤكدها هنا هى اننى تناولت بدايات الاسلام وتطوراته على نحو موضوعى خالص لاتشوبه شائبة من عاطفة أو محاباة ولا تقية او رياء وتركت للحقائق وحدها ان تتمخض عن الاحكام وتؤسس للآراء . ويتعين على ان أقرن بهذه الحقيقة أمرا آخر هو أنى لم اصدر عن تحيز او نعرة وأن ما قد يبدو كذلك يتوجب ان يوجه الى الاعتزاز بموضوع البحث والتعلق بتتبعه واستكناهه لا الحرص على تأييد العقيدة نفسها على نحو كلامى ، وقد لاحظ ذلك كله الدكتور ابو العلا عفيفى فى اثناء مناقشة هذه الرسالة وافصح عنه جهارا .

2274
.876563
.375
V.1

ومما يريح ضميرى ان اعترف للقارىء بأنى لا اعتبر هذا البحث مرضيا لغرور الباحث ، على انى اصارحه ايضا بأنى لم ادخر وسعا فى سد الثغرات التى عرضت لى فى اثناء البحث وأنى لم أفر امام صعوبة • لقد كان رائدى الاخلاص ، واحسبنى لايسعفنى التواضع على اغفال هذه الخلّة فى هـذه الرسالة •

ولا يتم هذا التقديم دون التوجه بالشكر الى من يستحقه من الاساتذة والباحثين الذين كانت مشورتهم عنصرا مهما فى اعداء هذا البحث • واول هؤلاء الاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، الرئيس السابق لقسم الفلسـفة بجامعة الاسكندرية ، الذى اشرف على اصل هذه الرسالة وراجع كل كلمة فيها وبذل وقته وجهده خالصين للعلم شهورا طوالا حرصا على ابراز اصالتها وغنائها • وينبغى ان اذكر بالشكر الاستاذ الدكتور على سامى النشار ، الرئيس الحالى لقسم الفلسفة بجامعة الاسكندرية ، فلقد كان من حظى ان اشرف على رسالتي هذه فترة قصيرة حفلت بالفائدة واقترنت بالمودة والاخلاص • ومن الوفاء ان اكلل بأكاليل الشكر من اساتذتنا وشيوخنا العراقيين السيد هبة الدين الشهرستانى لاسهامه برأيه ومشورته فى بعض موضوعات هـذه الرسـالة وبخاصة فيما يتعلق بجابر بن حيان واشتقاق كلمة «صوفى» ، والاسـتاذ توفيق وهبى لالقائه الى الكثير مما تعلمته منه عن البكتاشية ونظمها ، والدكتور مصطفى جواد لاعارته اياى بحثه فى الفتوة قبل نشره •

ويسرنى ان اقرن بالشكر اسم صديقى الدكتور حسين على محفوظ لنيابته عنى فى الاتصال بالباحثين الايرانيين حول موضوع رسالتى ولتعريفى بالشيخ محمد باقر ألفت ، من متصوفة ايران المعروفين علما وعملا ، وللاخير جزيل الشكر على ما سدد به خطاى فيما يتصل بمعروف الكرخى ودوره فى التصوف فى ضوء صلته بالامام على بن موسى الرضا • ولابد لى من الاشادة

بفضل الشيخ محمد رضا الشبيبي والاستاذ محمد بهجة الاثري ، فلقد كانا من اوائل من استشرتهم من الباحثين في قيام الصلة بين التصوف والتشيع ، ولئن نفيا تحققها لقد كان ذلك منهما حافزا لي على تعمق الموضوع ومضاعفة الجهد في استقصائه . واختم صحيفة الشكر هذه بذكر صديقي الحميم الاستاذ ناجي محفوظ ، المعين المستور ، الذي كان عونه الصامت سببا في سد بعض ما انفتح في هذا البحث من ثغرات .

اما بعد ، فان كان في هذا الكتاب من قصور فمرده الى قلة تجربة الكاتب لا الى تقصير منه ، وهذا اعتراف صريح هو في الوقت عينه حافز الى الاستزادة من العلم والبحث والتجربة والتزام بغذ السير الى الغاية المنشودة من التعلم والتفهم والتعمق ، وفوق كل ذي علم عليم .

بغداد ـ آب ١٩٦٣

كامل مصطفى الشيبي

تمهيـــد

يدور موضوع هذه الرسالة حول الصلة بين التصوف والتشيع • وليس من السهل تبين هذه الصلة بين العالمين ، لان امورا قد جدت على كل منهما منذ بدأ فى الاسلام حتى صار مستقلا مستغنيا عن الاخر • ومن الغريب انه قد ظهر فى الحياة الاسلامية ثلاثة اتجاهات ماتزال ثابتة ظاهرة للعيان ، فقد نجد ناحية من العالم الاسلامى تسودها مذاهب اهل السنة ، ونجد مكانا آخر تسوده مذاهب الشيعة ، ونلمح مناطق ثالثة يغلب عليها التصوف مختلطا باحدى هاتين المجموعتين من المذاهب • ومن الملاحظ ان المسلم يستطيع الاستغناء عن مذاهب اهل السنة اذا كان شيعيا ، وعن مذاهب الشيعة اذا كان سنيا ، ويستطيع كل من السنى والشيعى ان يحيا حياة اسلامية دون ان يتصل ذهنه بالتصوف ونظرياته وعملياته • غير ان المتصوف لايستطيع الاستغناء عن احد هذين الاتجاهين الاسلاميين • فلابد ان تتصل الطرق الصوفية ـ وهى فى حكم المذاهب الاسلامية من حيث تنظيمها لمجتمعها عقيدة واجتماعا ـ باتجاه من هذين الاتجاهين الاسلاميين • فمن المعروف ان النقشبندية مثلا من الطرق الصوفية السنية ، والبكتاشية من الطرق الشيعية ، فتدخل الاولى فى فرق اهل السنة والثانية فى فرق الشيعة ، وان كان المتصوفة انفسهم قد حاولوا أن يجعلوا من الصوفية فرقة اسلامية مستقلة عن كلا هذين الاتجاهين على نحو ما ينقل جولد تسيهر عن حافظ الشيرازى انه قال : « لاتلم الاثنتين والسبعين فرقة على منازعاتها لانها لاترى الحقيقة وانما تطرق باب الخرافة[1] ، فيجعل الفرقة الناجية هى فرقة المتصوفة التى هو من رجالها ويلقى بالاثنين والسبعين فى الهاوية • وعلى هذا فان المتصوفة ـ ممن يعتبرون انفسهم فرقة اسلامية ـ يستطيعون هم ايضا ان يحيوا حياة اسلامية دون ان تكون بهم حاجة الى النظر الشيعى او السنى • فكأن الاسلام قد انشق منه

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٥٣ •

ثلاثة فروع هى هذه الاتجاهات التى ذكرناها بالاضافة الى اتجاهى الخوارج والمعتزلة اللذين عفى عليهما الزمان الا فى مواطن محدودة جدا .

وقد بين كثير من الباحثين القدماء اتصال المتصوفة باتجاه اهل السنة والجماعة : فقد قال القشيرى فى رسالته التى وجهها الى المتصوفة سنة ٤٣٠/١٠٣٨-٩ هـ : « اعلموا - رحمكم الله - ان شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد امرهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل[٢] » . وروى القشيرى ايضا ان الجنيد المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠-١١ « كان فقيها على مذهب ابى ثور »[٣] ، وكان العباس بن سريج الشافعى يقول باخذه عن ابى القاسم الجنيد[٤] ، وكان الجنيد نفسه يقول : «مذهبنا هذا مقيد باصول الكتاب والسنة »[٥] ، والشيخ عبدالقادر الجيلى « كان من الحنابلة[٦] » ، وكان سهل بن عبدالله التسترى يفسر الآية : يا اهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم[٧] بقوله : « لاتجاوزوا دينكم بالبدع وتعلوا عن الحق - وهو الكتاب والسنة الاجماع - ميلا الى هوى انفسكم »[٨] ، وكان النصراباذى يقول : «أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الاهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية اعذار الخلق والمداومة على الاوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات»[٩] ، ويقول ابو بكر الطمستانى :

---

(٢) الرسالة القشيرية ص ٣ .
(٣) الرسالة القشيرية ص ٢١ .
(٤) وفيات الاعيان ١/٣٢٣ .
(٥) الرسالة القشيرية ص ٢٢ .
(٦) انظر مثلا شذرات الذهب ٤/٢٠٠ ، طبقات الشعرانى ١/١٠٩ الخ .
(٧) النساء ١٧١ .
(٨) تفسير التسترى ص ٢٤ .
(٩) الرسالة القشيرية ٣٩ .

« الطريق واضح ، والكتاب والسنة قائمان بين اظهرنا وفضل الصحابة معلوم لسبقهم الى الهجرة وصحبتهم • فمن صحب الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه الى الله فهو الصادق المصيب»[١٠] ، وهكذا كان شأن زملائهم من رجال التصوف الذين رأى معظمهم انه ثمرة اسلامية لها اللون السنى دون الشيعى • وقد نشأ فى الشيعة المتأخرين متصوفة واضحو الاتجاه كحيدر بن على الآملى المتوفى بعد سنة ١٣٩٢/٧٩٤ وأبن فهد الحلى المتوفى سنة ١٤٣٨/٨٤١ وأبناء صفى الدين الاردبيلى المتوفى سنة ١٣٣٤/٧٣٥ الذين مهدوا لقيام الدولة الصفوية سنة ١٤٩٩/٩٠٥ والمحسن الفيض المتوفى سنة ١٦٧٩/١٠٩٠ وغيرهم ، ولكن احدا لم يلتفت الى علاقة التصوف ـ فى بدئه ـ بالتشيع ، وهذه الرسالة تدرس هذا الموضوع • ولهذا يحسن بنا ان ندخل مبحث التشيع لنتعرف الى معناه ومثله ورجاله وتطوره ليكون ذلك اساسا نعرض عليه افكار التصوف وعندئذ يتبين لنا مدى العلاقة بين المشربين •

---

(١٠) الرسالة القشيرية ٣٨ •

الباب الاول

التشيع

الفصل الاول

مقدمات فى التشيع

التشيع لفظا واصطلاحا :

التشيع لفظ يتصل بلفظ : شيعة ، و «شيعة الرجل ـ بالكسر ـ : اتباعه وانصاره والفرقة على حدة ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار أسما خاصا لهم ، وجمعها اشياع وشيع»[1] . « والتشيع ـ فى اصل اللغة ـ هو الاتباع على وجه التدين والولاء للمتبوع على الاخلاص » . قال الله عز وجل : فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه»[2] ، ففرق بينهما فى الاسم بما اخبر به من فرق ما بينهما فى الولاية والعداوة وجعل موجب التشيع لاحدهما هو الولاء بصريح الذكر له فى الكلام . وقال الله تعالى: وان من شيعته لابراهيم [3] ، فقضى بالسمة بالاتباع منه لنوح عليه السلام على سبيل الولاء ، ومنه قولهم : فلان تكلم كذا وكذا فتشيع فلان لكلامه اى صدق فيه واتبعه فى معانيه »[4] . فالتشيع اذن يتضمن فى معناه الاتباع والنصرة من جماعة لرجل عموما . ولكن كلمة (شيعة) ـ مجردة ـ لاتعنى العموم وانما تنصرف الى دلالة خاصة هى الجماعة التى ناصرت عليا وشايعته والتفت حوله وجعلت منه اماما لها : تقتدى به وتجعل له مقاما يسمو على مقام معاصريه فيما عدا الرسول (ص) .

وذكر ابو الحسن الاشعرى أنهم « انما قيل لهم : الشيعة لانهم شيعوا

---

(١) القاموس المحيط ٣/٤٧ .
(٢) القصص ١٥ .
(٣) الصافات ٨٣ .
(٤) اوائل المقالات ٣٢ .

(شايعوا) عليا – رضوان الله عليه – ويقدمونه على سائر اصحاب رسول الله»[٥].

وقد ذكر ابن حزم ذلك فى وضوح ورأى أن « من وافق الشيعة فى أن عليا – رضى الله عنه – أفضل الناس بعد رسول الله فهو شيعى وان خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون . فان خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا »[٦] وابن حزم متعصب على الشيعة – كما هو معروف – ولكنه هنا يحدد ويجمع ويمنع ، فرأيه هنا شهادة باحث .

وهكذا يتبين المعنى الذى ينصرف اليه مدلول شيعة وتشيع . ويضيف الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣/١٠٢٢ (من اعاظم الشيعة الامامية) قيدا جديدا الى هذين اللفظين وذلك بربط التشيع بالاعتقاد بكون على اماما للمسلمين بوصية من الرسول وبارادة من الله « اما نصا كما يرى الامامية او وصفا كما يرى الجارودية من الزيدية»[٧] الذين قالوا بالنص من النبى على امامة على وصفا لاتسمية[٨] . وهكذا يخرج الشيخ المفيد ثلثى الزيدية من الشيعة ويدخل الثلث الذى يستغرق الجارودية فقط ، لان من رأى الزيدية السليمانية – وهم اتباع سليمان بن جرير الزيدى – ان «الامامة شورى متى ما عقدها اثنان من اخيار الامة لمن يصلح لها : فهو امام فى الحقيقة . وكان يقر بامامة ابى بكر وعمر ويجوز امامة المفضول ، وكان يقول : ان الصحابة تركوا الاصلح بتركهم بيعة على فانه كان اولى بها »[٧] وهذا هو اعتقاد البترية[٨] التى اخرجها تعريف الشيخ المفيد من التشيع مع انها فرقة زيدية. والحقيقة ان هذا الاعتقاد من فرقتى الزيدية انما هو تطور لعقائدهم عموما ولاشك ان الاصل يرجع الى تفضيلهم جميعا لعلى وجعلهم الحق له فى

(٥) مقالات الاسلاميين ص ٥ .
(٦) الفصل ٢/١١٣ .
(٧) التبصير فى الدين ١٦ – ١٧ .
(٨) الملل والنحل ١/٢٢٥ .

الخلافة . ولو اخذنا برأى الشيخ المفيد لكان علينا ان نخرج الكيسانية من الشيعة ايضا مع انهم اول من قال بفكرة المهدى وطبقها ، وتلك فكرة تعتبر من مبادىء الشيعة الرئيسة . ورأى الشيخ المفيد يمنع انطباق التشيع على الغلاة ايضا لانهم خرجوا عن حد الامامة الى الالوهية .

والرأى عندنا ان ذلك غير عملى ، لان التشيع – وهو اسباغ الحق الالهى او الاسلامى على امامة على – هو الذى يجمع فرق الشيعة التى انبعثت من اصل واحد ثم تشعبت بها الطرق وتقطعت ببعضها الاسباب ونحن فى هذه البداية نعنى بالتشيع فى جوهره وليس من شأن هذا الفصل التعرض لشعبه وفرقه فالاساس فى تحديد التشيع هو هذا الذى ذكرناه مما يستغرق كل الفرق الشيعية التى تؤمن بحق على فى الامامة وافضليته على زملائه من الصحابة .

ولعله ليس من الاطالة الاشارة الى ان الاسلام ادخل عبارات اصطلاحية من هذا القبيل ، فالانصار عبارة توازى معنى «الشيعة» بل تراد فها ولكنها تنصرف الى من نصروا النبى من اهل المدينة ، فهى خاصة بفريق يتصل سببه بالنبى ، وصارت عبارة «الشيعة» مختصة بمشايعى على وناصريه . ولعل الاصل فى دلالة عبارة «شيعة» صادر من هذه الدلالة ومحدد بهذا الحد . ثم تبدو عبارة «الصحابة» متصلة بهذه الدلالة ايضا على نحو آخر ، وكذلك عبارة «التابعين» و «المهاجرين» . وبهذا تتبين اصالة عبارة «الشيعة» وصدورها عن روح الاسلام وطابعه الجديد فى اطلاق الاوصاف على الجماعات التى يجمعها جامع معين ، وتلك روح عربية تنعكس من طابع العرب وطراز تفكيرهم . ولا ريب ان عبارة «الاسلام» نابعة من هذا المنبع ايضا وآية ذلك الآية التى ذكرت ابراهيم وأنه «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما»(٩) . وقد ورد فى فرعون قوله تعالى : «حتى اذا أدركه

(٩) آل عمران ٣ – ٦٧ .

الغرق ، قال : آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل ، وأنا من المسلمين» [١٠] . فالمسلمون هم المنقادون لله ، والانصار من نصروا النبى والمهاجرون من هجروا الاوطان لنصرة النبى والصحابة من صحبوه والتابعون من تبعوه ، والشيعة من شايعوا عليا وكل ذلك جار على أسلوب العرب وطابعهم .

متى ظهر التشيع :

اختلف الباحثون ـ قدماء ومحدثين ـ فى تحديد الوقت الذى ظهر فيه التشيع فى الاسلام . والزمن الذى حددوه لظهور هذه الفكرة يتفاوت بين بداية الاسلام وبعد مقتل على ، ويرى المرحومان الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ـ من ابرز مجتهدى الشيعة المتأخرين ـ والاستاذ أحمد أمين ان التشيع قد ظهر فى حياة النبى نفسه [١١] اما النوبختى ـ وهو من اعلام القرن الثالث الهجرى ومن اوائل مؤلفى الشيعة ـ فيرى ان ذلك قد حدث بعد وفاة الرسول (ص) [١٢] . وكذلك فعل ابن خلدون [١٣] . ثم يطالعنا رأى آخر لولها وزن يحدد فيه ظهور الشيعة فى عهد عثمان معاصرا ومرافقا لحركة الخوارج [١٤] . ويشارك ابن النديم فى هذه المعمعة برأى غريب وذلك انه قد جعل التشيع لقبا اطلقه على بنفسه على أصحابه عند خروجه بجيشه لحرب طلحة والزبير [١٥] . ثم يأتى الدكتور طه حين فيرى ان ذلك قد حدث بعد قتل على ويدلل على ذلك بان لفظ (شيعة) قد اطلق على العراقيين والشاميين معا فى صحيفة التحكيم [١٦] . ويختم الدكتور عبدالعزيز

---

(١٠) يونس ١٠ ـ ٩٠ .
(١١) اصل الشيعة واصولها ٨٧ .
ضحى الاسلام ٣/٢٠٩ .
(١٢) فرق الشيعة ٢ ـ ٣ .
(١٣) العبر ٣/١٧١ .
(١٤) الدولة العربية وسقوطها ٥٦ .
(١٥) الفهرست ٢٤٩ .
(١٦) على وبنوه ١٩٢ .

الدورى هذه الاراء بتفريقه بين التشيع باعتباره عقيدة روحية وباعتباره حزبا سياسيا فيؤيد رأى كاشف الغطاء فيما يتعلق بالتشيع الروحى وينحاز الى رأى طه حسين فيما يتعلق بالتشيع السياسى (١٧) . على اننا نرى ان التشيع السياسى ، وان كان ظهر فى الفترة التى افترضها الباحثون السابقون ، الا ان دلالة الاصطلاح «شيعة» على الكتلة التى ندرسها من المسلمين وانصرافه اليهم دون غيرهم قد بدأ بحركة التوابين التى ظهرت سنة ٦١ هـ وانتهت بالفشل سنة ٦٥ ، وكان قائد الحركة يلقب بشيخ الشيعة(١٨) دون ان تحدد الجهة التى تضاف اليها هذه الجماعة ، فلم يقل : شيعة على ولا شيعة الحسين وانما استقل هذا اللفظ لوضوح مدلوله ورسوخه فى الميدان السياسى .

والواقع ان علينا ان ننظر الى التشيع من هذه الزاوية بالذات لان الشيعة الاوائل كما سنرى عما قليل كانوا يرون صفات روحية يتميز بها على عن باقى المسلمين ولم يحاولوا مع ذلك ان يثوروا ثورة الشيعة حين عاضدوا عليا على معاوية واستماتوا فى نصرته . والرأى عندنا ان التشيع بمعناه الذى حددناه من نصرة على والتشيع له قد كان قديما قدم الاسلام وظهر على شكل دعوة سياسية فى اول لحظة بدا من المناسب ان يظهر للناس ، وقد كان الاربعة الاوائل من شيعة على وهم سلمان الفارسى وابو ذر وعمار بن ياسر والمقداد بن اسود يتصرفون فى حياة النبى باعتبارهم شيعة تصرفهم فى نهاية الامر حين انكشف تشيعهم واضحا ، وكان ذلك يعرف عنهم . وهذا ابن حجر يذكر فى الصواعق المحرقة ان النبى خاطب عليا بقوله : يا على انت واصحابك فى الجنة (١٩) . واخرج ابن عساكر قول النبى : « والذى نفسى

---

(١٧) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٧٢ .

(١٨) انساب الاشراف للبلاذرى ، القدس ١٩٣٦ ، ٢٠٦/٥ ، وعن حركة التوابين انظر ص ٢٠٤-٢١٣ ، وعن فشلها انظر ص ٢٠٨ .

(١٩) الصواعق المحرقة ، مصر ١٣٧٥ ، ص١٥٩ .

بيده ان هذا (يعنى عليا) وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة [٢٠] ثم يذكر اليعقوبى انه «تخلف عن بيعة ابى بكر قوم من المهاجرين ومالوا مع على بن ابى طالب : منهم العباس بن عبدالمطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسى وابو ذر الغفارى وعمار بن ياسر والبراء بن العازب وأبى بن كعب [٢١] ، وقد كان سلمان معروفا بكونه من شيعة على ويزكيه حديث مشهور يقول : سلمان منا اهل البيت» [٢٢] ، اما عمار بن ياسر فانه اشهر من ان تخفى شيعيته فى جميع ادوار حياته وهو القائل بعد انتخاب عثمان : « يا معشر قريش ، اما اذا صرفتم هذا الامر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما انا بآمن من ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من اهله ووضعتموه فى غير أهله » [٢٣] ، واما المقداد بن اسود فقد قال فى نفس المجلس : « ما رأيت مثل ما اوذى به اهل هذا البيت بعد نبيهم فقال له عبدالرحمن بن عوف : ما انت وذاك يا مقداد ؟ فقال : انى والله لاحبهم بحب رسول الله (ص) وان الحق معهم وفيهم ... اما وايم الله يا عبدالرحمن ، لو أجد على قريش انصارا لقتلتهم كقتالى أياهم مع رسول الله يوم بدر» [٢٤] ، اما ابو ذر فصلته بعلى ايام عثمان معروفة وهو المعارض العنيف لسياسة عثمان حتى لقد نفاه الى الشام مرة والى الربذة مرة اخرى بل انه هو الذى أثار الاساس العقيدى الذى حارب عمار بن ياسر والشيعة الاوائل من أجله معاوية حين قال فى صفين واليوم نضربكم على تأويله [٢٥] وذلك ان معاوية كان يرى ان الآية : والذين يكنزون الذهب والفضة

---

(٢٠) اصل الشيعة واصولها ٨٧ .
(٢١) تاريخ اليعقوبى ٢/١٠٣ .
(٢٢) صفة الصفوة ١/٢١٥ .
(٢٣) مروج الذهب ١/٤٣٩ ـ ٤٤٠ .
(٢٤) مروج الذهب ١/٤٤٠ .
(٢٥) مروج الذهب ٢/٢١ .

ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم »[٢٦] قد نزلت فى أهل الكتاب وأنه لاضير على المسلم من ان يكنز الذهب والفضة[٢٧] اما ابو ذر فكان يقول : «نزلت فينا وفيهم» وهذه اول اشارة الى بداية التأويل ومنها تتضح حقيقة غريبة وهى ان التأويل الشيعى لم يظهر الا معارضة لتأويل خاص يخدم مصلحة سياسية . والمهم ان ابا ذر قد نسب اليه قوله : « ... والعترة الهادية الذرية الطاهرة من محمد ، والصديق الاكبر على بن ابى طالب»[٢٨] . وهكذا كانت صلة هؤلاء بالتشيع سابقة على ظهوره السياسى الرسمى ، بل لقد توفى سلمان وابو ذر قيل تولى على للخلافة .

وتأتى علة تشيع هؤلاء من الناحية الاجتماعية والاقتصادية يعكسها الاسلام عليهم ويجذبهم الى اتخاذ جانب على لانه مكروه من قريش بحكم كونه ربيب النبى وبأنه قد تشرب مبادىء الاسلام وبأنه يمثل امتداد سيطرة روحية من جنس سيطرة النبى وسياسته ومحاربته لهم . اما سلمان فقد كان فارسيا فاسلم فكان يحس بانه غريب فى هذه البيئة الجديدة وبان مقامه لايكون الا مع النبى وأقرب الناس اليه وكان عمار يقول فى على : « فجعلك لاترزأ من الدنيا شيئا ولا ترزأ الدنيا منك شيئا ، ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعا ويرضون بك اماما »[٢٩] . اما ابو ذر فهو الزاهد الذى يريد ان يكون توزيع الثروة عادلا وان تتحقق العدالة الاجتماعية فى العالم الاسلامى . وكان على من صنفهم زهدا وعفة وقوة ايمان وشدة فى الحق ، فكان الحزب العلوى . ولكنه لم يكن حزبا بالمعنى المفهوم له مبادىء ومناهج وله فروع وانصار وسياسته وخطط ، بل كان حزبا همه ان يسير

---

(٢٦) التوبة ٣٤ .
(٢٧) صفة الصفوة ١/٢٢٣ .
(٢٨) طرائق الحقائق ٢/٩ .
(٢٩) حلية الاولياء ١/٧١ .

الاسلام سيره الطبيعي الذى اراده الله ورسوله ولهذا وجدناهم يعارضون مع معارضة على ويوافقون مع موافقته وكيف يكون الولاء اذا لم يكن كذلك . وقوم مثل هؤلاء ليست لهم عصبية ولا يطمعون فى جاه ولا سلطان ما الذى يحدوهم الى هذه المعارضة وهذه المغامرة الا ان يكون لهم رأى فى من ينصرونه وهذا هو الذى حدث بالفعل مما تقتضيه طبيعة الاشياء .

ونستطيع ان نزعم ـ اذا شئنا ـ ان عليا نفسه قد نفى قيام التشيع زمن النبى بل حتى فى خلافته ، ولكن ذلك لايعنى انه الحقيقة المطلقة وانما يظهر وجها منها ولكن الحقيقة تكمن فى هذا الذى اتضح وظهر . فعلى قد كتب الى اهل الانصار يقص ما جرى بينه وبين اهل صفين « وكان بدء امرنا اننا التقينا والقوم من أهل الشام والظاهر ان ربنا واحد وديننا واحد ودعوتنا فى الاسلام واحدة ولا نستزيدهم فى الايمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا ، الامر واحد الا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء »[٣٠] ، ولكن هذا القول ـ على صحته ـ لاينفى قيام التشيع قبل صفين وقبل عثمان وقبل عمر بل وقبل ابى بكر رضى الله عنهم ، وليس من الصدف ان نجد هؤلاء الاربعة : عليا وسلمان وابا ذر وعمارا على نسق واحد رجالا زاهدين مؤمنين اعمق الايمان متحلين بنفس الخلق متعلقين بذات المبادىء ، بل كانوا قوما يغلب عليهم الجانب الروحى ، فسلمان قد طاف بلاد الشرق يبحث عن النبى الجديد [٣١] وكان يعلم بظهوره وقد قاسى الامرين من الالم والعبودية فى سبيل هذا الهدف ، وكان يبحث عن علامات فى النبى تنبىء بنبوته[٣٢] ، وكان على يقول فيه : « من لكم بمثل لقمان الحكيم ، ذلك امرؤ منا والينا أهل البيت ، ادرك العلم الاول والعلم الاخر وقرأ الكتاب الاول والكتاب

---

(٣٠) نهج البلاغة ٣/١٢٥ـ١٢٦ .
(٣١) طبقات ابن سعد ٤/٥٣ـ٥٧ .
(٣٢) حلية الاولياء ١/١٩١ .

الاخر ، بحر لاينزف » [٣٣] وقد قال سلمان فى على : «فلو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل امير المؤمنين عليه السلام لقالت طائفة منكم : هو مجنون ، وقالت اخرى : اللهم اغفر لقاتل سلمان [٣٤] وكان يقول غير ذلك من الاقوال التى تبين الصلة الوثيقة بينه وبين على • اما ابو ذر فقد صلى قبل ان يلقى الرسول بثلاث سنين وكان يتوجه حيث وجهه الله » [٣٥] ، واما حذيفة بن اليمان فقد كان صاحب سر رسول الله [٣٦] وكان يقول : « كان الناس يسألون رسول الله (ص) عن الخير وكنت اسأله عن الشر» [٣٧] وكان على يقول له « لاتحدث الناس بما لايعرفون فيطغوا ويكفروا » [٣٨] وكان عمار اول من عذب فى الاسلام وقتلت امه وابوه معذبين رمى اخوه من فوق جدار فمات ، وكان فى صفين يقول : « والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل [٣٩] وقد رأينا فيما مضى انه كان يقاتل فى صفين وردد قوله : نحن ضربناكم على تنزيله ، واليوم نضربكم على تأويله» [٤٠] فبين انه انما قاتل فى صفين تحقيقا للهدف الذى قاتل من أجله يوم بدر ، وهكذا كان عمار مثلا رائعا للعقيدة الراسخة والايمان العميق • وسوف نرى ان هؤلاء الشيعة الاوائل هم انفسهم اوائل الزهاد فى الاسلام وان الزهد قد اخذ عنهم حتى بلغ مرحلة التصوف • ويكفى ان نشير هنا الى ان ابا ذر كان من اظهر الزهاد زمن النبى (ص) وبعده

---

(٣٣) صفة الصفوة ١/٢١٩ •
(٣٤) طرائق الحقائق ١/٢١١ •
(٣٥) صفة الصفوة ١/٢٣٨ •
(٣٦) قوت القلوب ١/٢٣ •
(٣٧) حلية الاولياء ١/٢٧٢ •
(٣٨) الطبرى ٣/٣٧٥ •
(٣٩) مروج الذهب ٢/٢١ •
(٤٠) مروج الذهب ٢/٢١ •

وان عمار بن ياسر كان من اهل الصفة [٤١] وكذلك سلمان [٤٢] وهكذا مضى اصحاب على فى حياتهم على الاخلاص لفكرة الاسلام الاولى التى نبتت فى ارواحهم وفاضت على السنتهم وخلقهم وطراز معيشتهم • ويتضح لنا فى ختام هذا الفصل ان التشيع فى معدنه هو التيار المعارض لصب الاسلام فى قوالب سياسية واجتماعية مصلحية تختلف عن قوالبه الاولى وان الشيعة الاوائل قد قاوموا سياسة المصالح واقتناص الفرص التى طبقها المجتمع الاسلامى بعد وفاة النبى مباشرة حتى بلغت فى حياتهم اسوأ ما رأوا أيام معاوية ، ويتضح بعد ذلك ان التشيع قد عاصر بدء الاسلام باعتباره جوهرا له وأنه ظهر كحركة سياسية بعد ان نازع معاوية على الامارة وتدبير شؤون المسلمين عليا الخليفة الشرعى • ويتبين بعد ذلك ان تبلور الحركة السياسية تحت اسم « الشيعة » كان بعد قتل الحسين مباشرة وان كانت الحركة سبقت الاصطلاح ، وبذلك يمكننا ان نلخص هذا الفصل فى كلمة بيانها ان التشيع كان تكتلا اسلاميا ظهرت نزعته ايام النبى وتبلور اتجاهه السياسى بعد قتل عثمان واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين •

---

(٤١) خطط الكوفة ٣٦ هامش المترجم •

(٤٢) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٤ •

قبل ان نعرض للكلام على الشيعة البارزين يحسن بنا ان نحـــددهم ونحاول ان نعلل تشيعهم وموالاتهم لعلى بن ابى طالب • وقد سبقنا الى ذلك باحثون من الشيعة المتاخرين منهم الحاج معصوم على والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء والسيد محسن الامين العاملى والشيخ محمد حســين الزين وغيرهم • ويخبرنا الحاج معصوم على ان منهم : « سلمان وابا ذر وعمـــارا والمقداد وغالب اصحاب الصفة »[٤٣] وذلك يوحى بأن فقراء المسلمين ومن لا مصلحة لهم فى الحكم والسلطان هم الذين والوا عليا ونصروه اتباعا لوصايا النبى الكثيرة التى يورد منها احمد امين عن البخارى ومسلم قول النبى (ص) فى حديث الغدير «من كنت مولاه فهذا على مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وحديث « لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبـه الله ورسوله ، فتطاول الناس فقال : ادعوا عليا » وحديث : اما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى» وكقول على بن ابى طالب نفسه : فوالذى برأ النسمة انه لعهـــد النبى الى انه لايحبنى الا مؤمن ولا يبغضنى الا منافق»[٤٤] وكقول ابى سعيد الخدرى : ماكنا نعرف المنافقـين على عهد رسول الله الا ببغض على بن ابى طالب»[٤٥] واذا عرفنا ان المنافقين هم سراة قريش وغيرهم من الارستقراطيين القدماء ادركنـــا لماذا التف الضعفاء والفقراء حول على بن ابى طالب وكانوا هم انفسهم الذين آمنـــوا بالاسلام والتفوا حول النبى ونصروه فى بدء الدعوة الاسلامية • وقد ورد عن النبى حديث يقرن فيه اسم على باسم ثلاثة من شيعته المقربين فقال (ص) : «تشتاق الجنة الى لقاء اربعة وهم على وعمار وسلمان والمقداد»[٤٦] ويرد حديث آخر نصه : ان الله أمرنى بحب اربعة وأخبرنى بأنه يحبهم ، قيل :

---

(٤٣) طرائق الحقائق ٢/٢ •
(٤٤) ضحى الاسلام ٢/١٢٢ •
(٤٥) الشيعة فى التاريخ ٢٦ •
(٤٦) حلية الاولياء ١/١٣٩ •

يا رسول الله عسى ان تسميهم لنا قال : على منهم ، ويقول ذلك ، وابو ذر والمقداد وسلمان[٤٧] ويتضح بذلك من هم اوائل من والوا عليا زمن النبى واستمروا على ذلك بعد وفاته . اما ابن خلدون فيسجل تشيع الزبير وعمار ابن ياسر والمقداد بن الاسود منذ قصة الشورى ويضيف الى ذلك عبارة « وغيرهم » مما يوحى باضافة عدد آخر الى هذا الفريق من المسلمين [٤٨] . ثم يورد صاحب طرائق الحقائق خبرا باسناده عن منتهى المقال يدخل فيه حذيفة بن اليمان مع من تقدم ويجعل معهم سهل بن حنيف وابا الهيثم مالك ابن التيهان وخالد بن سعيد وعبادة بن الصامت وابا أيوب الانصارى وغيرهم ويسميهم رواية عن الرضا : الامام الثامن : « الذين مضوا على منهاج رسول الله ولم يبدلوا ولم يغيروا بعد نبيهم» [٤٩] وقد اورد الشيخ كاشف الغطاء ثبتا باسماء الشيعة من الصحابة يتضمن السابقين ومعهم الزبير والفضل بن العباس وأخوه عبدالله وينص على انه قد جمع من كتب تراجم الصحابة كالاصابة وأسد الغابة والاستيعاب ونظائرها زهاء ثلاثمائة رجل من عظماء رجال النبى كلهم من شيعة على [٥٠] اما الشيخ محمد حسين الزين فيخبرنا الى ذلك ان جميع الهاشميين كانوا ايام النبى من الشيعة [٥١] . والمهم بعد هذا ان الشيعة انفسهم قد اختاروا اربعة من المقربين الى على ودعوهم بالنقباء اولا كما يسميهم على بن ابراهيم من اوائل مفسرى الشيعة[٥٢] ثم دعوا

---

(٤٧) طرائق الحقائق ٢/٧ .
(٤٨) العبر ٣/١٧١ .
(٤٩) طرائق الحقائق ٢/٧ .
(٥٠) اصل الشيعة واصولها ٦٨ .
(٥١) الشيعة فى التاريخ ٢٦ .
(٥٢) تفسير على بن ابراهيم ٢٧٨ .

يصف السيد محسن الفيض تفسير على بن ابراهيم بقوله : « المنسوب الى اهل البيت انظر كلمات مكنونة من علوم اهل الحكمة : مخطوط فى المتحف البريطانى بلندن برقم Add. 16832) وقد ذكره الشيخ الطوسى فى فهرسته (طبع كلكتا ١٨٥٣ ـ ٥٥ ، ص ٢٠٩) ولم يذكر ابن النديم التفسير مع كتب على بن ابراهيم وانما ادرج ثلاثة غيره منها اختيار القرآن (الفهرست لايبزج ١٨٧١ ، ٢/٢٢٢) فلعل ذلك لايعنى ان التفسير ليس له » .

بالاركان فى زمن متأخر وهؤلاء الاركان هم سلمان وابو ذر وعمار والمقداد وحذيفة يسقط منهم واحد ويوضع مكانه آخر ولكنهم يذكرون رباع • وبعد هذا العرض الطويل لأوائل الشيعة نخرج بان الصحابة الذين يتردد ذكرهم كثيرا بوصفهم اخلص الناس لعلى واصدقهم ولاء له ـ ما عدا الهاشميين واولاد على نفسه ـ انما هم : سلمان الفارسى وابو ذر الغفارى وعمار بن ياسر والمقداد بن الاسود وحذيفة بن اليمان وكل اولئك من المستضعفين والعبيد والغرباء الذين والوا عليا لا لطمع فى مادة او جاه وانما اتباعا لوصايا النبى وتوسما الخير والايمان فى على وسنرى مصداق ذلك كله فى الفصل الاتى •

سلمان الفارسى

اختلف الباحثون فى اسم سلمان الاصلى وفى موطنه وفى عمره وفى كل شىء يتصل به حتى ان كليمان هيوار وهوروفتس انكرا تاريخيته(٥٣) ولكن ما سينيون يرد ذلك ويثبت وجوده بأن اسمه « يدخل فى الاطار التاريخى للمشاجرات بين الصحابة» (٥٤) ، ومهما يكن من شىء فقد كان سلمان من ابناء الدهاقين(٥٥) وكان سائحا مسيحيا بعد ان ترك المزدكية وجعل يبحث عن النبى الجديد الذى اخبره الرهبان الذين تلقى عنهم انه سيظهر فى ارض تيماء وتفصيل ذلك وارد فى طبقات ابن سعد(٥٦) • فنستطيع بادىء ذى بدء ان نعتبره سلفا للزهاد السائحين من امثال ابراهيم بن ادهم • وقد عانى سلمان الفارسى الاصفهانى الاصل العبودية فى سبيل اسلامه وكان اسمه روزبة بن خشنود اومابه (٥٧) ثم صار من موالى النبى قبل ان يعتق (٥٨) • والمهم فى سلمان انه «كان يدرى ان الرسول سيظهر فكان

(٥٣) شخصيات قلقة فى الاسلام ٨ •
(٥٤) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٠ •
(٥٥) طرائق الحقائق ٢/٢ •
(٥٦) طبقات ابن سعد ٤/٥٣ـ٥٧ •
(٥٧) طرائق ٢/٢ •
(٥٨) طرائق الحقائق ٢/٢ •

يبحث عنه ويسأل حتى رأى النبى [٥٩] ورأى فيه علامات النبوة ومنها خاتم النبوة وهو قطعة لحم ناتئة على غضروف الكتف الايمن [٦٠] وستكون هذه العلامة نفسها دليلا على مهدية محمد بن عبدالله بن الحسن الثائر الزيدى فى المدينة سنة ١٤٥/٧٦٢ • وقد كان من اهمية سلمان فى الاسلام انه عنى بالآية : لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين [٦١] التى صرفها المؤرخون الى بحيرا سرجيوس الذى ايد ماسينيون انه شخصية مشكوك فيها • وهذا كله يعنى ان سلمان قد اتجه الى الاسلام بكليته وانه كان يبحث عن حقيقة ينشدها فوجدها فى محمد والاسلام فاعتنق الدعوة الجديدة وخدمها من بدء دخوله فيها باشارته بحفر الخندق • ورجل مثل سلمان فى جهده الذى بذله عقليا وروحيا وجسديا وماديا بتركه وطنه وبسياحته الطويلة فى فارس ودمشق والموصل ونصيبين وعمورية ثم رحلته الى مكة [٦٢] وبتركه الراحة والرفاهية عند اسرته فى اصفهان لابد ان يكون مسلما مخلص الايمان لاتزعزعه الانواء ولا تؤثر فى عقيدته مؤثرات مادية • ويبدو ان الصلة بينه وبين على كانت قوية فاننا نجده يقود بغلة النبى الشهباء التى كانت تركبها فاطمة فى زفافها الى على [٦٣] وقد كان سلمان من الاربعة الذين تشتاق اليهم الجنة وعلى اولهم كما رأينا ، وروى ابن الجوزى وابن سعد ان عليا قال فيه : ذلك امرؤ منا والينا اهل البيت ، ادرك العلم الاول والعلم الاخر وقرأ الكتاب الاول والكتاب الاخر» [٦٤] وقد مر بنا ما قاله سلمان فى على الى حد انه خشى ان يفصح عن حقيقة مركزه خوف تعرضه للقتل والتكفير [٦٥] ويبين حدود علم سلمان السرى خبر يرد عن على بن الحسين زين العابدين

---

(٥٩) حلية الاولياء ١/١٩١ •
(٦٠) شخصيات قلقة ١٠ •
(٦١) طرائق الحقائق ٢/٢ •
(٦٢) طبقات ابن سعد ٤/٥٧ •
(٦٣) من لايحضره الفقيه الجزء الثالث •
(٦٤) صفة الصفوة ١/٢٢٠ ابن سعد ٤/٨١ •
(٦٥) طرائق الحقائق ١/٢١١ •

نصه : « لو علم ابو ذر مافى قلب سلمان لقتله وقد آخى رسول الله بينهما ، فما ظنكم بسائر الخلق» (٦٦) وهذا الخبر وسابقه تكمل صلة سلمان بعلى وتحدد معنى الامامة والوصية والعلم اللدنى الذى وهبه على تعلما من النبى ، والمعرفة التى توجب قتل مسلم هى الاشراك بالله ، فيفهم من هذه الاخبار ان المقصود بفضائل امير المؤمنين على صفاته الالهية والعلوم السرية التى يعرفها ، والخبر الاخير يمثل طبيعة المعرفة التى يشتمل عليها سلمان الذى خبر الاديان وتنقل فيها ولعله يشير ايضا الى الاصل الذى ربما اعتمد عليه الاسماعيليون فى مذهبهم المستند الى طبقات المعرفة التى تدق بزيادة ايمان المريد بالمذهب ، ولعله المصدر الذى قبس منه الصوفية مراحل السلوك . وهذا الحديث على كل حال يبين الى اى مدى كان سلمان مطلعا على العلوم السرية وغيبياتها وطبيعة النبوة ، ويستتبع ذلك الوصية التى هى من خصائص الاديان السابقة . ولهذا فانه ليس من العبث ان يذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٣٦ : «وفيها مات سلمان فى قول بعضهم ، وكان عمره ٢٥٠ سنة ـ هذا اقل ما قيل فيه ـ وقيل ٣٥٠ سنة ، وكان قد ادرك بعض اصحاب المسيح (ع) ، لان ذلك يربطه بالنبوءة التى تؤثر عن المسيح بظهور نبى بعده اسمه احمد كما يرد ذلك فى القرآن . وقد كان سلمان معاصرا لاصحاب المسيح فيكون سلمان الواسطة بين المسيحية والاسلام والمبشر الخبير بظهور النبى الجديد . ليس هذا فقط بل ان عمر سلمان الطويل يجعله موصولا بالنبوءات السابقة التى يعتمد عليها الشيعة فى الوصية ومنها الحديث : «انت منى بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبى بعدى» (٦٧) وبهذا تتم سلسلة السند الذى يثبت الوصية والامامة لعلى فيكون وارث علم النبى كما ورث اوصياء الانبياء الاسرائيليين علومهم . وقد التفت ماسينيون الى هذه المحاولة ايضا ولكنه لم يلتفت الى صلتها بالوصية . ومع ذلك فقد لاحظ انه قد كان سلمان داعية شيعيا قديما فى

---

(٦٦) طرائق الحقائق ١/٢٣٢ .
(٦٧) مروج الذهب ٢/٤٩ .

الكوفة و «عقد حلفا مع بنى عبد القيس ... واستطاع ان يضمهم هم وحلفاءهم من الحمراء (الجنود الفرس السابقين) الى آرائه الخاصة باحقية على» (٦٨) ويضيف ماسينيون الى ذلك ان تلميذا لسلمان هو الذى قام بهذا العمل .

واذا اتضح لنا مقام سلمان من بداية التشيع واسباغه الولاية على على واعتبارها مصداقا لارادة الله ونبؤات الرسل ، فان من الواضح من سيرته ان يكون زاهدا قديما بل سائحا مسيحيا سابقا قطع المسافات الطويلة بحثا عن الحقيقة . واذن نستطيع ان نربط الزهد بالتشيع منذ نشأته الاولى ونجعل المقدمات التى ذكرناها من زهد سلمان شيئا روحيا يتصل بالنفس البشرية التى تطمح الى السمو الروحى لا زهدا قائما على الاحداث السياسية والثورات الاجتماعية والاسباب المادية . فيكون سلمان بدء للزهد الذى اوصل الى التصوف أو ابلغ الى الغاية التى يطمح اليها المتصوفة ، بل نستطيع ان نجعل من عقيدة سلمان السرية التى كان يخشى البوح بها من فضائل على بن ابى طالب خوف القتل اعتقادا قائما على الحلول الذى قال به غلاة الشيعة بعدئذ ثم دخل التصوف فى شخص الحلاج وابى يزيد البسطامى . وليس عجيبا اذن ان يركب سلمان الزاهد حمارا (٦٩) كما فعل السيد المسيح الذى اخذ عنه تعاليمه من الرهبان قبل اسلامه ومن حياته الاسطورية التى امتدت الى معاصرته لاصحاب المسيح الاوائل . وكان سلمان من اهل الصفة « وله المقام الثانى فى ثبت الاربعة والثلاثين الذين ذكرهم وجمعهم السلمى مؤرخ الصوفية ، فهو من الفقراء الذين انقطعوا للعبادة فى مسجد رسول الله وكانوا اسلاف المتصوفة » (٧٠) وكان كلام سلمان مزيجا غريبا عجيبا من الفاظ القرآن ومعانيه مختلطين بالافكار الجديدة ذوات الاسرار والزهد الذى طلع بهما على الاسلام اخذا عن الزهد الرهبانى ، فقد افتخرت قريش عند

---

(٦٨) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٩ .
(٦٩) حلية الاولياء ١/١٩٥ .
(٧٠) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٤ .

سلمان فقال «لكننى خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة ، ثم يؤتى بى الى الميزان : فان ثقلت فانا كريم وان خففت فانا لئيم »[٧١] وهذا معنى عبر عنه على بعبارته المشهورة : ما لابن آدم والفخر ، واوله نطفة وآخره جيفة[٧٢] . ويروى عن سلمان تصرف سيعتاده زهاد البصرة فى أواخر القرن الثانى وذلك انه لما نزلت آية : وان جهنم لموعدهم اجمعين[٧٣] ، صاح صيحة ووضع يده على رأسه ثم خرج هاربا ثلاثة ايام»[٧٤] وقد فسر السراج هذه الصيحة بانها مصداق قول الرسول(ص) : لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولما تلذذتم بالنساء ولا تقاررتم على فرشكم ، ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى ...»[٧٥] ، فقد كان سلمان ـ اذا صح ما تقدم ـ مطلعا على العلوم والاسرار التى لايعرفها الا الانبياء . وقد استغل مؤلفو كتب الصوفية مركز سلمان فى الزهد وانقسموا فريقين : ففريق تحاشى ذكره مع كونه احد مشاهير الزهاد من الصحابة لصلته بالتشيع ولخوفهم من ان ينم ذكرهم له ـ بجعله من مؤسسى الزهد ـ على صلتهم هم بالتشيع ، وكان القرن الثالث والرابع اللذان ظهر فى اولهما التصوف ونضج فى ثانيهما يتسمان باضطهاد الشيعة ومن يتصل بهم ، وفريق حاولوا ان يصلوا سلمان بالتصوف باخذهم عنه من طريق رجال نسبهم على الاقل من غير الشيعة . يقول ماسينيون « فنجد اسناد سلمان لدى بعض الفرق الدينية السنية القادرية والبكتاشية والنقشبندية ، ليس الا ظاهرة عرضية ، فهى ترجع الى ما قبل القرن السادس ، وقد نشأت عن استعارة ـ يتفاوت التصريح بوجودها ـ من الاسناد النسبى الصوفى للسهروردية الذين زعم رأسهم ابن عمويه السهروردى المتوفى حوالى سنة ٥٥٠/١١٥٥ تلميذ الزنجانى

---

(٧١) صفة الصفوة ١/٢١٩ .
(٧٢) الكواكب الدرية ١/٠٤ .
(٧٣) الحجر ٤٣ .
(٧٤) اللمع ١٣٤ .
(٧٥) اللمع ٣٨٧ .

انه بكرى ، وذلك انه السبط السابع لعبدالرحمن (المتوفى سنة ١٢٦/٧٤٤) بن القاسم بن محمد بن ابى بكر ، وابوه القاسم (المتوفى سنة ١٠٨/٧٢٦) يقال : انه كان تلميذا لسلمان وهذا كان تلميذا لابى بكر (هكذا)»[٧٦] ، ويضيف ماسينيون الى ذلك قوله : « فاذا عرفنا الى اى مدى شارك ابوه محمد - المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧ - فى قتل عثمان لم نفهم لماذا تعلقت هذه الطريقة السنية بمثل هذا الاسناد الذى لم ينسب اليها الا نادرا»[٧٦] والحق ان ذلك ليس عجيبا وان السبب فى جعل القاسم بن محمد بن ابى بكر تلميذا لسلمان وجعل سلمان تلميذا لابى بكر واضح فى محاولة أخذ التصوف من طريق غير شيعى لان كل السلاسل الصوفية تتصل بالامام على ، ووصل سلسلة من السلاسل بابى بكر عن طريق القاسم وسلمان يخفف من حدة الصلة الشيعية بالسند الصوفى مع ان القاسم نفسه «راوية معترف به من السنة والشيعة» : اى هو شيعى الميل • ويحسن أن نلتفت الى ان لنسب السهروردى البكرى مدخلا الى ذلك ، ولعله ملاك الامر كله •

ثم ان البكتاشية الذين ذكرهم ماسينيون على انهم من اهل السنة انما هم امامية اثنا عشرية ليس فى صحة ذلك شك مطلقا ، ووصل سلسلتهم بابى بكر عن طريق سلمان الذى عرفت صلته بعلى بالاضافة الى طرق اخرى علوية شيعية تسبغ على طريقتهم شيئا من التسامح والبعد عن التعصب •

وعقدة سلمان - من حيث صلته بمؤلفى كتب التصوف الذين حاولوا جهد الامكان ان يخفوا الاثر الشيعى فيه - انه قد قيل فيه : سلمان منا أهل البيت[٧٧] ، وانه شيعى لامراء فى شيعيته لقول على فيه «سلمان منا والينا أهل البيت»[٧٨] ، فاولوا هذا الحديث بحديث اخر رفعوه عن انس الى النبى (صلعم) قيل : « يا نبى الله ، من آل محمد ؟ قال : كل تقى»[٧٩] وارادوا

---

(٧٦) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٠ •
(٧٧) الفتوحات المكية ١٦٧/٢ وطبقات ابن سعد ٥٩/٤ •
(٧٨) صفة الصفوة ٢١٩/١ •
(٧٩) الرسالة القشيرية ٦٨ •

بذلك ان يخففوا من أثر ذلك الحديث الذى اضاف الى سلمان كونه من أهل البيت ولاء واخلاصا وعلما باسرار الدين والوصية و العلم اللدنى . وكان مقصدهم بالاضافة الى ذلك تفتيت الاثر الشيعى فى سلمان وكونه واحدا من أهل البيت فجعلوا الامة الاسلامية كلها - وتقاها امر بديهى - اهل البيت بكل ما كان فى الامة من خصومة ومناقضة فى حياة الرسول وبعد موته . ولكن ابا نعيم يصحح هذه النتائج ويصل الزهاد والمتصوفة بالشيعة بل ويجعلهم من خصوص الشيعة ، ويثبت بذلك الصلة الوثيقة بين الزهد والتشيع ، فيورد عن حذيفة عن النبى (ص) انه قال : «من سره ان يحيا حياتى ويعوت ميتتى ويتمسك بالقصبة الياقوتة التى خلقها الله بيده ثم قال لها كونى فكانت ، فليتول على بن ابى طالب »[٨٠] . ويبين ابو نعيم من هم اولئك الشيعة فيقول : «حدثنا احمد بن على عن ابيه عن جده عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : شيعة على الحلماء العلماء الذبل الشفاه الاخيار الذين يعرفون بالرهبانية من اثر العبادة ، وعن على بن الحسين : شيعتنا الذبل الشفاه والامام منا من دعا الى طاعة ربه»[٨١] ثم يعقب على ذلك بقوله : « فالمحققون بموالاة العترة الطيبة هم الذبل الشفاه المفترشو الجباه ، الاذلاء فى نفوسهم العتاة ، المفارقون لمؤثرى الدنيا من الطغاة . هم الذين خلعوا الراحات و زهدوا فى لذيذ الشهوات وانواع الاطعمة والوان الاشربة فدرجوا على منهاج المرسلين والاولياء من الصديقين ورفضوا الزائل الفانى ورغبوا فى الزائد الباقى فى جوار المنعم المفضال ومولى الايادى والنوال»[٨٢] وهكذا يتبين الاثر الشيعى فى الاتجاه الذى تركه سلمان منذ بدء الاسلام .

ولكن دور سلمان فى الاسلام لم ينته بكونه من الشيعة الاولين على اساس المعرفة والعلوم السرية ولا بكونه من اوائل الزهاد الذين شقوا

---

(٨٠) حلية الاولياء ١/٨٦ .
(٨١) حلية الاولياء ١/١١٦ .
(٨٢) حلية الاولياء ١/١١٦ .

للتصوف طريقه المرسوم بل جعل – بسيرته تلك وبحياته الحافلة بالتجربة والثقافة والعلم السرى – زعيم فرقة دينية غالية هى السينية على اعتبار انه « الحلقة المفقودة الضرورية بين محمد وعلى »[٨٣] و « هذا الدور العالى : دور السين اى دور النقيب الموحى اليه ، هو الذى ادعاه ابو الخطاب وكان لقبه فى البدء : مولى بنى هاشم »[٨٤] فى سنة ١٣٨ بالكوفة قائلا : ان الامام جعفرا (الصادق) اعترف له به متخذا صيغة اخرى مدشنة له – غنوصية – يزعم ان محمدا استخدمها متحدثا عن سلمان[٨٥] .

وينقل الحاج معصوم على عن مجمع البيان ان « الغلاة هم الذين يغالون فى على ويجعلونه ربا . والتخميس – عندهم – هو ان : سلمان الفارسى والمقداد وابا ذر وعمارا وعمرو بن امية الضمرى هم الموكلون بمصالح العالم عن على ، وهو رب»[٨٦] . وكذلك يورد ماسينيون[٨٧] .

ولسلمان شخصية شعبية اخرى لا علاقة لها بالعقائد – وان كان اصلها اسماعيليا – وهى انه قد اختير حاميا للنقابات فى بغداد « تجتمع عند قبره وتقيم الولائم والحفلات فى النصف من شعبان كل سنة»[٨٨] وانتهت حياة سلمان اسطورية كما بدأت ، فقد روى الراووون انه « لما حضر سلمان الموت دعانى (المتكلم زوجه بقيرة) وهو فى علية لها اربعة ابواب فقال : افتحى هذه الابواب يا بقيرة ، فان لى اليوم زوارا لا ادرى من اى هذه الابواب يدخلون على . ثم دعا بمسك له ثم قال : اديفية فى تنور ففعلت . ثم قال : انضحيه حول فراشى ثم انزلى فامكثى ، فسوف تتطلعين فترينني على فراشى .

---

(٨٣) شخصيات قلقة ٣٧ .
(٨٤) ميزان الاعتدال للذهبى ٣/٦٤ .
(٨٥) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٩ .
(٨٦) طرائق الحقائق ٢/١٠٩ .
(٨٧) شخصيات قلقة ٤٨ .
(٨٨) شخصيات قلقة .

فاطلعت فاذا هو قد اخذ روحه فكأنه نائم على فراشه» [٨٩] .

ويضيف الحاج معصوم على : « قال السيد الشهيد القاضى نور الله فى المجلد الثالث من مجالس المؤمنين : ... ويروى ان امير المؤمنين رحل من المدينة الى المدائن ذات ليلة وغسل سلمان ورجع الى المدينة فى نفس الليلة ... » [٩٠] .

ابو ذر الغفارى

أحد الاركان ، يتميز بطابع خاص ولكنه من طراز سلمان فى السبق الى التوحيد قبل ظهور الاسلام [٩١] وقد جهر باسلامه فى مكة وتعرض للضرب فيها ولم يشفع له الا كونه من غفار محطة القوافل القاصدة الى الشام [٩٢] فرسخت هذه الحادثة فى ذهنه وطبعت زهده بطابعها فرأيناه يدور حول محاربة خزن الاموال والاكثار منها . وكان ابو ذر رابع المسلمين وذلك مدعاة للفخر حقا وبخاصة انه بدوى ، والبداوة والايمان العميق لايتفقان . وقد مر بنا تحقيق شيعية ابى ذر ونضيف الان انه قد كان له مقام رفيع فى التشيع الاول الى حد انه قد روى عنه ثلاثة من الائمة : على بن ابى طالب [٩٣] والحسين بن على [٩٤] وجعفر الصادق ، وذلك شرف لم يحظ به أحد من اصحاب رسول الله . وكان الى ذلك يقول : « ان بنى أمية تهددنى بالفقر والقتل ، ولبطن الارض احب الى من ظهرها ، وللفقر احب الى من الغنى» [٩٥] وكان عثمان يقول له - بعد ان بدت معارضته له - : «كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح [٩٦] فاجابه ابو ذر : « لا حاجة لى فى دنياكم» [٩٦] وتلك

(٨٩) حلية الاولياء ابن سعد ٤/٦٢ .
(٩٠) طرائف الحقائق ٢/٥ .
(٩١) طبقات ابن سعد ٤/١٦٣ .
(٩٢) حلية الاولياء ١/١٥٧ .
(٩٣) طرائف الحقائق ٢/٩ .
(٩٤) روضات الجنات ٢٢٩ .
(٩٥) حلية الاولياء ١/١٦٢ .
(٩٦) صفة الصفوة ١/٢٢٣ .

سمة اخرى للزهد الذى عكسه ابو ذر المسلم القديم الذى دخل الاسلام وهو يعلم انه دين الضعفاء ومنقذ المستضعفين من سطوة التجار القرشيين فعارض عثمان فى المدينة لانه جعل يتصرف فى اموال المسلمين تصرفا قصد به خلق طبقة من الاغنياء الارستقراطيين صارت فيما بعد السبب فى الثورة على عثمان • وجرت الثورة على عثمان الى عودة القرشيين الذين تغلب عليهم محمد بانصاره من الضعفاء والعبيد السابقين والمستضعفين ، الى سابق مجدهم بحيث صار خصم الثائرين على عثمان ، وهم جل الامة الاسلامية ، معاوية بن ابى سفيان ولى عهد رئيس مكة الذى كانت هزيمته فى بدر بداية لمولد الاسلام القوى • وكان من تشيع ابى ذر وقربه من على انه خرج لوداعه «يصحبه ولداه الحسن والحسين وأخوه عقيل وابن اخيه عبد الله بن جعفر»(٩٧) حين نفاه عثمان الى الربذة – قرية قرب المدينة – وأمر الا يودعه احد(٩٧) • وكانت سياسة ابى ذر من جنس سياسة على تكمن فى المعارضة الايجابية دون خروج على السلطان ودون نكول عن البيعة التى فى العنق ، فقد كان ابو ذر يعارض عثمان معارضة شديدة لتصرفه فى اموال المسلمين وكأنها امواله(٩٨) ، ولكنه لم يحرك يده وانما كان لسانه هو سلاحه الوحيد فكان يقول – للتدليل على ذلك –: « لو أمّر على حبشى لسمعت وأطعت »(٩٩) • وقال للذين طلبوا اليه ان يكون قائدهم فى الثورة : « لو صلبنى عثمان على اطول جذع من جذوع النخل لما غضبت»(١٠٠) ، وتلك سياسة على بعينها حين بايع لابى بكر وعمر ثم عثمان وكان لهم ناصحا ومستشارا مرشدا وكان ايام الفتنة يقول : « لو امرنى عثمان ان اخرج من بينى لخرجت» (١٠١) • وكان ابو ذر – الى ذلك – مع على حين امتنع عن بيعة ابى بكر فى بداية الصراع على الخلافة (١٠٢) ،

---

(٩٧) اهل البيت لعبدالحميد جودة السحار ٦٨ •
(٩٨) الفتنة الكبرى ١٩٣ •
(٩٩) الفتنة الكبرى ١٩٣ •
(١٠٠) الفتنة الكبرى ٦٤ •
(١٠١) الفتنة الكبرى ٦٤ •
(١٠٢) تاريخ اليعقوبى ١٠٢/٢

وهكذا يتبين لنا تشيع ابى ذر .

اما مثله فقد نبعت من جوهر الاسلام الذى فهمه ابو ذر على انه محق لارستقراطيى قريش الذين رجعوا عن ضربه وكفوا عن ايذائه - يوم اسلم- لمجرد كونه من غفار التى تتحكم فى طريق القوافل الى الشام ، فادرك منذ ذلك الوقت ان المال هو المبكى عليه وان المال هو الهدف وهو المصدر والمورد وان معارضتهم لدعوة محمد انما كانت لخوفهم من زوال هذا المال ، ومن هنا برز ابو ذر بوصفه اول اشتراكى فى الاسلام . والواقع انه كان حارسا للاسلام ومراقبا لتطبيق مثله ومبادئه هو وزملاؤه من المسلمين الاولين . ويبدأ زهد ابى ذر - وكان منصبا فى الدرجة الاولى على ايثار الفقر والنهى عن كنز المال - يوم نفاه عثمان الى الشام ، فقد ادهشه تفسير معاوية للآية : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم»(١٠٣) بانها : « نزلت فى اهل الكتاب» (١٠٤) وكان ابو ذر يرى انها « نزلت فينا وفيهم»(١٠٥) وبذلك اخذ ابو ذر على معاوية تأويل القرآن على هواه فشعر ابو ذر : حارس المثل الاسلامية الاسلامية ان واجبه يدعوه الى ايضاح الحقيقة للناس ففعل وحقت عليه كلمة النفى والتشريد وقد تقبلهما ابو ذر راضيا . ويدعونا اعتراض ابى ذر وثورته على تأويل معاوية للقرآن الى التذكير بان التأويل الشيعى لم يكن من بدايته كذلك وانما كان رد فعل لما صدر من معاوية واعوانه - وبخاصة بعد قتل عثمان - فقابله الشيعة بتأويل حاولوا ان يضعوا به الامور فى نصابها ولكن الظروف حكمت بان

---

(١٠٣) التوبة : ٣٤ .

(١٠٤) حلية الاولياء ٢١٢/١ . كان معاوية - كما يبدو من روايات اليعقوبى - مغرما بالذهب والفضة ، ذلك انه روى ان زيادا كتب الى الحكم بن عمرو الغفارى عامله على خراسان ابان فتح كورها « ان أمير المؤمنين معاوية كتب الى ان اصطفى له البيضاء والصفراء ، فلا تقسمن شيئا من الذهب والفضة ، فلم يلتفت الحكم الى كتابة ...» (البلدان لليعقوبى ص ٢٩٦-٧) وهذا هو الاصل فى هذا الجدال الذى يبدو لاول وهلة شكليا ولكن الحوادث والتحليل يبديان جذوره وأصوله .

(١٠٥) طبقات ابن سعد ١٦٦/٤ ، قوت القلوب ١١٦/١ .

تتقطع به السبل حين استولى الغلاة على اذهان العامة وساروا بالتأويل المتحكم الى نهاية الشوط • ويكفينا دلالة على صحة ماسقناه ان عمار بن ياسر علل حربه لمعاوية وانصاره بردهم عن التأويل كما حارب أباه لانكاره التنزيل[١٠٦] •

لقد كان ابو ذر زاهدا يصدر عن المثل الاسلامية التى طبقها ابو بكر وعمر حين وليا أمر المسلمين فقيرين بعد غنى حتى ان عمر(ع) خطب وهو خليفة « وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة»[١٠٧] وتبناها ابو ذر مصداقا لقول على : « ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا فى مثل ادنى الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره» [١٠٨] اما عثمان فقد كان « عند خازنه ـ يوم قتل ـ ثلاثون الف الف درهم وخمسمائة الف درهم وخمسون ومائة الف دينار فانتهبت وذهبت ...»[١٠٩] ومن هنا قال ابو ذر « لقد اصبحت وان الفقر احب الى من الغنى ، والسقم احب الى من الصحة ، والموت أحب الى من الحياة» [١١٠] وكان يقول «جزى الله الدنيا عنى مذمة بعد رغيفين من الشعير اتغدى باحدهما واتعشى بالاخر ، وبعد شملتى الصوف اتزر باحداهما وارتدى بالاخرى» [١١١] وهكذا رأينا اقتران الزهد العملى منذ القديم بلبس الصوف واعتباره متمما لمظهر الفقر الذى كان السلاح الماضى الذى ثبت به الاسلام نفسه وتغلب على دسائس القرشيين الارستقراطيين •

ومن الامثلة على زهد ابى ذر مايرويه عنه سفيان الثورى : «قام ابو ذر عند الكعبة فقال : يا ايها الناس انا جندب الغفارى ، هلم الى الاخ الناصح الشفيق ، فاكتنفه الناس فقال : ارأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا ، اليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ؟ قالوا : بلى ، قال : فسفر طريق القيامة ابعد ما تريدون ، فخذوا منه ما يصلحكم • قالوا : وما يصلحنا ؟ قال : حجوا حجة لعظائم

---

(١٠٦) مروج الذهب ٢/ ٢١ •
(١٠٧) حلية الاولياء ١/ ٥١ •
(١٠٨) قوت القلوب ٢/ ٨٠ ، احياء العلوم ٤/ ٢٢٢ •
(١٠٩) ابن سعد ٣/ ٥٣ •
(١١٠) البيان والتبيين ٣/ ١٣٧ •
(١١١) اصول الكافى ١٨٦ •

الامور ، صوموا يوما شديدا حره لطول النشور ، صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور ... ثم قال : يا ايها الناس قد قتلكم حرص لاتدركونه ابدا» (١١٢) وابو ذر يصدر – فى تشبيهه الموت بالسفر – عن قول على يا ايها الناس كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الذين تشيعون من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون ، نبوئهم اجداثهم ونأكل تراثهم كأننا مخلدون بعدهم» (١١٣) وقال ابو ذر « فى المال ثلاثة شركاء : القدر لايستأمرك ان يذهب بخيرها وشرها من هلاك او موت ، والوارث ينتظر ان تضع رأسك ثم يستاقها وانت ذميم ، وانت الثالث . فان استطعت الا تكون اعجز الثلاثة فلا تكوننه ، ان الله يقول : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون (١١٤) ، وان هذا الحمل مما كنت احب من مالى فاحببت ان اقدمه لنفسى (١١٥) وهكذا يتكرر ورود المال وحبه فى كلام ابى ذر .

وقد اغرت بساطة ابى ذر وزهده وصراحته واخلاصه اصحاب كتب التصوف بان يجعلوه رأسا من رؤوس هذا المشرب وان يضعوا على لسانه مالم يقله وان يصفوه بما لم يتصف به كرواية السراج عنه قوله : « ان قيامى بالحق لله تعالى لم يترك لى صديقا ، وان خوفى من يوم الحساب ماترك على بدنى لحما ، وان يقينى بثواب الله ماترك فى بيتى شيئا » (١١٦) فهذا الخبر يجعل من ابى ذر رجلا من اصحاب المواجيد وكذلك الخبر الذى يورده الكشى – كما ينقل عنه الحاج معصوم على – عن ابى ذر انه « بكى من خشية الله حتى اشتكى عينيه ...» (١١٧) فهو هنا بكاء ، وتلك صفة لم تؤثر عنه . وأضاف ابو نعيم الى أبى ذر صفة صوفية محضة فزعم انه « أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء» (١١٨) وذلك ادعاء يحمل جرثومة تهافته .

---

(١١٢) حلية الاولياء ١/١٦٥ .
(١١٣) نهج البلاغة ٢/٨٢ .
(١١٤) آل عمران : ٩٢ .
(١١٥) صفة الصفوة ١/٢٤١ .
(١١٦) اللمع ١٣٥ .

ومثل ذلك في التهافت ما يورده ابن الجوزى ان رجلا دخل على ابى ذر «فجعل يقلب بصره في بيته ، فقال : يا أبا ذر ، انه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا . قال : ان صاحب المنزل لايدعنا فيه» [١١٩] ويأتى تهافته من ركة اسلوبه ومن ايراده اصطلاح : صاحب المنزل ، الذى يبعد استعماله فى القرن الاول . وقد استغل الشيعة ابا ذر فى اسباغ الروحانية على الائمة فرووا انه قال فى تفسير قوله تعالى : ان الله اصطفى آدم ونوحا ... فاما النورية فمن نوح والآل ن ابراهيم والسلالة من اسماعيل والعترة الهادية الطاهرة من محمد والصديق الاكبر على بن ابى طالب ...» [١٢٠] .

وقد انتهت حياة ابى ذر فى الربذة بسيطة عميقة كبدايتها فى الاسلام ، وكانت مصداقا لنبوءة القاها النبى باخباره له : «... ليموتن رجل بفلاة من الارض تشهده عصابة من المؤمنين [١٢١] وكان هو هذا الميت بالفلاة غريبا الربذة ، وقد مر به المؤمنون الموعودون فطلب اليهم « لايكفنّى رجل منكم كان اميرا او عريفا او بريدا أو نقيبا ...» [١٢٢] وهكذا ضرب ابو ذر مثلا عاليا من سلامة الايمان والاصرار على العقيدة والمعارضة الايجابية حتى فى موته .

عمار بن ياسر

ركن آخر من اركان التشيع وصورة جديدة للشخصيات الشيعية الاولى ، وكان يمثل الاصرار المنقطع النظير على مايراه حقا والاندفاع الى اقصى غايات الاندفاع وتضحية النفس - اذا اقتضى الامر - فى سبيل المبدأ . والجديد فى أمر عمار أنه قد كتب له ان يعيش الى بيعة الامام على فعكس لنا ما كان سيفعله سلمان وابو ذر لو قدر لهما ان يحيا الى ذلك اليوم .

---

(١١٧) طرائق الحقائق ٢/٩ .

(١١٨) الوسائل الى مسامرة الاوائل (عن أبى نعيم فى كتابه « معرفة الصحابة») ص ١٢٩ .

(١١٩) صفة الصفوة ١/٢٤٢ .

(١٢٠) طرائق الحقائق ٢/١١٢ .

(١٢١) صفة الصفوة ١/٢٤٣ .

(١٢٢) حليه الاولياء ١/١٦٩ .

لقد قال معاوية لمناسبة قتل الاشتر : « لقد كان لعلى يمينان ، فقطعت احداهما بصفين (يعنى عمار بن ياسر) وقطعت الاخرى اليوم» (١٢٣) وبذلك تبدو شيعية عمار على لسان من قاتله الشيعة . وكان عمار ممن اوذى فى اسلامه وعذب ابوه وامه واخوه بيد القرشيين لسبقهم الى الاسلام فى مكة (١٢٤) ، وعاد اليه الاذى ايام عثمان (١٢٥) . لانه عارض سياسته فى الانعام على الامويين من اعداء الاسلام السابقين الذين لقى هو واهله منهم مالقوا ودخل الاسلام ليستظل به من عبوديته لهم فى الجاهلية حتى لقد زعم قاتله فى صفين انه انما فعل ذلك لانه كان « يقع فى عثمان ويشتمه بالمدينة» (١٢٦) .

وقد كان عمار ـ لهذا ـ اشد حراس الاسلام مراسا واكثرهم عنادا فى الحفاظ على مثله ومبادئه ، وهذا يفسر لنا نصرته لعلى وموالاته الشديدة له ، فقد كان يراه عمار ملك المساكين وأمير المستضعفين الذى يحفظ للمسلمين الحقيقيين مكانتهم وكرامتهم ولهذا قال عمار فى على : « ... ووهب لك حب المساكين ، فجعلك ترضى بهم اتباعا ويرضون بك اماما» (١٢٧) . وكان عمار ـ الى ذلك ـ محوطا بهالة من الاحاديث النبوية التى ترفع من شأنه وتعوضه عن العذاب الذى لقيه وتجعله من عظماء المسلمين وتغطى على عبوديته فقال (ص) فيه : « ان ابن سمية لم يخيّر بين امرين الا اختار ارشدهما » (١٢٨) . وقال : « ويحك يا ابن عمار تقتلك الفئة الباغية» (١٢٩) فاقر له (ص) بلزوم

---

(١٢٣) طرائق الحقائق ٢/١٧ .
(١٢٤) طبقات ابن سعد ٣ : ١/١٧٨ .
(١٢٥) الفتنة الكبرى ١٩٨ .
(١٢٦) طبقات ابن سعد ٣ : ١/١٨٦ .
(١٢٧) حلية الاولياء ١/٧١ . وينبغى ان نقرن تلقيب على بابى تراب بهذا المعنى ايضا ، وذلك ان الفقراء عند العرب كانوا يسمون بنى غبراء أى بنى تراب (انظر معلقة طرفة) ومن هنا كان على حتى فى لقبه هذا ملكا للمساكين .
(١٢٨) وقعة صفين ٣٨٧ ، مسند ابن حنبل (الحديث ٤٢٤٩) بنص آخر .
(١٢٩) طبقات ابن سعد ٣ : ١/١٨٠ ، مسند ابن حنبل (الحديث ٦٤٩٩) بنص آخر ، وانظر البخارى صلاة : ٦٣ ، فتن : ٧٠ ، ٧٢ . الترمذى =

سمت الحق طول حياته وجعل خصومه الفئة الباغيـــة واوصى النبى (ص) المسلمين بان يكونوا مع الفـريق الذى فيه عمار فقـــال (ص) : « فالزمـوا سمته» (١٣٠) وقال : «يدور الحق مع عمار حيثما دار» (١٣١) فكأن النبى الاكرم اراد ان يقرر ان عمار بن ياسر واشباهه لا مصلحة لهم الا فى الاسلام وبقائه على ماكان يريده له الرسول وانهم هم حراس هذه المبـــادىء لان الاسلام قد رفعهم من ضعة وامنهم من خوف فمصلحتهم هى مصلحة الاسلام وكل تغيير يمسه انما يمسهم بقول عمار حين سمى جيش معاوية فى صفين بالاحزاب اعداء النبى» (١٣٢) وكان يقول : « ان مراكزنا على مراكز رايات رسول الله (ص) عليهم يوم بدر ويوم احد ويوم حنين ، وان هؤلاء عـــلى مراكز رايات المشركين من الاحزاب» (١٣٣) . وقد اعترف عمار بقتل عثمان صراحة (١٣٤) لانه اعاد بنى عبد شمس الى سابق مجدهم وســـاعد – ان قصدا او عفوا – على نشوء طبقة ارستقراطية اسلامية تضـــم سـراة مـكة السابقين .

وقد صار عمار واشباهه من العبيد السابقين والمستضعفين عظماء الاسلام ورجاله شاء القرشيون أم ابوا ، وكان هوى عمار مع على اقرب الناس الى مثل الاسلام الصحيحة ، وكان القرشيون خصومه . وكان معاوية قد شرع سـب على وجعله سنة فقابله عمار واصحابه بأن جعلوا يرفعون من شأن على ويحطون من شأن القرشيين فكان ان احس اعداء على بان أثر عمار ابقى فى نفـوس المسلمين ولم يستطيعوا ان يعادوه صراحة ولا ان ينقضوا اقواله مواجهـة ، فالتجؤوا الى حيلة قديمة وحرب خفية هى الاشاعات والدس فنعتوا عليا بأبى

= مناقب : ٣٤ ، ابن حنبل ٢/١٦١ ، ١٦٤ ، ٢٠٦ ، ٣/٥ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٩١ ، ٤/١٩٧ ، ١٩٩ ، ٥/٢١٥ ، ٣٠٦ .

(١٣٠) وقعة صفين ٣٨٧ .
(١٣١) طرائق الحقائق ٢/١٢ .
(١٣٢) وقعة صفين ٢١٢ .
(١٣٣) وقعة صفين ٣٦٤ .
(١٣٤) الطبرى ٥/١٨٧ .

تراب وجعلوا يسبونه فى الشام دون ان يعلم كثير من الناس من هو ابو تراب هذا [١٣٥] وظنوه مبتدعا خارجا على الاسلام . ويحسن بنا ان ننبه الى الرأى الصائب الذى طلع به علينا الدكتور على الوردى الباحث العراقى فى اثبات كون عمار هو ابن سبأ وهذا هو نص الادلة :

ومن غرائب التاريخ ان نرى ان كثيرا من الامور التى تنسب الى ابن سبأ موجودة فى سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه :

١ ـ كان ابن سبأ يعرف بابن السوداء ، وقد رأينا كيف كان عمار يكنى بابن السوداء ايضا ...

٢ ـ وكان من أب يمان ، ومعنى هذا انه كان من ابناء سبأ ، فكل يمان يصح ان يقال عنه : انه ابن سبأ فأهل اليمن كلهم ينتسبون الى سبأ بن يشجب بن قحطان ، وفى القرآن : قال الهدهد لسليمان انه جاءه من سبأ ، وقصد بذلك اليمن (النمل : ٢٢) (سبأ : ١٤) .

٣ ـ وعمار فوق ذلك كان شديد الحب لعلى بن ابى طالب (ع) يدعو له ويحرض الناس على بيعته فى كل سبيل .

٤ ـ وقد ذهب عمار فى ايام عثمان الى مصر وأخذ يحرض الناس ثمة فضج الوالى منه وهم بالبطش به .... ، وهذا الخبر يشابه ما نسب الى ابن سبأ من انه استقر فى مصر واتخذ الفسطاط مركزا لدعوته وشرع يراسل انصاره منها [١٣٦] .

٥ ـ وينسب الى ابن سبأ قوله : ان عثمان اخذ الخلافة بغير حق وان

---

(١٣٥) مروج الذهب ٢/٧٢ .
ومن اوضح ما يتعلق بهذه الخطة مارواه مسلم فى صحيحة من أن رجلا من آل مروان استعمل على المدينة «فدعا سهل بن سعد فأمره ان يشتم عليا فأبى ، فقال أما اذا أبيت فقل : لعن الله ابا تراب .... » (صحيح مسلم ، مصر ١٣٤٩ ، ٢/٣٢٦) .

(١٣٦) نيكلسون

صاحبها الشرعى هو على بن ابى طالب . والواقع ان هذا هو كلام عمار بن ياسر بالذات ، فقد سمع ذات يوم يصيح فى المسجد - اثر بيعة عثمان - : يا معشر قريش ، اما اذا حرفتم هذا الامر عن بيت نبيكم ها هنا مرة وها هنا مرة ، فما أنا بآمن عليكم من ان ينزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير اهله (١٣٧) .

٦ - ويعزى الى ابن سبأ انه هو الذى عرقل مساعى الصلح بين على وعائشة ابان معركة البصرة ، فلولاه لتم الصلح بينهما حسب ما يقول الرواة . ومن يدرس تفاصيل واقعة معركة البصرة يجد عمارا يقوم بدور فعال فيها ، فهو الذى ذهب مع الحسن ومالك الاشتر الى الكوفة يحرض الناس على الانتماء الى جيش على ، وكان وقوف عمار بجانب على اثناء المعركة سببا من اسباب ندم الزبير وخروجه منها ..

٧ - وقالوا عن ابن سبأ : انه هو الذى حرك ابا ذر فى دعوته الاشتراكية ، ولو درسنا صلة عمار بابى ذر لوجدناها وثيقة جدا ، فكلاهما من مدرسة واحدة هى مدرسة على بن ابى طالب ، وكان هؤلاء الثلاثة يجتمعون ويتشاورون ويتعاونون معا ...

نستخلص من هذا ان ابن سبأ لم يكن سوى عمار بن ياسر ، فلقد كانت قريش تعتبر عمارا رأس الثورة على عثمان ، ولكنها لم تشأ - فى اول الامر - ان تصرح باسمه فرمزت عنه بابن سبأ او ابن السوداء ، وتناقل الرواة هذا الامر غافلين وهم لايعرفون ماذا كان يجرى وراء الستار (١٣٨) .

وهذه الادلة مقنعة ومنطقية ولكنها فى حاجة الى نصوص تسند تسمية عمار بن ياسر بابن السوداء وابن سبأ ، فاما كون عمار بن ياسر ابن السوداء فقد ورد فى نص رواه على بن ابراهيم القمى صاحب التفسير الشيعى القديم

---

(١٣٧) اهل البيت ٦٦ .

(١٣٨) وعاظ السلاطين ٢٧٤-٨ .

لمناسبة الآية : يمنون عليك ان اسلموا [١٣٩] ، فقال : « نزلت فى عثكن بن معاوية يوم الخندق ، وذلك انه مر بعمار يحفر الخندق وقد ارتفع الغبار من الحفر ، فوضع عثكن كمه على أنفه ومر ، فقال عمار :

لايستوى من يبتنى المساجدا يظل فيها راكعا وساجدا
ومن يمر بالغبار حايدا يعرض عنه جاحدا معاندا

فالتفت اليه عثكن فقال : يا ابن السوداء ، اياى تعنى . ثم اتى رسول الله فقال له : لم ندخل معك لسب اعراضنا . فقا له الرسول : قد اقلتك اسلامك فاذهب ، فانزل الله عز وجل : يمنون عليك ان اسلموا ..» [١٤٠] .

وأما كونه ابن سبأ فقد ورد فى نسب عمار فى طبقات ابن سعد فقال : « هو عمار بن ياسر بن مالك ابن عوف بن حارثة بن عامر بن يام بن عنس ، وهو زيد بن مالك بن ادد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان» [١٤١] وكذلك فى طرائق الحقائق [١٤٢] نقلا عن الكامل بمناسبة عنس بن مذحج جد عمار وكذلك فى تاريخ ابن خلدون برواية الحاج معصوم على ايضا . ويرد فى فتوح البلدان نسب عنس ايضا فيقول : « هو زيد بن مالك بن ادد بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ وعنس اخو مراد» [١٤٣] .

---

(١٣٩) الحجرات ٤٩ : ١٧ .

(١٤٠) تفسير على بن ابراهيم ٦٤٢ .
روى ابن سعد الشطر الاول من هذه الارجوزة مصحفا على هذه الصورة :
«نحن المسلمون نبتنى المساجدا » وذكر أنه قيل لما بنى مسجد رسول الله (ص) (الطبقات ٣ : ١/١٧٩) وقد كان عمار يومئذ يجهد نفسه فى العمل حتى خيل الى زملائه انه سيموت . ونقل عن ابى سعيد الخدرى ان زملاء عمار كانوا يحملون لبنة لبنة « وجعل هو يحمل لبنتين لبنتين» (الطبقات ٣ : ١/١٨٠) .

(١٤١) طبقات ابن سعد ٣/١٨٦ .

(١٤٢) طرائق الحقائق ٢/١١ .

(١٤٣) فتوح البلدان ١١٣ .

وأما كونه عبد الله فكل المسلمين كذلك وهو لقب عام لهم جميعا ، وكانت كل الكتب التى تصدر عن الخلفاء والامراء والتى ترد اليهم تبدأ بعبارة : « من عبد الله فلان » أو « الى عبدالله فلان » وقد سمى على نفسه فى السقيفة بعبد الله (١٤٤) وسمى المنصور نفسه بذلك ، وكذلك محمد بن عبد الله بن الحسن (١٤٥) وعبدالملك بن مروان (١٤٦) ، فالتسمية لعمار بهذا الاسم كتسميته بابن سبأ قصد بها التلميح فكأن قائلهم يقول : فلان أو الرجل المتفق عليه (١٤٧) ، وذلك امر تقتضيه سرية التلميح . يضاف الى هذه الادلة كلها دليل لم يلتفت اليه الدكتور الوردى وذلك ان الطبرى فى تطرقه الى حرب الجمل قد عرض لانصار على فيها فكان اذا عددهم وذكر اسم عمار فى جملتهم اغفل ذكر ابن السوداء ، واذا ذكر ابن السوداء تحامى ذكر اسم عمار مما يرجح أن الرجلين شخص واحد . وهكذا نخرج من هذا الاستطراد بان عمار بن ياسر كان ثائرا على عثمان وانه استطاع ان يحقق ماصبا اليه من اعادة الاسلام الى قالبه الاصيل وارجاع الامرة الى على بحسب وصية النبى التى كان عمار يؤمن بها . وجلية الامر فى معارضة عمار لعثمان انه كان يرى بان الاسلام قد جاء لازالة الفرق بين الطبقات ، وبمعنى آخر لنشر العدالة الاجتماعية بالاضافة الى الاصلاح الروحى والعقلى ، وقد طبق ابو بكر وعمر خطة الرسول فرأينا عمارا ساكتا عن معارضتهما مع على وابى

---

(١٤٤) الامامة والسياسة ١٢ .

(١٤٥) الطبرى ٩/٢١٠ .

(١٤٦) العقد الفريد ٥/٢٦١ .

(١٤٧) من طريق ما يذكر ان التقية الشيعية اضطرت احمد بن طاووس الحلى (المتوفى حوالى سنة ٦٧٣/١٢٣٥-٦) الى تصنيف كتاب لم يشأ ان يقرنه باسمه فنسبة الى عبدالله بن اسماعيل . وقد علق الشهيد الثانى (زين الدين العاملى المقتول سنة ٩٦٦/١٥٥٨-٩) على ذلك بأنه فعل ذلك « لان كل العالم عباد الله ولانه من ولد اسماعيل الذبيح» وتلك اعادة لقصة تسمية عمار بعبدالله بن سبأ على صورة شيعية (انظر روضات الجنات ص١٩) .

ذر وغيرهما من المتمسكين بجوهر الاسلام . وقد اتاحت هذه العدالة والمساواة للعبيد السابقين والمستضعفين ان يرتفعوا باخلاصهم وايمانهم الى المراكز العليا فى الاسلام ، فكان سلمان اميرا على المدائن وعمار امير الحرب فى الكوفة وكان غيرهما فى مثل مركزهما . فلما افضت الخلافة الى عثمان تنفس الملأ المكى القديم الصعداء وحاولوا ان يعيدوا الامور الى نصابها القديم فكانت الثورة التى ادت الى التضحية بعثمان ، ولم يستفد من الملحمة كلها الا معاوية : ولى عهد ابى سفيان الذى ثار عليه النبى وقاتله فزحزحه ، وهكذا عاد معاوية الى عرش ابيه من جديد . وكانت مهمة عمار واشباهه ان يحرسوا النظام الجديد باشاعة الزهد فى المسلمين بحيث يصير طابعا للدين الجديد ويقطع الطريق على الاغنياء والارستقراطيين ان يهدموا الاسلام بمالهم وجاههم ولهذا وجدنا عمارا يحتفل بعلى لانه كان زاهدا ويجعل الزهد زينة الابرار كما كان المال زينة الملأ المكى الذى حاربه الاسلام فروى عمار عن النبى (ص) انه قال فى على : « يا على ان الله تبارك وتعالى زينك بزينة لم يزين العباد بزينة احب الى الله تعالى منها : هى زينة الابرار عند الله عزوجل ، فجعلك لاترزأ من الدنيا شيئا ولا ترزأ الدنيا منك شيئا ... » (١٤٨) . ومادام زعيم عمار وقدوته زاهدا فاحر بعمار ان يكون كذلك وهو من اهل الصفة ايضا (١٤٩) .

وشىء اخر يجب ان يذكر فى سيرة عمار وذلك انه كان السابقة الشيعية للتقية وذلك ان القرشيين عذبوا اباه وامه حتى قتلوهما وعمار ينظر ، فلما حل عليه الدور فى التعذيب « لم يتركوه حتى سب رسول الله (ص) وذكر آلهتهم بخير » (١٥٠) . ولم يصنع عمار الا ان جعل للقدرة البشرية على تحمل الالام حدودا ، ولكنه ندم فيما بعد اشد الندم وعذبه ضميره غاية التعذيب

---

(١٤٨) حلية الاولياء ١/ ٧١ .
(١٤٩) خطط الكوفة ٣٦ هامش .
(١٥٠) حلية الاولياء ١/ ١٤٠ .

«فلما اتى رسول الله قال : ماوراءك ؟ قال : شر يا رسول الله ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير ، فقال رسول الله : فكيف تجد قلبك ؟ قال : اجد قلبى مطمئنا بالايمان . قال : فان عادوا فعد» (١٥١) وهكذا يقرر الرسول بنفسه مبدأ التقية التى بدأت بعمار وصارت تقليدا للشيعة فيما بعد ، وعمار من الاربعة الذين تشتاق اليهم الجنة(١٥٢) .

وانتهت حياة عمار فى صفين طافحة بالاخلاص والايمان بالمثل العليا ، فتذكر قبل قتله نبوءة النبى بانه تقتله الفئة الباغية فعزم ان يضحى بنفسه فى صفين ليدعم مركز على بن ابى طالب قدوته ورئيسه ، على أمل ان يكون قتله قضية تعطف على على الانصار وتنبه الناس الى حقه . فلما استسقى اتته « امرأة من بنى شيبان بعسل فيه لبن فدفعته اليه»(١٥٣) فتذكر نبوءة اخرى للنبى اسرها اليه بقوله (ص) : « وآخر شربة تشربها ضياح من لبن» (١٥٤) ، فشاع الرضا على وجهه وملأ الايمان قلبه من جديد ورأى ان ماعزم عليه يحظى بالقبول من الله والنبى ورأى كل ذلك الشقاء قد اجتمع فى لحظة من السعادة الابدية فقال : «الله اكبر اليوم القى الاحبة تحت الاسنة ، صدق الصادق وبذلك خبر الناطق وهو اليوم الذى وعدت فيه»(١٥٥) . وهكذا انطوت صفحة ثالث الاركان ضاربة للآتين بعده امثالا عظيمة في التضحية والزهد والفداء .

---

(١٥١) حلية الاولياء ١/ ١٤٠ .
(١٥٢) حلية الاولياء ١/ ١٣٩ .
(١٥٣) مروج الذهب ٢/ ٢١ .
(١٥٤) وقعة صفين ٣٨٧ .
(١٥٥) مروج الذهب ٢/ ٢١ .

حذيفة بن اليمان

أحد الذين يتردد اسمهم ضمن الاركان الشيعية الاربعة ، وهو المقصود بالآية : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه»(١٥٦) كما يقصد بها زملاؤه : ابو ذر والمقداد وسلمان وعمار (١٥٦-) . وكان حذيفة من الطبقة الاولى المخلصة للاسلام لذاته ومن المتمسكين بمثل الاسلام على صورته الجوهرية لان فى ذلك استمرارا للحرية التى شعر بها الفقراء والعبيد والضعفاء الذين رفعهم الاسلام وصاروا ـ بنصرتهم له قبل غيرهم ـ مادته الاساسية والطبقة الاولى فيه. ومن هنا لم يذكر الذاكرون ان اسمه حذيفة بن حسل بن جرو(١٥٧) وانما اقتصروا على نسبته الى اليمن على غير قياس (١٥٨) فانعكس مقام حذيفة من هذه الاشارة البسيطة وبدت مكانته والاحترام الذى خيف ان يمس بذكر نسبه الذى قد يدعو الى ذهاب المهابة .

وتأتى شيعية حذيفة من ذكره مع الاركان ومن مؤاخاة النبى بينه وبين عمار بن ياسر (١٥٩) اوضح الاركان شيعية وادخلهم فيها ومن ذكر الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠/١٠٦٨ له فى اصحاب على بن ابى طالب(١٦٠) ومن الصلة الواضحة بين علم على السرى وعلم حذيفة الذى سنتعرض له فى هذا الفصل .

واول ما يتميز به حذيفة انه كان يلقب بصاحب السر او صاحب سر رسول الله (١٦١) ، فتبدأ بذلك مسألة طبيعة العلم فى الاسلام هل هو علم أحد

---

(١٥٦) اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ .
(١٥٧) اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ .
(١٥٨) اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ .
(١٥٩) اعيان الشيعة ٢/٢٥٥ .
(١٦٠) اعيان الشيعة ٢/٢٥٦ .
(١٦١) البخارى : الاستئذان ٣٨ .

ام علمان : ظاهر وباطن ؟ لقد تبنى الشيعة ازدواج العلم كما فعل المتصوفة وهذا السراج يقول : «لاخلاف بين اهل العلم ان فى اصحاب رسول الله (ص) من كان مخصوصا بنوع من العلم كما كان حذيفة مخصوصا بعلم اسماء المنافقين ، كان اسره اليه رسول الله (ص) »[١٦٢] واذا وضعنا بازاء هذا ان بعض الصحابة كان يقول : « ماكنا نعرف المنافقين ايام رسول الله الا ببغض على بن ابى طالب»[١٦٣] ادركنا الى اى مدى كان اتصال حذيفة بالتشيع الاول . وعلم حذيفة الخاص جزء من العلم الذى قال على بن ابى طالب فيه – برواية السراج – : « علمنى رسول الله (ص) سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيرى» . وقد عرض ابو طالب المكى لعلم حذيفة فقال فيه : « قد خص بعلم المنافقين وافرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان عمر وعثمان – من أكابر اصحاب رسول الله – يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون اليه فى العلم الذى حظى به ويسألونه عن المنافقين ... فكان يخبر باعدادهم ولا يذكر اسماءهم»[١٦٤] ويجب ان نلاحظ امتناع ان يقصد بهذا العلم مجرد اسماء حفظها حذيفة والالم يكن فى الامر علم ولم تكن لحذيفة ميزة ، ولعل المراد بعلمه ان الرسول قد وجد فيه قوة من الكشف او بعثها فيه وهداه اليها ليستطيع بها ان ينفذ بها الى مستودع سر الرجل بنظره اليه فيعرف هواه ويعرف سر نجواه ولعل مصداق ذلك مايرويه ابو طالب المكى من انه «كان عمر يستكشفه عن نفسه : هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه منه »[١٦٤] واذا كان المقصود بعلم حذيفة هذا الذى اشرنا اليه ، استحق ان يكون موصولا بالكشف الصوفى الذى سيأتى بعدئذ ويكون مرتبطا بقول الله تعالى : « ان فى ذلك لآيات

---

(١٦٢) اللمع ١٩ .
(١٦٣) الصواعق المحرقة ١٢٠ عن الترمذى ، الشيعة فى التاريخ ٢٢٦ ضحى الاسلام ٢/١٢٢ عن مسلم .
(١٦٤) قوت القلوب ١/٢٣ .

للمتوسمين»[١٦٥] . وبذلك نستطيع ان نعلل سبب استكشاف عمر له عن نفسه ويستقيم الامر على هذا الاساس .

لقد فتح علم حذيفة بن اليمان وكونه صاحب السر بابا لن يوصد فى طبيعة العلم ، فأخذ المتصوفة الاساس وبنوا عليه نظريتهم فى المعرفة وانواعها وفى الرجال ودرجاتهم ، فقسمهم السراج الى ثلاثة : « علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود والامر والنهى وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم الذى كان يعلم حذيفة بن اليمان ... وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد »[١٦٦] وهذا التقسيم الثلاثى للعلم وحامليه قد اورده ابو طالب المكى عن الامام على أنه قال: « .. الناس ثلاثة : عالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح»[١٦٧] ، والصلة بين حديث على وتقسيم السراج ان عليا قد ادمج العلم المخصوص وعلم النبى فى علم واحد وافرد السراج للنبى علما وللصحابة المخصوصين بالسر علما وكلا التقسيمين واحد فى الجوهر غير ان السراج يخشى ان يتهم بالتشيع لان الشيعة يعتبرون علم النبى وعلم على واحدا هو علم الانبياء والاوصياء اى العلم اللدنى . وقدالتفت ابو طالب المكى الى هذه الحقيقة ولكنه تحامى ان يصرح بها وان كان اقترب من رأى الشيعة فى قوله : « وكان عند اهل العلم ان علمهم مخصوص لايصلح الا للخصوص والخصوص قليل ولم يكونوا ينطقون به الا عند اهله ... كما وصفهم على كرم الله وجهه فى قوله : حتى يودعوه امثالهم ويزرعوه فى قلوب اشكالهم»[١٦٨] . وقد

---

(١٦٥) الحجر : ٧٥ .
(١٦٦) اللمع ٣٧٨ .
(١٦٧) قوت القلوب ١/ ٣١ .
(١٦٨) قوت القلوب ١/ ٣١ .

تطورت هذه النظرية فى المعرفة وانواعها وعادت الى قالبها الشيعى القديم الذى يجعل من الناس طائفتين : طائفة اختصت بعلم الهى خاص وهم طبقة الانبياء ويلحق بهم الائمة عند الشيعة ، وطائفة تمثلهم عامة الناس لم يختصوا بهذا العلم . وهكذا صار شيعى آخر سببا فى اتجاه جديد دخل الاسلام واتسع فيه حتى صار قائما بذاته .

والواقع ان صلة حذيفة بالتصوف وثيقة لانه السابقة الخطيرة فى امكان اطلاع غير الرسل وغير اوصيائهم - كما عند الشيعة - على اسرار لا يتاح الاطلاع عليها الا لذوى الاستعداد الروحى الخاص . وقد أدخل المتصوفة هذه العلوم فى طريقتهم وسرعان ما صنعوا حديثا رفعوه الى الله عز وجل وكان من سلسلة سنده حذيفة بن اليمان صاحب السر ، فكان بذلك اول شيعى يأخذ منه الصوفية نظرية المعرفة عندهم : النظرية التى تقوم على الذوق والكشف والاستعداد الشخصى والفراسة ، ويتأتى كل ذلك بالمجاهدة والعبادات ، والحديث : « عن عبدالواحد بن زياد قال : سألت الحسن (البصرى) عن علم الباطن فقال : سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال : سألت رسول الله عن علم الباطن فقال : سألت جبريل عن علم الباطن فقال : سألت الله عن علم الباطن فقال : هو سر من سرى اجعله فى قلب عبدى لا يقف عليه احد من خلقى [١٦٩] ، والمهم فى هذا الحديث القدسى انه يستند الى رواية حذيفة عن النبى مباشرة ويبين حد العلم الباطن الذى كان حذيفة نفسه مشتملا عليه .

ويبدأ زهد حذيفة من حديث يرويه عن النبى (ص) انه قال : يا حذيفة ، ان فى كل طائفة من امتى قوما شعثا غبرا اياى يريدون واياى يتبعون وكتاب الله يقيمون ، اولئك منى وانا منهم وان لم يرونى [١٧٠] ، ورائحة النحل

---

(١٦٩) التعرف ٥٩ .

(١٧٠) حلية الاولياء ١/٩ .

فائحة من هذا الحديث لان طوائف الامة قد تشعبت فيما بعد ولان الشعث الغبر لم يكونوا يحتلون مركزا خاصا فى الاسلام الاول لمجرد انهم كذلك ، ولكن هذا الحديث يبين تمسك الزهاد ، اسلاف المتصوفة ، بهذه الصفة الروحية التى تتسم بها شخصية حذيفة فجعلوا منه راوية لاحاديث عن النبى تخدم طريقتهم . ومما يوثق اتصال زهد حذيفة بالكشف على عمومه انه تنبأ للكوفيين يوم طردوا سعيد بن العاص عامل عثمان عليهم انه « والله لتردن على عقبيها ولايكون فيها محجمة من دم . وما اعلم منها اليوم شيئا الا وقد علمته ومحمد (ص) حى»[١٧١] . وكان حذيفة يحذر الناس ـ بعد ـ من الفتنة والشر اللذين سيحدثان بعد ذلك وينقل الى الكوفيين نصيحة الرسول له : « فلأن تعضد على جذع شجرة خير لك من ان تتبع احدا منهم»[١٧٢] والمهم ـ بعد ذلك ـ ان عليا كان يعلم سر حذيفة فكان يقول له : « يا حذيفة لاتحدث الناس بما لا يعرفون فيطغوا ويكفروا»[١٧٣] وهذا قول يذكرنا بما فاه به الشبلى بمناسبة قتل الحلاج : « كنت انا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا انه اظهر وكتمت»[١٧٤] ووقف الشبلى على الحلاج وقال نفس مقالة على بن ابى طالب لحذيفة بن اليمان ـ ولكن بعد ان سبق السيف العذل ـ : « الم ننهك عن العالمين»[١٧٥] وذلك يذكرنا ايضا بالنص الذى اوردناه عن على ابن الحسين بن على بن ابى طالب متضمنا قوله : « لو علم ابو ذر بما فى قلب سلمان لقتله»[١٧٦] وهكذا يبدو التصوف مرتبطا بالتشيع برباط وثيق ولكنه شفاف اخفاه المتصوفة لسبب وجيه اوردناه فى اول هذه الرسالة .

---

(١٧١) الطبرى ٣/٣٧٥ .
(١٧٢) حلية الاولياء ١/٢٧٢ .
(١٧٣) الغيبة لابن زينب ٧٥ .
(١٧٤) اربعة نصوص تتعلق بالحلاج ٢/١٩
(١٧٥) اربعة نصوص ٢/١٩ .
(١٧٦) طرائق الحقائق ١/٢٣٢ .

وقد كان حذيفة يحب الفقر ويألفه كما كان زملاؤه يفعلون وكان حذيفة يحبه لنفسه ولأهله فقال : « ان اقر يوم لعينى ليوم اذا رجعت فيه الى اهلى فيشكون الىّ الحاجة »[١٧٧] فكان بذلك كأبى ذر وسلمان عمار وغيرهم ممن وعوا رسالة الاسلام على حقيقتها . وقال حذيفة فى آخر ساعة من حياته : «لولا ارى ان هذا اليوم آخر يوم من الدنيا واول يوم من الآخرة لم اتكلم به . اللهم انك تعلم انى كنت احب الفقر على الغنى واحب الذل على العز واحب الموت على الحياة ، حبيب جاء على فاقة ...»[١٧٨] وفى ذلك شبه ايضا بما صدر عن الشيعة الاولين فى ساعات موتهم ، وانه لغريب ان يجمعوا على حب الموت وعلى حب الله على صورة واحدة ، ولكن مدرسة الاسلام الاصيلة هى السبب فى كل ذلك وهى ـ لذلك ـ تزيل هذا العجب . ونختم فصل حذيفة بانه قال لما اتاه قتل عثمان وبيعة على وكان عليلا بالكوفة : « أخرجونى وادعوا : الصلاة جامعة ، فوضع على المنبر فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبى وآله ثم قال : ايها الناس ، ان الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى الله وانصروا عليا وآزروه ، فوالله انه لعلى الحق اولا وآخرا . انه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى الى يوم القيامة . الحمد لله الذى ابقانى الى هذا اليوم»[١٧٩] ثم تنبأ لولديه صفوان وسعد بانه « سيكون لعلى حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس ، فاجتهدا ان تستشهدا معه فانه والله على الحق ومن خالفه على الباطل»[١٧٩-] واخبرنا المسعودى بانهما قد فعلا[١٧٩-] .

ومات حذيفة فى المدائن فدفن بعيدا عن سلمان « ولكن قبره كان قريبا من الشط فخيف طغيان الماء عليه فنقل ترابه الى مشهد سلمان فى زماننا

---

(١٧٧) اللمع ١٣٧ .
(١٧٨) حلية الاولياء ١/١٧٢ .
(١٧٩) مروج الذهب ٢/٢٣ .

هذا ، [١٨٠] . وهكذا جمع الموت بين الركنين كما جمعتهم الحياة ومن يدري فلعل في اجتماعهما في مشهد واحد سرا كان يعلمه حذيفة ولم يطلع عليه احدا . وكانت وفاته سنة ٣٦ .

المقداد بن أسود

شخصية اخرى من الشيعة الاوائل وكان من طراز الاربعة السابقين من حيث انه لاينتمي الى عصبية او ارستقراطية قرشية فهو مولى الاسود بن عبد يغوث وقد كان تبناه في الجاهلية ، فلما اسلم عاد الى نسبه القديم المقداد بن عمرو اتباعا للآية : ادعوهم لآبائهم [١٨١] ، وكان من السابقين الى الاسلام وينصرف اليه الحديث : « ان الله أمرني بحب أربعة واخبرني انه يحبهم وانك يا علي منهم والمقداد وابو ذر وسلمان » [١٨٢] وهو الى ذلك يلقب « بصاحب رسول الله » [١٨٣] وقد كان ختن الزبير وذلك دليل على مكانة السابقين الى الاسلام وان كانوا من مستوى اجتماعي ادنى من القرشيين وذلك ان المقداد بن عمرو خطب الى رجل من قريش فابى ان يزوجه ، فقال له النبي : لكني ازوجك صباعة ابنة الزبير بن عبدالمطلب . ويأتي مقام المقداد في الاسلام من موقف وقفه من رسول الله (ص) يرويه ابن سعد «عن عبدالله قال : شهدت من المقداد مشهدا لان اكون انا صاحبه احب الي مما عدل به . انه اتى النبي وهو يدعو على المشركين فقال : يارسول الله انا ـ والله ـ لانقول لك كما قال قوم موسى : اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون [١٨٤] ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك وبين يديك ومن خلفك .

---

(١٨٠) اعيان الشيعة ٢/٢٤٨ .
(١٨١) صفة الصفوة ١/١٦٧ .
(١٨٢) حلية الاولياء ١/١٣٩ .
(١٨٣) ابن الاثير ٣/٧١ .
(١٨٤) المائدة : ٢٧ .

فرأيت النبي يشرق لذلك ويسره ذلك »[١٨٥] . والمقداد هو القائل – بعد انتخاب عثمان – : « ما رأيت مثل ما اوذى به أهل هذا البيت بعد نبيهم . اما وأيم الله يا عبدالرحمن (بن عوف) لو اجد على قريش انصارا لقاتلتهم كقتالى اياهم مع رسول الله يوم بدر» [١٨٦] .

والمقداد زاهد كزملائه السابقين الاولين ، وزهده آت عن تجربة عاناها فكاد يفتن عن دينه ، فانه يقول : « استعملنى رسول الله (ص) على عمل ، فلما رجعت قال : كيف وجدت الامارة ؟ قلت : يا رسول الله ما ظننت الا ان الناس خول لى . والله لا ألى على عمل ما دمت حيا» [١٨٧] .

ويبدو ان المقداد كان ممن اوذى ايام عثمان لمعارضته لسياسته فعل زملائه فى الجهاد ، ولعل هذا هو الذى جعله من الاركان ، فانه لايتميز بميزة معينة شأن زملائه السابقين الاولين اللهم الا هذا الذى نجده من اخلاصه وايمانه الشديد . وهو لم يشارك عليا حروبه لانه توفى فى خلافة عثمان . ويروى عن الزبير خبر يدل على هذه المعارضة التى ابداها المقداد لعثمان حتى احفظه عليه ، فانه يروى ان عثمان قد ترحم على المقداد بعد موته (سنة ٣٣) وجعل يثنى عليه ، وعندئذ قال الزبير : [١٨٨]

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

الشيعة الاخرون

وكان خباب بن الارت من هذا الطراز ايضا وهو « احد المستضعفين الذين عذبوا بمكة ليرجع عن دينه»[١٨٩] . ويروى خباب الاهوال التى قاساها فى مكة بقوله : « فلقد رأيتنى يوما اخذونى واوقدوا لى نارا ثم سلقونى

(١٨٥) طبقات ابن سعد ٣/١١٤–١١٥ .
(١٨٦) مروج الذهب ١/٤٤٠ .
(١٨٧) حلية الاولياء ١/١٧٤ .
(١٨٨) طبقات ابن سعد ٣/١١٥–١٦
(١٨٩) ابن سعد ٣/١١٦ .

فيها ثم وضع رجل رجله على صدرى فما اتقيت الارض ـ وقال : برد الارض ـ الا بظهرى ، قال : ثم كشف عن ظهره فاذا هو برص»[١٩٠] وكان خباب من اصحاب على وشيعته وهو « اول من قبره على بالكوفة وصلى عليه منصرفه من صفين»[١٩١] . وهكذا كان البراء بن عازب وصهيب وبلال وغيرهم ، وهؤلاء كلهم يمثلون طائفة ممن جعلت من على هاديا لها ومرشدا ومرجعا بعد النبى ، وكانت تنظر اليه ايام النبى على انه المرشح الوحيد لتولى هذا المنصب لقرابته القريبة وعلمه الوافر وامتلائه بمعانى الاسلام ومقوماته الاخرى ، وتلك ناحية تمثل الاتجاه الاجتماعى المرتبط بالمستضعفين الذين كان الاسلام لهم درعا وحاميا ، فكان مكانهم مع على لانه يمثل امتداد الاسلام وحرب قريش والتيار الاسلامى الاصيل ، ثم ان عليا فقير مثلهم ولعلنا نذكر كيف كفله النبى (ص) ليخفف عن ابى طالب شيئا من عبء عياله الذى كان يثقله . وكان فى الشيعة فريق اخر ينصر عليا هو الفريق الذى يمثل العصبية القبلية النابعة من طبيعة العربى فلقد رأينا بنى هاشم يمتنعون عن البيعة مع على فى السقيفة ، ومن هنا وجدنا الاركان الاربعة منحصرة فى الفريق الاول الذى تولى عليا بوصفه الرجل الذى يستطيع ان يدير عجلة الاسلام على منهج رسول الله دون خلل او زلل . ولم نجد الاركان تستغرق الهاشميين لان ايمانهم بعلى كان ايمان قرابة ودم اكثر منه ايمان مبدأ وقلب ، فقد ترك عبدالله بن العباس عليا وهو فى اشد الحاجة اليه وذهب الى مكة بما اخذه من مال ، ووجدنا الزبير ثائرا على على بعد مبايعته له وقد كان يعد نفسه من الهاشميين بامه صفية بنت عبدالمطلب[١٩٢] وكان على يقول فيه : « مازال الزبير منا حتى نشأ بنوه فصرفوه عنا »[١٩٣] . ونجد ـ بازاء هذين الهاشميين الخارجين عن

---

(١٩٠) ابن سعد ٣/١١٦ .
(١٩١) ابن سعد ٣/١١٨ .
(١٩٢) الامامة والسياسة ١١ .
(١٩٣) الامامة والسياسة ١١ .

على – شيعيين غريبين هم الاخوان الامويان : خالد وعمرو ابنا سعيد بن العاص وقضية خالد مشهورة يرويها ابن سعد فى طبقاته[١٩٤] وذلك انه خامس من اسلم واول من هاجر الى الحبشة وكان عامل النبى على اليمن حتى توفى (ص) وقد امتنع عن البيعة لابى بكر كما مر بنا ، وكان ابوه ابو احيحة من عتاة اصحاب الاموال فى مكة ، فلما سمع باسلام ابنه لم يستطع المقام فيها « فاعتزل فى ماله بالظريبة نحو الطائف »[١٩٥] .

وهناك فريق شيعى ثالث هم الانصار الذين نصروا النبى ونصروا آله فيما بعد ، والعلة مفهومة من حربهم للقرشيين مع النبى ثم حربهم الامويين الذين هم خلف ذلك السلف فيما بعد ، وكان الامويون – لذلك – من اعدى اعدائهم بما نصروا محمدا فى الوقعة الفاصلة التى ثبت بعدها الاسلام ، ولذلك روى المسعودى انه كان ممن شهد صفين مع على من اصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا منهم سبعة عشر من المهاجرين وسبعون من الانصار ..»[١٩٦] ويروى ايضا انه كان مع على فى الجمل ابو ايوب الانصارى صاحب رسول الله .. وخزيمة بن ثابت الانصارى ذو الشهادتين وقتادة بن ربعى وعمار ابن ياسر وقيس بن سعد بن عبادة ..»[١٩٧] . ويخبرنا الطبرى فى عرضه لصفين انه « عظم من معه من اهل المدينة والانصار»[١٩٨] . وهكذا يتبين لنا ان حركة التشيع انما هى حركة المحافظة على الاسلام ومراقبة تطبيق مبادئه على الوجه الصحيح ، ورأينا ان اكثر الذين التزموا بالعقيدة والمبدأ هم اصحاب المصلحة فى بقاء الاسلام على ما اراد الله والرسول ، فلهم فى ذلك مصلحة تتعلق بحريتهم والمحافظة عليها من عبث من حاربوهم ، ولهم مصلحة

---

(١٩٤) طبقات ابن سعد ٤/٦٨ .
(١٩٥) طبقات ابن سعد ٤/٧٢ .
(١٩٦) مروج الذهب ٢/٣ .
(١٩٧) مروج الذهب ٢/٨ .
(١٩٨) الطبرى ٣/١٠ .

فى بقاء الاسلام على حقيقته دينا يصلح السرائر ويبشر بالمساواة بين بالناس . وكان المستضعفون والعبيد السابقون وابناء الاغنياء المؤمنون برسالة محمد(ص) كالامويين السابقين هم الذين يمثلون الفريق المؤمن بالاسلام نفسه ويهمه ان يبقى كذلك . يضاف الى هؤلاء الانصار الذين تبنوا سياسة النبى فى خلق مركز تجمع ينافس مركز مكة القرشية فكانوا انصار على ايمانا بالاسلام ومثله وتطلبا لمصلحة مادية ومعنوية فى وقت واحد . اما الهاشميون فقد مزجوا العقيدة الاسلامية بنظرهم الى الحق الذى اسبغه الاسلام على على فى استحقاقه للقيادة وجدارته بها ووضعوا ذلك بازاء كون على واحدا منهم عليهم ان ينصروه لان فى ذلك نصرا لهم ولبيتهم الهاشمى ، ثم من يدرى فلعل الظروف فى تقلبها تتيح لهم املا فى الامارة ، وقد حدث ذلك فعلا كما فى حركة ابن الزبير بعد قتل الحسين وحركة العباسيين بعد قتل زيد فان فيهما ابلغ شاهدين على ذلك . وهكذا ينتهى بنا التشيع الاول الى ما رأينا ولكنه سيتغير ويتطور وقد يحيد وسنرى كل ذلك فى موضعه .

وقبل ان ننتقل الى الفصل التالى لابد ان نقرر ما يراه الدكتور على الوردى من « ان البلدان التى سكنها هؤلاء الثلاثة (من الاركان : عمار وسلمان وابو ذر) اصبحت فيما بعد مركزا من مراكز التشيع لعلى بن ابى طالب . فعمار سكن الكوفة يوم كان واليا عليها فى عهد عمر . اما سلمان فقد تولى امر المدائن ، ثم صارت المدائن فيما بعد موطنا للتشيع كما اشار اليه البروفسور ماسينيون[١٩٩] ، وربما انتقل التشيع الى الفرس من هناك . اما ابو ذر فقد نفاه معاوية الى جبل عامل ، ولايزال ذلك الجبل حتى يومنا هذا موطن المتاولة اى الذين يتولون عليا »[٢٠٠] .

---

(١٩٩) شخصيات قلقة فى الاسلام ٤٣ـ٤٤ .
(٢٠٠) وعاظ السلاطين ٢٩٧ .

قبل ان ندخل فى تفاصيل جوانب الامام على الروحيـة والشـخصية ، يحسن بنا ان نلفت الاذهان الى حقيقة قد تكون خافية : ذلك ان الامام عليـا شخص له جانبان : جانب تاريخى يعرفه الناس وتتعرض الكتب العامة له ، وجانب روحى دخلت فيه اضافات قد تكون اسطورية ، ويبدو هذا الجانب عند الشيعة اولا ثم عند المتصوفة . ونستطيع ان نسـمى الجانب الاول بالجانب العام والثانى بالجانب الخاص .

اما الجانب العام فمعروف خلاصته ان الامام قد ولد بعد النبى بثلاثين سنة أى (٦٠١م) [١] ، واسـلم وعمـره عشر سنين فى اليوم الثانى لبعثـة النبى وبعد خديجة مباشرة وانه لم يعبد الاصنام قط لصغـره [٢] ، وانه « كان اقرب الناس اليه (ص) وكان ربيبه وكان خليفته على ودائعه وكان ختنه وابا عقبة وكان صاحب لوائه وكان خليفته فى اهله وكانت منزلته منه بمنزلة هرون من موسى بنص الحديث عن النبى نفسه » [٣] ومن المعروف ايضا ان النبى آخى بينه وبين على [٤] وقال فيه : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه [٥] وان الشيعة قد رأوا فى هذا الحديث ترشيحا لـه لتولى الامر بعد النبى (ص) وان بقية المسلمين لم يوافقوهم على ذلك مستندين الى حديث آخر القاه النبى فى آخر لحظة من حيـاته وكان مبتـورا لان الحاضرين حالوا دون اتمامه ، وذلك هو حديث الخميس [٦] وان النبى(ص) قال فى على : انا مدينة العلم وعلى بابها [٧] . وانه كان مغاليا فى الزهد والعدل [٨]

---

(١) ابطال الاسلام ١٧ .
(٢) طبقات ابن سعد ٣/١٣ .
(٣) الفتنة الكبرى ١٥١ .
(٤) طبقات ابن سعد ٣/١٤ .
(٥) تاريخ اليعقوبى ٢/٩٣ .
(٦) صحيح البخارى ٤/٥
(٧) اصول الكافى ٢١٠ .
(٨) تاريخ التمدن الاسلامى ٢/١٧ .

الى حد انه قسم رغيفا سبعة اسهم[٩] ، وروى ابو طالب المكى انه كان « ازهد الصحابة »[١٠] ، وانه لم يترك صفراء ولا بيضاء الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد ان يشترى بها خادما لاهله[١١] .

اما الجانب الخاص من على(ع) فهو الذى يعنينا فى هذه الرسالة ويندمج على المثل والاوصاف والجوانب الروحية التى اضافها اليه الشيعة اولا ثم المتصوفة حين جعلوا عليا مرجعهم ورأسهم فى التصوف والزهد ، وتلك أمور يحسن بنا ان نقسمها ونفصلها . ويجب ان نقرر - الان - ان الشيعة - كغيرهم من المسلمين - يرون فى على مايراه غيرهم ولكنهم يضيفون اليه اشياء تميزه من زملائه من الصحابة . ويجب ان ننبه الى حقيقة اخرى وهى اننا فى عرضنا لعلى سنبين الافكار التى انتهى اليها التفكير الشيعى وسنترك امر أصولها وبداياتها الى مواضعها المناسبة .

يرى الشيعة انه « لايقاس بآل محمد من هذه الامة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه ابدا . هم اساس الدين وعماد اليقين . اليهم يفىء الغالى وبهم يلحق التالى ، ولهم خصائص حق الولاية والوراثة »[١٢] . بل بل اننا نلمح اعتقاد الشيعة قدم نفوس الائمة واولهم على - فى التفسير المنسوب الى الحسن العسكرى الامام الحادى عشر المتوفى سنة ٢٦٠ - « ان الله لما خلق آدم وسواه وعلمه اسماء كل شىء وعرضه على الملائكة جعل محمدا وعليا وفاطمة والحسن والحسين اشباحا خمسة فى ظهر آدم وكانت انوارهم تضىء فى الآفاق من السموات والحجب والجنان والكرسى والعرش . فامروا مع الملائكة بالسجود لآدم تعظيما له لانه قد فضله بان جعله وعاء لتلك الاشباح

---

(٩) ابن الاثير ٣/٢٠٢ .
(١٠) قوت القلوب ٢/١٩٥ .
(١١) مروج الذهب ٢/٤٢ .
(١٢) نهج البلاغة ١/٢٤_٥ .

التى قد عم أنوارها الآفاق فسجدوا الا ابليس» [١٣] . ويروى الشيعة ايضا عن النبى (ص) ما يفيد خلود الائمة من ابناء على كقدمهم ، فان فى نهج البلاغة انه (ص) قال : « ايها الناس خذوها من خاتم النبيين : انه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلى منا وليس ببال» [١٤] . وسيمر بنا ان فكرة النور هذه بدأت سنة ١٢٨/٧٤٦ من عبدالله بن الحارث واسبغت على عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب الثائر بالكوفة والمتوفى بفارس سنة ١٣٠ ويرد فى هذا التفسير ايضا ان موسى انما فرق البحر بعصاه بعد ان قال : « اللهم بجاه محمد وآله الطيبين الا فلقته» [١٥] ، ويذكر ان « كل فرقة نجت فقد نجت من العذاب بتوسلهم الى الله باسم محمد وآله» [١٦] ، ويرد فى التفسير نفسه « ان الشجرة المحرمة فى الجنة هى شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه» [١٧] . بل ان الحاج معصوم على يروى ان النبى (ص) قال : « اول ما خلق الله نورى واول ما خلق الله روحى ، وقال : انا وعلى من نور واحد ، وقال كلنا واحد وامرنا واحد وسرنا واحد ونحن شىء واحد» [١٨] . ويورد الكلينى « ان الامام ينطق عن الله فى الكتاب وانه اوضح بأئمة الهدى من اهل بيت نبينا (ص) عن دينه وابلج بهم عن سبيل مناهجه وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه وجعلهم مسالك لمعرفته ومعالم لدينه وحجابا بينه وبين خلقه والباب المؤدى الى معرفة حقه اطلعهم على المكنون من غيب سره ..» [١٩] ، وذلك لان الكلينى نفسه يورد عن على بن ابى طالب(ع)» ان الله عز وجل خلق النبيين على النبوة فلا يكونون الا انبياء ، وخلق الله الاوصياء على الوصية فلا يكونون الا اوصياء» [٢٠] ولهذا وجدنا

---

(١٣) تفسير الحسن العسكرى ١٦٢ .
(١٤) نهج البلاغة ١٥٣/١ .
(١٥ـ١٧) تفسير الحسن العسكرى ١٦٢ـ٣ .
(١٨) طرائق الحقائق ٤٣/١ .
(١٩) اصول الكافى ١ .
(٢٠) اصول الكافى ٢ .

عليا برواية الشيعة يقول : « انا آدم وانا نوح وانا ابراهيم وانا موسى وانا عيسى انتقل فى الصور كيف اشاء من رآنى فقد رآهم »[٢١] وتلك صورة تذكرنا بمقالة الحلاج المشهورة .

فاذا ابصرته ابصرتنى واذا ابصرتنى ابصرتنا

ويوضح الامام ذلك بقوله : « ولو ظهرت للناس فى صورة واحدة لهلك فى الناس وقالوا : هو لايزول ولا يتغير ، وانما انا عبد من عباد الله . لا تسمونا اربابا وقولوا فى فضلنا ما شئتم فانكم لن تبلغوا كنه ما جعله الله لنا الا معشار العشر لانا آيات الله ودلائله وحجج الله وخلفاؤه وامناء الله ووجه الله وعين الله ولسان الله ..»[٢٢] . وهذه امور تتصل بتناسخ النور الآلهى الذى قال به عبدالله بن الحارث او هى افكار متأخرة جاءت من الغلو الذى شكل الاسماعيلية بلونه ، وسنرى كل ذلك فى موضعه . ويرد فى (من لايحضره الفقيه) ـ وهو ثانى مراجع الشيعة الرئيسية ـ فى باب صلاة الاستسقاء عن سلمان الفارسى ـ الذى مر بنا تشيعه ـ عن النبى (ص) انه قال : « اجريت الحكمة على لسان اهل بيتى »[٢٣] ، ولفظ اهل البيت كما يورد الشيعة على لسان مفسرهم على بن ابراهيم المنصوص عليهم فى الآية : انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » ، يراد به رسول الله (ص) وعلى (ع) وفاطمة والحسن والحسين برواية ابى الجارود عن ابى جعفر محمد الباقر المتوفى سنة ١١٩/٧٣٧ ، وذلك ان الرسول(ص) دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين ثم البسهم كساء خيبريا ودخل معهم فيه ثم قال : اللهم هؤلاء اهل بيتى الذين وعدتنى بهم ما وعدتنى اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، فقالت ام سلمة ـ التى جرت هذه الواقعة فى دارها ـ وانا

(٢١ ، ٢٢) طرائق الحقائق ١/٤٣ .

(٢٣) من لايحضره الفقيه ، والآية فى سورة الاحزاب : ٣١ .

معهم يا رسول الله ؟ قال : ابشرى يا ام سلمة انت الى خير» [٢٤] . وقد ورد فى الصواعق المحرقة تأييد لهذا التفسير فذكر ابن حجر « ان اكثر المفسرين على ما ذكرنا ويروى عن مسلم انه اورد رواية الكساء بكاملها » [٢٥] . وهذه الآية اساس من اسس العقيدة الشيعية توثقها آية المباهلة : «قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين» [٢٦] برواية ابن حجر ايضا . وذلك انها لما نزلت غدا (ص) محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه وعلى خلفها ، وهؤلاء هم اهل الكساء ، فهم المراد فى آية المباهلة [٢٧] . وبذلك يتضح لنا لماذا يعتبر على من اهل البيت ولا يعتبر كذلك العباس عم النبى(ص) . فملاك الامر اذا ان لدى على استعدادا روحيا وانه صنو لاى نبى فالتسمية هنا تعين الوظيفة ولا تؤثر فى مقام الشخص . ولم يقصد الشيعة بذلك ان عليا احق بالرسالة من النبى وان الرسالة لو لم تكن فى محمد (ص) لكانت فى على : انهم لا يفكرون فى المسألة على هذا النحو كما قد يخيل الى غيرهم ، وانما يوجهون المسألة الى سمو روحى حظى به على من الله نفسه بحكم وجوده فى مهبط الوحى وكونه اخا شخصيا وروحيا للرسول (ص) . وقد ورد ذلك فى اصول الكافى الكتاب الشيعى الاول الذى يجمع اقوال الائمة . قال على : « انا قسيم الله بين الجنة والنار وانا الفاروق الاكبر وانا صاحب العصا والميسم وبهذا أقرت لى جميع الملائكة والروح بمثل ما اقرت لمحمد (ص) ...» [٢٨] ، وشرح الباقر ـ الامام الخامس ـ ذلك بان عليا « جرى له من الطاعة بعد رسول الله والفضل ما لرسول الله ... فان رسول الله باب الله الذى لا يؤتى الا منه وسبيله الذى من سلكه وصل الى الله عز وجل ، وكذلك كان امير المؤمنين من بعده وجرى للائمة واحدا بعد واحد» [٢٨] . ويدل على سمو

---

(٢٤) تفسير على بن ابراهيم ٥٣١ .
(٢٥) الصواعق المحرقة ١٤١ .
(٢٦) آل عمران : ٥٤ .
(٢٧) الصواعق المحرقة ١٤٣ .
(٢٨) اصول الكافى ٣٦ .

مقام على الروحي ما يرد في تفسير على بن ابراهيم من ان الرسول قال لعلي : « ان الله اشهدك معي في سبعة مواطن هي : الاسراء الاول والثاني وفي بعثتي الى الجن وفي ليلة القدر ودعوة النبي لله في على ان يعطى كل شيء فاعطاه الا النبوة وكان مثال على مع الرسول في صلاته بالانبياء في اسرائه الى السماء ، وكان على معه في هلاك الاحزاب»[٢٩] وقد ورد في نص الاسراء انه «اما اول ذلك فليلة اسرى بي الى السماء ، قال لي جبرائيل اين اخوك فقلت : خلفته ورائي قال ادع الله لعله يأتيك به ، فدعوت الله واذا مثالك معي واذا الملائكة وقوف صفوف ، فقلت يا جبرائيل من هؤلاء قال : هم الذين يباهيهم الله بك يوم القيامة ، والثاني حين اسرى بي المرة الثانية فقال جبرائيل اين أخوك قلت : خلفته ورائي قال ادع الله فليأت بك فدعوت الله فاذا مثالك معي فكشط لي عن سبع سموات حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها»[٢٩-] وسيرد مثل ذلك عند ابن قضيب الباب (المتوفى سنة ١٠٤٠ هـ) الذي عرج الى السماء بنفسه [٣٠] واذن فعلي هو رأس البيت بعد النبي وهو اول الائمة وقد اورد اليعقوبي حديثا يبدو وكأن فيه رسما للامام على وصيا واخا روحيا حقا : « قال (ص) لعلي بن ابي طالب (ع) : عليك بالصدق فلا تخرجن من فيك كذبة ابدا والورع فلا تجترىء على خيانة ابدا ، والخوف من الله كانك تراه ، والبكاء من خشية الله يبن لك بكل دمعة بيتا في الجنة ، والاخذ بسنتي [٣١] ولهذا فانه ليس من الغريب ان نجد في كتاب الغيبة للطوسي المتوفى سنة ٤٦٠/١٠٦٨ بعد تبيان فضل النبي(ص) وشرفه ومقامه عبارة تنم عن مقام على نفسه ، « وعلى اخيه امير المؤمنين تاليه في الفضل ومؤازره في اللأواء والازل وسيف الله على اهل الكفر والجهل ... والخازن علمه والمستودع سره والظاهر على مكنون أمره [٣٢] ، ومن هذا يتبين مدى ما

---

(٢٩) تفسير على بن ابراهيم ٦٥٢ .
(٣٠) الانسان الكامل في الاسلام ١٣٥ .
(٣١) تاريخ اليعقوبي ٢/٧٦ .
(٣٢) الغيبة للطوسي ٣ .

للامام على من سمو روحي ومقام رفيع عند الشيعة الذين يقولون فى زيارة قبره : « السلام على ذات الله العليا السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، السلام على المن والسلوى» (٣٣) .

وقد تلقف المتصوفة امثال هذه النصوص واخذوا افكار الغلاة وجعلوها مستند طريقتهم ومثالا للنسج على منواله . والواقع ان نصوصا مثل هـذه تجسم الهدف الذى يرمى اليه المتصوفة من السلوك والمجاهدة وقد دار كل ذلك فى الاصل حول على وهنا نشعر بالتألية وبالحلول . واقل مايمكن ان يقال فى مدلول هذه النصوص ـ ولعل ذلك مقصد واضعها ـ ان عليا يشبه المسيح (ع) روح الله والامر كذلك فعلا ، وهذا سلمان الفارسى الخير فى الروحانيات والنبوات يروى لنا لمناسبة تفسير الآية : « ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون» (٣٤) بينا رسول الله جالس فى اصحابه اذ قال : يدخل عليكم الساعة شبيه عيسى بن مريم ... فدخل على بن ابى طالب »(٣٥) ، وقد تنبّه آدم متز الى هذه الحقيقة فقال : وكثيرا ما نجد فى العراق عام ٩١٣/٣٠٠ من يقول : ان اللاهوتية اجتمعت فى على كما اجتمعت فى عيسى (ع) من قبل ، وكان احد خطباء الشيعة فى بغداد فى عام ١٠٢٩/٤٢٠ يدعو فى خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبى (ص) فيقول : « وعلى اخيه امير المؤمنين على بن ابى طالب مكلم الجمجمة ومحيى الاموات ، البشرى الآلهى مكلم فتية اهل الكهف وغير ذلك من الغلو» (٣٦) . وسنرى بعد قليل ان الصوفية قالوا فيه مقالة الشيعة ايضا ، بل ان الشيعة يوردون لعلى ما ورد للمسيح فى الزانية . فان على بن ابراهيم يروى بصريح العبارة انه « اقام على (ع) الحد على رجل اعترف بزناه وقال مقالة عيسى : ايها الناس هذه حقوق الله لايطلبها الا من كان

---

(٣٣) طرائق الحقائق ١/ ٢١١ .
(٣٤) الزخرف : ٥٧ .
(٣٥) تفسير على بن ابراهيم ٦١١ .
(٣٦) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع لآدم متز وترجمة محمد عبدالهادى ابو ريدة ١/ ٨٢ .

عنده لله حق مثله فانه لايقيم الحد من كان لله عليه الحد فانصرف الناس ،[٣٧] ثم رماه علي والحسن والحسين (ع) • وقد ادت هذه المثل فيما بعد الى نشوء الفرق المؤلهة لعلي بحيث قال قائلهم :

اذا قيل المسيح هو الاله وأحمد مبتداه ومنتهاه

فمولانا على روح احمد احق من المسيح ومن سواه[٣٨]

فاذا ما اغفلنا كل ما ذكرناه وافرغنا منه ذهننا وتوجهنا الى نقطة جديدة فاننا سنجد ان الشيعة قد حاولوا ان يسندوا الامامة والائمة بسند من آيات القرآن نفسه • فان تفسير الآية : الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها [٣٩] ، كما ورد عن الامام محمد الباقر : « الشجرة رسول الله ، ونسبه ثابت في بني هاشم وفرع الشجرة علي بن ابي طالب • وغصن الشجرة فاطمة عليها السلام • وثمرتها الائمة من ولد علي وفاطمة عليهم السلام وشيعتهم سلام الله عليهم ورقها ... » [٤٠] ، يضاف الى ذلك ان علي بن ابراهيم روى كذلك ان آل محمد هم النجوم [٤١] ،

---

(٣٧) تفسير علي بن ابراهيم ٤٥١ •

(٣٨) من مخطوط عند الاستاذ توفيق وهبي •

(٣٩) سورة ابراهيم ٢٤ •

(٤٠) تفسير علي بن ابراهيم ٣٤٥ •

مما يذكر هنا ان المجوس كانوا يرون مثل هذا الرأي في زرادشت • ويحسن أن نثبت النص الذي اورده الشهرستاني دفعا للبس • قال : « وزعموا ان الله ـ عز وجل ـ خلق ، من وقت ما في الصحف الاولى والكتاب الاعلى من ملكوته، خلقا روحانيا • فلما مضت ثلاثة آلاف سنة انفذ مشيئة في صورة من نور يتلألأ على تركيب صورة الانسان وأحف به سبعين من الملائكة المكرمين • وخلق الشمس والقمر والكواكب : أنشأها في أعلى عليين وغرسها في قلعة جبل من جبال اذربيجان يعرف بأسمو يزخر ، ثم مازج شبح زرادشت بقرة فشربه ابو زرادشت فصار نطفة ثم مضغه في رحم امه ، ثم لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر ، ونشأ بعد ذلك الى ان بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله نبيا ورسولا الى الخلق ... » الملل والنحل ٢/٦٨ •

التى تتضمنها الآية : وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر[٤٢] . ويفسر على بن ابراهيم التين بانه رسول الله والزيتون على بن ابى طالب وطور سينين الحسن والحسين وهذا البلد الامين الائمة عليهم السلام[٤٣] ، وكذلك يفسر جعفر الصادق (ع) الامة الوسط الواردة فى الآية « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس »[٤٤] ، فيقول نحن الامة الوسط ونحن شهداء الله على الناس[٤٤-] ، والرجال المذكورون فى الآية : وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، هم الائمة والاعراف كثبان بين الجنة والنار[٤٥] .

هذا قليل من كثير مما يراه الشيعة دالا على الائمة من آيات القرآن ، أما على بن أبى طالب ابو الائمة فله قسمه من الآيات ، فعلى هو النبأ العظيم فى رأى الرضا ـ الامام الثامن ـ[٤٦] وعلى هو النور[٤٧] ، الذى تشير اليه الآية : فامنوا بالله ورسوله والنور انزلنا[٤٨] ، وهو المؤذن الذى تعنيه الآية : فأذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الكافرين[٤٩] ، وهو الغمام الذى تدور حوله الآية : يوم تشقق السماء بالغمام[٥٠] وكذلك الامام الذى تعنيه الآية : اجعلنا للمتقين اماما[٥١] ويشير ابن حجر الى ان عليا سئل وهو على المنبر عن قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا فقال : اللهم غفرا هذه الآية

---

(٤١) تفسير على بن ابراهيم ١٩٩ .
(٤٢) الانعام ٩٧ .
(٤٣) تفسير على بن ابراهيم ٧٣٠ .
(٤٤) اصول الكافى ٤٣ ، والآية فى سورة البقرة : ١٣٧ .
(٤٥) تفسير على بن ابراهيم ٢١٦ .
(٤٦) تفسير على بن ابراهيم ٧١ .
(٤٧) تفسير على بن ابراهيم ٦٨٣ .
(٤٨) التغابن ٨ .
(٤٩) تفسير على بن ابراهيم ٢١٦ ، والآية فى الاعراف : ٤٣ .
(٥٠) تفسير على بن ابراهيم ٤٦٥ ، الفرقان : ٢٥ .
(٥١) تفسير على بن ابراهيم ٤٦٧ ، الفرقان : ٧٤ .

نزلت فى وفى عمى حمزة وفى ابن عمى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب .. واما انا فانتظر اشقاها يخضب هذه من هذه واشار بيده الى لحيته ورأسه ، وقال فى ذلك انه عهد عهده الى حبيبى ابو القاسم[٥٢] ، وسنرى ان المتصوفة يرون بعض ذلك دالا على على ويرون البعض الآخر مما يدل على الائمة عموما دالا عليهم ، وذلك مجال كبير للمناقشة . واذا عرضنا للنصوص التى تروى عن على نفسه وجدناه يقول : « لايكمل للمؤمن ايمانه حتى يعرفنى بالنورانية ، فاذا عرفنى بذلك فهو مؤمن ممتحن امتحن الله قلبه بالايمان وشرح صدره للاسلام ... »[٥٣] ، وهو الذى يقول : « بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الارشية فى الطوى البعيدة»[٥٤]، وترد عن على احاديث غنوصية مليئة بالمصطلحات الصوفية كهذا الحديث الذى يدور بين كميل بن زياد الزاهد الشيعى المشهور المقتول سنة ٨٣ وعلى بن ابى طالب قال على : « الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير اشارة ، قال كميل زدنى بيانا قال : محو الموهوم وصحو المعلوم . فقال : زدنى بيانا قال : هتك الستر لغلبة السر . فقال : زدنى بيانا ، قال : نور يشرق من صبح الازل فيلوح على هياكل التوحيد باثاره فقال : زدنى بيانا ، فقال : اطفئوا السراج فقد طلع الصبح»[٥٥] . ويتضح منهج الامام على فى المعرفة بقوله : « العقل لمراسم العبودية لا لادراك سر الربوبية »[٥٦] ، وذلك يعنى ان عليا ـ كما يوحى هذا النص ـ يرى ان الذوق هو المنهج الذى يصل به الانسان ـ ولم لا نقول السالك هنا ـ فى الوصول الى الحقيقة الآلهية ، اما العقل فهو الذى يستعمل فى ادراك الحلال والحرام وفهم العبادات وما جرى مجراها . وقد

---

(٥٢) الصواعق المحرقة ١٣٣ ، الاحزاب : ٢٣ .
(٥٣) طرائق الحقائق ١/٢١٧ .
(٥٤) نهج البلاغة ١/٣٦ .
(٥٥) روضات الجنات ٥٣٧ .
(٥٦) طرائق الحقائق .

اشتهر عن على قوله : « ان ها هنا لعلما جما ـ وأشار بيده الى صدره ـ لو اصبت له حملة . بل اصبت لقنا غير مأمون عليه مستعملا الة الدين للدنيا ...»[٥٧] ، وكان يقول « سلونى قبل ان تفقدونى ، فلأنا بطرق السماء اعلم منى بطرق الارض» [٥٨] . وورد عنه مايجعل مركزه مغرقا فى النسرية ومن جنس المعرفة التى لايمكن الاطلاع عليها ، وذلك انه يقول : ان امرنا صعب مستصعب لايحمله الا عبد امتحن الله قلبه للايمان ، ولا يعى حديثنا الا صدور امينة واحلام رزينة» [٥٩] .

واذا ما اتجهنا بالنصوص الواردة عن على وجهة اخرى لمحنا فى سهولة ويسر تتلمذه على النبى واخذه عنه وتشبعه بشخصيته وصدوره عن العلم الذى اخذه منه . فان عليا فى حياته التى عاصرت انقلاب الاسلام من فكرة مثالية الى صراع عملى سياسى قد اعاد الى اذهاننا الاسلام الاول الذى كانت ترد فيه الآيات المخوفة من النار المحذرة من العذاب المنذرة الناس بقرب القيامة وقد مست الحاجة الى هذه التحذيرات من على لان من واجبه ان يسدد الخطا وان يدل على الحق ويخوف من المزالق فها هو يقول : « الا وان بليتكم قد عادت قبل هيئتها يوم بعث الله نبيكم (ص)»[٦٠] ، واوضح قصده قائلا : « فالله الله عباد الله ، فان الدنيا ماضية بكم على سنن ، وانتم والساعة فى قرن ، وكأنها قد جاءت بأشراطها وأزفت بأفراطها ووقفت بكم على صراطها ، وكأنها قد اشرفت بزلازلها وأناخت بكلاكلها وانصرمت الدنيا بآهلها ..»[٦١] .

وكان على يتنبأ للمحيطين به كما كان الرسول يفعل ، وتلك صفة لصقت به من تشربه بخلق النبوة ولهذا لم يكن من العبث ولا من التلاعب بالالفاظ قول

---

(٥٧) نهج البلاغة ١٨٧/٢ ، رسائل ابن عربى : كتاب الفناء ص٣ .
(٥٨) نهج البلاغة ١٥٢/٢ .
(٥٩) النهج ١٥٣/٣ .
(٦٠) النهج ٤٣/١ .
(٦١) النهج ١٥٣/٣ .

ضرار الليل وهو يصف عليا فى مجلس معاوية « يتفجر العلم من جوانبه ، تنطف الحكمة من نواحيه» [٦٢] ، ولقد كان على يقول : « سلونى قبل أن تفقدونى فوالذى نفسى بيده لاتسألوننى عن شىء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة الا انبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رجالها ومن يقتل من اهلها قتلا ويموت منها موتا » [٦٣] ، وقد تنبأ لعثمان بالقتل ، وتنبأ لمروان بن الحكم يوم وقع اسيرا يوم الجمل فاطلقه بشفاعة الحسن والحسين بأنه « ستلقى الامة منه يوما أحمر» [٦٤] ، وتنبأ للاسلام بما سيحل به بقوله « ايها الناس سيأتى عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما يكفأ الاناء بما فيه » [٦٥] وتنبأ بأنه سيطلب الى شيعته سبه والبراءة منه فقال : « اما السب فسبونى فانه لى زكاة ولكم نجاة ، واما البراءة فلا تتبرؤا منى فانى ولدت على الفطرة وسبقت الى الايمان والهجرة » [٦٦] ، بل لقد عرف يوم مقتله ان الموت ينتظره ، ويروى لنا المسعودى انه «لم ينم تلك الليلة وأنه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة وهو يقول : والله ماكذبت ولا كذبت وانها الليلة التى وعدت ...» [٦٧] . بل يروى ابو الفرج الاصفهانى انه كان يقول : « ما يحبس اشقاها ؟ فوالذى نفسى بيده لتخضبن هذه من هذه» [٦٨] . ولقد كان من اثر ذلك ان كان لعلى ماكان للنبى من اصحاب يلتفون حوله ويأخذون عنه ويدعون الى امامته . بل كان لعلى رجال يحملون سره فكما كان حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله (ص) كان رشيد الهجرى « قد القى عليه علم البلايا والمنايا فكان يلقى الرجل ويقول له :

---

(٦٢) حلية الاولياء ١/٨٤ .
(٦٣) نهج البلاغة ١/١٨٣ .
(٦٤) نهج البلاغة ١/١٢٠ .
(٦٥) نهج البلاغة ١/١٨٨ .
(٦٦) نهج البلاغة ١/١٠١ .
(٦٧) مروج الذهب ٢/٤٢ .
(٦٨) مقاتل الطالبيين ٣١ .

يا فلان بن فلان تموت ميتة كذا ... الخ»[٦٩] وذلك ان حذيفة كان ايام النفاق يعرف المنافقين ويدل عليهم ، اما رشيد فقد كان فى أيام الاضطهاد يعرف الشهداء فى سبيل المبدأ الشيعى .

وقد كان من تشرب على بخلق النبى وعلمه ان كلام على بن ابى طالب تداخل مع كلام النبى ، كما رأينا من قوله : ان امرنا صعب مستصعب لمن كرهه ، ميسر لمن تبعه» [٧٠] ، والتداخل واضح فى اللفظ والمعنى ، غير ان القرآن والحديث قد اختصرا فى مقالة على فى كلمة واحدة هى : امرنا .

وهذا حديث نبوى يرد باكمله منسوبا الى على [٧١] ، فقد روى عن النبى (ص) – برواية عبدالله بن عمر – انه كان يقول : « اعبدالله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك» [٧٢] ، وقد ردد على هذا القول ايضا حين سئل : «هل نرى ربنا فقال : وكيف نعبد من لم نره »[٧٣] . والرؤية هنا قلبية بالطبع كما يورد السراج « وقد روى عن النبى (ص) انه قال : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وينسب هذا القول الى الامام على كذلك » [٧٤] . ويرى دى بور ان هذا النص انما هو تصرف فى عبارة سقراط : اعرف نفسك ، وقد وردت فى ثوب من المذهب الا فلاطونى الجديد »[٧٥] ، ويرد عن النبى (ص) انه قال : من اصبح وهو على الدنيا حزين ، اصبح على الله ساخطا ، ومن شكا مصيبة نزلت به فانما يشكو ربه ، ومن اتى ذا ميسرة وخشع له لينال من دنياه ذهب ثلثا دينه [٧٦] ، وهذا النص الى عبارة (يشكو ربه) يرد مسندا الى على

---

(٦٩) تاريخ الكوفة ٢٩١ .
(٧٠) صون المنطق والكلام ٤٧ .
(٧١) نهج البلاغة ٢٠/١٠ .
(٧٢) نهج البلاغة ١/١٨٣ .
(٧٣) اللمع ١١٧ .
(٧٤) اللمع ٣٥٠ .
(٧٥) تاريخ الفلسفة الاسلامية ٢٧ .
(٧٦) تاريخ اليعقوبى ٢/٧٨ .

باجمعه » [٧٧] . والغريب ان هذا النص الذى يشارك فى قوله النبى (ص) وعلى (ع) يورده فرقد بن يعقوب السبخى المتوفى سنة ١٣١ منقولا عن التوراة ، والحديث الذى يورده فرقد هو نص حديث النبى كله[٧٨] . واذا ما التفتنا الى زهد على الذى كان اكبر نصير للضعفاء والفقراء والذى التف حوله المساكين كما مر بنا فاننا نجد نصوصا كثيرة تعبر عن روح الاسلام الزهدية التى اريد بها مقاومة التيار المكى الارستقراطى الذى كان النبى يقاومه وكان المكيون يحاولون القضاء عليه باموالهم وارستقراطيتهم . لقد كان على يقول ردا على سؤال من قال له : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقم بصحته ويؤتى من مأمنه؟»[٧٩] ، وكان يقول : المال مادة الشهوات[٨٠] وافضل الزهد اخفاء الزهد [٨١] ، وكان يقول : نوم على يقين خير من صلاة فى شك [٨٢] ، وكان يقول : اهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام [٨٣] . وقد اورد ابو نعيم مجموعة من النصوص الزهدية عن على تبين الى اى حد كان يصدر عن نفس تعاف الراحة والشبع والنوم ، قال : احفظوا عنى خمسا ، فلو ركبتم الابل فى طلبهن لانضيتموهن قبل ان تدركوهن : لايرج عبد الا ربه ، ولا يخف الا ذنبه ولا يستحى جاهل ان يسأل عما لايعلم والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا صبر له [٨٤] . وكان على يرسم للزهاد مستقبل الزهد حين قال : « ان الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وان ضحكوا ويشتد حزنهم

---

(٧٧) نهج البلاغة ١/٢٠٣ .
(٧٨) صفة الصفوة ٥/١٩٦ .
(٧٩) نهج البلاغة ٣/١٧٨ .
(٨٠) نهج البلاغة ٣/١٦٤ .
(٨١) نهج البلاغة ٣/١٥٦
(٨٢) نهج البلاغة ٣/١٧٢ .
(٨٣) نهج البلاغة ٣/١٦٤ .
(٨٤) حلية الاولياء ١/٧٦ .

وان فرحوا ، ويكثر مقتهم انفسهم وان اغتبطوا بما رزقوا» [٨٥] . وروى عنه انه قال «واعلموا انه ليس من شيء الا ويكاد صاحبه يشبع منه ويمله الا الحياة» [٨٦] ، وتلك حكمة بالغة تندمج على حقيقة رائعة حاول الزهاد والمتصوفة ان يطبقوها بتعذيبهم انفسهم واهانتها واتخاذ سلاح المجاهدة . ويروى عن الامام نص زهدى هو الى التصوف اقرب لانه يتضمن مصطلحات صوفية مرصوصة فى خبر يروى عن الامام قال : « اللهم من على بالتوكل عليك والتفويض اليك والرضا بقدرك ، والتسليم لامرك ، حتى لا احب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت يارب العالمين» [٨٧] . وهذا دعاء فى ظاهره ولكنه مجموعة من المصطلحات الصوفية . فالتوكل والتفويض والرضا والتسليم كلها مصطلحات ليس من المعقول ان تتوالى فى نص واحد على سبيل الصدفة . بل وصل على بالتصوف حتى انطقه الحاج معصوم على بتشقيق لفظ التصوف وتعريفه ، فانه يروى انه « سئل على عليه السلام عن معنى التصوف فقال : التصوف مشتق من الصوف وهو ثلاثة احرف : صاد وواو وفاء الصاد صبر وصدق وصفاء والواو ود وورد ووفاء والفاء فقر وفرد وفناء » [٨٨] ومن نافلة القول ان ننفى ورود هذا القول عن على بن ابى طالب لانه ظاهر بيّن ، ولكننا سنجعله مدخلنا الى تعرّض الصوفية لعلى بن ابى طالب واتخاذه شيخا لهم وبخاصة اصحاب الفتوة الذين سنتطرق اليهم فى فصل خاص من هذه الرسالة .

وأول ما نلاحظه فى صلة التصوف بعلى ان كلامه يتداخل مع كلام اسلاف المتصوفة من الزهاد ، وسنجده يتداخل مع كلام الصوفية انفسهم . وأول نص نورده فى هذا المقام ماذكر عن عامر بن عبدالله بن عبد قيس

---

(٨٥) نهج البلاغة ١/٢٣٠ .
(٨٦) نهج البلاغة ٢/٢٣ .
(٨٧) اصول الكافى ٢٧ .
(٨٨) نهج البلاغة ٢/٢٣ .

الزاهد البصرى القديم (المتوفى فى خلافة معاوية) أنه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت الا يقينا » [٨٩] ، وتلك عبارة وردت مسندة الى علي بن ابى طالب [٩٠] ، وهى مأخوذة من الآية : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (سورة ق آية ٢١) .

٢ ـ وورد عن عون بن عبدالله بن عتبة الهذلى الزاهد الكوفى (المتوفى قريب سنة ١١٠/٧٢٨ـ٩) انه قال : ويحى من خطيئة ذهبت شهوتها وبقيت تبعتها عندى » [٩١] ، وذلك مدار قول على بن ابى طالب : « شتان مابين عملين : عمل تذهب لذته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره» [٩٢] .

٣ ـ أما الحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠/٧٢٨ـ٩) فقد قال فيه الشريف الرضى (المتوفى سنة ٤٣٦/١٠٤٤) : « وجميع كلامه من الوعظ وذم الدنيا او جلّه مأخوذ لفظا ومعنى او معنى دون لفظ من كلام أمير المؤمنين على بن ابى طالب » [٩٣] وضرب لذلك امثلة عديدة [٩٤] .

٤ ـ وقد روى عن سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧ـ٨) ، والذى سيكون شيخا للزهاد الكوفيين ، انه قال : « الزهد فى الدنيا قصر الامل : ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء» . [٩٥] وذلك متصل بقول

---

(٨٩) اللمع ٧١ ، فتح الرحمن : ورقة ٦ .

(٩٠) رسائل اخوان الصفا ٣/٣١٨ ، الفتوحات المكية ٣/١٧٤ ، وقد نسب البونى هذه العبارة الى أبى بكر الصديق (شمس المعارف الكبرى ، مصر ١٣١٨ ، ٢/١٠) .

(٩١) صفة الصفوة ٣/٥٦ .

(٩٢) نهج البلاغة ٣/١٧٩ .

(٩٣) أمالى المرتضى ١/١٠٦ .

(٩٤) المصدر نفسه ١/١٠٦ـ١٠٨ .

(٩٥) الرسالة القشيرية ص ٧٣ .

على بن ابى طالب : « ان أخوف ما اخاف اتباع الهوى وطول الامل» [٩٦] . وقد عبر معروف الكرخي (المتوفى سنة ٢٠٠/٨١٥) عن هذا المعنى ايضا بقوله: «نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل» [٩٧] . وقد سمع سفيان يقول : « سلونى عن التفاسير والمناسك فانى بهما عالم » [٩٨] ، وذلك مدار عبارة على المشهورة : « سلونى قبل ان تفقدونى » [٩٩] .

٥ ـ وروى عن عبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣) انه قال: « مثل المؤمن كالولد فى الرحم لايحب الخروج ، فاذا خرج لايحب ان يرجع، فكذا المؤمن فى الدنيا » [١٠٠] ، وذلك تعبير ضعيف عن المعنى الذى أدّاه على بن ابى طالب فى عبارته : « واعلموا انه مامن شيء الا ويكاد صاحبه ان يشبع منه ويمله الا الحياة » [١٠١]

٦ ـ وترد لرابعة العدوية الزاهدة البصرية المشهورة (المتوفاة سنة ١٨٠/٧٩٦) اقوال متعددة فيها هذا التداخل ، ومن ذلك ما اخذه عون الهذلى ـ المار الذكر ـ عن على فى قوله : « شتان ما بين عملين ...» فقد روى عن رابعة أنها قالت : « كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها عندى» [١٠٢] ، والتطابق بين العبارتين ظاهر . وروى عن رابعة انها قالت ايضا : «ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته ـ فأكون كالاجير السوء ـ عبدته حبا له وشوقا اليه» [١٠٣] . وقد وردت هذه المعانى فى عبارة على بن ابى طالب المشهورة ـ التى تنسب

---

(٩٦) حلية الاولياء ٧٦/١ ، كذلك يرد نص مضطرب فى هذا المعنى لعلى فى « الرعاية لحقوق الله » للحاسبى ص ٧٥ .

(٩٧) المصدر نفسه ٣٦١/٨ .

(٩٨) المصدر نفسه ٥٨/٧ .

(٩٩) نهج البلاغة ١٨٣/١ .

(١٠٠) الكواكب الدرية ٧٦/١ .

(١٠١) نهج البلاغة ٢٣/٢ .

(١٠٢ ، ١٠٣) الكواكب الدرية ١٠٩/١ ، قوت القلوب ، مصر ١٣٤٠ ، ٥٧/٢ بنص مقارب .

ايضا الى حفيده على بن الحسين زين العابدين (المتوفى سنة ٩٤/٧١٢-٣) - : « ان قوما عبدوا الله رغبة ، فتلك عبادة التجار . وان قوما عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد . وان قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار» (١٠٤) .

٧ - أما مالك بن دينار الواعظ الزاهد البصرى (المتوفى سنة ١٨١/٧٩٧) فان بين كلامه وكلام على بن ابى طالب تداخلا ملحوظا ولعل ذلك وارد من طبيعة الوعظ والتذكير اللذين كان مالك يأخذ نفسه بهما ويلتزمهما فى المجتمع المتفسخ الذى كان يعيش فيه . فمن ذلك ما جابه به والى البصرة فى أبهته بقوله : « من أعرف بك منى : أما اولك فنطفة مذرة ، واما آخرك فجيفة قذرة ...» (١٠٥) . وهو معنى يتصل بما قاله على بن ابى طالب : « مالابن آدم والفخر وأوله نطفة وآخره جيفة ؟!» (١٠٦) . وقال مالك بن دينار أيضا : «اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة، فانها تسحر قلوب العلماء» (١٠٧)، (يعنى الدنيا) ، وذلك بنفسه ما عبّر عنه على فى قوله - مخاطبا الدنيا - « يا دنيا ، يادنيا ... هيهات هيهات ، غرّى غيرى» (١٠٨) ، وقال : يا صفراء ويا بيضاء غرّى غيرى» (١٠٩) .

٨ - وكان عتبة الغلام - المعاصر لابن دينار - ينظر الى قول على المشهور للدنيا : « قد بتتّك ثلاثا لا رجعة لى فيك » (١١٠) فى خطابه لحورية تخيّلها : « طلقت الدنيا ثلاثا ، لا رجعة لى فيها حتى القاك» (١١١) .

---

(١٠٤) نهج البلاغة ٢/٢٠٦ ، شذرات الذهب ١/١١٥ .
(١٠٥) صفة الصفوة ٣/١٩٩ .
(١٠٦) الكواكب الدرية ١/٤٠ .
(١٠٧) حلية الاولياء ٦/٢٨٧ .
(١٠٨) صفة الصفوة ١/١٢٢ .
(١٠٩) اللمع ص ١٣١ .
(١١٠) صفة الصفوة ١/١٢٢ .
(١١١) الكواكب الدرية ١/١٣٧ .

٩ ـ وقال شقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤/٨١٠) : «اذا كان العالم طامعا وللمال جامعا فبمن يقتدى الجاهل ؟ واذا كان الفقير المشهور بالفقر راغبا فى الدنيا والتنعم بملابسها ومناكحها فبمن يقتدى الراغب حتى يخرج عن رغبته؟ واذا كان الراعى هو الذئب فمن يرعى الغنم» (١١٢) وتلك عبارة طويلة تدخل فى ضرب الامثال على جدوى الزهد ، ليقتدى به المريدون والسالكون فى هذا السبيل . وقد جاء هذا المعنى فى عبارة بسيطة اسندت الى على بن ابى طالب فى قوله : «ان الله أخذ على أئمة الهدى ان يكونوا فى مثل أدنى الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره » (١١٣) .

١٠ ـ ولم يقتصر التداخل فى البيان عن الزهد بين اقوال على والزهاد فقط وانما تعداه الى بناة التصوف ومؤسسيه ايضا : فقد مرّ ما قاله معروف الكرخى : نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل وها هو ذو النون المصرى (المتوفى سنة ٢٤٥/٨٥٩) يعبّر عن معان سبقت نسبتها الى على كقوله : « من اراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه ، لان النفوس كلها فقيرة عند هيبته» (١١٤) . وذلك هو هو ما أشار به على بن ابى طالب على الاشتر النخعى حين ولاّه مصر وتضمنه عهده المشهور اليه ، ومنه : «... واذا احدث لك ما انت فيه من سلطانك ابهة او مخيلة ، فانظر الى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لاتقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن من طماحك ويكفّ عنك غربك ويفىء اليك بما عزب عنك من عقلك » (١١٥) . وقال ذو النون : «ان الله تعالى انطق اللسان بالبيان وامتحنه بالكلام وجعل القلوب أوعية

---

(١١٢) طبقات الشعرانى ١/٦٥ .
(١١٣) احياء العلوم ٤/٢٣٢ ويرد نص مقارب فى تلبيس ابليس لابن الجوزى ، مصر ١٩٢٨ ، ص ٢٠١ .
(١١٤) طبقات الصوفية ص ٢٠ .
(١١٥) نهج البلاغة ٣/٩٤ .

للعلم »[١١٦] ، وهو فى ذلك ينظر الى قول على بن ابى طالب : « القلوب أوعية ، فخيرها أوعاها »[١١٧] وقد أخذ منصور بن عمار ـ من وعاظ الزهاد السابقين ـ هذا التشبيه ايضا فى قوله : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب المتوكلين اوعية الرضى ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع »[١١٨] .

ولذى النون قول آخر يطابق كلاما لعلى سنجعله خاتمة لهذه المجموعة ومدخلا الى مكانة على فى التصوف .

١١ ـ وقد أخذ ابو يزيد البسطامى (المتوفى سنة ٢٦١/٨٧٤-٥) بنصيبه من معانى الامام على ايضا ونظر اليها فى البيان عن مشاعره الروحية ، ومن ذلك قوله : « طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى فيها وصرت الى ربى وحدى »[١١٩] وذلك هو قول على السابق للدنيا .

١٢ ـ وروى ابو عبدالرحمن السلمى (المتوفى سنة ٤١٢/١٠٢١-٢) عن الشبلى (المتوفى سنة ٣٣٤/٩٤٥-٦) انه وقف رجل على حلقته « فسأله هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟ فقال : نعم ، نور يزهر مقارنا النيران فتلوح على الهياكل آثارها »[١٢٠] وتلك صورة أخرى من عبارة لعلى وردت فى محاورته الماضية لكميل وهى تقول : « نور يشرق من صبح الازل فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره » .

ثم يرد قول ظاهر النحل على على ، فقد روى عنه انه قال : « الصوفى

---

(١١٦) طبقات الشعرانى ١/٦٠ .
(١١٧) حلية الاولياء ١/٧٩-٨٠ ، صفة الصفوة ١/١٢٧ ، قوت القلوب ، مصر ١٣١٠ ، ١/١٣٤ ، الكواكب الدرية ١/٤٣ .
(١١٨) كشف المحجوب للهجويرى ص ١٥٨ .
(١١٩) صفة الصفوة ٤/٩٢ .
(١٢٠) الرسالة القشيرية ٣٥ .

من لبس الصوف على الصفا واطعم الهوى طعم الجفا ، وكانت الدنيا منه على القفا ، واستوى عنده الذهب والحجر والفضة والمدر ، والا فالكلب الكوفى خير من ألف صوفى »[١٢١] وهو قول يعترف ناقله بنسبته الى الجنيد البغدادى (المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠) مع تغيير طفيف ، وان كان الكلاباذى يورده مسندا الى على الروذبارى ، ونصه : « الصوفى من لبس الصوف على الصفا ، واطعم الهوى طعم الجفا وكانت الدنيا منه على القفا ، وسلك طريق المصطفى »[١٢٢] . ولعل مما لايحتاج الى دليل نسبة هذه العبارة الى غير على بن ابى طالب .

ونعود فى الختام الى ذى النون فنورد قوله الذى أجّلناه الى هذا الموضع ، وهو متصل بالفكرة الصوفية الدائرة حول درجات العارفين واختلاف معرفتهم ، فورد عنه تقسيم المعرفة الى ثلاثة اقسام : « الاول حظ مشترك بين عامة المسلمين ، والثانى معرفة خاصة بالحكماء والعلماء ، والثالث خاص بالاولياء الذين يرون الله بقلوبهم »[١٢٣] ، ويقابله قول الامام على فى تقسيم الناس – من حيث علمهم – الى ثلاثة بقوله : « الناس ثلاثة ، فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة ، وهمج رعاع اتباع كل ناعق »[١٢٤] ، وتطابق هذين التقسيمين ظاهر بين ، وكل ما بينهما من اختلاف يقوم فى الاصطلاح لا اكثر ولا اقل[١٢٥] ، ولعل هذا التداخل يعكس روح الامام الزهدية

---

(١٢١) روضات الجنات ٢٣١ .
(١٢٢) التعرف ٩ .
(١٢٣) تذكرة الاولياء ١/١٣١ ترجمة .
(١٢٤) حلية الاولياء ١/٧٩ وقوت القلوب (مصر ١٣١٠) ١/١٣٤ .
(١٢٥) ذكر التسترى هذا التقسيم على صورة أخرى أوصلها بالفتن فقسمها الى «فتنة العامة من اضاعة العلم وفتنة الخاصة من الرخص والتأويلات وفتنة أهل المعرفة من أن ملزمهم حق فى وقت فيؤخروه الى وقت ثان» وذلك يعنى قسمة الناس الى اهل المعرفة (فعالم ربانى) والخاصة (متعلم على سبيل نجاة) والعامة (همج رعاع) (طبقات الصوفية ٢١٠) .

ونظرته العميقة الى الامور بحيث يعبر عنها باعمق مما يقوى عليه الانسان العادى ، او لعلها روح المتصوفة التى تبحث عن اساس لطريقتهم فوجدت فى اقوال ازهد الصحابة وافصحهم واورعهم ذخيرة يعتمد عليها فى توثيق اسس الطريقة فوضعت على لسانه اقوالا لم ينطق بها على امل ان تجوز على الناس لما اشتهر به الامام من زهد عملى وبيان بليغ يعبر به عن احداث حياته ومثل الاسلام التى صدر عنها . وهذا الذى قلناه مدخل الى تناول المتصوفة لشخص الامام على مما سنعرض له فى الصفحات التالية . ولابد ان نتئد فى ايراد مقام الامام على عند المتصوفة لئلا يجرفنا سيل هذا البحث الى استطراد مكانه فى التصوف لا فى التشيع .

ولابد لنا ان نفتتح هذا الفصل بمادرة صوفية تصف الامام عليا ، فهذا ابو نعيم يعرض له فى الحلية بقوله : «سيد القوم ، مجد المشهود ومحبوب المعبود باب مدينة العلم والعلوم ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات ، راية المهتدين ونور المطيعين وولى المتقين وامام العادلين ، اقدمهم اجابة وايمانا واقومهم قضية واتقانا واعظمهم حلما واوفرهم علما : على بن ابى طالب كرم الله وجهه قدوة المتقين وزينة العارفين ، المنبىء عن حقائق التوحيد المشير الى لوامع علم التفريد ، صاحب القلب العقول واللسان السؤول والاذن الواعى ، والعهد الوافى ، فقاء عيون الفتن ، ووقى من فنون المحن ...» (١٢٦) . ونستطيع ان نستخلص من رأى ابى نعيم فى على انه مؤمن يحبه الله وعالم بعلم الرسول مطلع على سائر العلوم متصف بصفة الزهاد وخلقهم وعلومهم ، عالم بالظاهر والباطن . وستكون هذه الاشارة الى علمه بالظاهر والباطن امتن صلة تصل الشيعة ـ ممثلين فى تبنيهم لعلم على ـ بالمتصوفة . وقد كان على هو الوحيد من بين الصحابة ـ اذا استثنينا علم حذيفة الجزئى ـ الذى اختص بحمل هذا العلم ، فلم يقل فى احد غير على : انا مدينة العلم وعلى بابها . وقد تنبه

---

(١٢٦) حلية الاولياء ١/٦١ .

السراج المتوفى سنة ٣٧٨ الى هذه الصفة وعرفها لعلى وذكر ان « لامير المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع اصحاب رسول الله(ص) بمعانى جليلة واشارات لطيفة والفاظ مفردة وعبارة وبيان للتوحيد والايمان والعلم وغير ذلك» (١٢٧) ، وبين الكلاباذى ذلك فى قصة ينقلها عن ابى بكر محمد بن على الكتانى قال : « رأيت رسول الله فى عادتى ـ وكانت العادة قد جرت له انه كان يرى النبى كل ليلة اثنين وخميس فى الحلم فيسأله مسائل فيجيبه (ص) عنها ـ قال : « فرأيته قد اقبل ومعه اربعة نفر ، فقال : يا ابا بكر ، اتعرف من هذا ؟ قلت نعم ، هو ابو بكر . ثم قال لى : اتعرف هذا ؟ قلت نعم ، هذا عمر . ثم قال : اتعرف هذا ؟ قلت : نعم ، هو عثمان . ثم قال لى : اتعرف هذا الرابع ؟ فتوقفت ولم اجب . فاعاد على ثانيا ، فتوقفت . واعاد على ثالثا فتوقفت ـ وكان فى قلبى منه غيرة ـ قال : فجمع كفه واشار بها الى ثم بسطها وضرب بها صدرى وقال لى : يا ابا بكر ، قل : هذا على بن ابى طالب ، فقلت : يا رسول الله ، هذا على بن ابى طالب . قال : فاخى ـ عليه السلام ـ بينى وبين على رضى الله عنه ...» (١٢٨) . وتشير القصة الى اخوة على للنبى وقربه منه الى حد ان الكتانى قد ثارت غيرته حتى توقف عن الكلام ، ثم رأينا النبى (ص) ـ كما يقول الكتانى ـ قد ازال عن قلبه الحزن والحسد بمساواته بعلى وبمؤاخاته له ، وفى ذلك الدليل الناصع على مكانة على عند المتصوفة .

ويجب الا نغفل جوهر وصل على بالتصوف ، وذلك ان له علما خاصا اشار اليه ابو طالب المكى بقوله : « وكان عند اهل العلم ان علمهم مخصوص لايصلح الا للخصوص ... » (١٢٩) ويستشهد بقول على بن ابى طالب : « ... حتى يودعوه امثالهم ويزرعوه فى قلوب اشكالهم» (١٢٩-) ، وقد تبنى

---

(١٢٧) اللمع ١٢٩ .
(١٢٨) التعرف ١١٩ .
(١٢٩) قوت القلوب ١/ ٣١ ، ١/ ١٣٤ .

السراج التقسيم الثلاثى للعلم الذى رويناه عن الامام على ، فقد رأى السراج ان « الاول علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود والامر والنهى ، وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم الذى كان يعلم به حذيفة ابن اليمان ... وعلم خص به رسول الله لم يشاركه فيه احد» (١٣٠) ، وقد وضع عليا فى المنزلة التى كانت لحذيفة وروى عنه انه قال : « علمنى رسول الله (ص) سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك احدا غيرى »(١٣١) . وهكذا يفصل السراج بين علم على وعلم الرسول وذلك لانه ليس شيعيا ،ولكنه ـ مع ذلك ـ جعل علم على فى مقام لايدانيه فيه علم معاصريه ولا حذيفة بن اليمان نفسه وهذا العلم بالباطن قد نسب الى الامام على حتى ان السلمى (المتوفى سنة ٤١٠/١٠١٩ـ٢٠) افتتح كتابه فى التفسير بايراد تقسيم رباعى لدلالات الايات يسنده الى على ويروى عنه انه قال : « ما من آية الا ولها اربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع . فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها » (١٣٢) . ويجدر بنا ان نذكر ان هذا التقسيم نفسه قد ورد فى تفسير التسترى المتوفى سنة ٢٧٥/٨٨٨ ولكنه لم يسنده الى الامام على (١٣٣) . ويصحح الجنيد هذه النقط ويضيف الى الامام على انه قد اعطى العلم اللدنى ، وقد كان الجنيد المتوفى سنة ٢٩٨/٩١٠ـ١١ يقول برواية ابى على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢/٩٤٣ : «رضوان الله على أمير المؤمنين ، لولا انه اشتغل بالحروب لافادنا من علمنا هذا معانى كثيرة » ثم يقارن بين على والخضر ويجعلهما بمنزلة واحدة ويبين ان هذا العلم اللدنى « كان الخضر حظى به بقول الله : وعلمناه من لدنا علما » (١٣٤) فكأن الجنيد يرى ان علم على لم يأته تعلما وانما هو توفيق آلهى حظى به ، وقد

(١٣٠ ـ ١٣١) اللمع ٣٧٨ .
(١٣٢) حقائق التفسير ٣ .
(١٣٣) تفسير التسترى ٣ .
(١٣٤) اللمع ١٢٩ .

رأينا الجنيد يعترف بان عليا كان يمكن ان يفيد معانى كثيرة فى علم التصوف ، فعلم على من جنس علم الصوفية وعلى - بذلك - رأس من رؤوس التصوف باعتراف الجنيد ولكن انشغاله بالحروب لم يجعل رئاسته كاملة فهى رئاسة مقترنة بالقدم الزمنى على كل حال • وينبهنا نيكلسون الى ان التصوف ليس فى الحقيقة الا العلم الباطن الذى ورثه على بن ابى طالب عن النبى (١٣٥)، ويرد فى تذكرة الاولياء تزكية اخرى لصوفية على ومشيخته لهم وصدوره عن مشربهم ، فان الجنيد قد خاطب احد العلويين بقوله : «لقد حارب ابوك (على ابن ابى طالب) بسيفين : حارب الكفار بالاول ونفسه بالثانى »(١٣٦) • واذا تبينا ان ابا طالب المكى قال : «على ازهد الصحابة» (١٣٧) ، وان الغزالى جعله زاهدا مثاليا وقدوة للزهاد بنقله عنه انه قال : «ان الله اخذ على ائمة الهدى ان يكونوا فى مثل ادنى الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بالفقير فقره»(١٣٨)، وانه جعل الزهد بتكليف من الله عرفنا الى اى حد كان لعلى يد على التصوف واسسه العملية والمعنوية • وبعد ان دخل على فى التصوف اخذ المتصوفة فى ايراد اخباره وكأنه واحد منهم كما روى رويم البغدادى المتوفى سنة ٣٠٣ انه (ع) «سمع صوت ناقوس فقال لاصحابه : اتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا : لا ، قال انه يقول : سبحان الله حقا حقا ان المولى صمد يبقى»(١٣٩) ، بل اننا نجد عند الحلاج حين كبست اوراقه «صورة فيها اسم الله مكتوب على تعويج وفى داخل التعويج مكتوب : « على عليه السلام » كتابة لا يقف عليها الا من تأملها » (١٤٠) ، ووجدنا ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ يعود بنا الى العلم الباطن والتأويل فيقول فى تائيته الكبرى :

---

(١٣٥) فى التصوف الاسلامى ٧٦ •
(١٣٦) تذكرة الاولياء ٢/١٩ (ترجمة) •
(١٣٧) قوت القلوب ٢/١٩٥ •
(١٣٨) احياء العلوم ٤/٢٢٢ •
(١٣٩) الرسالة القشيرية ٢٠٤ •
(١٤٠) اربعة نصوص غير منشورة تتعلق بالحلاج ٦ •

واوضح بالتأويل ما كان مشكلا على بعلم ناله بالوصية[١٤١]

ونجد ابن عربى يفسر النبأ العظيم فى آية : عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم • بأن «النبأ العظيم هو القيامة الكبرى ولذلك قيل فى أمير المؤمنين على : هو النبأ العظيم وفلك نوح ، اى الجمع والتفصيل ـ باعتبار الحقيقة والشريعة ـ لكونه جامعا لهما »[١٤٢] •

ولم يقتصر ابن عربى على ذلك بل أخذ حديث « انت منى بمنزلة هرون من موسى » الوارد فى على ورجع به القهقرى الى هرون ـ وصلا له بعلى وتأكيدا لهذا الصدور ـ فسمى هرون بالسيد [١٤٣] كما يفعل المسلمون مع العلويين • واذا تعرض لهرون « فى نقش الفصوص » سماه بالامام كتسمية على وسمى الفصل الخاص بمقام هرون «حكمة امامية فى كلمة هرونية» [١٤٤] ، ثم يقول : «هرون لموسى بمنزلة نواب محمد بعد انفصاله الى ربّه ، فلينظر الوارث من ورث وفيما استنيب »[١٤٥] وتلك اشارة صريحة الى هذا الاتصال وان كانت مبطنة بتكثير النواب • ويتأكد هذا الوصل لعلى بهرون فى « رسالة الاسراء الى مقام الاسرى » حين يسمى سماء هرون ـ فى اسراء ابن عربى ـ بسماء الشرطة [١٤٦] وصلا بشرطة الخميس [١٤٧] وهم جماعة على الذين عاهدوه يوم الجمل على الموت فى سبيل ما يرونه حقا له • ويوضح

---

(١٤١) ديوان ابن الفارض ٦٠ •

(١٤٢) تفسير ابن عربى ٢/١٨٤ •

(١٤٣) الفتوحات المكية ، الباب ٣٦٩ ، رسائل ابن عربى : رسالة الاسراء الى مقام الاسرى ٢٣ •

(١٤٤ ، ١٤٥) رسائل ابن عربى : كتاب نقش الفصوص ١١٠ •

(١٤٦) المصدر نفسه كتاب الاسرا الى مقام الاسرى ٢٣ •

(١٤٧) الفهرست لابن النديم ٢٤٩ ، معرفة أخبار الرجال للكشى ، طبع بمبى ٦٨ ، بحار الانوار للمجلسى ، ، ايران ١٣٠٧ ، ٩/٦٣٦ ، ٦٤٣ ، ٨/٧٢٥ ، ٧٢٧ •

ابن عربى ذلك باشارته الى هرون بأنه « الخليفة العلى المنيع » ثم اشارته الى النور المحمدى وكون محمد وعلى من نور واحد بقوله : « فسوى بينهما فى النور والضياء»[١٤٨] . ثم لم يكتف بذلك وانما نص فى عرضه للمؤاخاة ذلك : « وقد آخى رسول الله (ص) بين اصحابه بدار الخيزران وأخذ بيد على وقال : هذا أخى » . ثم ربط ابن عربى هذا الحادث بما كان بين موسى وهرون فذكر أن موسى قال لربه حين بعثه الى فرعون : « رب اشرح لى صدرى ، الآية ، واشركه فى أمرى فآتاه الله سؤله »[١٤٩] وهذا كله يقطع الشك باليقين ويبين الى اى عمق غاص ابن عربى مع الشيعة والى اى مدى استفاد منهم .

ونجد جلال الدين الرومى المتوفى سنة ٦٧٢/١٢٣٤-٣٥ يقول فى على :

منذ كانت صورة تركيب العالم كان على
منذ نقشت الارض وكان الزمان كان على
ذلك الفاتح الذى انتزع باب خيبر بحملة واحدة . كان على
كلما تأملت فى الآفاق ونظرت فيها ايقنت بانه فى الموجودات كان على
ان من كان هو الوجود ، ولولاه لسرى العدم فى العالم الموجود . كانه على

---

(١٤٨) رسائل ابن عربى : كتاب الاسرا الى مقام الاسرى ٢٣ .
(١٤٩) الفتوحات المكية ٣/١٧٤ .

ان سر العالمين الظاهر والباطن

الذى بدا فى شمس تبريز كانه على (١٤٩)

ولعلنا لاحظنا اننا كلما اوغلنا فى الزمان وتقدمنا فيه ، تطورت افكار الصوفية فى على واقتربت مما رآه الغلاة فى الائمة ، فالبكتاشية يعتقدون بان الحق ومحمدا وعليا أوجه لحقيقة واحدة هى «حق محمد على» (١٥٠) . ثم نجد الشعرانى يروى عن الولى على وفا انه كان يقول : « ان على بن ابى طالب رضى الله عنه رفع كما رفع عيسى عليه السلام وسينزل كما نزل عيسى» (١٥١) واورد الشعرانى كذلك ان عليا الخواص كان يقول : « ان نوحا عليه السلام ابقى من السفينة لوحا على اسم على بن ابى طالب يرفع الى السماء . فلم يزل محفوظا فى صيانة القدرة حتى رفع على بن ابى طالب رضى الله عنه (١٥١) ، بل لقد وجدنا بعد القرن السادس والسابع متصوفة يزيد من مقامهم انهم علويون كعبدالقادر الجيلى المتوفى سنة ٥٦٠/١١٦٤-٦٢ (١٥٢) والسيد احمد الرفاعى المتوفى سنة ٥٧٠/١١٧٤-٧٥ (١٥٣) والسيد احمد البدوى المتوفى سنة ٦٣٨/١٢٤٠-٤١ (١٥٤) وأبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦/١٢٥٨ (١٥٥) وابراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦/١٢٧٧ (١٥٦) وعبدالوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣/١٥٦٥ (١٥٧) والشيخ على الخواص

---

(١٤٩) غزليات شمس تبريزى ، طهران ١٣٣٨/١٩٤٩ ، ابيات مختارة ٢٥٩ - ٢٦٣ (ترجمة) .

(١٥٠) بحث الاستاذ توفيق وهبى .

(١٥١) طبقات الشعرانى ٢/٥٩ .

(١٥٢) طبقات الشعرانى ١/١٠٨ .

(١٥٣، ١٥٤) طبقات الشعرانى ١/١٥٧ .

(١٥٥) كتاب القصد للشاذلى (مخطوط) ورقة ٩٤ ب .

(١٥٦) طبقات الشعرانى ١/١٥٨ .

(١٥٧) الشعرانى للدكتور توفيق الطويل ١٦٦ . ويقول عبدالرؤوف المناوى فى الكواكب الدرية (المخطوط) : الشعرانى من ذرية الامام محمد بن الحنفية (ورقة ٣٣٦ ب) .

ـ استاذ الشعرانى ـ [١٥٨] وابن قضيب البان الموصلى (المتوفى سنة ١٠٤٠/١٦٢٨) [١٥٩] وغيرهم كثير ، ومن المعروف ان عبدالكريم الجيلى من نسل الشيخ عبدالقادر فهو علوى مثله .

بل لقد جعل عبدالقادر الجيلى المشيخة وراثية كالامامة فورث شأنه وطريقته ابناؤه : عبدالوهاب وعبدالعزيز وعبدالجبار [١٦٠] ، وان كان القفطى يورد له نسبا فارسيا حين يعرض لابنه عبدالسلام فيقول : عبدالسلام بن عبدالقادر بن ابى صالح بن جنكى دوست بن ابى عبدالله الجيلى ، فيقدح ـ بذلك ـ جده جنكى دوست ـ فى رأى القفطى ـ فى نسبه العلوى [١٦١] .

وهكذا دخل على التصوف حتى صار اساسا من اسسه لايمارى فيه احد وقد رسخ ذلك حتى وجدنا ابن خلدون ـ فى معرض تناوله موضوع تأثير الشيعة فى التصوف ـ يقول : « حتى جعلوا مستند طريقتهم فى لبس الخرقة ان عليا رضى الله عنه البسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة ، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم » [١٦٢] . ويقول شيعى متأخر اسلم بعد يهودية : « وقد عرفت ان ارباب هذا الفن فى جميع بلاء الاسلام اليه (يعنى عليا) ينتهون وعليه يقفون . وقد خرج بذلك الشبلى والجنيد والسرى

---

(١٥٨) خلاصة الاثر فى أعيان القرن الحادى عشر ٢/٤١٦ .
(١٥٩) المصدر نفسه ٢/٤٦٥ .
(١٦٠) روضات الجنات ٤٤٢ .
(١٦١) ورد فى المخطوط فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن هذه القطعة منسوبة الى الشيخ عبدالقادر (الورقة ١٧٧ ب) .

رتبتى أعلى المراتب شربتى أعلى المشارب
كنيتى أعلى المناسب لم أزل قطبا مكرم
خطوتى الدنيا ، وجندى قد سموا بالجود عندى
والتهامى صار جدى أشرف الخلق المعظم

(١٦٢) مقدمة ابن خلدون ٣٢٣ .

وابو يزيد البسطامى وابو محفوظ الكرخى وغيرهم . ويكفيك دلالة على ذلك الخرقة التى هى شعارهم يسندونها باسناد يفيض اليه» (١٦٣) . وينتهى الحاج معصوم على – وهو نفسه متصوف – الى الغاية حين يقول : «لابد لكل سلسلة من سلاسل التصوف من الازل الى الابد ، ومن آدم الى انقراض الدنيا ان تكون متصلة بسيد العالمين وامير المؤمنين او بواحد من ائمة الانام عليه وعليهم السلام» (١٦٤) . ولن ندخل فى هذه التفاصيل لان لها موضعا فى التصوف سيأتى اوانه ومكانه ، ولكن يجب ان نذكر ايضا ان عليا – وهو الفارس الزاهد العالم – قد كان مثلا اعلى للفتوة والفتيان الذين هم فى جوهرهم نوع من المتصوفة لهم مشرب آخر . وقد جاء فى المنشور الذى اصدره الخليفة العباسى الناصر لدين الله – حين اهدر الفتوة وجعل نفسه رأسها فى سنة ٦٠٤/١٢٠٧–٨ – : « بسم الله الرحمن الرحيم : من المعلوم الذى لايتبارى فى صحته ولا يرتاب فى براهينه ان امير المؤمنين (ك) هو اصل الفتوة ومنبعها ومنجم اوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره تنتسب الفتيان ، وعلى منوال مؤاخاته النبوية الشريفة نسج الرفقاء والاخوان ...» (١٦٥) .

اما بعد فهذا مقام على بن ابى طالب (ع) من التصوف والصوفية ، وكان مرده الى زهده الظاهر النابع من ارادة له وفهم للحياة على انها معنى يجب ان يعبر عنه على هذا النحو . ويرجع مقام على فى التصوف الى علمه الواسع والروايات الكثيرة الدائرة حول اشتماله على العلم اللدنى الباطن . وكان لمؤاخاته النبوية اثر فعال فى تأثر التصوف بشخص الامام فانهم قد ارتفعوا بهذه الاخوة المادية الى اخوة روحية اسبغوا عليها مثلهم العليا .

---

(١٦٣) رسالة يوحنا بن اسرائيل ٨ .
(١٦٤) طرائق الحقائق ١/ ٢٥١ .
(١٦٥) الجامع المختصر ٩/ ٢٣٤ .

ولم يدخل على التصوف وحده وانما كان لاولاده ادوارهم فيه مما سيتبين حين نعرض لكل واحد منهم • ويجب الا ننسى – ونحن فى ختام بحثنا عن على – انه كان كأصحابه الشيعة الاوائل فى حرصه على صب الاسلام فى القالب الذى اراده الله له والنبى ، وانه نذر نفسه للاسلام والمسلمين وضحى بالدنيا وبالجاه وبالمال ، بل لقد ضحى بزعامته الظاهرة للمسلمين وقدرته على الوصول الى كرسى الحكم – ان شاء – فى سبيل ان يرى الاسلام على حقيقته فاتجه بالنصيحة للخلفاء والمسلمين لادراك بغيته السامية • والسيد امير على يحدثنا بأنه « فيما كان الاسلام ينتشر وتخفق رايته على ربوع تلك الامصار كان على بن ابى طالب يصرف جهوده فى المدينة لتوجيه النشاط فى العنصر الناشىء الى الناحية العلمية ، فشرع – مع ابن عمه عبدالله بن عباس – فى القاء محاضرات اسبوعية فى المسجد الجامع (يقصد مسجد الكوفة)» (١٦٦) ، « وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التى ترعرعت وزهت بعد حين فى بغداد عاصمة العباسيين»(١٦٧) وقد ورث هذه المهمة ولده فيما بعد كما سنرى •

وكان على بن ابى طالب محبا للناس محبا لزملائه من الخلفاء على عكس ما آل الامر بالشيعة من بعده حين تسلحوا بسلاح الكره والحقد حفاظا على حياتهم • وابسط دليل على ذلك ان عليا سمى ابناءه بعد الحسن والحسين بأحب الاسماء اليه : محمد ، ثم رأينا الاسماء تترى : العباس ، ابا بكر ، عمر ، عثمان وهكذا » (١٦٨) •

وقتل على فى النهاية سنة ٤٠ فى سبيل عقيدته ، فصار موته كحياته موتين : موتا طبيعيا عاما وموتا اسطوريا خاصا ، فقيل فى موته الاسطورى الذى يتسق مع حياته التى تناولها بحثنا انه « حمل فى تابوت على جمل وان

(١٦٦ ، ١٦٧) مختصر تاريخ الاسلام ٤٣ •

(١٦٨) مقاتل الطالبيين ٨٣ •

الجمل تاه ووقع الى وادى طىء »[١٦٩] ، ويذكر ابن حجر عن ابن عساكر انه « لما قتل حملوه ليدفنوه مع رسول الله . فبينما هم فى مسيرهم ليلا اذ ند الجمل الذى هو عليه ، فلم يدر اين ذهب ، ولم يقدر عليه . فلذلك يقول اهل اهل العراق : هو فى السحاب ، وقال غيرهم : ان البعير وقع فى بلاد طىء فأخذوه ودفنوه»[١٧٠] . ثم تلقف البكتاشية – وهم متصوفة شيعة – هذه الاسطورة وصاغوها صياغة جديدة تناسب مقام على فى التصوف فقالوا : « انه نشر من جديد وظهر ملثما على جمل وقاد جنازته بنفسه الى مدفنها»[١٧١] .

---

(١٦٩) مروج الذهب ٢/٢ .
(١٧٠) الصواعق المحرقة ١٣٢ .
(١٧١) خطط الكوفة ٣٣ (هامش) .

الفصل الثاني

تميز التشيع وتطوره

الشيعة بعد على

بدأ بقتل على دور جديد صب التشيع فى قالبه ، فبعد ان كان التشيع ايجابيا لم ينكر احد صلته الوثقى بالمثل الاسلامية التى كان الشيعة الاوائل قدوة الناس فيها ، دخل التشيع فى دور الخوف والانكماش والفزع والسلبية بعد ان انتصر معاوية : ممثل التيار المقابل على على فى صفين ثم ساعدته الظروف فقتل على واستتب له الامر • لقد لمس على قبل قتله انحدار المثل الاسلامية الى المصلحية والامر الواقع فقال فى مرارة قاتلة : «الا ان بليتكم قد عادت قبل هيئتها يوم بعث الله نبيكم» (١) وهذا المعنى قاس حقا ومثير وداع الى التأمل • فان عليا يعنى انه قد تبدد كل ما بناه المسلمون الاولون وذهب كل ما سعى الاسلام لاقراره فى العرب وغيرهم وعاد الاسلام وقد صار قناعا ممزقا لم يبق منه الا رسومه اما الجوهر فقد دفن مع من مات من المسلمين الاولين • وزاد الشيعة شقاء تنازل الحسن لمعاوية سنة ٤١/٦٦١-٦٢ ، فصاروا فى حاجة الى الشفاعة والضراعة لانهم وقعوا فى قبضة عدوهم ، وكانت حجة الحسن فى تنازله قوله : « ... كرهت ان اقتلكم على الملك» (٢) واراد من ذلك فى الواقع ان يبقى اهل البيت - بعد قلة ناصرهم - قدوة للاسلام ومثابة ومرجعا وفى مكان مستقل عن الطمع والمادة وكان يرى ان هذا هو السبيل الوحيد الى اعادة الامور الى نصابها : بالحسنى والموعظة الحسنة • ولكن معاوية قد

(١) نهج البلاغة ١/٤٢-٤٣ •
(٢) الصواعق المحرقة ١٣٥ •

اختط خطة اخرى اراد بها ان يعفى على آثار على واولاده الذين هم بقية النبى خصمه القديم وخصم ابيه وخصم الارستقراطية المكية القديمة ، فأمر عماله الا يجيزوا لاحد من شيعة على واهل بيته شهادة» [٣] وامر بحرمان كل من عرف منه موالاة على من العطاء واسقاطه من الديوان والتنكيل به وهدم داره »[٤] ، وكان المغيرة « يأتى ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم» وقد تعاظم الناس هذا اللعن حتى سألوا معاوية ان يكف عنه وكانوا يظنون الامر مجرد غيظ يريد اطفاءه وفاتهم انه كان يرى عليا امتدادا لشخص محمد وكان يريد من سب على سب مثل محمد - التى لايستطيع التعرض لها - فسار فى الشوط الى نهايته مستهدفا من هذه الحال ان « يربو عليها الصغير ويهرم الكبير ولا يذكر له ذاكر فضلا» [٦] وقد نجح معاوية فى ذلك نجاحا باهرا ولكن فى محيطه الشامى فقط. حتى لقد رفض اهل حران ان يكفوا عن لعن على حين منعهم عمر بن عبدالعزيز وقالوا : « لا صلاة الا بلعن ابى تراب» [٧] وكان من اهل الشام قوم يرون ان ابا تراب هذا « لص من لصوص الفتن» [٨] . ولم يقتصر الامر على هذا بل تعداه الى الحرب بالتأويل الذى احس خطره عمار بن ياسر فى صفين وحارب معاوية ليرده عن ذلك وقد رأينا ابا ذر يلاحظ ذلك ايضا ايام عثمان فجعل معاوية يبذل الاموال فى هذا السبيل الى حد انه اعطى سمرة بن جندب نائب زياد على البصرة اربعمائة الف درهم ليروى ان عليا هو المقصود بالاية : ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو الد الخصام ،

---

(٣) الطبرى ١٤٢/٦ .
(٤) ابن ابى الحديد ١٦/٣ .
(٥) الطبرى ١٤٢/٦ .
(٦) نهج البلاغة (لابن ابى الحديد) ٣٥٦/١ .
(٧) المصدر نفسه ٢٠٢/٢ .
(٧) المصدر نفسه ٢٠٢/٢ ، فى كتاب المناقب من صحيح البخارى ان النبى هو الذى نعت عليا بابى تراب .

واذا تولى سعى فى الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل»[٩] ، وان قاتل على هو المقصود بالاية : ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله [١٠]، وكان من اعوان معاوية على تحقيق هذا الهدف ابو هريرة وعمرو بن العاص وعروة بن الزبير[١١] . وقد ظهر اتجاه معاوية المضاد حين اختار القدس (التى كان يتجه اليها المسلمون فى صلاتهم قبل مكة) مكانا لاخذ البيعة له «فصعد الى الجلجلة (حيث صلب المسيح) وقعد فيها وصلى ثم تقدم الى الجسمانية ثم انحدر الى قبر القديسة مريم حيث صلى ايضا »[١٢] وهكذا التنقل فى المقامات المسيحية يبين ان معاوية قد جعل القدس مقابل مكة التى خرج منها ابوه وخرج سلطانها من يد قومه الى محمد . فلما عاد اليه السلطان ورأى انه لايستطيع العودة اليها من جديد اختار مكانا آخر يوازى مكة فى القدسية والحرمة تدليلا على ان كفاحه قد اثمر وانه قد استعاد السلطان القديم واعاد النظام القديم ، ولعل من اطرف ما يقال فى هذا المجال ان الشاعر المسيحى الاخطل هو الذى يعلمنا ناحية خافية من اعمال معاوية بقوله :

وطدت لنا دين النبى محمد بحلمك اذ هرت سفاها كلابها»[١٣]

ومن عجب ان ابن خلدون قد غض النظر عن كل ذلك وقال فى استخلاف معاوية ليزيد « ... فلم يكن ليعهد اليه وهو يعتقد ماكان عليه من

---

(٩) البقرة : ٢٠٤ .

(١٠) نهج البلاغة (لابن ابى الحديد) ١/ ٣٦١ ، والاية فى سورة البقرة : ٢٠٧ ويروى فى كتب الفرق ان الخوارج هم الذين قالوا بذلك ، ويذكر الاشعرى أنهم اتباع حفص بن ابى المقدام من الاباضية (مقالات الاسلاميين ١/ ١٠٢) .

(١١) المصدر نفسه ١/ ٣٥٨ .

(١٢) الدولة العربية وسقوطها ٨٥ .

(١٣) وعاظ السلاطين ٣٤١ نقلا عن « معاوية بن ابى سفيان» لانيس النصولى ٦١ (اقتباسا من كتاب الاغانى ١٣-٤٥ ، ٣) ولم نجد البيت المذكور فى ديوان الاخطل .

الفسق حاشا لمعاوية من ذلك ... »[١٤] .

وبدأ الاضطهاد فى العراق بقتل حجر بن عدى الكندى صنو الاشعث بن قيس[١٥] وعمرو بن الحمق الخزاعى اللذين اشتركا فى التوقيع على صك التحكيم بوصفهما من عظماء اصحاب على[١٦] وقتل معهما ستة من اعوان حجر وكان من حظ احدهم ان يدفن حيا وهو عبدالرحمن بن حسان[١٧]

وقد اثار هذا الارهاب الهلع والفزع وطير الشائعات وركب فى النفوس الخوف من القدر وجعلت الخرافات والتطيرات تملآن الجو فى الكوفة ، وغدا من فى الكوفة وقد ذهبت منتهم وخارت قوتهم وسالت نفوسهم ، وكأن لم يكن منهم ذلك الجهاد والجلاد وصارت مقاومتهم لزياد عامل معاوية عليهم امانى يتمنونها واحلاما تدور فى اذهانهم الى حد ان موت زياد صار مصداقا لاسطورة رسمها الهلع واحلام اليقظة من ان شيئا طويلا يسمى بالنقاد ذى الرقبة دخل على زياد فى قصره « فما كان مقدار ساعة حتى خرج خارج من القصر فقال : انصرفوا فان الامير عنكم مشغول ، واذا به قد اصابه ما ذكرنا من البلاء (الفالج)»[١٧-] . واستمر القتل واتخذ بالنسبة للضحايا شكلا روحيا معنويا فرأينا ميثما التمار وهو عبد اعتقه على يقول قبل قتله : ان عليا قال له « تؤخذ بعدى فتصلب وتطعن بحربة ... وتصلب عاشر عشرة ... »[١٨] فيكون الامام قد تنبأ للتسعة المقتولين قبله بمصائرهم ايضا . وكان الشهيد الاخر من

---

(١٤) مقدمة ابن خلدون ٣٠٦ . من العجيب حقا ان الغزالى كان يرى ان عليا « هو الذى جر العساكر والجنود فى زمان معاوية حتى قتل من أبطال الاسلام فى تلك المعارك ألوف ولم يكترث بقتلهم ... » كل ذلك أرضاء للعباسيين خصوم معاصريهم ومنافسيهم الفاطميين (فضائح الباطنية ، تحقيق جولد تسيهر ، ليدن ١٩١٦ ، ص ٦٣) .

(١٥) مروج الذهب ٢/٦٧ .

(١٦) الاخبار الطوال ١٨٢ .

(١٧) مروج الذهب ٢/٦٩ .

(١٨) الاصابة ٢١٧ .

طراز حذيفة بن اليمان صاحب السر ، فهذا صاحب سر النبى ورشيد الهجرى صاحب سر على وتلك ناحية تعكس الصلة بين التشيع الاول والاسلام الاول .

لقد كان رشيد يسمى « رشيد البلايا ... وكان قد القى عليه علم البلايا والمنايا ، فكان يلقى الرجل ويقول له : يا فلان بن فلان تموت ميتة كذا ، وانت يا فلان تقتل قتلة كذا فيكون الامر كما قاله راشد رحمه الله»(١٩) وقد قال له على : « يا رشيد انت معى فى الدنيا والاخرة » . ونعود الى أمر حجر واصحابه المقتولين ، وهذه الجماعة مهمة جدا فى تاريخ التشيع وتاريخ الاسلام كما سنرى الان .

لقد كانت هذه الانتفاضة اول حركة يضاد بها الشيعة الامويين بعد قمعهم وقتل زعيمهم بعشر سنين وقد جاء فى كتاب الاتهام الذى ارسله زياد الى معاوية عند توجيههم الى الشام : « ... ان طواغيت من هذه الترابية (نسبة الى ابى تراب : على) السبئية رأسهم حجر بن عدى خالفوا امير المؤمنين وفارقوا جماعة المسلمين ونصبوا لنا الحرب »(٢٠) ، ومن تسمية زياد لحجر بن عدى واصحابه بالترابية السبئية نبدأ الكلام على هذه الفرقة التى خلفت صدى كبيرا فى العالم الاسلامى واعتبرها الباحثون اساسا للتشيع كما اعتبروا ابن سبأ اول من وضع لبنة الافكار الشيعية الخاصة بالامامة . وقد رأينا فيما سبق ان ابن سبأ هو عمار بن ياسر بنفسه وبينا السبب فى ذلك . والسبئية على هذا الاساس فرقة قادها عمار الذى اطلقت عليه قريش ذلك اللقب الرمزى واضافت الى ارائه فى على مبالغات واضاليل لتضيف الى افكار عمار مايخرج بها عن المعقول ويسلبها قوة الاقناع ويقنعها بقناع الشك والبطلان فينصرف الناس عنه وعن ارائه وعن مبدئه فى احقية على وفضله على سائر المسلمين من معاصريه

---

(١٩) تاريخ الكوفة ٢٩١ .
(٢٠) الطبرى ٦/١٥٢ .

زمن عثمان . وقد رأينا عمارا صريحا فى صفين ثم وجدنا الافكار السبئية أو العمارية على الصحيح حية لم تمت بموته وانما ظهرت بعد صفين وبعد مقتل على .

لقد اصاب السبئية وابن سبأ خلط كبير صار من العسير معه ان نحدد العقائد والافكار التى نادوا بها .

فقد روى الطبرى عن سيف ان ابن السوداء اسلم فى السنة السابعة من خلافة عثمان بعد ان اتخذ « رجال من قريش أموالا فى الامصار وانقطع الناس اليهم » . (٢١) ووقت ابن خلدون ظهور ابن سبأ بايام عثمان « لما فشى التكبر على عثمان والطعن فى الآفاق » (٢٢) وحدد مكانه بالبصرة .

والنوبختى – من رجال نهاية القرن الثالث – يرى فى السبئية جماعة كانت تظهر الطعن على ابى بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم (٢٣) . ويكون ابن سبأ داعية شيعيا على صورة مبالغ فيها بحيث تعدى غضبه على عثمان الى سابقيه . ويرى ماسينيون ان ابن سبأ هو عبدالله بن وهب الهمدانى وانه نفى بأمر على الى المدائن (٢٤) فهو هنا عربى مسلم وعند النوبختى والطبرى يهودى اسلم (٢٥) . اما ولها وزن فيرى انه من قبائل عربية سكنت الكوفة وخالطت الموالى فيها ويرى ان السبئية – كما قال سيف بن عمر – « هم قتلة عثمان فتحوا باب الحرب الاهلية واسسوا فرقة الخوارج الثورية وتولد عنهم انهيار الاسلام» (٢٦) . فهو من رأى الطبرى والنوبختى . وذكر السيوطى انه اظهر الرفض فى ايام على (٢٧) . ويرى ابن ابى الحديد ان ابن

---

(٢١) الطبرى – اوربا ١/٣٠٢٧ .
(٢٢) العبر ٣/١٧٠ .
(٢٣) فرق الشيعة ٢٢ .
(٢٤) شخصيات قلقة فى الاسلام (٢٤) .
(٢٥) فرق الشيعة ٢٢ .
(٢٦) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٦ .
(٢٧) الوسائل الى مسامرة الاوائل ١٣٥ .

سبأ قد ظهر بعد ان احرق على جماعة كانت تعبده ووقت ظهور عقيدته بعد قتل على ويكون بذلك قد اظهر السبئية قبل ابن سبأ ويرى الاسفراينى هذا الرأى ايضا [٢٨] وقد اضيف الى السبئية ايضا القول بمهدية على وانه يجيء فى السحاب وان صوته الرعد وسوطه البرق [٢٩] .

ومن ادل هذه الاجتهادات على الاختراع وألصقها بالمعنى الذى قصد من ورائها ما اورده الشعرانى الصوفى (المتوفى سنة ٩٧٣) من أنه «عبدالله ابن سبأ العجلى» [٣٠] وهو يعنى بذلك انه من قبيلة عجل الغالية التى سيمر بنا دورها المهم من اقرار الغلو فى الكوفة وغيرها . وهكذا تتعدد الاسباب والنتيجة واحدة هى تهافت تاريخية ابن سبأ على هذه الصورة الاسطورية المهزوزة .

اما قضية احراق على المزعوم للسبئية [٣١] فانه خبر مختلق من أساسه ولم يرد على صورة فيها ثقة فى كتاب معتبر من كتب التاريخ . ولعل أصل هذا الحادث يتصل باحراق خالد بن عبدالله القسرى بيانا وخمسة عشر من اتباعه الغلاة [٣٢] ، ثم لما تقدم بها الزمن زحزحت الحادثة الى الامام قليلا حتى اتصلت بعلى .

وبعد كل هذا قيل : ان ابن سبأ هو عبدالله بن وهب الهمدانى [٣٣] ، من زملاء حجر بن عدى وعمر بن الحمق الخزاعى ايام على [٣٤] . والمضحك

---

(٢٨) شرح نهج البلاغة ٢/٣٠٩ ، التبصير فى الدين ١٣ .
(٢٩) الفرق بين الفرق ١٤٣ .
(٣٠) مقدمة نافعة لمن يخوض فى العقائد (مخطوط) ورقة ٢
(٣١) الفرق بين الفرق ١٤٣ ، الفصل لابن حزم ٢/١٥٥ ، ٤/١٨٦ .
(٣٢) فرق الشيعة ٢٤ .
(٣٣ ، ٣٤) المرجع السابق ، وانظر مجلة الدراسات الشرقية (الايطالية) ، السنة السادسة المجلد السادس ص٤٩٥ وهو مقال عن الجزء الثانى من أنساب الاشراف للبلاذرى .

ان عبدالله هذا قد قتله المختار سنة ٦٧ مع من قتل من قتلة الحسين[٣٥] ، فكأن مؤسس التشيع كان أول من ارتد عنه . ولو كان الامر كذلك لما بقيت للتشيع باقية ولاشار الى ذلك خصومهم على الاقل . وتحقيق كل هذا الخلط يؤدى بنا الى ان نقرر بان السبئية انما هى اضافات القى بها اصحاب الاهواء كل حسب ما يريد ان يضيفه الى التشيع . ويهمنا بعد ان نقرر ان السبئية هم اصحاب حجر بن عدى الذين كانوا يسبون عثمان مقابلة لسب معاوية لعلى وقد روى المنقرى والدينورى صراحة ان حجر بن عدى وعمرو بن الحمق كانا يظهران شتم معاوية وان عليا كان يقول لهما : « كرهت لكم ان تكونوا شتامين »[٣٦] فيحتمل ان تكون السبئية عقيدة سياسية تزعمها حجر بن عدى الذى قتله معاوية لتشيعه الظاهر ولاصراره على ان قتل عثمان كان حقا وان سب على باطل – وقد مر بنا انه حضر وقعة صفين مع عمار بن ياسر – ولمقاومته اتجاه الدولة الجديدة فى التعفية على آثار على . وقد كان اكثر زملاء حجر يمانين[٣٧] اى سبئيين ، وقد سماهم ابن زياد بالترابية اى العلوية . وبهذا تكون السبئية هى الحجرية وتكون افكارها اقطار ابن سبأ الذى هو عمار بن ياسر . وبذلك نعود الى ان السبئية هى آراء اليمانين الذين والوا عليا فى الكوفة وكانوا اغلبية سكانها . وهكذا لايبقى من نخيل السبئية الا انها جماعة متعصبة لعلى متعصبة على عثمان واوليائه وانهم اعوان عمار بن ياسر الذى قتل قبلهم فى وقعة صفين ، وينتهى بنا المطاف الى فائدة عظيمة هى ان السبئية ركام من التهم القيت على جماعة – ان عن قصد او عن غير قصد – اريد بها الاتهام مرة كما يبدو من اشاعات الاعداء ، والبراءة مرة اخرى كما يبدو ذلك من الاخبار التى ينقلها الشيعة انفسهم عن خروج السبئية عن التشيع بعبادتهم الباطلة لعلى ويجب ان نذكر هنا ان توقيت ظهور السبئية يتحدد بالوقت الذى سبق خروج

---

(٣٥) انساب الاشراف ٥/٢٤٠ ، وراجع ٢٣٠–٢٤٠ .
(٣٦) وقعة صفين ١١ ، الاخبار الطوال ١٥٥ .
(٣٧) الطبرى ٦/١٥٢ .

الحسين لان ما اضيف اليها من عقائد باطلة لم تتضمن اى اشارة الى الحسين ولم تجعل له مكانا فيها مع انه قام باجرأ عمل وادعاه الى فخرهم والاشادة به منهم وبذلك يضاف دليل جديد الى ان اصحاب حجرهم السبئية لانهم قد قتلوا قبل خروج الحسين بن على ويدل توقيع حجر بن عدى وعمرو بن الحمق الخزاعى ص ك التحكيم بوصفهما من اشراف اتباع على على ان السبئية قد نشأت فى ذلك الوقت وانها تعبر عن رأى من يوافق عمارا على رأيه فى احقية على .

وأهمية السبئية ـ على هذه الصورة ـ تنحصر فى انها مهدت السبيل للفرق الشيعية الاخرى لان تبدأ مما انتهت اليه عقيدتها او ـ على الصحيح ـ اتجاهها المتضمن للغلو فى كره الغاصبين ـ فى رأيهم ـ والحب للعلويين اصحاب الحق الشرعى . وقد انبتت السبئية نباتا لم يزل ينمو حتى كاد يصبغ التشيع بصبغة قاتمة من الكره والحقد والمرارة جعلته يطرق سبلا لم يعرفها فى سبيل انفاذ امره وتنفيذ مشيئته ، وصارت السبئية بداية للغلو وسنرى ان للغلو اثرا كبيرا فى مبادىء التصوف .

الحسين وحركته

خرج الحسين استجابة لدعوة الكوفيين ولم يستمع الى نصح ابى بكر ابن الحارث بن هاشم[٣٨] ولا نصيحة محمد بن الحنفية بالبقاء فى مكة[٣٩]، ولا اشارة عبدالله بن عباس بالخروج الى اليمن وبث الدعاة منها[٤٠] ، بل لم يستمع الحسين الى نصيحة ابن عباس فى ابقاء نسائه وولده فى المدينة[٤١]. وكان خروج الحسين ، تعديلا لخطة على بن ابى طالب نفسه حين رضى

---

(٣٨) مروج الذهب ٢/٨٧ .
(٣٩) الطبرى ٦/١٩٠ .
(٤٠) مروج الذهب ٢/٨٦ .
(٤١) مروج الذهب ٢/٨٦ .

بالتحكيم فى صفين محافظة على نسل النبى [٤٢] . وقتل الحسين ، وقتل معه ولده على بن الحسين الاكبر وثلاثة من ابناء الحسن وخمسة من اخوته واثنان من ولد جعفر بن ابى طالب واثنان من اولاد عقيل بن ابى طالب[٤٣] ، وقتل مسلم بن عقيل داعيته الى الكوفة وقتل معه هانى بن عروة الزعيم الكوفى دون ان يجد من انصاره واتباعه الا « شللا وخذلانا» [٤٤] . واهم مافى حركة الحسين ان كل من حاربه وتولى قتله كان من اهل الكوفة « لم يحضره شامى واحد »[٤٥] ، وقد اثر ذلك فى النفوس تأثيرا بالغا وصار من اسباب زهد الناس وانصرافهم عن الدنيا ، غير ان قتله وقتل ابنائه واخوانه وابناء عمومته قد اوشك ان يقطع نسل رسول الله الذى حرص على على ان يحفظه ولا يفرط فيه ، ولولا الظروف المواتية ما بقى على بن الحسين الذى شفع له مرضه بعد ان كاد عبيدالله بن زياد ان يقتله .

نقد كان الحسين محاطا بهالة من الاحاديث النبوية ، وقد اورد الاستاذ أحمد امين مجموعة منها فى ضحى الاسلام منها : « قال رسول الله ـ برواية ابن عمر ـ : هما ريحانتاى من الدنيا (يعنى الحسن والحسين) ، وعن ابى سعيد : الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة ، وقد ايد الترمذى صحته»[٤٦] . ويرد فى اخبار الدول عن الترمذى ايضا : ان الرسول (ص) قال : حسين منى وانا من حسين احب الله من احب حسينا»[٤٧] . ويورد الكلينى عن ابى عبدالله (جعفر الصادق) ان قوله تعالى : فنظر نظرة فى النجوم فقال : انى سقيم ، ينصرف الى الحسين ، فرأى ما يحل بالحسين فقال : انى

---

(٤٢) الطبرى ٣/٤٤ .
(٤٣) مروج الذهب ٢/٩١ .
(٤٤) مروج الذهب ٢/٨٨ .
(٤٥) مروج الذهب ٢/٩١ .
(٤٦) ضحى الاسلام ١/٣٢١ .
(٤٧) اخبار الدول ١٠٧ .

سقيم[٤٨] . وعنه ايضا : « لما كان من امر الحسين ما كان ضجت الملائكة الى الله بالبكاء وقالت : يفعل هذا بالحسين : صفيك وابن نبيك ؟ قال : فاقام الله لهم ظل القائم (المهدى) وقال : بهذا انتقم لهذا»[٤٩] . ومن ذلك يتبين ان الحسين قد كان ـ فى رأى الشيعة انسانا روحانيا قدر لهالله منذ الازل ان يفتدى الاسلام بدمه ويحفظه بتضحية نفسه ، فقرن الشيعة دوره بدور المسيح المخلص وجاء ذكر المسيح موصولا بالحسين بمناسبة ولادته الشاذة لستة اشهر فروى الكلينى عن جعفر الصادق قوله : « ولم يولد لستة اشهر الا عيسى بن مريم والحسين بن على»[٥٠] . وتتأكد هذه النظرة من الروايات الشيعية التى تقول : « لما حملت فاطمة بالحسين جاء جبريل الى رسول الله فقال : ان فاطمة ستلد غلاما تقتله امتك من بعدك . فلما حملت فاطمة بالحسين كرهت حمله ، وحين وضعته كرهت وضعه ، ثم قال ابو عبدالله (جعفر الصادق) : لم تر فى الدنيا ام تلد غلاما تكرهه ، ولكنها كرهته لما علمت انه سيقتل . قال : وفيه نزلت هذه الآية : ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، حملته امه كرها ووضعته كرها وفصاله ثلاثون شهرا»[٥١] . بل لقد زعم الشيعة ان الحسين لم يقتل وانما شبه للناس كعيسى بن مريم»[٥٢] . ويروى الشيعة انه لم يرضع كسائر الاطفال وانما كان «يؤتى النبى فيلقمه لسانه فيمصه فيجتزىء به ، ولم يرضع من انثى»[٥٣] ، وهذا هو الغذاء الروحى ومثله العلم الموروث وهو روح النبوة التى هى من عند الله كما ارادها الشيعة لائمتهم .

---

(٤٨) اصول الكافى ١٢٤ والآية فى سورة الصافات : ٨٨ .
(٤٩) اصول الكافى ١٢٤ .
(٥٠) اصول الكافى ١٢٣ـ١٢٤ ، الاعلاق النفيسة ٢٢٧ .
(٥١) اصول الكافى ١٢٣ العنكبوت ٨ .
(٥٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٨٢ .
عن مخطوطة العلل لابن بابويه ٩٩ .
(٥٣) اصول الكافى ١٢٤ .

وقد صار الحسين المثل الاعلى للبطولة الاسلامية فى سبيل الحق ودفعت بطولته وإباؤه وامتناعه عن التسليم مصعب بن الزبير ـ الذى قتل الاخذين بثأر الحسين ـ الى ان يصبر للموت وهو يقول :

فان الالى بالطف من آل هاشم تأسّوا فسنوا للكرام التأسيا(٥٤)

وصار قتل الحسين سببا فى ذل المسلمين وهذا سليمان بن قتة يقول :

فان قتيل الطف من آل ل هاشم اذل رقاب المسلمين فذلت (٥٥)

---

(٥٤) الاخبار الطوال ٢٧١ ٠

(٥٥) مقاتل الطالبيين ١٢١

وفى مقالات الاسلاميين ينسب الاشعرى القطعة الى ابن ابى رمح الخزاعى مع تغيير « أذل رقاب المسلمين» بعبارة « اذل رقابا من قريش» ص ٧٦ ٠ وراجع تعليق رتر فى الهامش ٠ وكذلك ذكر السيوطى فى الوسائل الى مسامرة الاوائل أن « اول ذل دخل على العرب قتل الحسين وادعاء يزيد» ٥١ ٠

وبقطع النظر عن ذلك قد يرى البعض ان قتل الحسين لم يكن له اثر فى العالم الاسلامى والا دخل له فى ذل المسلمين وربما دلل على ذلك بان الدولة الاموية قد نمت بعد قتل الحسين حتى اتسعت شرقا وغربا وان عز الاسلام الحقيقى انما كان من ثمرات الفتوح الاموية ٠ الحق اننا نرمى الى اعمق من مجرد الظاهر السطحى : أن الاسلام الحقيقى كان فكرة تنبع من اشاعة العدالة الاجتماعية مقترنة بالاصلاح الروحى واعتبار المجتمع الانسانى عالما يؤكد الاسلام الاخوة فيه ٠ وقد كان قتل الحسين استهتارا بأعز مافى قلب المسلمين من عاطفة تمتد وشائجها الى النبى ٠ وكان قتل الحسين ـ وهو ابن بنت النبى وافضل المسلمين فى النصف الثانى من القرن الاول الهجرى ـ المدى الذى يهون دونه كل عمل اخر ٠ ورأينا ـ لذلك ـ ان الكعبة نفسها قد ضربت بالمنجنيق وان القتل استمر فى العالم الاسلامى وان الاسلام غدا شيئا ثانويا الى الحد الذى لم يبال معه الحجاج فى تخيير المنهزمين من جيش ابن الاشعث بين القتل والبراءة من الاسلام والايمان ٠ وكان قتل الحسين الكبيرة التى هونت على عمال الامويين أن يقاوموا اندفاع الايرانيين الى الدخول فى الاسلام وزينت لهم جبايتهم الجزية مع اسلامهم ٠ هذا هو الذل الذى اورثه قتل الحسين ٠ اما الفتوح وأما الاتساع واما امتلاء الخزائن بالذهب واما التسلط وامتلاك الرقاب والاستهتار بالمثل وبالناس فأمور لم يهدف اليها الاسلام وانما جاء لحقها ٠

ودفعهم هذا الذل الى الهرب من الدنيا وتنكب طريق الجهاد والعمل الايجابى فروى لنا عمر بن زياد الهذلى عن رجل من خراسان كتب الى محمد ابن الحنفية فقرن المصائب التى نزلت بالناس بالزهد واليأس من رجوع الامر الى آل محمد : « فما زال بنا الشين فى حبكم حتى ضربت عليه الاعناق وابطلت الشهادات وشردنا فى البلاد واوذينا ، حتى لقد هممت ان اذهب فى الارض قفرا فاعبد الله حتى القاه ...»(٥٦) ، وقال عبدالرحمن بن ابى نعيم من زهاد البصرة : « يا اهل العراق تسألوننى عن المحرم : يقتل ؟ وقد قتلتم ابن بنت رسول الله ، وقد قال رسول الله فيه : هما ريحانتاى من الدنيا »(٥٧) وترك ابو عثمان النهدى الكوفة الى البصرة وقال : « لا اسكن بلدا قتل فيه ابن بنت رسول الله»(٥٨) .

وقد صار مقتل الحسين ملحمة كبرى تذكر الشيعة بذلك البطل الذى انقذ الاسلام وحماه ، وجعل الشيعة يكررون فى كل عام تذكير الناس بكل تفاصيل الواقعة واعتبروا ذلك نذيرا ينبه الى الخطر المحدق وصار البكاء ـ ـ بعد اشهار السيف ـ الرابطة بين الشيعة وآمالهم فى اعادة الحق الى اصحابه حتى لقد قيل فى الامثال :

ارق من دمعة شيعية تبكى على بن ابى طالب(٥٩)

وصارت مجالس العزاء تعقد فى ايام الواقعة وفى غيرها لان الشيعة يقتنصون كل مناسبة ليشهدوا هذه المجالس ، ويجمع شملهم ويوحد صفوفهم الحب الزائد لال البيت والبكاء المحرق عليهم . وقد تنبه جولد تسيهر الى

---

(٥٦) طبقات ابن سعد ٥/٢٩ـ٧٠ .
(٥٧) حلية الاولياء ٥/٦٨ .
(٥٨) صفة الصفوة ٤/١٢٤ .
(٥٩) امثال الميدانى ٣٢٩ .

هذه الحقيقة فقال : « ونجد ان تاريخهم (الشيعة) منذ كارثة كربلاء عبارة عن سلسلة لاتنقطع من التعذيب والاضطهاد . وروى الشيعة اخبارهم شعرا ونثرا فى مؤلفات كثيرة زاخرة بتراجم هؤلاء الشهداء ، وكتب المقاتل هذه احدى خصائص الشيعة ، وقد جعلوا من رواياتها واسطة عقد اجتماعاتهم فى الثلث الاول من شهر المحرم .....» (٦٠) . وقد عقد جولد تسيهر مقارنة جديدة بين المسيح والحسين فى هذه المناسبة فروى انه « سرى كثير مما كان يقال لاثارة العواطف فى يوم جمعة الالام عند المسيحيين الى يوم عاشوراء» (٦١) . ونقل عن بادشاه حسين فى كتابه : الحسين فى فلسفة التاريخ انه اورد « ان الحزن على الحسين لهو العلامة الصحيحة الدالة على الاسلام . ومن المحال الا يذرف الشيعى الدموع لانه جعل من قلبه قبرا حيا ومثوى حقيقيـــا للامام الشهيد الذى احتز رأسه » (٦٢) ويؤكد ذلك الاستاذ محمد جواد مغنية ـ من الشيعة المعاصرين ـ بقوله : « ليس يوم عاشوراء للشيعة فحسب ولا للسنة ، وانما هو للناس اجمعين لانه جهاد وتضحية وحق وصراحة ونور وحكمة . وليس لهذه الفضائل دين خاص ولا مذهب خاص ولا وطن خاص ولا لغة خاصة » (٦٣) . ولهذا فانه ليس من البعيد ان تكون فكرة الذكر الصوفيـــة قد اتصلت بمجالس العزاء الحسينية التى يرتفع فيها البكاء وتذرف الدموع وبخاصة ان صح ان هذه المجالس كانت تقام علنا ايام المأمون فى نهاية القرن الثانى وبداية الثالث (٦٤) اى فى بداية ظهور الذكر الصوفى بل فى بداية تحول الزهد الى التصوف . وليس من البعيد كذلك ان تكون فـكرة الحب الصوفية متصلة بالحب الشيعى للائمة ثم تطور بها الزهاد وجردوا هـــذه

---

(٦٠) العقيدة والشريعة ١٧٨ .
(٦١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٨٢ .
(٦٢) نفس المصدر ١٦٩ .
(٦٣) الشيعة فى التاريخ ١٦٦ .
(٦٤) الشيعة فى التاريخ ٦٨ .

العاطفة من ارتباطها بانسان معين وارتفعوا بها الى الله والمثل الاعلى . وقد كان هذا التبادل بين الانسان والمثل الاعلى الذى اتصل حب الصوفية به موجودا فى منتصف القرن الثانى الهجرى حين اخذ المنصور على طريح الشاعر قوله للوليد بن يزيد :

لو قلت للسيل دع طريقك والمو ج على الهضب يعتلج
لساخ وارتد او لكان لـه فى سائر الارض عنك منصرف

فقال طريح : قد علم الله عز وجل انى قلت ذلك ويدى ممدودة اليه عزوجل واياه تبارك وتعالى عنيت[٦٥] وسيمر بنا ان تأليه الائمة بدأ فى نهاية القرن الاول ، فليس من البعيد اذن ان يكون مقام الحب شيعى الاصل مادام الزهد ـ فى جوهره ـ كان حركة اعتزال للعمل الايجابى القائم على الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد كان العالم الاسلامى ـ يومئذ ـ نهبا بين المعروف والمنكر ، وكان كل فريق يرى انه مع المعروف . وقد تنبه الامويون الى خطر هذه الذكرى فحاولوا ان يقابلوها بالفرح بها فجعلوا منها عيدا سنه الحجاج لاهل الشام فى ايام عبدالملك واستنه صلاح الدين وملوك بنى ايوب بعد سقوط الدولة الفاطمية الشيعية فى مصر[٦٦] ، بل لقد كان قبر الحسين مثابة للناس ومقصدا لزيارتهم تأكيدا لهذه الصلة حتى لقد سماه بعض الجهلاء حجا وكان من ذلك ان هدم المتوكل قبر الحسين[٦٧] سنة ٢٣٦/٨٥٠-٥١ لمنع الناس من زيارته كما سيأتى ذكره . وهذه صلة اخرى تجمع بين التشيع والتصوف : فان زيارة قبور الاولياء عرف مشترك بينهما ، وزيارة قبر الحسين اقدم وصلتها بالتشيع واضحة والهدف منها صريح ، وقد اخذها المتصوفة من

---

(٦٥) الاغانى ٤/١٧ (دار الثقافة بيروت ١٩٥٥) .
(٦٦) خطط المقريزى ٢/٣٨٥ .
(٦٧) مقاتل الطالبيين ٥٩٧ .

الشيعة ليؤكدوا ترابطهم وتعاضدهم كما فعل اولئك ويفعلون . ومما له دلالته الكبرى مقارنة قتل الحلاج بقتل الحسين (٦٨) .

أما كون الحسين زاهدا فلا يرد فيه الا اخبار طفيفة منها ماروى عنه انه ناقش قول ابى ذر : الفقر احب الى من الغنى فقال : رحم الله ابا ذر ، اما انا فاقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختاره الله» (٦٩) . ويبدو التوكل فى اصح مظاهره فى هذا الخبر ، والتوكل - بتحليل حركة الحسين تحليلا زهديا - هو الذى دفعه الى المقاومة . فاثر الحسين فى الزهد والتصوف آت من تضحيته بنفسه من اجل المثل الاعلى وقد كان هو مثلا اعلى للتضحية والفداء . وسنجد الحركات الشيعية الاتية تعتمد اعتمادا كليا وجزئيا على حركة الحسين وتوجه دعوتها الى الانتصاف من قتلته . بل لقد ارتبطت فكرة المهدى الشيعية بالانتصاف من بنى امية مع انهم قد ذهبوا ولم يعد لهم دولة ولا سلطان . وسنجد ان الشيعة قد تغلبوا على هذه الفكرة ايضا فربطوها بالرجعة التى تقول بان الشهداء منهم والمظلومين سيعودون مع المهدى كما يعود الظالمون لهم فيدين المظلومون الظالمين ، وليس ذلك موضوع هذا الفصل . فكل ما يعنينا من الحسين وصلته بالتشيع انه قد سلح الشيعة بفكرة الانتقام وهيأ لهم حادثا محددا لاريب فى مشروعية التوجه اليه . وقد تشعبت من الحركة افكار جانبية اتصلت بها افكار الزهاد والمتصوفة حتى صارت عرفا عرضيا كما هى عند الشيعة ، ولكن لهذا العرف تأثيرا عاطفيا يؤجج الحركة ويزيد من الحماس والترابط .

---

(٦٨) ماسينيون : نصوص تتعلق بتاريخ التصوف ٦٠ (عن طبقات المناوى)
(٦٩) الرسالة القشيرية ٢٢٩ .

خلف قتل الحسين هزة عنيفة فى الكوفة ولاسيما لدى المخلصين الذين دعوه اليها وتعهدوا بنصرته : وكان من زعمائهم خمسة : سليمان بن صرد الخزاعى والمسيب بن نجب الفزارى وعبدالله بن سعيد بن نفيل الازدى وعبدالله بن وال التميمى ورفاعة بن شداد البجلى (٧٠) . وكان سليمان بن صرد صحابيا (٧١) وعلى رجالة الميمنة فى جيش على فى صفين (٧٢) ، اما الاخرون فكانوا من خيرة اصحاب على (٧٣) . وكان التوابون يستندون – فى حركتهم – الى نص من القرآن هو الاية : فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا انفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم . فتاب عليكم انه التواب الرحيم (٧٤) . وكان مع التوابين الكوفيين اخوان لهم من اهل البصرة والمدائن وكانوا يقولون : « أقلنا – ربنا – تفريطنا فقد تبنا» (٧٥) . وتبين حركة التوابين مدى ما اثر قتل الحسين فى نفوس المسلمين حتى وجدنا هذه الطائفة تخرج – دون قيادة ودون طمع فى ملك ودون تنظيم – لمجرد الانتحار والتكفير ببذل النفس . وقد كان الناس ينظرون اليهم نظرة اكبار واجلال ، فان اهل الشام تركوهم يرتحلون بعد انهزامهم وصبرهم على قلتهم ، فلحق اهل الكوفة بمصرهم واهل المدائن والبصرة ببلادهم (٧٦) وقد حدث كل ذلك فى اثناء محاولة المختار تكوين جيش له يخرج به على الامويين ، وقد حاول ان يضم التوابين اليه فلم يستطع لانهم لم يكونوا يطلبون شيئا الا شفاء الغل والموت تكفيرا عن سماحهم بقتل ابن بنت رسول الله .

---

(٧٠) تاريخ الكوفة ٢٩٣ .
(٧١) الشيعة فى التاريخ ٤٧ هامش .
(٧٢) الاخبار الطوال ١٦٠ .
(٧٣) تاريخ الكوفة ٢٩٤ .
(٧٤) تاريخ اليعقوبى ٣/٤ ، البقرة : ٥١ .
(٧٥) مروج الذهب ٢/١١٠ .
(٧٦) مروج الذهب ٢/١١٠ .

لقد دخل المختار حياة الكوفة بعد ان انسحب على بن الحسين من الحياة العامة واختط محمد بن الحنفية : الابن الثالث لعلى بن ابى طالب البعد عن الدعوة لنفسه والامتناع عن مبايعة احد الا اذا اجمع العالم الاسلامى على بيعته • وكان عبدالله بن الزبير قد اخذ البيعة لنفسه من مكة والمدينة وكان عبدالملك بن مروان يجمع حوله الانصار بعد ان ترك معاوية بن يزيد امر الخلافة للمسلمين يولون عليهم من يشاؤون • وتأتى اهمية حركة المختار من كونه اول شيعى يجعل من نفسه منتصفا للشيعة وآخذا بثأر الحسين وهذا يعنى – على الصحيح ان المختار أول رجل اتخذ من التشيع وسيلة لغايته وهو اول من تجرأ على ذلك فكان قدوة سيئة للغلاة الذين ساروا فى طريقه الذى شقه لهم وادخلوا فى التشيع امورا لم تكن فيه – والغريب ان كل عقائد الغلاة قد انصبت فى التصوف فيما بعد وذلك امر سيأتى بيانه •

لقد بدأت المهدية فى الاسلام ايام المختار وبدأ فى التشيع اتجاه جديد هو فى الحقيقة تفريط فى العقيدة الشيعية وذلك ان المختار دعا الى امامة محمد ابن الحنفية وهو ابن على من غير فاطمة ، فكان اتجاها ادى الى اجتراء غير العلويين على المطالبة بالامامة فرأينا الكيسانية – وهم فرقة المختار او فرقة خليفته كما سنرى – يتجهون بعد ابن الحنفية الى ابنه مرة والى عمه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر مرة اخرى والى محمد بن على بن عبدالله بن عباس بعد ذلك • ثم اذا بها تخرج الى ابى مسلم الخراسانى وبيان بن سمعان ، وكانت البداية خروجها من بيت على الفاطمى •

لقد التف السبئية – خلفاء جماعة حجر بن عدى المغالين فى حب على وكره اعدائه – الى حركة المختار وظن الناس ان المختار هو مبتدع افكارهم • والواقع انه كان يقوم بدور المشجع فقط واراد من ذلك ان يتزعم اتجاها محددا من التشيع له طابع يميزه من غيره فيستطيع ان يسيطر ويحكم • وقد بعثت

عقيدة العلم السرى واضيفت الى الائمة فاندفع ابن الحنفية يقول : « انا والله ما ورثنا من رسول الله الا مابين هذين اللوحين (يعنى القرآن) »[٧٧] ، وكتب يحذر شيعة الكوفة من الغلاة : « اما بعد فاخرجوا الى المجالس والمساجد فاذكروا الله علانية وسرا ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة . فان خشيتم على انفسكم فاحذروا على دينكم الكذابين واكثروا الصلاة والصيام والدعاء فانه ليس احد من الخلق يملك لاحد ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله»[٧٨] ، وقد اضيف الى المختار انه ادعى النبوة[٧٩] ، والواقع ان ذلك بعيد لانه كان يدعو الى امامة محمد بن الحنفية بل لقد كان يدعوه بالمهدى[٨٠] وذلك يناقض ادعاء النبوة كما لايخفى . وقد استعان المختار بالموالى لاول مرة فى تاريخ التشيع وكان ذلك من اسباب فشل حركته وانفضاض العرب عنه[٨١] ويجب ان نلاحظ هنا ان دور الفرس فى التشيع المبكر كان موقتا ، فقد انصرفوا من بعد المختار الى موالاة العباسيين وعادوا الى التشيع من جديد بعد ان نزلت بهم ضربة السفاح اولا ثم المنصور ثم الرشيد بل لقد وجدناهم يمنعون العلويين من تسلم السلطان حين تسلم البويهيون ازمة الحكم من العباسيين وبهذا يتبين لنا ان دور الفرس فى التشيع بل فى الاسلام كان مجرد وسيلة لاستعادة المجد القديم والقاء التسلط العربى عن كواهلهم ، وسنرى ذلك فيما يأتى وسنجد ان التصوف نفسه محاولة اخرى من طراز مختلف لتحقيق هذا الغرض .

لقد رافقت حركة المختار افكار اسطورية تعكس ماكان يعانيه المجتمع العراقى من قلق فى عقيدته ومن ذلك ان انصار المختار كانوا يشيعون ان

---

(٧٧) طبقات ابن سعد ٥/٧٧ .
(٧٨) الطبرى ٧/١٥٣ .
(٧٩) مختصر الفرق بين الفرق ٤٤ .
(٨٠) طبقات ابن سعد ٥/٨٦ .
(٨١) الطبرى ٧/١٤٧ .

الملائكة تنزل على صورة الحمامات البيض لتنصرهم[٨٢] ، وقد رأينا ان هذه الفكرة نفسها قددخلت مجتمع الزهاد فروى – بمناسبة موت عمر بن قيس الملائى – « ان البرية كلها امتلأت من طير لم ير على خلقتها وحسنها . فجعل الناس يعجبون من حسنها وكثرتها ، فقال ابو حيان (التيمى) : من اى شىء تعجبون؟ هذه الملائكة جاءت فشهدت عمرا» [٨٣] .

ويضيف المؤرخون البداء الى المختار ايضا وهو عقيدة مهمة دخلت التشيع وما زالت معمولا بها حتى الان . وقبل ان ندخل فى التفصيل علينا ان نلاحظ ان البداء – فى لفظه – قد يكون مؤسسا على مدلول الآية « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون »[٨٤] وقد قرن البغدادى [٨٥] والشهرستانى [٨٦] والاسفرايينى [٨٧] هذه الفكرة بعقائد جماعة المختار ومجمل ماذكر اصحاب كتب الفرق فى ذلك ان المختار كان يعد اصحابه بالنصر ، فاذا انتصروا كان ذلك دليلا على صدق دعواه وان غلبوا قال لهم : « ان الله تعالى قد وعدنى بذلك ولكنه بدا له ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب »[٨٨] . ومما يضعف هذا الزعم اظهار من تبناه للمختار بمظهر النبى مما رأينا تهافته فيما مضى . وقد حدثنا الطبرى فى حوادث سنة ٦٧ وهى فى ايام المختار – ان عبدالله بن نوف قد قال بهذه الفكرة واستشهد بنفس الآية عند هزيمة اصحابه فى قتال مصعب بن

---

(٨٢) الملل والنحل ٢/٢٤٠ .
(٨٣) صفة الصفوة ٣/٧٠ .
(٨٤) الزمر : ٤٨ .
(٨٥) مختصر الفرق بين الفرق ٣٥ .
(٨٦) الملل والنحل ١/٢٣٧ .
(٨٧) التبصير فى الدين ١٨ .
(٨٨) مختصر الفرق بين الفرق ٤٧ الرعد : ٣٩ .

الزبير[٨٩] . ثم يرد رأى آخر يسند به الدكتور محمد جابر عبدالعال نظرية البداء الى ابى الخطاب الذى قتل سنة ١٣٨/٧٥٥-٥٦ فى الكوفة[٩٠] . اما النوبختى فيرى نفس الرأى ويسمى جماعة ابى الخطاب بالاسماعيلية[٩١] وبذلك يتبين ان البداء محمول على المختار خطأ وانه ظهر من فرقة غالية متأخرة . وجلية أمر البداء الشيعى فى اسماعيل ان جعفرا الصادق كان قد اعد ولده اسماعيل لتولى الامامة من بعده ولكنه مات فى حياته فقال جعفر الصادق - كما يروى الشيعة - : « ان الله عزوجل قد بدا له فى امامة اسماعيل»[٩٢] . وجلية معنى البداء - بعد هذا الذى ذكرناه هو - اطلاع الامام على امر لم يكن ظاهرا له وان كانت ظواهره تدل على غير ذلك من نحو نشأة ولد للامام على انه خليفته من بعده ثم يتضح للامام على صورة ما ان الله لم يختر هذا الولد للامامة وانما اختار اخا له ، فيموت المرشح الاول فى حياة الامام ليقوم المرشح المختار مكانه . وقد وسع الشيخ المفيد هذا المعنى فى النسخ وامثاله من الافقار بعد الاغناء والامراض بعد الاعفاء والاماتة بعد الاحياء»[٩٣] ثم قال: « وانما خالف من خالفهم فى اللفظ دون سواه»[٩٤] ويختم الشيخ كاشف الغطاء هذه الاراء بقوله : « ولولا البداء لم يكن وجه للصدقة ولا للدعاء ولا للشفاعة ولا لبكاء الانبياء والاولياء وشدة خوفهم وحذرهم من الله مع انهم لم يخالفوه طرفة عين . انما خوفهم من ذلك العلم المصون المخزون الذى لم يطلع عليه احد ومنه يكون البداء»[٩٥] . على أنه يحسن بنا ان نجلو هذا كله

---

(٨٩) الطبرى ١٥٣/٧ .
(٩٠) حركات الشيعة المتطرفين ٧٨-٧٩ .
(٩١) فرق الشيعة ٦٩ .
(٩٢) فرق الشيعة ٦٥ .
(٩٣) اوائل المقالات ٤٥ .
(٩٤) اوائل المقالات ٤٥ .
(٩٥) أصل الشيعة واصولها ١٩٢ .

بالخبر الذى يورده الاوزاعى عن محمد الباقر بن على بن الحسين بن ابى طالب انه سأله عن قوله عز وجل «يمحو الله ويثبت وعنده ام الكتاب» – وهو محمول البداء – فقال ، رواية عن النبى ص : « الصدقة على وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة وتزيد فى العمر وتقى مصارع السوء » (٩٦) . ويتضح بذلك ان عقيدة البداء امر اسلامى عادى لايدخل فى الغلو ولا فى ادعاء النبوة وليس خاصا بالشيعة ، ولكننا لو القينا نظرة شاملة على مقدماته لرأينا صلته ببداء ابى نوف الذى نسب الى المختار . وبداء ابى نوف ينصب على وعد من الله بالنصر اى امر مقرر معروف ثم امتنع حدوثه لامر اراده الله ، وصلة هذا البداء بالنسخ واضحة وكذلك باختيار خلف الامام . وبهذا نستطيع ان نجعل اصل البداء على الصورة التى شرحها الشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ /١٠٢٢–٢٣ والشيخ كاشف الغطاء آتيا من عقائد الغلاة الاولى كغيرها من عقائد اخرى كانت فى اصلها من عقائد الغلاة ايضا واذخها الشيعة المعتدلون وهذبوا حواشيها قووها بالمنطق والكلام ، وبذلك يتبين ان الغلاة – وان كانوا مغضوبا عليهم من الشيعة المعتدلين وأئمتهم – قد اسسوا العقائد الاصلية للتشيع من بداء ورجعة وعصمة وعلم لدنى بحيث صارت مبادىء رسمية للتشيع فيما بعد ولكن على صورة ملطفة . وسنرى فيما نعرض له من فصول كيف صار الغلو الشيعى اصلا من اصول العقائد الصوفية الاساسية ايضا .

وهكذا نعود من صحبتنا للمختار فنقرر انه شجع الاراء الاسطورية عند غلاة الشيعة – وهم الان السبئية – وسمح بتكوين عقيدة جديدة تقوم على محاولة اسباغ علم سرى الى الامام واحاطة المثل الاسلامية بهالة من القدسية تنبعث من مقام الامام . وقد مات المختار ولكن الاراء التى شجعها لم

---

(٩٦) محاسن المساعى ١٣٩–١٤٠ .

تمت بل عاشت فى المجتمع الكوفى حتى تنبه الائمة الى خطر السكوت عليها فغامر محمد الباقر وابوه على زين العابدين باستنكارها ولعن معتنقيها ولكنها كانت قد مدت جذورها فى التشيع المعتدل نفسه بحيث صارت من اصوله كما سنرى فى الفصول الاتية .

محمد بن الحنفية :

قتل الحسين فاتجهت الانظار كلها الى اخيه محمد ، ولم يحاول على بن الحسين ان ينازعه الامامة واتخذ لنفسه منهجا فى الزهد لايحيد عنه وترك الدنيا لاهل الدنيا . اما محمد بن الحنفية فقد كان يقول : « لو اجتمع الناس على كلهم الا انسانا واحدا لما قاتلته» (٩٧) ، وكان عبدالله بن الزبير قد حصره فى الشعب الذى حوصر فيه بنو هاشم فى اول الاسلام خشية ان يدعو الى نفسه فكان محمد بن الحنفية يقول : « لو ان ابى عليا ادرك هذا الامر لكان هذا موضع رحله » (٩٨) ، وذلك يعنى انه رأى ان يسالم ولا يخاصم حتى تنجلى الامور كما فعل ابوه على بعد التفاف القرشيين والامة حول ابى بكر وعمر . ويبدو ان رأى محمد بن الحنفية كان ينصرف الى ان للعلويين رسالة اوسع من مجرد الحكم والسلطان ولذلك كان ـ على كونه صاحب راية ابيه فى الجمل ـ يقول : « هذه والله الفتنة المظلمة العمياء » (٩٩) فكان رد على : « اتكون فتنة ابوك قائدها وسائقها ؟! » (٩٩-) .

ومحمد ، بعد ، ابن خولة بنت جعفر بن قيس كما يخبرنا ابن ومحمد (بعد) ابن خولة بنت جعفر بن قيس كما يخبرنا ابن الجوزى (١٠٠) وكذلك الطبرى (١٠١) وقد رويت اخبار تنبىء بان امه امة

---

(٩٧) طبقات ابن سعد ٥/٧٨ .
(٩٨) طبقات ابن سعد ٥/٦٨ .
(٩٩) قوت القلوب ٢/٣ .
(١٠٠) صفة الصفوة ٢/٤٢ .
(١٠١) الطبرى ٦/٨٩ .

حنفية سوداء وليست حرة وكلها تنتهى الى اسماء بنت ابى بكرام عبدالله بن الزبير منافس محمد ابن الحنفية على زعامة المسلمين وقيادتهم ، ومن ذلك يتضح تهافت هذا الادعاء .

وقد عاصر ابن الحنفية اتجاه الشيعة الكوفيين الى الخروج بالائمة من حد الانسانية الى القداسة والالوهية فكان ان هبط ابن الحنفية ببيت النبى الى مرتبة الناس هبوطا كان الناس يعجبون له ، فقد كان يقول : « ما اشهد على احد بالنجاة ولا انه من اهل الجنة بعد رسول الله ولا على ابى الذى ولدنى »[١٠٢] ، وقد عجب ابو طالب المكى ايضا[١٠٣] . ولكن ابن الحنفية اوضح علة اتجاهه هذا بقوله : « اهل بيتين يتخذهما العرب اندادا من دون الله : نحن وبنو عمنا هؤلاء ، يعنى بنى امية »[١٠٤] فظهر لنا انه انما فعل ذلك ليخفف من اندفاع الناس الى اسباغ القداسة على أهل البيت فى المحيط الشيعى وغيرهم فى البيئات الاخرى . ولكنه مع ذلك لم يستطيع ان يخفى قوله : « من احبنا نفعه الله وان كان فى الديلم »[١٠٥] .

وتأتى اهمية دور محمد بن الحنفية فى العقائد الشيعية من كونه المهدى الرسمى الاول فى الاسلام وان لم يكن الاول على الاطلاق ، وتلك ناحية اخرى تعود بنا الى ان المبادىء الشيعية التى جدت على الاسلام انما كانت – فى جوهرها – رد فعل واصلاحا لاتجاهات كانت من غير الشيعة كما مر بنا من امر التقية والتأويل وغيرهما ، وهذا يعنى ان المهدية كانت اتجاها غير شيعى تلقاه الشيعة بالاصلاح وافرغوه فى قالب يناسب مشربهم . وحقيقة الامر ان

---

(١٠١) الطبرى ٦/٨٩ .
(١٠٢) طبقات ابن سعد ٥/٦٨ .
(١٠٣) قوت القلوب ٢/٣٩ .
(١٠٤) طبقات ابن سعد ٥/٦٨ .
(١٠٥) طبقات ابن سعد ٥/٧

النبي محمدا (ص) كان اول مهدى فى الاسلام ، دعا الى مهديته عمر بن الخطاب (ر) وروى اليعقوبى هذا الخبر بقوله : «ولما توفى (ص) قال الناس : ما كنا نظن ان رسول الله يموت حتى يظهر على الارض . وخرج عمر فقال : والله ما مات ولايموت وانما تغيب كما غاب موسى بن عمران اربعين ليلة ثم يعود . والله ليقطعن ايدى قوم وارجلهم »[١٠٦] . ويروى الشهرستانى ان عمر كان يرى ان محمدا رفع الى السماء كما رفع عيسى[١٠٧] . وقد اقتنع عمر بموت النبى بعد ان انهى اليه ابو بكر (ر) بان الله قد نعى النبى فى القرآن بقوله : انك ميت وانهم ميتون ، فصحا عمر من ذهوله وقال : والله لكأنى ما قرأتها قط . وعلل ابو بكر لعمر علة ذلك الظن فقال : ... ولكن الذى ابدى الذى قلته الجزع[١٠٨] . وروى اليعقوبى انه قد حيك حول على مثل هذا الظن لنفس السبب الذى بينه ابو بكر لعمر . فمهدية محمد وعلى او رجعتهما او قيامهما انما ارتبطت بهما بعد موتهما ، اما مهدية ابن الحنفية فقد ارتبطت به فى حياته وقد كان مهديا لان اسمه محمد وكنيته ابو القاسم وقد رخص النبى لعلى فى هذه التسمية والكنية ومنع غيره من تقلدهما[١٠٩] . وقبل ان نعرض لمعنى المهدية وتفاصيلها يحسن بنا ان نلاحظ انها قد اقترنت بالسيف او القوة على الاقل منذ يومها الاول ، ونحن بهذا نشير الى خبر مهدية النبى التى قال بها عمر وشفعها بقوله : ثم يعود فليقطعن ايدى قوم وارجلهم .

---

(١٠٦) تاريخ اليعقوبى ٢/٩٥ .
(١٠٧) الملل والنحل ١/١٥
(١٠٨) تاريخ اليعقوبى ٢/٩٥
وقد قال عمرو الضبى يصف النبى بالمهدية يوم الجمل ويرتجز :
يا امنا يا زوجة النبى يا زوجة المبارك المهدى
(الطبرى ـ ريدن ـ ١/٣١٩٨ « حوادث سنة ٣٦ ») .
(١٠٩) طبقات ابن سعد ٥/٦٦ .

اما اصل كلمة « مهدى » فان الدكتور على الوردى يكفينا مؤونتها بقوله : « اما كلمة المهدى فهى فى الواقع تعريب للفظة المسيح الموجودة فى التوراة . فالمسيح معناه الممسوح اى انه ذلك البطل المنقذ الذى يمسحه الاله ، والمسح فى التوراة معناه الهداية والارسال والتأييد الربانى .

يقول اشعياء : الرب مسحنى لابشر المساكين ، ارسلنى لاعصب منكسرى القلب لانادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ، لانادى بسنة مقبولة للرب وبيوم انتقام لالهنا ، لاعزى كل النائحين (اصحاح ٦١ سفر اشعياء) . وتصف التوراة هذا الممسوح الذى يرسله الرب ليبشر المساكين فتقول : ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب . ولذته تكون فى مخافة الرب ، فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع اذنيه ، بل يقضى للمساكين ويحكم لبائسى الارض فيسكن الذئب مع الخروف ويربض النمر مع الجدى (اصحاح ١١ اشعياء) .

ومن يقرأ سعر اشعياء فى التوراة يجد تشابها غريبا بينه وبين مايؤمن به الشيعة فى شأن الامام والمهدى (١١٠) .

فالمهدى اذن – وهو اسم مفعول من هدى يهدى – يعنى المسيح الذى هو صفة مشبهة بمعنى اسم المفعول : الممسوح . وقد رأينا المسح يعنى الهداية فى النص السابق ويجب ان نلاحظ هنا ان المسيح نفسه قائم بالسيف بدليل ان يومه هو يوم انتقام للرب .

وهذا الذى تعب فى تتبعه الدكتور الوردى قد تنبه اليه احد الغلاة ممن دعوا الى فكرة المهدية وهو ابو منصور العجلى (المقتول سنة ١٢١) الذى زعم

---

(١١٠) وعاظ السلاطين ٣٨٧ .

انه عرج به الى السماء وان الله «مسح» رأسه بيده وقال له : «بلغ عنى» [١١١] .
ويؤيد هذا ان المسيح كان يحتل مكانة مرموقة من عقيدته بحيث ان ابا منصور كان يرى ان «عيسى اول من خلق الله من خلقه» [١١٢] وان اصحابه كانوا يقولون فى حلفهم «الا والكلمة» [١١٣] . فالمسح الذى يعنى الهداية واضح من هذه المظاهر ولعل ذلك كله يغلب الرأى الذى يرجح كون المصدر القريب للمذاهب الجديدة انما كان التوراة وما يتصل بها . ويلاحظ دونالدسون ان لفظ المهدى لم يرد فى القرآن وليس فيه ما يؤيد هذه الفكرة ويلاحظ ايضا ان معتنقيها قد اسندوها بالحديث بدل القرآن ويرى ان لقب المهدى اطلق على محمد بن الحنفية سنة ٦٦/٦٨٥-٨٦ وسمى : المهدى بن الوصى» [١١٤] . والواقع ان الشيعة قد استندوا فى فكرة المهدى الى كثير من الايات تأويلا ، فيورد على بن ابراهيم القمى فى تفسيره الشيعى القديم ان الاية : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون» [١١٥] تنصرف الى القائم اى المهدى [١١٦] وكذلك الاية : «ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن : ما يحبسه ؟» [١١٧] والاية : ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين [١١٨] وقد فسرها جعفر الصادق بالصيحة من السماء باسم صاحب الامر وان الخاضعين

---

(١١١) مقالات الاسلاميين ١/٩ ، الملل والنحل ١/٢٩٩ ، فرق الشيعة ٣٨ ، الفرق بين الفرق ٢٣٤ ، التبصير فى الدين ٧٣ .
(١١٢) مقالات الاسلاميين ١/٧ .
(١١٣) المصدر نفسه ١/٩ .
(١١٤) عقيدة الشيعة ٢٣١ .
(١١٥) الانبياء : ١٠٥ .
(١١٦) تفسير على بن ابراهيم ٤٣٤ .
(١١٧) هود : ٨ .
(١١٨) الشعراء : ٤

هم بنوا امية[119] ، والآية « سأل سائل بعذاب واقع »[120] . ويورد الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ بان على بن ابى طالب يفسر الآية : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين »[121] . بان الوارثين هم آل محمد يبعث الله مهديهم بعد جهدهم[122] . ومع هذا الوضوح فى الصلة بين الاسلام والمسيحية فى عقيدة المهدى حاول ماسينيون – ومن قبله ابن حزم – ان يصل هذه الفكرة بالمانوية استنادا الى ان اول من قال بها هم الموالى من انصار المختار[123] . اما الاحاديث فكثيرة يروى منها الطوسى عن عبدالله بن عمرو بن العاص وهو احد الزهاد المشهورين ان النبى قال : « انا اول هذه الامة والمهدى اوسطها وعيسى اخرها وبين ذلك شيخ اعوج »[124] ويرد فى «الكنى والاسماء» ان رسول الله قال : « لاتنقضى الدنيا حتى يخرج رجل من امتى يواطىء اسمه اسمى واسم ابيه اسم ابى فيملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا»[125] . وينصرف رأى الاستاذ أحمد أمين الى ان الاحاديث فى المهدى موضوعة بدليل اغفال البخارى ومسلم لها و « انما ذكرها الترمذى وابو داود وابن ماجه وغيرهم»[126] . وهذا الذى يقوله الاستاذ احمد امين يرد من ان كل فرقة من الشيعة وغيرهم تحاول المطابقة بين مهديها والحديث الوارد . فمى هذا الحديث الاخير تنعكس

---

(١١٩) تفسير على بن ابراهيم ٢٩٨ .
(١٢٠) تفسير على بن ابراهيم ٦٩٥ .
(١٢١) القصص : ٥ ، (المعارج : ١) .
(١٢٢) الغيبة للطوسى ١١٩ .
(١٢٣) الانسان الكامل فى الاسلام ٨٨ . الفصل ٢/١١٥ . ولم يعين ابن حزم فرقة قالت بها اولا .
(١٢٤) الغيبة للطوسى ١٢٢–١٢٣ فرقة قالت بها اولا .
(١٢٥) الكنى والاسماء ١٠٧ .
(١٢٦) ضحى الاسلام ٣/٢٣٧ .

دعوى الزيدية فى مهدية محمد بن عبدالله بن الحسن ودعوى المنصور فى معارضة مهدية بن الحسن بمهدية ابنه الذى ولى الخلافة بعده • اما ابن الحنفية الذى لقب فى حياته بالمهدى فان التطابق بين اسم النبى واسمه يقتصر على الاسم واللقب وكذلك بالنسبة لمهدى الاثنا عشرية محمد بن الحسن وحاول الشيعة الاثنا عشرية توجيه الاحاديث المروية عن النبى فى فكرة المهدى وجهة تخدم عدد أئمتهم كالحديث الذى اورده مسلم : « لاينقضى هذا الامر حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش» (١٢٧) • ويؤول الشيخ سليمان الحنفى النقشبندى ذلك بانه يحمل على الائمة الاثنى عشر وبه يستشهد الشيخ محمد حسين الزين ليسند عقيدته برأى سنى حنفى (١٢٨) والواقع ان السنية لا دخل لها فى هذا التوثيق وانما هى الصوفية التى ينتمى اليها النقشبندى ، وقد اخذت المهدية عن التشيع ومضت بها الى غايتها كما سنرى • وقد نقل الكنجى فى الغيبة ان ابا نعيم قد روى كون المهدية من نسل الحسن والحسين (١٢٩) وذلك يدل على ارتباط واضح بين التصوف والتشيع فى مسألة المهدى •

فاذا لم يصرح النبى بفكرة المهدى بدليل خلو صحيحى البخارى ومسلم ـ كما لاحظ الاستاذ احمد امين ـ من الاشارة اليها فكيف ساغ للمسلمين ان يهضموا فكرة المهدى فى القرن الاول الهجرى وبعد وفاة النبى بثلاث واربعين سنة فقط حين دارت حول محمد بن الحنفية ؟

الرأى عندنا ان الاصل فى فكرة المهدى اتصالها بالمسيحية واليهودية ، واشارة عمر الى ان محمدا (ص) قد رفع الى السماء كما رفع عيسى تؤيد ذلك •

---

(١٢٧) صحيح مسلم ٢/٧٩ •
(١٢٨) الشيعة فى التاريخ ٩٢ •
(١٢٩) البيان فى اخبار صاحب الزمان ٣٠٥ •

ثم يرد الحديث الذى يرويه البغدادى فى مختصر « الفرق بين الفرق » ويسنده الى انس بن مالك وابى هريرة وابى الدرداء وجابر وابى سعيد الخدرى وابى بن كعب وعبدالله بن عمرو بن العاص وابى امامة وواثلة بن الاسقع وغيرهم ، ونص الحديث كما يرويه عبدالله بن عمرو بن العاص : «ليأتين على امتى ما اتى على بنى اسرائيل : تفرق بنو اسرائيل على اثنتين وسبعين ملة ، وستفترق امتى على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة واحدة . كلهم فى النار الاملة واحدة» (١٣٠) . والذى يهمنا من هذا الحديث هو المقدمة التى تجعل الاسلام موازيا للاديان السابقة اى ان فيه ما فى اليهودية والمسيحية ومنها فكرة المسيح المنتظر . ويرد فى تفسير على بن ابراهيم مصداق لهذه الفكرة على صورة حديث نصه : « لم يكن فى بنى اسرائيل شىء الا وفى امتى مثله» (١٣١) ، واورد ابن بابويه القمى حديث اخر فيه هذا المعنى : « يكون فى هذه الامة مايكون فى الامم السابقة حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة » (١٣٢) . ويجب ان نلتفت الى الخبرين اللذين نقلناهما عن ايمان عمر بن الخطاب بمهدية النبى فقد وجدنا خبرا منهما يشير الى صلة رجعة محمد برجعة موسى والاخر يشير الى صلة موت محمد برفع عيسى الى السماء ، وأنه سيعود عيسى الى الارض من جديد وسيعود موسى مهديا بنفسه . وقد حاول الاسلام ان يجعل من محمد (ص) مهديا كما رأينا ولكن التيار التطورى جرف هذه العقيدة وخنقها فى مهدها ، ومن هنا اتجهت هذه العقيدة الى محمد آخر ليتم التناسق بينها وبين الفكرة المسيحية واليهودية . وهكذا نشأت هذه الاحاديث التى تعين اسم المهدى وتجعله مطابقا لاسم النبى اسما وكنية مرة واسما واسم اب مرة اخرى . ولو كان الاصل فى الاحاديث

---

(١٣٠) مختصر الفرق بين الفرق ١٤ ، ينكر الغزالى مثل هذه الاحاديث على اساس انها من اخبار الاحاد (فضائح الباطنية ص ٣٤) .

(١٣١) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .

(١٣٢) اعتقادات الصدوق ٢٠ .

التى تذكر المهدى الاسم نفسه ما رأينا مهديين من كل صنف ليس لاسمهم صلة بالنبى ، بل لقد وجدنا كثيرا من المهديين لايهتم اتباعهم بالشبه بين اسمائهم واسم النبى . وهذا يعود بنا من جديد الى ان فكرة المهدى الاسلامية آتية من ذلك الحديث الذى يجعل الاسلام دينا موازيا لليهودية والمسيحية وان الاحاديث التى تعين الاسم بانه مطابق لاسم النبى قد كانت موضوعة على اساس الاستنتاج الذى ذكرناه من مهدية موسى بنفسه وعودة عيسى بشخصه وان محمدا لم تثبت مهديته فى عقائد الاسلام فانتقل بها المحدثون الى محمد آخر يكون شخصا غير النبى ولكنه يتصف باوصافه . ومع ذلك فان وجود المهدية عند المانوية لايمنع ان يعتقدها الفرس ويتسلحوا بها فى اقناع الناس ، من امتهم وغيرها ، بشرعية حركتهم اذا اتخذوا المهدية ذريعة لها .

الرجعة :

اقترنت الرجعة ـ من حيث هى عقيدة ـ بمحمد بن الحنفية كما اقترنت به المهدية ولكنها اتصلت به ميتا وقد رأينا من قبل اتصال المهدية به حيا ، وجلية الامر ان الناس كانوا ينتظرون منه ان يظهر بالسيف ويدعو العالم الاسلامى الى بيعته دون عبدالله بن الزبير وعبدالملك بن مروان ولكنه لم يفعل وظل يتنقل من بلد الى آخر متفاديا قتال منافسيه حتى نزل المدينة فمات بها سنة ٨١/٧٠٠ (١٣٣) وروى انه مات فى ايلة (١٣٤) وهكذا بدأت الرجعة ، ولكن اصحاب ابن الحنفية لم يروا انه مات وانما اعتقدوا انه مازال يتحين الفرص لظهوره بالسيف باعتباره مهديا وقد ذكر ذلك سائر اصحاب كتب الفرق ويكفينا ان نورد قول السيد الحميرى الشاعر الكيسانى المتوفى سنة ١٧٣/٧٨٩ـ٩٠ .

---

(١٣٣) طبقات ابن سعد ٥/٨٠ .
(١٣٤) الاخبار الطوال ٢٦٨ .

لو غاب عنا عمر نوح ايقنت منا النفوس بانه سيؤوب[١٣٥]

ثم تطورت هذه الرجعة من دورانها حول عودة شخص معين كما رأينا في فكرة رجعة ابن الحنفية – الآن – والنبي (ص) وعلي (ع) وموسى (ع)، ويخبرنا جولد تسيهر ان ايليا هو «النموذج الاول لائمة الشيعة المختفين الغائبين الذين يحيون لايراهم احد والذين سيعودون يوما كمهديين منقذين للعالم»[١٣٦] تطورت الرجعة من ذلك فدارت حول جماعة بأكملها هم اربعون شخصا من اصحاب محمد بن الحنفية يرجعون معه في قيامه[١٣٧] ولعل لهذه الفكرة صلة بالفكرة الاسرائيلية التي تدور حول عودة دولة حمير من بطن الصحراء كما يروي ذلك الدكتور اسرائيل ولفنسون[١٣٨]. وكان اصحاب كرب وصائد النهدي واصحاب بيان وهم رؤساء فرق متطورة عن الكيسانية ينتظرون رجوعهم ورجوع اصحاب محمد بن الحنفية ويزعمون انه «يظهر بنفسه بعد الاستتار عن خلقه، ينزل الى المدينة ويكون امير المؤمنين»[١٣٩]. ولم يكتف الكيسانية برجعة رؤسائهم وانصارهم بل روى عنهم انهم «يعتقدون برجعة علي بن ابي طالب» ليقتل معاوين بن ابي سفيان وآل ابي سفيان ويهدم دمشق ويغرق البصرة»[١٤٠]. ثم دخلت هذه الفكرة في الشيعة الامامية الاثنى عشرية فرأينا المجلسي يقول: «ان الله يحشر في زمن القائم او قبله جماعة من المؤمنين لتقر عينهم برؤية أئمتهم ودولتهم، وجماعة من الكافرين والمخالفين للانتقام عاجلا في الدنيا».

---

(١٣٥) فرق الشيعة ٢٩.
(١٣٦) العقيدة والشريعة في الاسلام ١٩٢.
(١٣٧) المهدية في الاسلام ١٠٥.
(١٣٨) تاريخ اليهود في بلاد العرب ٤٩.
(١٣٩) فرق الشيعة ٢٩.
(١٤٠) فرق الشيعة ٤٢.

ولزم امر دخول الرجعة فى التشيع ان تسند بالقرآن وبالادلة العقلية فانبرى الصدوق القمى من اوائل علماء الاثنا عشرية يقول « اعتقادنا فى الرجعة انها حق ، وقد قال الله تعالى : الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم : موتوا ، ثم احياهم[١٤١] .... أو : كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : انى يحيى هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه[١٤٢] ... ويشير الى احياء عيسى للموتى فيقول : « فجميع الذين احياهم عيسى باذن الله رجعوا الى الدنيا وبقوا فيها ثم ماتوا باجالهم»[١٤٣] . واورد على بن ابراهيم فى تفسيره ان تأويل الآية : ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد[١٤٤] يؤدى الى معنى الرجعة وان محمدا الباقر (الامام الخامس) « قد اخبر ان جابرا قد كان يعرف تأويل هذه الآية»[١٤٥] ، واورد ايضا ان الآية : ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين[١٤٦] تنصرف الى الرجعة على قول جعفر الصادق[١٤٧] ، وهذا كله يستدعى ان يكون للناس قيامتان : صغرى وهى الرجعة وكبرى وهى القيامة النهائية وذلك هو معنى الرجعة المتطور وسنرى ان بعض الصوفية يوافقون عليه كلية .

ثم ينقل على بن ابراهيم عن جعفر الصادق انه فسر الآية : ويوم نحشر من كل امة فوجا ، انها نزلت فى الرجعة ودلل على ذلك بقوله : «ايحشر الله فى القيامة من كل امة فوجا ويدع الباقين ؟ انما آية القيامة قوله : وحشرناهم

---

(١٤١) البقرة : ٢٤٣ .
(١٤٢) البقرة : ٢٦١ .
(١٤٣) اعتقادات الصدوق ٢٠ .
(١٤٤) القصص ٨٥ .
(١٤٥) تفسير على بن ابراهيم ٤٩٣ .
(١٤٦) هود : ١١ .
(١٤٧) تفسير على بن ابراهيم ٥٨٣ .

فلم نغادر منهم احدا» [148] وقال الصادق « فهذا مما يكون اذا رجعوا الى الدنيا » [149] فى مدلول الآية : وعدا الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنكم فى الارض كما استخلف من قبلكم وليمكن لهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا [150] .

ثم يضيف الشيعة الى الرجعة قيدا اخر ، وذلك ان كل قرية عذبها الله لاترجع فى الرجعة وأما فى القيامة فيرجعون» [151] مصداقا للآية : وحرام على قرية اهلكناها انهم لايرجعون [152] . بل اننا نستطيع ان نجد فكرة الرجعة على هيئتها المتطورة فى كلام على فى صورة عميقة قد تكون هى سبب نحله وذلك انه ورد فى نهج البلاغة ان عليا « لما اظفره الله باصحاب الجمل ـ وقد قال له بعض اصحابه : وددت ان اخى فلانا كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على اعدائك ـ قال عليه السلام : أهوى اخيك معنا ؟ فقال نعم قال : فقد شهدنا» [153] ولعل الامام يشير الى الآية : ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون [154] ، ولكن الخبر يتوجه الى الرجعة بكل ما فيها من عبرة وعمق ، بل ان بقية الخبر تنفذ الى اغوار بعيدة من فلسفة الرجعة وحكمتها ، فان الامام يقول : « ولقد شهدنا فى عسكرنا هذا اقوام فى اصلاب الرجال وارحام النساء سيرعف بهم الزمن ويقوى بهم الايمان » [154-] . ومن ذلك يبدو ان عليا لايكتفى بتقرير عودة الماضين فى الجهاد ليقطفوا ثمرة جهادهم بل يقرر ان المجاهدين الاتين يحضرون هذا

---

(١٤٨) الكهف ٤٥ .
(١٤٩) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .
(١٥٠) النور ٥٥ .
(١٥١) تفسير على بن ابراهيم ٢٢ .
(١٥٢) الانبياء ٩٥ .
(١٥٣) نهج البلاغة ١/٣٩ .
(١٥٤) ال عمران : ١٦٩ .

النصر ليزيد ذلك من ايدهم ويربط على قلوبهم وتلك امور فيها من الافلاطونية القديمة والحديثة مدخل كبير .

هذه نظرة بسيطة تدور حول المهدية والرجعة سقناها لمناسبة عرضنا لمحمد بن الحنفية المهدى الشيعى الاول ، وسنرى المهديين يترون واحدا بعد الاخر حتى يغدو اسم المهدى شيئا عاديا يتسمى به الملوك والثائرون وان لم يدعوا انهم كذلك ، فقد دعى به سليمان بن عبدالملك فى شعر الفرزدق وجرير واطلقه سليمان بن صرد على الحسين بن على واطلقه حسان بن ثابت على النبى وكذلك الفرزدق ، بل اطلقه جرير على النبى ابراهيم(١٥٥) ، ودعى به زيد بن على بن الحسين حين قال شاعرا الامويين بذمه :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهديا على الجذع يصلب(١٥٦)

وكان الثائر الزيدى محمد بن عبدالله بن الحسن يلقب نفسه ، فى كتبه، بالمهدى ايضا (١٥٧) .

بل لقد تلقب به احد الخوارج وهو على بن مهدى الذى استولى على اليمن سنة ٥٥٤(١٥٨) .

لقد صدرت المهدية والزهد عن جوهر واحد هو فساد المجتمع الاسلامى فقوم اعتزلوا وانزووا وقوم تعلقوا بالامل واتجهوا بارواحهم الى فكرة الاصلاح عن طريق علوى يأخذ بالثأر ويعيد الامور الى نصابها ، وقد نصح محمد بن الحنفية نفسه الخراسانى الذى هدد بالزهد ان لم يخرج الامام داعيا الى نفسه بقوله : فلا تفعل ، فان تلك البدعة الرهبانية ، ولعمرى لامر آل محمدا أبين من طلوع هذه الشمس»(١٥٩) ، ومن هنا ايضا نجد ان فكرة المهدى قد

---

(١٥٥) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٣٤١ .
(١٥٦) مروج الذهب ٢/١٨٣ .
(١٥٧) الطبرى ، ليدن ، ٣/٢٠٨ .
(١٥٨) تاريخ اليمن ١١٨ .
(١٥٩) ابن سعد ٥/٧٠ .

دخلت التصوف بوصفها مكملة للزهد اذى يبعث عليه ثقل احتمال المسلم للامور الدنيوية التى اخذت فى الابتعاد عن طرازها الاسلامى واتجهت الاتجاه المادى . ولعله ليس من الغريب ـ بعد ـ ان تسبغ المهدية على الحلاّج الصوفى المقتول فى سبيل عقيدته وبخاصة انه كان معاصرا لاحد وكلاء المهدى الشيعى وانه كان يدعى بابيته كما سنرى فيما بعد . اما الرجعة فقد دخلت التصوف بكل تفاصيلها حتى مايتصل منها بالقيامة الصغرى والقيامة الكبرى وقد وجدنا ابن عربى يقول فى تفسير الحاقه : « هى الساعة الواجبة الوقوع التى لاريب فيها ان اريد بها القيامة الصغرى»(١٦٠) ويسمى النبأ العظيم القيامة الكبرى »(١٦١) . وقد وضع الترمذى المتوفى سنة نفسه ، فى كتبه ، بالمهدى ايضا(١٦١) . وقد وضع الترمذى المتوفى سنة ٨٠٣/٢٨٩ مائة وخمسة وخمسين سؤالا يشتم منها وصل التشيع بالتصوف ومنها ما يتعلق بختم الاولياء(١٦٢) ، اى مهدى الصوفية ، والكلام فى ذلك كثير ونكتفى بهذه الاشارة الان ولكننا نقتنص هذه الفرصة فنقرر فى غير تردد بان معظم آراء الشيعة فى المهدى قد انتقلت الى الصوفية فصاغوها صياغة تلائم مشربهم مع ما عرف عنهم من ميل الى التعقيد ولكنهم لم يخرجوا بالفكرة عن جوهرها .

الكيسانية

تنسب الكيسانية ـ كما يبدو من لفظها ـ الى كيسان ، وقد اختلف اصحاب كتب الفرق فى : من يكون ، والنظرة الفاحصة تنتهى الى انه كيسان مولى بجيلة : القبيلة التى ستعرف فيما بعد بتبنيها الظاهر لحركة الغلو الشيعى،

---

(١٦٠) تفسير ابن عربى ٢/١٦٩ .
(١٦١) تفسير ابن عربى ٢/١٨٤ .
(١٦٢) الفتوحات المكية ٢/٦٣ .

وقد اخبرنا ابن سعد بانه كان من اعوان المختار وممن شهدوا بان محمد بن الحنفية قد بعث بكتاب الى ابراهيم بن الاشتر يأمره فيه بنصرة المختار(١٦٣) وقد اخذ على المختار انه استعان بابى عمرة الذى هو كيسان وقالوا : « قد جاوره ابو عمرة» (١٦٤) . واستقراء الاخبار الواردة فى كيسان يبين انه كان ذا صلة بعلى بن ابى طالب وانه غضب لقتل الحسين واغرى المختار بالطلب بدمه وانه دله على قتلته (١٦٥) . وبهذا لا يكون المختار مؤسسا للكيسانية وانما كان معاصرا لبدايتها لانها نضجت - فى الواقع - بعد موت محمد بن الحنفية . ومما يدل على ذلك انه قد نسب الى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ما نسب لكيسان من ان كليهما كان له بصر بالاسرار بجملتها من علم التأويل والباطن وعلم الافاق والانفس(١٦٦) اخذا عن محمد بن الحنفية عن على ابن ابى طالب . ولذلك فان الاساس الاول للكيسانية لابد ان يكون مهدية محمد بن الحنفية او رجعته على الصحيح . وقد كانت الكيسانية اصلا لكل الافكار الغالية فيما بعد وبخاصة انها تشترك مع دعاة الغلو فى كونها من قبيلة واحدة هى بجيلة او عجل - فى بعض الاحيان - ولذلك وجدنا كتب الفرق طافحة بالاخبار التى تلقى افكار الغلو حتى المتأخرة منها على عاتق الكيسانية فقد نسب الى الكيسانية قولها بان الدين طاعة رجل وبان الاركان الشرعية كالصلاة والصيام والزكاة والحج انما هى فى الواقع كنايات عن رجال معينين وانها قالت بالتناسخ والحلول(١٦٦-) . والواقع ان هذه الافكار متأخرة كما يبدو ذلك مما يرويه النوبختى (١٦٧) وسيمر بنا تفصيله فى فصل الغلاة . وعلينا ان نذكر ايضا ان الكيسانية موصولة بالسبئية ايضا ويبدو ذلك من

---

(١٦٣) طبقات ابن سعد ٥/٧٢ .
(١٦٤) الاخبار الطوال ٢٦٠ .
(١٦٥) فرق الشيعة ٢٣ .
(١٦٦) الملل والنحل ١/٢٣٦ ، ٢٤٣ .
(١٦٧) فرق الشيعة ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٣ .

اتفاق الفرقتين على تبنى فكرة الحقد على اعداء على [١٦٨] . وقد بدأت الكيسانية عرفا صار اساسا للشيعة الغلاة فيما بعد وذلك انها قد جعلت الامامة مقاما ساميا يكاد يكون منفصلا عن الحياة الواقعية اما الدعوة والعقيدة والتأويل والفقه فكلها متصلة بصاحب الفرقة الذى هو فى الاغلب من الموالى وهذا تفسير ما يورده النوبختى من ان : « الكيسانية كلها لا امام لها وانما ينتظرون الموتى »[١٦٩] . وهذا يعنى ان الامام كان قائدا فخريا فى حياته لايستطيع ان يعترض على ما ينسبونه اليه واذا فعل فان صوته لايصل اسماع المريدين لبعده عنهم ، فتبقى القيادة فى حياته فى يد اصحاب الدعوة وتبقى كذلك بعد موته حين توصل المهدية والرجعة به بل ربما اعتبر الها كما يروى لنا النوبختى[١٧٠] وتلك خطة ظاهرة الجوهر لاتخفى على اللبيب . اما بعد فاننا لم ندخل فى متاقشات كان فى امكاننا اثارتها حول اصل الكيسانية وجوهرها وما اضيف اليها ، غير اننا فى مجال تعريف وتجميع لمثل الشيعة ، ولهذا فان علينا ان نسلك سبيل الاختصار المركز . وقد كانت العقيدة الاساس للكيسانية دائرة حول مهدية محمد بن الحنفية ورجعته يضاف الى ذلك تبنيها للافكار السبئية الدائرة حول الحقد على سابقى على وغاصبى حقه . وقد كان لابى هاشم بن محمد بن الحنفية مكان ومقام فى مباشرة الامامة الفعلية كما يريدها الناس الموالون للائمة وكان ذا اثر فعال فى غرس العقائد الشيعية الجديدة ولذلك يحسن بنا ان نفرد له فصلا ولو صغيرا فى هذا البحث .

ورث ابو هاشم مقام ابيه وباشر الامامة مباشرة لم نجدها عند الائمة السابقين ، ويحدثنا ابو الفرج الاصفهانى انه « كان لسنا خصما عالما وكان وصى ابيه »[١٧١] ويبدو انه كان يدعى الاطلاع على علم الباطن الذى نفاه

---

(١٦٨) فرق الشيعة ٢٣ .
(١٦٩) فرق الشيعة ٣٦ .
(١٧٠) فرق الشيعة ٢٨ .
(١٧١) مقاتل الطالبين ١٢٦ .

أبوه عن نفسه ويبدو ذلك من اخبار السفاح اصحابه انه سيموت بعد ثلاثة ايام لمجرد علمه ان ابا هاشم حدد تاريخ وفاته بقدوم وافدين احدهما من السند والاخر من افريقيا (١٧١) وهكذا تعود نبؤات على ومن قبله النبى (ص) بعد ان اختفت ايام الحسن والحسين . ثم تبدو من ابى هاشم ظاهرة اخرى هى انه قد التفت الى خطورة الاعداد والتفت الى سريتها فاشار على محمد بن على بن عبدالله بن العباس زميله فى جهاد الامويين ان يختار دعاته « فليكونوا اثنى عشر نقيبا فان الله عزوجل لم يصلح بنى اسرائيل الا بهم وسبعين نفرا يتلونهم . فان النبى انما اتخذ اثنى عشر نقيبا من الانصار اتباعا لذلك» (١٧٢) . يضاف الى ذلك انه اول من أثار الانتباه الى فكرة تجديد الدين على رأس كل مائة سنة بقوله : « لم يمض مائة سنة من نبوة قط الا انقضت امورها لقول الله عز وجل : او كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فقال : انى يحيى هذه الله بعد موتها ، فاماته الله مائة عام ثم بعثه (١٧٣)، فاذا دخلت سنة مائة فابعث رسلك ودعاتك فان الله متمم امرك» (١٧٤) . وقد فعل ذلك محمد فعلا (١٧٥) . وقد صارت هذه الملاحظة سببا فى ميلاد فكرة جديدة هى فكرة الاسماعيلية الباطنية التى سارت فى الشوط الى نهايته فوقتت انتهاء النبوة نفسها فى مائة سنة وكان الاصل فكرة ابى هاشم . ويجب ان نلتفت الى ما يعكسه هذا النص من اتصال بفكرة الرجعة التى قال بها الكيسانية

---

(١٧٢) تاريخ اليعقوبى ٣/٩٨ .

(١٧٣) البقرة ٢٥٩ .

(١٧٤) ذكر ابن سعد النقباء بروايته عن النبى انه « قال للنفر الذين لقوه بالعقبة : أخرجوا الى اثنى عشر منكم « يكونوا (كذا) كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى بن مريم ، فأخرجوا اثنى عشر رجلا» وأنه قال للنقباء : « انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وانا كفيل قومى ، قالوا : نعم » (طبقات ابن سعد ٣ : ٢/١٣٤) .

(١٧٥) العبر ٣/١٠٠ .

الاولون ثم يسير ابو هاشم بالامامة الشيعية خطوة اخرى باضافة اتباعه اليه ان اباه « افضى اليه اسرار العلوم واطلعه على مناهج تطبيق الافاق على الانفس وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن» (١٧٦) وفى ذلك اشارة الى الاية : سنريهم آياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق (١٧٧) ، والى الاية : وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم (١٧٨) . وينقل لنا الشهرستانى تفسير ذلك بقوله نقلا عن اصحاب ابى هاشم : « ان لكل ظاهر باطنا ولكل شخص روحا ولكل تنزيل تأويلا ولكل مثال فى العالم حقيقة ، والمنتشر فى الافاق من الحكم والاسرار مجتمع فى الشخص الانسانى وهو العلم الذى استأثر به على عليه السلام ثم ابنه محمد بن الحنفية ، وهو افضى ذلك السر الى ابنه ابى هاشم — وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الامام حقا» (١٧٩) وهذه نقطة مهمة تنبهنا الى حقيقة اجلنا جلاءها الى هذه الفرصة فلقد كانت امامة محمد بن الحنفية ثورة على المبدأ الشيعى الذى حصرها فى أهل البيت اى اهل بيت النبى فى الدرجة الاولى الذين هم ابناء على من فاطمة التى تسبغ عليهم هذا الوصف . اما ان الحنفية فقد كان علويا فقط لان امه حنفية يمانية وليست فاطمة بنت محمد ، وقد جر ذلك الى القول بان الامامة انما تتقيد بالعلم الالهى الاتى من على عن النبى لا من صلة الدم والنسب المتصلة بالنبى وهكذا رأينا ابن الحنفية وابنه ابا هاشم يوصفان بالاطلاع على العلم السرى الذى اخذه على عن النبى . والمهم ان نلاحظ هنا ان هذا التفريط فى حد الامامة قد جر الى اسباغها على العباسيين الذين حالفهم ابو هاشم ثم رأيناها — كما سيتضح لنا — تنتقل الى نسل عبدالله بن جعفر ابن عم على بن ابى طالب ثم تخرج على صورة نبوة تتجه الى الهية الائمة يدعيها قوم ليسوا علويين

---

(١٧٦) الملل والنحل ١/٢٤٣ .
(١٧٧) فصلت : ٥٤
(١٧٨) آل عمران ٧١ .
(١٧٩) الملل والنحل ١/٢٤٣ .

على الاطلاق ولا قرشيين بل كثيرا ما كانوا من غير العـــرب • وقد دخلت الافكار التى اضيفت الى ابى هاشم فى التصوف بعد ذلك وصار الظاهر والباطن والتنزيل والتأويل من الاسس التى اقام التصوف عليها عقيدته ، ومن ذلك يتبين ما بين التشيع والتصوف من علاقة وثيقة فى اعمق الاصول • ومات ابو هاشم سنة ٩٧/٧١٥-١٦ فعاد مهديا منتظرا عند جماعة من انصاره فاستأثر حلفاؤه العباسيون بالدعوة وجنوا ثمارها وسنرى كيف عالج الشيعة هـــذه النقلة •

الفصل الثالث

الغلو والغلاة

مر بنا فيما مضى طرف من بدايات الافكار الغالية ، وهذا الفصل خاص بالغلو واصوله وما يتصل به . فاما الغلو لغة فهو - فى رأى الشيخ المفيد - « التجاوز عن الحد والخروج عن القصد» [١] ، واما اصطلاحا فينصرف الى «الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى اخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم باحكام الالهية فربما شبهوا واحدا من الائمة بالاله وربما شبهوا الاله بالخلق» [٢] ، هذا رأى الشهرستانى ، والشيخ المفيد يوافقه ايضا . واما علة الغلو فتنصرف الى العامل النفسى الذى انعكس من تفريط اهل الكوفة فى حق على حتى ذهب ضحية عصيانهم ، فكان ان اسرف الكوفيون فى حبه وفى كره اعدائه حتى غلوا فى كليهما . وقد وافق الدكتور طه حسين على ذلك وعلل الغلو بانه « عزاء عما قدموا اليه من الاساءة ايام حياته» [٣] واضاف الى هذا سببا آخر هو الاضطهاد الذى فتح عيون الكوفيين على البون الشاسع بين سياسة على وسياسة اعدائه الامويين لهم . اما احمد امين فانه يسرع فى القول بان للموالى ضلعا فى الغلو لانضمامهم الى حركة التشيع [٤] . اما الدكتور الوردى فيعضد رأى الدكتور طه حسين ويلاحظ ان العراقيين « لم يغالوا فى حب محمد كما غالوا فى حب على ، ومرد ذلك ان حب محمد لم يكن محرما

---

(١) تصحيح الاعتقاد ٢١٧ .
(٢) الملل والنحل ١/٢٨٨ .
(٣) على وبنوه ١٨٨ .
(٤) ضحى الاسلام ٣/١٧٧ .

عليهم فقد كان حكامهم يشتركون معهم فيه»[٥] ولاحظ امرا آخر هو : «ان النفس البشرية تهوى الايمان بدين ، فاذا فقدت دينا جاءها من السماء التمست لها دينا يأتيها من الارض» [٦] ، فعاد ملاك الغلو الى الندم والحب ومقاساة الاضطهاد . وقد التفت ـ قبل هؤلاء جميعا ـ خصم من خصوم الشيعة هو هشام بن عبدالملك الى جوهر الغلو وصدوره عن الحب الزائد فكتب الى يوسف بن عمر واليه على العراق : « أما بعد فقد علمت بحال اهل الكوفة فى حبهم اهل هذا البيت ووضعهم اياهم فى غير مواضعهم لانهم افترضوا على انفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ماهو كائن»[٧] .

اما بداية الغلو فيلزم ان تكون من السبئية انصار حجر بن عدى الذين قتلوا جزاء تكفيرهم الخليفة وسبهم عثمان وحبهم لعلى وامتناعهم عن البراءة منه ، ولم يغير قتل هؤلاء من طبيعة الكوفيين بل زادهم اندفاعا الى هذه الفكرة وعكوفا عليها . ثم جاء المختار فشجع افكار السبئية وكانوا فى جيشه على التحقيق فظهرت هذه المثل من جديد وساعد محمد بن الحنفية فى بعده عن المعترك السياسى وحصر ابن الزبير وعبدالملك ابن مروان له وحيلولتهم دون اتصاله بانصار ابيه فزاد ذلك من اندفاع الكوفيين الى اضافة الامتياز الروحى والعلم اللدنى والصفات الالهية الى الائمة الذين زادهم بعدهم عن انصارهم وجور منافسيهم سموا على سمو ، ثم جاء ابو هاشم فسار سيرة على فى تنبؤه وتعلقه بالعلم السرى وقوله بان لكل ظاهر باطنا . وقد رأينا ان كون محمد بن الحنفية وابنه ابى هاشم من نسل على من غير فاطمة قد جرأ العباسيين ابناء عم النبى على ادعاء الحق الالهى ثم عاد الامر ـ قبل انتصار العباسيين ـ الى دوران هذا الحق حول نسل عبدالله بن جعفر بن ابى طالب ثم خرج الامر من

---

(٥) مهزلة العقل البشرى ٨٧ .
(٦) وعاظ السلاطين ٤٠٠ .
(٧) الطبرى ٨/٢٦٥ .

العلويين والطالبيين والهاشميين وعاد بالاسم الى العلويين ولكنه كان فى الواقع قد تحول الى اقوام ليس بينهم وبين قريش لحمة ولاسدى • والواقع ان بداية الغلو المنظم كانت بعد وفاة ابى هاشم سنة ٩٧/٧١٥-١٦ ووصيته لمحمد بن على بن عبدالله بن العباس ان يظهر دعوته سنة ١٠٠/٧١٨-١٩ اى بعد انقضاء قرن كامل على الاسلام مما يدعو الى تجديده كما مر بنا :

بيان بن سمعان النهدى (المقتول سنة ١١٩/٧٣٧) :

أحدث موت ابى هاشم انقساما فى التشيع ، فادعى محمد بن على بن عبدالله بن العباسى انه الامام [٨] وادعى عبدالله بن الحارث — وهو من اهل المدائن — ان الامامة قد انتقلت الى عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر (المتوفى سنة ١٣٠/٧٤٧-٤٨) [٩] ، وادعى كلا الفريقين ان ابا هاشم نفسه قد اوصى بما ادعياه • اما بيان فقد انكر كلتا الدعويين وزعم ان ابا هاشم مهدى كابيه وانه لم يوص لاحد وجعل من نفسه رئيسا لهذا الفريق من الثابتين على امامة ابى هاشم ، ولكنه من ناحية اخرى نصب نفسه وصيا على امامة ابى هاشم بنص الهى هو الآية : « هذا بيان للناس وهدى »[١٠] فبدأت بذلك اولى الحركات الغالية فى الكوفة لان كلتا الحركتين المستندتين الى وصية ابى هاشم متأخرة عن حركة بيان • وقد خلط الشهرستانى بين عقيدة بيان والسبئية المتقدمة والحارثية المتأخرة ونسب اليه القول بالتناسخ مع انه قد تسلح بآية من القرآن مرت بنا

---

(٨) فرق الشيعة ٣٣ •

(٩) فرق الشيعة ٣٢ ، مقالات الاسلاميين ١/٧ •

(١٠) فرق الشيعة ٣٤ والاية فى سورة آل عمران ١٣٨ •
وسيقول ابراهيم الدسوقى بنحو ذلك • فقد قال للشرنوبى : « من كراماتنا يا احمد ان الله قال : قل يا ابراهيم : انا الله ، ولا تخف (عن كتاب الغيوب للشرنوبى مخطوط رقم Or 3684 بالمتحف البريطانى فى لندن ، هامش الورقة ٧٨ ب) » •

فلم يحتج الى التناسخ الذى سيرد بعدئذ [١١] . وقد التفت الدكتور جابر عبدالعال الى ذلك ولاحظ ان بيانا قد رسم للغلاة من بعده «الوسيلة التى يخدعون بها الناس ويعتمدون عليها فى تنصيب انفسهم دعاة وقادة وجبت طاعتهم» [١٢] .

اما عقيدة بيان الرئيسة فهى التجسيم الذى سيكون مبدأ مشتركا بين جميع فرق الغلاة وذلك انه اعتمد فى التجسيم على آية اخرى من القرآن هى «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» [١٣] . ويجب ان نبين ان العلة فى اجتماع الغلاة على التجسيم هو انهم قد ركزوا همهم فى الارتفاع بالانسان مرة حتى يصير الها والنزول بالاله حتى يصير انسانا . فعقيدتهم فى جدلهم الصاعد والنازل تعتمد على اله وانسان وكلها تدور حول الارتفاع بهذا الانسان ، فحاجتهم الى التجسيم اشد من حاجتهم الى التجريد ، فهم لايستطيعون تجريد المادة الحية السائرة الاكلة الشاربة وانما يستطيعون ان يجسموا المجرد لتقريب فكرة تأليه الانسان ، وذلك ما صنعه المتصوفة فى صعودهم الى الالهية واحلال الالهية فى محل الانسان . فكأن بيانا اصل واضح من اصول الحلول الذى اتضح فى التصوف ابتداء من القرن الرابع .

وقد استند بيان الى آراء ابى هاشم حول انقضاء النبوة بعد قرن من الزمان فورد عنه « انه نسخ بعض شريعة محمد » [١٤] وهذه استمرارية لتلك الفكرة لن تلبث ان تكون اساسا يقيم عليه اصحاب المذهب الاسماعيلى عقيدتهم بعد ثلاثين سنة . وقد كان من اصرار بيان على عقيدته انه دعا الامام

---

(١١) ويروى السمعانى (الانساب ورقة ١٧٣ ب) وابن الاثير (اللباب ٣١٢/١) ان اصحاب بيان بن سمعان من الحلوليين وان روح الاله انتقلت من آل هاشم الى بيان بن سمعان .

(١٢) حركات الشيعة المتطرفين ٣٣٦ .

(١٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ . والاية فى سورة الرحمن ٢٧ .

(١٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٥ .

محمدا الباقر الى الدخول فى دعوته وخاطبه بعبارة : «وقد اعذر من انذر»(١٥) وذلك يبين الى اى مدى كان محمد بن الحنفية وابنه ابو هاشم متمكنين من قلوب فريق من الكوفيين . وقد انتهت حركة بيان بقتلة سنة ١١٩/٧٣٧ احراقا ايام خالد بن عبدالله القسرى وشاركه مصيره صائد النهدى واتباعه .

المغيرة بن سعيد البجلى المقتول سنة ١١٩/٧٣٧(١٦) :

ودخل المغيرة ميدان الغلو بمظهر جديد هو الاعتراف بامامة محمد الباقر مع تبرؤ الامام منه (١٧) ولما توفى صرف دعوته الى امامة محمد بن الحسن وزعم انه الامام الى ان يظهر المهدى (١٨) ويعنى به محمد بن عبدالله بن الحسن ، فيكون المغيرة بذلك قد جعل نفسه اماما وان يكن موقتا وتلك سابقة خطيرة جدا لم يجرؤ احد غير المغيرة على ان يصرح بها ولعل الولاية الصوفية التى هى فى موازاة الامامة الشيعية موصولة - ولو جزئيا - بهذا الادعاء . وقد ظهر المهدى وقتل غير ان انصار المغيرة لم يعترفوا بقتله وزعموا ان «الذى قتل فى صورة محمد انما كان شيطانا» (١٩) . ولعلنا ندرك ان الاصرار على مهدية الائمة يقصد به ابقاء الحركة فى يد اصحابها واطلاق يدهم فى سياسة اتباعهم السياسة التى يرتضونها . وكان المغيرة مجسما شأن الغلاة ولكنه سار بالتجسيم الى هدف واضح وذلك انه جعل لله اعضاء على عدد حروف الهجاء وهيئتها (٢٠) فكأنه يريد ان يقول ان الوحى انما هو نزول الله نفسه الى النبى او الامام وان كل كلمة يتلقاها انما هى حلول يستمر باستمرار الوحى . وتبدأ فكرة تطبيق اسم الله الاعظم فى المغيرية ايضا وذلك

---

(١٥) فرق الشيعة ٣٤ ، الملل والنحل ١/٢٤٦ .
(١٦) يرى ابن الاثير انه قتل سنة ١٥٤ .
(١٧) لسان الميزان ٦/٧٥ .
(١٨) فرق الشيعة ٦٣ .
(١٩) المصدر نفسه ٥٤ .
(٢٠) مختصر الفرق بين الفرق ٢٥ .

ان المغيرة يرى « ان الله لما اراد ان يخلق تكلم باسمه الاعظم » [٢١] فكان اسم الله الاعظم هو مفتاح الخلق وكأن معرفته تتيح لعارفه القدرة الالهية ، وتلك فكرة دخلت التصوف وقد رأينا كثيرين من الصوفية مطلعين على اسم الله الاعظم وقادرين على اتيان الكرامات وذلك امر واضح الصلة بالتشيع الغالى. وقد ظهر من المغيرية امر سيكون له شأن كبير عند الشيعة وذلك انهم ساروا فى التأويل سيرا جديدا بالتفاتهم الى دعم الامامة بآيات من القرآن ، فاولوها بالامانة الواردة فى الآية : ان الله يأمركم ان تردوا الامانات الى اهلها [٢٢] والآية : انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا [٢٣] واولوا الظلوم الجهول بانه غاصب حق الامام [٢٤] وقد وافق على ذلك الشيعة المعتدلون ايضا كما فى تفسير على بن ابراهيم [٢٥] وهكذا يبدأ التأويل الموجه ليدخل التصوف من التشيع بعد ذلك .

وعاد بعقيدة المغيرة دور سلمان الفارسى من جديد وذلك ان الاعمش «قد سمع المغيرة يفضل عليا على آدم وسائر الانبياء وساواه بمحمد (ص)» [٢٦] فقد كان سلمان يعرف لعلى حقه وللنبى نبوته وهذا المغيرة يعبر عن نفس المعنى الذى اوردناه عن سلمان ومن ذلك يتضح ان الالهية لم تدر حتى الان حول امام من الائمة وانما هى روحانية وتقديس على عكس ما يورده اصحاب كتب الفرق . وكان المغيرة الى ذلك قد التفت لاول مرة الى خطر الاعداد

---

(٢١) حركات الشيعة المتطرفين ٣٧ .
(٢٢) النساء ٥٨ .
(٢٣) الاحزاب ٧٢ .
(٢٤) مختصر الفرق بين الفرق ١٤٧–٨ .
(٢٥) تفسير على بن ابراهيم ٥٣٥ .
(٢٦) حركات الشيعة المتطرفين ٣٧ .

«فخرج داعيا الى عقيدته فى سبعة نفر وكانوا يدعون الوصفاء وكان خروجهم بظهر الكوفة» [٢٧]، وسيقول ابو منصور ـ وهو غال آخر : « يتولى سبعة انبياء من قريش وسبعة من بنى عجل » [٢٨] ثم سيستند الاسماعيلية الى سباعات الانبياء الظاهرين والمستورين .

ويستتبع هذا كله ان يكون للمغيرة بصر بالسحر والنيرنجات ، فقد روى عنه الاعمش انه علم بان خادمه قد ذهب يشترى سمكا بدرهمين وكان يقول : « لو اردت ان احيى عادا او ثمود او قرونا بين ذلك كثيرا لاحييتهم» [٢٩]، ويروى ابن رستة ان ذلك قول على [٣٠] . وكان يخرج الى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور [٣١] . وقد ذكر الكشى ـ رواية عن الامام الصادق ـ انه تعلم ذلك من يهودية كان يختلف اليها [٣٢] . وكل هذه الكلمات والصفات تذكرنا بالحلاج فى بصره بالسحر وفى الحلول الذى كان يدعيه وفى شطحاته وكراماته ، ولكن المغيرة لم يكن سالكا ولم تأته قدرته تلك من المجاهدة بل من العلم والتبحر حتى توصل الى معرفة اسم الله الاعظم الذى كان بداية الطريق بالنسبة للمتصوفة كما كانت الكيمياء وسيلة اخرى للتوصل الى السمو الروحى وقد رأينا ذلك فى جابر بن حيان وصلته بذى النون المصرى والان نجد اسم الله الاعظم مقترنا بابراهيم ابن ادهم المتوفى سنة ١٦٢/٧٧٨-٧٩ . وقد جاء فى طبقات الصوفية ان الخضر قد علمه سره [٣٣] وتلك صلة من الصوفية بالمغيرية . والاعجب من ذلك ان ابا نعيم

---

(٢٧) الطبرى ٨/ ٢٤١ .
(٢٨) البلدان للهمدانى ١٨٥ «طبع ليدن» .
(٢٩) الطبرى ٨/ ٢٤٠-٤١ .
(٣٠) الاعلاق النفيسة ٢١٨ .
(٣١) الطبرى ٨/ ٢٤٠-١ .
(٣٢) معرفة اخبار الرجال ١٤٧ .
(٣٣) طبقات الصوفية ٣٠ .

يصل نسب ابراهيم بن ادهم ببنى عجل [٣٤] الذين احترفوا تأسيس فرق الشيعة الغالية فى الكوفة • ونحن مسوقون الان الى ان نقرر – ونحن فى لب الصلة بين التشيع الغالى والتصوف – ان هدف الدعويين واحد ، فقد استغل رؤساء مدرسة الغلو حركتهم للسمو بانفسهم عن طريق الوصية والعلم الباطن حتى ارتفعوا الى مرتبة النبوة والالهية وارتفع المتصوفة بانفسهم بالمجاهدة واحيانا بالعلم السرى الى نفس المقام • والحقيقة ان للغلو والتصوف هدفا مشتركا هو ان يكون للانسان موضع قدم فى الالهية وتصريف شؤون الدين والدنيا بقدرة غيبية ، وهذا هو السبب الذى من اجله رفع الائمة اولا الى الالهية وارتفع رؤساء مدارس الغلو الى النبوة ثم استقلوا فارتفعوا الى الالهية بانفسهم ، والتصوف يهدف الى هذه النتيجة وقد ادعاها بعضهم فعلا ، وكانت القدوة او السابقة على الاقل من غلاة الشيعة • ويجب ان نشير الى ان اصحاب الغلو طبقة جديدة فى الاسلام مادتها الناس ممن سلبتهم الدولة اراضيهم او صادرت حوانيتهم او ابتزت اموالهم سدادا للضرائب او عقوبة لهم على مناصرتهم لاهل بيت النبى وكان اغلبهم من الموالى كما رأينا فى جيش المختار واتباع الغلاة من بعده وسنرى فى باب التصوف ان معتنقيه من الزهاد والمتصوفة فيما بعد يشكلون طبقة تطابق الى حد بعيد مادة معتنقى الغلو من الناس •

اما بعد فقد تعرض فريد لندر لاصول مذهب المغيرة فرأى انه يصور مزيجا من الديانات الشرقية القديمة ويدل فى جلاء على انه تأثر بالغنوصية وخاصة المانوية والمانوية • وقد لاحظ فريد لاندر أن العراق كان مقرا لكثير من المانديين [٣٥] ، وسواء اصح ذلك ام لم يصح فان المغيرة ومعاصره وزميله

---

(٣٤) حلية الاولياء ٧/٣٧٣ •
وكان اول من اورد ذلك ابن قتيبة (المتوفى سنة ٢٧٦/٨٨٩) فى عيون الاخبار ٢/٣٣٠ •

(٣٥) حركات الشيعة المتطرفين ٣٩ •

فى الغلو والمصير بيانا قد ربطا عقيدتيهما ربطا محكما بما تأولاه من القرآن سندا لدعوتيهما فبدتا وكأنهما فكرتان ذاتا اصالة وطابع خاص .

ابو منصور العجلى (المقتول سنة ١٢١/٧٣٨) :

وظهر ابو منصور بعد المغيرة وهو من ذات القبيلة ولكنه عربى ليس مولى ، وقد اخبرنا النوبختى انه كان «من اهل الكوفة فى بنى عبدالقيس»(٣٦) وقد مر بنا انهم حالفوا الحمراء وكانوا يرون معا احقية على بن ابى طالب (٣٧) ، وهذا يعنى انه تثقف بثقافة القبيلتين الشيعيتين وبخاصة الحمراء على ما يبدو . وقد بدأ من ابى منصور اتجاه جديد هو قوله بمهدية الباقر (٣٨) وادعى انه « فوض امره اليه وجعله وصيه من بعده »(٣٩) ، وبذلك سار ابو منصور على نهج الغلاة من التعلق بمهدية امام يستطيعون بها ان يجمعوا حولهم الانصار من جهة ويتصرفوا كما يحلو لهم دون خوف من رقابة من جهة ثانية . وقد صرح ابو منصور بما كان يعتلج فى صدور سابقيه من رغبة فى التصريح بالنبوة فقال بفكرة جديدة هى فى الاصل وثيقة الاتصال بفكرة تجديد الدين جعلت تتكرر مع كل فرقة غالية فقد الغى اصطلاح الامامة وجعلها نبوة وقال : « كان على بن ابى طالب (ع) نبيا ورسولا وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على» (٤٠) . ويلاحظ ان هؤلاء خمسة من الانبياء – فى رأى ابى منصور – وقد سبقهم محمد (ص) ووليهم ابو منصور نفسه وهو القائل : « وانا نبى والنبوة فى ستة من ولدى ويكونون بعدى انبياء ، اخرها القائم»(٤٠) ، وهكذا نعود الى العدد : ١٢ الذى اشار اليه ابو

---

(٣٦) فرق الشيعة ٦٣ .
(٣٧) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٩ عن تاريخ بغداد ٧/٥٣ .
(٣٨) تلبيس ابليس ١٠٣ .
(٣٩) فرق الشيعة ٣٨ .
(٤٠) نفس المصدر السابق ٣٨ .

هاشم ، ويلاحظ هنا ان المهدى مستقل عن هذا العدد • وقد عادت هذه النظرية الاثنا عشرية الى الشيعة الامامية فيما بعد وبذلك يرد دليل جديد على ان التشيع فى صورته المتأخرة قد اعتمد على آراء الغلاة بعد تهذيبها وترتيبها • وتصلح فكرة ابى منصور ان تكون اساسا للاسماعيلية السبعية بوصفه سابع سبعة وبوصف ولده السادس سابع سبعة من العجليين • والملاحظ ان ابا منصور لم يعتمد على وصية من الباقر وانما سلك الى ذلك سبيلا اقصر وذلك انه عرج الى السماء وجاء بالنبوة من الله وزعم ان الله مسح بيده على رأسه وقال له : « يا بنى بلغ عنى » (٤١) ، وتلك السابقة فى اسقاط الواسطة التى نادى بها الصوفية فيما بعد وهى مسألة للتجسيم فيها دخل كبير وقد مر بنا انه امر جوهرى فى الغلو • وقد اوضح لنا ابو منصور نبوته بقوله : ان الله قال له : « يا بنى بلغ عنى آية الكسف الساقط من السماء» (٤٢) ، وقد قال لاصحابه : «فى نزلت » ، وقد نقب بالكسف فعلا (٤٣) • وآية الكسف هى : وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : سحاب مركوم (٤٤) ، وقد فسر لنا ابو منصور هذه النبوة بزعمه ان «جبريل يأتيه بالوحى من عند الله وان الله بعث محمدا بالتنزيل وبعثه هو بالتأويل » (٤٥) ، وهذه ظاهرة جديدة هى مقدمة لخطوة غالية سترد فى المستقبل وهى الى ذلك اساس خطير من اسس التصوف الذى تبنى ازدواج دلالة آيات القرآن • ويجب ان نذكر هنا بان معروفا الكرخى سينسب اليه ما نسب الى ابى منصور من انفراده بالتأويل واختصاص الجواد الامام التاسع المتوفى سنة ٢٢٠/٨٣٤ بالظاهر والشريعة بعد ان توفى الرضا الذى كان جامعا للطريقة والشريعة • وعلينا ان نتوقف هنا لنشير الى ظاهرة

---

(٤١) مختصر الفرق ١٥٢ ، ١٣٤ •
(٤٢) خطط المقريزى ٢/٢٥٣ ، مختصر الفرق ١٥٢ •
(٤٣) الاعلان النفيسة ٢١٨ •
(٤٤) الطور : ٤٤ •
(٤٥) فرق الشيعة ٣٨ •

جديدة دخلت التصوف من الغلو و تعنى بها المعراج ، فان كثيرا من المتصوفة المتأخرين قد عرجوا الى السماء - يزعمهم - وقالوا بالتشبيه حتى ان ابن قضيب البان المتوفى سنة ١٠٤٠/١٦٣٠ يصف الله بانه على صورة محمد ولكنه من مادة باردة (٤٦) ، ومعراج النبى مشهور طبعا ولكن التجرؤ عليه بدأ من الغلاة فصاروا قدوة للمتصوفة . ولابد من الاشارة الى ان الغلو لم ينصب فى بدايته على اشخاص الائمةوانما استغرق اشخاص زعماء الغلو انفسهم نقلا للامامة اليهم عن امام شيعى ولا عبرة بنسبه ، اما الغلو الدائر حول تأليه الائمة فقد تأخر ودار اولا حول ابناء على وانتهى اخيرا الى التوجه الى على نفسه . وانتهت حركة ابى منصور بقتله سنة ١٢١/٧٣٩ فى امارة يوسف بن عمر بعد ان سن لاتباعه استحلال خنق مخالفيهم وكان ذلك عندهم الجهاد الخفى (٤٧) ولكن الحركة لم تمت بل استمرت فى الكوفة بقيادة ابنه الحسين واخذت شكلا جديدا منعكسا من دعوة غالية جديدة نضجت فى المشرق وكان اصلها كوفيا وسنرى ذلك فيما يلى .

عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر المتوفى سنة ١٣٠/٧٤٧-٤٨(٤٨)

مر بنا ان ابا هاشم قد اوصى بالامامة من بعده لعبدالله بن معاوية كما رأى جماعة من أهل الكوفة وقد ثار عبدالله فى الكوفة سنة ١٢٦/٧٤٣-٤٤

---

(٤٦) الانسان الكامل فى الاسلام ١٣٥ .

(٤٧) فرق الشيعة ٣٨ .

(٤٨) يثير «معاوية» اسم أبى عبدالله الدهشة لكونه الوحيد من العلويين والعباسيين المسمى بهذا الاسم الاموى . وقد أثار ذلك دهشة عامل ابى مسلم الخراسانى على هراة حين لجأ اليه عبدالله فى ختام حياته السياسية ، فكان جوابه : «ان جدى كان عند معاوية حين ولد أبى ، فبعث اليه مائة الف (درهم) على ان يسمى ابنه باسمه » (العبر ٣/١٢٢) . ويبدو ان هذه القصة ملفقة بدليل انه كان لعبدالله أخ اسمه يزيد (الموضع نفسه) . ومما ينفى هذا التفسير انه كان لزيد الثائر بالكوفة سنة ١٢١/٧٣٨ ولد سماه معاوية ايضا (العبر ٣/٩٨) .

أيام انقسام الامويين على انفسهم ولكنه لم يستطع الانتصار وانما سمح له بالانسحاب الى المكان الذى يختاره فنصحه اعوانه بالاتجاه الى فارس وبلاد المشرق [٤٩] فاختار المدائن [٥٠] . وقد استطاع عبدالله ان يؤسس ملكا عريضا انضوى تحت لوائه خصوم الامويين كلهم من العباسيين الى الخوارج بل لقد كان معه الامراء الامويون الغاضبون على مروان بن محمد [٥١] وكذلك الزيدية [٥٢] ونصره وحماه الموالى بكل قواهم [٥٣] . وكان الشيعة الموالون للعلويين يرون فى عبدالله بن معاوية رجلا قد كلف جمع الامر وتسليمه لاصحابه الشرعيين من نسل على وفاطمة [٥٤] . ويبدو ان عبدالله بن معاوية كان متساهلا فى امر العقيدة لايهمه الا توطيد امره والاكثار من انصاره ، وقد روى عنه انه استكتب عمارة بن حمزة استاذ بيان وصائد الغالين [٥٥] . وكان عمارة « احل جميع المحارم وقال : من عرف الامام فليصنع مايشاء» [٥٥] ويروى ان عمارة هذا كان يأخذ البيعة لعبدالله بن معاوية ويقول للناس : بايعوا « على ما احببتم وكرهتم» [٥٥] ، وذلك ـ لو صح ـ دليل عجيب على تساهل عبدالله الذى يمكن ان يقوم تفسيرا لما دار حول دعوته من افكار غالية عجيبة . ويزيد الامر وضوحا ان المدائن التى نزلها اولا واصطخر التى صارت عاصمة ملكه كانتا مهجرا لقبيلة عبدالقيس الشيعية [٥٧] التى خرج الغلو من بطونها وتلك امارة على ان الغلو لم يكن فارسيا فى جوهره وانما كان

---

(٤٩) مقاتل الطالبيين ص ١٦٥ .
(٥٠) الفخرى ص٩٩ .
(٥١) الطبرى ٩/٩٤ .
(٥٢) العبر ٣/١١٥ .
(٥٣) مقاتل الطالبيين ١٦٥ .
(٥٤) فرق الشيعة ص٣٥ .
(٥٥) المصدر نفسه ص ٢٧ـ٨ .
(٥٦) الطبرى ٩/٩٣ .
(٥٧) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٩ .

للعرب من الشيعة المتعصبين لعلى الممتلئين بالغيظ والحقد على الامويين دورهم الاساسى فى تبنيه عقيدة .

وقد ادى اشتهار عبدالله بن معاوية بالتساهل الدينى الى اتهامه بمعارضة القرآن فى بيانه ونظمه(٥٨) كما نسب اليه ادعاؤه انه «يوحى اليه» (٥٩) اما ما عدا ذلك فقد نسب الى دعاته وحاشيته . واول ما ابتدعه اصحاب عبدالله ابن معاوية فكرة النور التى غطوا بها على ضعف حجتهم فى الدعوة لامامته التى ينقصها النسب العلوى والنبوى وجعلوها امامة تقوم على الوراثة الروحية لا الطبيعية . وكانت الفكرة من ابتداع عبدالله بن الحارث ـ من اهل المدائن ـ وكان يرى « ان الله نور وهو فى عبدالله بن معاوية» (٦٠) . وتلقف انصاره الفكرة ونظموها وقالوا : « ان روح الاله دارت فى آدم ثم فى شيث ثم دارت فى الانبياء والائمة الى ان انتهت الى على . ثم دارت فى اولاده الثلاثة (ثالثهم محمد بن الحنفية) ثم صارت الى عبدالله بن معاوية »(٦١) . ولعلنا فى غنى عن الاشارة الى مافى هذه الفكرة من اتصال ظاهر بمبدأ الوراثة الروحية فى التصوف ، وسنبحث ذلك فى موضعه . وقد استندت فكرة النور بآى من القرآن وذلك واضح فى الآية : الله نور السموات والارض ، وآية : يهدى الله لنوره من يشاء اى يجعل نوره فى من يشاء ، وهذه الهداية نوع من الحلول مادام الله هو النور . وقد استغل غلاة الكوفة هذه الفكرة فيما بعد وساروا بها الى نهاية الشوط .

وقد خرج عبدالله بن الحارث ايضا بفكرة التناسخ والاظلة والدور

---

(٥٨) حركات الشيعة المتطرفين ٦٩ .
(٥٩) الاغانى (نشر ساسى) ١١/٧٥ .
(٦٠) فرق الشيعة ٣٤ .
(٦١) مختصر الفرق بين الفرق ١٥٤ .

واسسها على مدلول الآية : فى أى صورة ما شاء ركبك[٦٢] وآية : وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم [٦٣] وقد ورد ذلك فى فرق الشيعة [٦٤] . واستندت هذه الفكرة الى الحديث : الارواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف [٦٥] . وتدور الفكرة حول انتقال الروح فى اجسام عديدة بحسب قربها وبعدها عن الخير ، فالكفار يطول تجسدهم فى اجساد الحيوانات المشوهة والمؤمنون يمتحنون بتركيبهم فى ابدان الدواب النزهة لكيلا يدخلهم العجب فتزول طاعتهم[٦٦] ، وفسروا الآية : حتى يلج الجمل فى سم الخياط [٦٧] بان الجمل الذى ولج سم الخياط يقصد به بقة صغيرة لانها هى الجمل بنفسه متقمصا الروح التى حلت فى البقة . ولايعنى التناسخ بقاء الروح فى بدن انسانى او حيوانى وانما هو الدور والتناوب ، ويقول النوبختى : فهذه حالهم ابد الابدين ودهر الداهرين : هذه قيامتهم وبعثهم وهذه جنتهم وتارهم وهذه الرجعة عندهم : لا رجوع بعد الموت (لانه لاموت وانما هو تنقل للروح بين الابدان) والقوالب تفنى وتتلاشى ولا تعود ولا ترد ابدا »[٦٨] . هذا هو التناسخ والدور وهذا هو تقلبه فى الاديان القديمة وان كان مسندا بالقرآن والحديث . وهكذا عاد التأويل الشيعى هادما عند الغلاة وكانت رسالة الشيعة الاولى حماية الاسلام من التأويل المصلحى الاموى . وقد اضيف الى هذه الفرقة القول بالاباحة على اعتبار انهم لايعتقدون الثواب والعقاب ولا يؤمنون بالحساب ، والواقع ان ذلك

---

(٦٢) الانفطار : ٨ .
(٦٣) الانعام : ٣٨ .
(٦٤) فرق الشيعة ٣٧ .
(٦٥) نفس المصدر السابق ٣٩ .
(٦٦) نفس المصدر السابق ٤٠ .
(٦٧) الاعراف ٤٠ .
(٦٨) فرق الشيعة ٤١ .

غير وارد لان حلول الروح فى الجسد المشوه سواء اكان انسانيا ام حيوانيا هو فى نفسه عقاب وحلولها فى بدن انسان فاضل ثواب وانصاف • ويؤخذ من استقراء مثل هذه الفرقة انهم يقيدون الزهد ولا يؤمنون به لان الغنى – حسب عقيدتهم – ثواب من الله فلا داعى لرفض نعمة انعم الله بها على عبده المؤمن المخلص ، وقد استندوا فى ذلك الى الاية : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا [٦٩] ، ولكن اصحاب كتب الفرق نسبوا اليهم الاباحية ولعل ذلك كان آتيا من اشخاص معتنقى هذه العقيدة الذين يروى الشهرستانى عنهم انهم «يبيحون المحرمات ويعيشون عيشة من لاتكليف عليه» [٧٠] لا من العقيدة نفسها • ونحن – الى ذلك – نرى ان اسم «الجناحية» الذى اطلق على هذه الفرقة قد جاء من هذه الاية لامن شىء آخر كما اورد اصحاب كتب الفرق فالنسبة الى « لا جناح » •

بقى امر اخير ينسب الى هذه الفرقة هو قولهم : « من وصل الى الامام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ووصل الى الكمال والبلاغ» [٧١] وان « المعرفة اذا حصلت لم يبق شىء من الطاعات واجبا» [٧٢] اى ان الدين طاعة رجل ، وتلك عقيدة اريد بها ضمان طاعة الاتباع وتفادى ما حدث من خيانة الكوفيين للحسين وزيد وغيرهما ، ولاشك فى ان هذه الطاعة العمياء هى اساس الصلة بين المريد الصوفى وشيخه ، ويكفى ان نورد هنا ان ذا النون المصرى كان يقول : « طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه» [٧٣] وان ابا على الدقاق كان يقول فى شيخه : ابى القاسم النصراباذى : « وكنت افكر فى

---

(٦٩) مقالات الاسلاميين ١/٦ ، المائدة : ٩٣ •
(٧٠) الملل والنحل ١/٢٤٥ •
(٧١) نفس المصدر السابق ١/٢٤٥ •
(٧٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ •
(٧٣) تذكرة الاولياء ١/١١١ •

نفسي كثيرا انه لو بعث الله عز وجل في وقتي رسولا الى الخلق هل يمكنني ان ازيد في حشمته على قلبي فوق ماكان منه رحمه الله تعالى» (٧٤) .

ومات عبدالله بن معاوية في سجن ابي مسلم الخراساني كما يروى بعد انكساره في حربه مع الامويين فسرعان مادارت حوله المهدية (٧٥) . وقد تناول ابن حزم الرد على هذه الفكرة فوصلها باليهودية التي تقول : « ان ملكصيدق بن عامر بن ارفخشد بن سام بن نوح والعبد الذي وجهه ابراهيم عليه السلام ليخطب ريقا بنت بنوال بن ناخور بن تارخ على اسحق ابنه والياس عليه السلام وفنحاس بن العاذار بن هارون عليه السلام احياء الى اليوم » (٧٦) . وقد ذكر ابن حزم بعد هذا مباشرة ان المتصوفة قد اخذوا هذه الفكرة من الشيعة « وسلك في هذا السبيل بعض نوكى الصوفية فزعموا ان الخضر والياس عليهما السلام حيان الى اليوم » (٧٦) والغريب ان هذا البقاء ليس له دخل بالمهدية ومع ذلك وجدنا ابن حزم يقرنه بها والظاهر ان هذه الفكرة اصل للمهدية التي دخلت التصوف فيما بعد .

ابو الخطاب محمد بن ابي زينب الاسدي المقتول سنة ١٣٨/٧٥٥ـ٥٦ :

ولم يسلم الغلاة المحيطون بعبدالله بن معاوية بعد وفاته وانما عادوا الى الكوفة كما خرجوا منها فولدت فرقة جديدة فيها وان كان الغلو قد غرس جذوره في فارس ولم يبرحها .

كان ابو الخطاب مولى بني اسد وارث حركات الغلو السابقة كلها ومنظمها وكان معاصرا لجعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨/٧٦٥ ، وقد أحيا لنا شخصية سلمان الفارسي الخبير بالاديان واسرارها وتسلسلها والانبياء واوصيائهم ، وجاء

---

(٧٤) الرسالة القشيرية ١٧٥ .
(٧٥) مختصر الفرق بين الفرق ١٢٤ .
(٧٦) الفصل ٤/١٨٠ .

ذكر ابى الخطاب مقرونا بسلمان فى نص ينقله لنا ماسينيون عن « نفس الرحمن للطبرسى النورى» يرويه الخصيبى النصيرى (والنصيرية فرقة من مؤلهة على نشأت فى النصف الثانى من القرن الثالث) ومضمونه : « قال جعفر (الصادق) لابى الخطاب : يا محمد اخاطبك بما خاطب به جدى رسول الله (صلعم) سلمان ـ وقد دخل عليه عند ام ايمن فرحب به وقربه ـ وقال : اصبحت يا سلمان عيبة علمنا ومعدن سرنا ومجمع امرنا ونهينا ومؤدب المؤمنين بادابنا • انت والله الباب الذى يوه (كذا) علمنا وفيك ينبأ علم التأويل والتنزيل وباطن السر وسر السر ، فبوركت اولا واخرا وظاهرا وباطنا وحيا وميتا • فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقلته انا لك يا محمد» (٧٧) والمهم هنا ان ابا الخطاب قد اله جعفرا الصادق • وينقل ماسينيون نصا آخر عن الكشى يؤيد فيه الامتياز الروحى الذى ادعاه ابو الخطاب ، وقد روى هذا ان الصادق قد وضع يده على صدره وقال له : عه ولا تنس او قال فيه ايضا : هو عيبة علمنا وموضع سرنا امين على احيائنا وامواتنا (٧٨) ، يرد هذا الخبر فى الكشى ويذكر انه عرض على الصادق فكذبه وانكره ، وقال : « ما مس شىء من جسدى جسده الايده » (٧٩) وذلك ينبىء بلقاء ابى الخطاب للصادق • وجاء فى الكشى ان الصادق قد اعلم فى سنة ١٣٨ بقتل ابى الخطاب (٨٠) ، وذلك يؤيد صحة هذا التاريخ والواقعة ، وذلك يذكرنا بما خاطب به النبى عليا بوصفه وصيا له حيث قال : « عليك بالصدق فلا تخرجن من فيك كذبة ابدا ، والورع فلا تجترىء على خيانة ابدا والخوف من الله كأنك تراه والبكاء من خشية الله يبن لك بكل دمعة بيتا فى الجنة ، والاخذ

---

(٧٧) شخصيات قلقة فى الاسلام ٤٨ •
(٧٨) شخصيات قلقة فى الاسلام ٤٧ •
(٧٩) معرفة الرجال للكشى ١٨٨ •
(٨٠) المصدر نفسه ١٩١ •

بسنتى» [٨١] وبذلك يتضح مالا بى الخطاب من خطر فى تطوير الغلو واسناده بالنصوص والاحاديث. وقد ادعى ابو الخطاب وصية جعفر الصادق وتعلمه اسم الله الاعظم منه [٨٢] وزعم ان الائمة انبياء ثم آلهة وقال بالهية جعفر الصادق وابائه ورأى انهم ابناء الله واحباؤه [٨٣] وتلك اول الهية صريحة فى دنيا الغلاة . ويجب ان نبين هنا ان هذا التأليه جزئى قصد به نوع مبالغ فيه من الحق الالهى ومن ربط نصرة الامام بنصرة الله . وقد التفت ماسينيون الى ذلك وقال : « فعند جميع الغلاة ان الله لايمكن معرفته فى ذاته وهو فوق كل وصف وحده ، انما هنا امر تأليه بالمشاركة ونوع هذه المشاركة يختلف وفقا للنموذج الذى تفضله الفرقة» [٨٤] . ولعل فى هذه الالتفاتة ما يلقى ضوء على دعوات المتصوفة التى ستؤسس اصولها على هذه الافكار فيما بعد .

وقد تبنى ابو الخطاب الفكرة التى نادى بها الاسلام من ان المسيح لم يقتل وانما شبه للناس ذلك وطبقها على جعفر الصادق بعد ان تبرأ منه فقال بان « جعفرا هو الاله فى زمانه وليس المحسوس الذى يرونه ولكنه لما نزل الى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها » [٨٥] والغريب اننا نجد هذا المعنى بذاته عند الحلاج فى قوله :

سبحان من اظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا لخلقه ظاهرا ... فى صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب [٨٦]

---

(٨١) تاريخ اليعقوبى ٢/٧٦ .
(٨٢) فرق الشيعة ٤٢ .
(٨٣) الملل والنحل ١/٣٠٠ .
(٨٤) شخصيات قلقة فى الاسلام ٣٨ .
(٨٥) الملل والنحل ١/٣٠٠ .
(٨٦) فى التصوف الاسلامى ١٣٣ . وانظر ديوان الحلاج ، تحقيق ماسينيون ، باريس ١٩٥٥ ، ٤١ .

وفى قوله :

واى الارض تخلو منك حتى تعالوا يطلبونك فى السماء
نراهم ينظرون اليك جهرا وهم لايبصرون من العماء[٨٧]

والمهم بعد ذلك ان اتباع ابى الخطاب قالوا : « ان جعفرا الاله غير ان ابا الخطاب افضل منه وافضل من على» [٨٨] بل لقد زعم ابو الخطاب ان « الله تعالى قد انفصل عن جعفر وحل فيه وانه هو اكمل من الله تعالى» [٨٩]

وبذلك يتبين لنا الخطر الذى تجسم الان من اسباغ الروحانية الزائدة عن الحد الى الناس وقد بدأ ذلك بابى هاشم ثم سيمر بنا ان الزيدية قد انزلوا الامامة من عليائها وساووا بين سائر الناس فى فرص السمو الروحى ولم يقصروا ذلك على الامام ثم اخرج انصار عبدالله بن معاوية الامامة من بيت على بعد ان اخرجها الكيسانية من بيت النبى فتجرأ الناس على ادعائها مادامت قد خرجت من مجالها النبوى العلوى الضيق ، وادعاء ابى الخطاب الفضل على الصادق وعلى بل وعلى الله امر أوله من هناك . ولعله قد ظهر الان ما بين الخطابية والولاية الصوفية من صلة وثيقة . واذا اضفنا الى هذا ما يورده ابن الاثير عن اتباع الحسين بن ابى منصور العجلى احد زملاء ابى الخطاب « انهم تعلموا الشعبذة والنارنجيات والنجوم والكيمياء ، فهم يحتالون على كل قوم بما ينفق عليهم وعلى العامة باظهار الزهد » [٩٠] وقرنا به ملابسة ذى النون للكيمياء واطلاع الحلاج على السحر والنيرنجات ـ مما سيرد بعد ـ ادركنا الى أى حد كان الغلاة مؤصلين لمبادىء التصوف . يضاف الى هذا ان ابن الاثير قد ذكر بان كل حركة غالية كان دعاتها يظهرون الزهد والعبادة [٩١]

---

(٨٧) ديوان الحلاج ٣٧ .
(٨٨) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ .
(٨٩ـ٩١) الكامل لابن الاثير ٨/ ٢١ .

وان الشيخ المفيد لم يتردد فى اضافة الحلاج الى هذه الفرق الغالية وقال : «والحلاجية ضرب من اصحاب التصوف وهم اصحاب الاباحة والقول بالحلول » [٩٢] واضاف « وكان الحلاج يتخصص باظهار التشيع وان كان ظاهر امرهم التصوف ، وهم قوم ملحدة وزنادقة يموهون بمظاهرة كل فرقة بدينهم» [٩٢] ، وبذلك يبدو الشبه بله التطابق بين اصحاب الحلول من المتصوفة واصحاب الحلول من الشيعة الغلاة .

وقد كان عند ابى الخطاب نوع من السلوك توصل به الى ادعاء الالوهية بعد الوصية والامامة فالنبوة وهذا هو السبيل الذى سلكه الحلاج فيما بعد اذا تساهلنا فى التقيد بالمصطلحات . وقد كان الخطابية شيوخ المتصوفة فى التساهل فى اظهار التدين وترك الظاهر والتمسك بالباطن فقالوا : « خفف الله عنا بابى الخطاب ووضع عنا الاغلال والاصار يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج ، فمن عرف الرسول النبى الامام(يعنون ابا الخطاب) فليصنع ما احب » [٩٣] . فبلوغ مقام معرفة الامام الذى هو نبى ورسول وامام واله فى آن واحد لابد ان يكون دونه درجات ترقى ومنازل تجتاز وهو فى النهاية وقوف على لب الدين وجوهره مما يعادل مقام الاتحاد وقطع العلائق عند الصوفية ، فالمنزلة واحدة والمقام واحد وهذا هو اصله ومنبته . وقد ادى مذهب ابى الخطاب باحد تلاميذه : يزيغ بن موسى الحائك الى ان يقول : ان كل مؤمن يوحى اليه وتأول قوله تعالى : وما كان لنفس ان يموت الا باذن الله» [٩٤] اى بوحى من الله وكذلك تأول قوله تعالى : واوحى ربك الى النحل [٩٥] . وهكذا ارتفعت الفوارق بين الناس وصاروا جميعا ذوى استعداد للنبوة

---

(٩٢) تصحيح الاعتقاد ٣١٨ .
(٩٣) فرق الشيعة ٤٢ .
(٩٤) الملل والنحل ١/٣٠١-٢ والاية فى سورة ال عمران : ١٤٥ .
(٩٥) المصدر نفسه ١/٣٠٢

وتلقى الوحى ، وتلك طفرة انتقلت الى التصوف ولكنها لم تبلغ هذه الدرجة من التطرف بل خفف المتصوفة من مسألة الوحى واستبدلوا به الاستعداد للرقى بالسلوك عن طريق المجاهدة .

اما بعد فان البحث فى الغلو متشعب اقتصرنا منه على ما ذكرنا واخترنا من الغالين وعقائدهم ابرزهما وادخلهما فى الجوهر . وقد غادر الغلاة الكوفة بعد ان اباد المهدى الخليفة الخطابية فى السواد والبحرين وعمان (٩٦) ، وكانت تلك نهاية الغلو فى الكوفة فانشغلت من جديد بحركات ثورية جديدة هى الزندقة التى اتجهت الى التشكيك فى الاسلام نفسه بالعقل والمنطق . ولكن حركة ابى الخطاب لم تمت بهذه السهولة وانما وجدنا محمد بن عبدالله بن مهران يكتب فى القرن الثالث كتاب « مناقب ابى الخطاب» (٩٧) ووجدنا كتابا فى الرد على الخطابية بقلم رجل من أنصار الامام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ (٩٨) . ومهما يكن من أمر الخطابية ، فقد عاصر نهاية الغلو الكوفى طراز آخر من الغلو انبعث من حاشية جعفر الصادق وطلابه بعد موته ولكنه لم يكن متطرفا عنيفا وانما كان مسالما عقليا وسنرى ذلك فى الفصل التالى .

هشام بن الحكم المتوفى سنة ١٩٩/٨١٥-٦ :

كان هشام بن الحكم من انصار الصادق وتلاميذه فخرج بنظرية جديدة فى التجسيم مدعمة بالدليل العقلى ، فقال فى الزامه لابى الهذيل العلاف - برواية الشهرستانى - : « انك تقول : البارى عالم بعلم وعلمه ذاته ، فشاركك المحدثات فى انه عالم بعلمه وبينها فى ان علمه ذاته ، فيكون عالما

---

(٩٦) حركات الشيعة المتطرفين ٨٩ .
(٩٧) معرفة الرجال للنجاشى (بومبى ١٣١٧) ص ٢٤٧ .
(٩٨) فهرست الطوسى (كلكتة) ١٠ .

لا كالعالمين فلم لاتقول : هو جسم لا كالاجسام وصورة لا كالصور وله قدر لا كالاقدار الى غير ذلك ؟ » [٩٩] والشهرستانى ـ بعد ـ قد وصف هشاما بانه «صاحب غور فى الاصول» [٩٩] فلم يكن بسيطا ساذجا يجمع حوله الانصار ليحكم كما فعل سائر الغلاة • وقد كان هشام متكلما احتل بعقيدته مكانا وسطا بين الشيعة المعتدلين والغالين فأخذ من التشيع المعتدل اصوله ومن التجسيم الغالى دون تأليه للائمة ظاهر عقيدته ورأى ـ بعد ايمانه بالامامة وكونها وارثة النبوة ـ ان الامام احوج الى العناية الالهية من النبى بحكم اتصال الانبياء بالله عن طريق الوحى وامتناع ذلك على الامام ، فتبنى هشام العصمة واضافها الى الائمة فجعلهم فى مقام يستطيعون فيه الصدور عن الحق والصواب دون حاجة الى الوحى • وهكذا بدأت فكرة العصمة من هشام بعد وفاة الصادق • وقد نقل لنا الشهرستانى والبغدادى انه كان «يجيز على الانبياء العصيان مع قوله بعصمة الائمة» [١٠٠] ، وعلل الشهرستانى ذلك ـ بناء على مذهب هشام « بان النبى يوحى اليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والامام لايوحى اليه فتجب عصمته» [١٠٠] ، وعلل الشهرستانى ذلك ـ بناء على مذهب هشام « بان النبى يوحى اليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والامام لا يوحى اليه فتجب عصمته» [١٠٠] • وقد اورد الكلينى مناقشات هشام للمعتزلة واهل الشام فى حضور جعفر الصادق وغيابه وكلها تدور حول « ان الجوارح اذا شكت فى شىء لمسته او رأته او ذاقته او سمعته ردته الى القلب والا لم يستيقن بالجوارح ••• فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك (الخطاب لعمرو بن عبيد المعتزلى البصرى) حتى جعل لك اماما يصح لها الصحيح ويتيقن ما شككت فيه ، ويترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم وشكهم واختلافهم لايقيم لهم اماما يردون اليه شكهم وحيرتهم

---

(٩٩) الملل والنحل ١/ ٣١١ •

(١٠٠) مختصر الفرق بين الفرق ٦١ ، الملل والنحل ١/ ٣١١ •

ويقيم لك اماما لجوارحك ترد اليه حيرتك وشـــكك»[١٠١] . وقد خاصم هشام بن الحكم شاميا فى الامامة واتفقا على ان الله قد اقام للناس حجة ودليلا هو النبى واختلفا فى الدليل بعد النبى فرأى الشامى انه الكتاب والسنة فاجابه هشام : « فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فى مخالفتنا اياك » ثم انتهى الى ان الامام هو الحجة والدليل وهو جعفر بن محمد الصادق [١٠٢] . وهـكذا يتبين خطر الامامة وضرورة احاطتها بالتوفيق الالهى الذى يحول دون تعرضها للخطأ فاحاطها بسياج من العصمة ، ومن هنا بدأت هذه الفكرة فى التشـيع ولزمته ولم تنفصل عنه ، ومن هنا ايضا جاءت العصمة الى التصوف فوجـدنا القشيرى يرى انها ليست واجبة للولى كما فى الانبياء (وكان الاحرى ان يقول الائمة لان هذا منبعها) ثم يقول : « واما ان يكون محفوظا حتى لايصر على الذنوب ان حصلت هنات او آفات او زلات فلا يمتنع ذلك فى وصفهم»[١٠٣] . وقد عزز القشيرى ذلك بسؤال وجه الى الجنيـد : « العـارف يزنى يا ابا القاسم ؟ فاطرق مليا ثم رفع رأسه وقال : وكان امر الله قدرا مقدرا» [١٠٣] اى ان العصمة قد حصلت للاولياء ولكن قدر الله او بداءه الشيعى قد يغـير هذا الامر ولكن العصمة موجودة على كل حال . ويؤيدنا نيكلسون فى هذا بقوله : «ولكن الصوفية ـ من ناحية اخرى ـ رأوا انهم ـ ببلوغهم غاية الطريق بعد اجتياز عقباته وتحمل آلامه وبعد وصولهم الى نهاية المعـراج الصـوفى بتحققهم بالمعرفة الالهية ـ قد وصلوا الى مقام الولاية وان جميع ما يصدر منهم من قول او عمل متفق تمام الاتفاق مع روح الشرع مهما ظهر من التعارض بين اقوالهم وافعالهم من جهة وبين ظاهر الشرع من جهة اخرى . ومن هنا قالوا : ان رياء العارفين افضل من اخلاص المريدين » [١٠٤] . هذا هو رأى

---

(١٠١) اصول الكافى ٣٨ .
(١٠٢) المصدر نفسه ٣٩ .
(١٠٣) الرسالة القشيرية ٢٠٨ .
(١٠٤) فى التصوف الاسلامى ٢٦ .

نيكلسون ويتضح منه انه يعنى العصمة وسنرى انها متحققة مقصودة عند الصوفية فى الموضع المناسب . ويجب ان نذكر هنا انه « ليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم الى الحسن ولا ملجئة اليه » (١٠٥) هذا قول الشيخ المفيد مجتهد الشيعة الاثنا عشرية الكبير ، ويحثنا هذا القول الى التأمل حقا فنخرج منه بان هذه العصمة المسبغة على الامام تشبه الى حد بعيد القدرة التى يراها المعتزلة لله من انه يستطيع فعل القبيح ولكنه لا يأتى الا الاحسن ، ولسنا فى معرض مناقشة ، ولكن يحسن بنا ان نذكر ان دونالدسون قد انتهى الى ان فكرة العصمة لم تأت عن طريق الاسفار الدينية اليهودية ، وان القرآن نفسه لم يذكر عصمة الانبياء وان المسلمين الاوائل لم يتطرقوا فى جدالهم ضد المسيحية الى ذكر هذه العقيدة وانها لم ترد فى الصحاح ، ويقطع بان العصمة فكرة شيعية اصيلة (١٠٦) . اما التجسيم الذى قال به هشام فلا داعى للافاضة فيه ولكن نكتفى بانه قد بنى على فكرة منطقية تقول : « ان بين معبوده (اى هشام) وبين الاجسام تشابها ما بوجه من الوجوه ولولا ذلك لما دلت عليه » (١٠٧) وينتهى الى انه « لايشبه شيئا من المخلوقات ولا يشبهه شىء » (١٠٧) . وعلينا فى ختام عرضنا لافكار هشام ان نقرر بانه لايمكن ان يقول بالهية الامام وانما اخطأ الشهرستانى فى ايراد ذلك وبخاصة ان احدا من اصحاب كتب الفرق لم يؤيده فى دعواه . وقد نسب التجسيم الى كثير من اصحاب الصادق ونفى الشيعة المتأخرون امكان ذلك ويهمنا من اراء تلاميذ الصادق رأى واحد منهم هو محمد بن على بن النعمان الذى يسميه الشيعة « مؤمن الطاق » ويسميه غيرهم « شيطان الطاق » فقد كان يقول : « ان الله تعالى نور على صور انسان ويأبى ان يكون

---

(١٠٥) شرح عقائد الصدوق ٦١

(١٠٦) عقيدة الشيعة ٣٢٤-٢٦ ملخصا .

(١٠٧) الملل والنحل ٣٠٨/١

جسما لكنه اضاف، قد ورد فى الخبر : « ان الله خلق آدم على صورته وعلى صورة الرحمن ، فلابد من تصديق الخبر»[١٠٨] . واهمية هذه المقالة تأتى من ان هذا الحديث قد دخل التصوف وصار من اسسه وعليه اعتمد الصوفية فى التدليل على الروح الالهية الموجودة فى الانسان وصارت المجاهدة – على هذا الاساس – طريقا يسلكونه لتجريد النفس من ماديتها والرجوع بالروح الى صورتها الالهية الاصيلة التى صنعت على هيئة روح الله . وبذلك ننتهى من بحث الغلو القديم ولا يبقى الا التعرض للغلو الذى ولى ذلك وأدار الالهية حول على بن ابى طالب ابى الائمة وقد ثبت هذا الاتجاه الغالى ولم يتغير عند معتنقيه حتى الان .

النصيرية :

اختلف اصحاب كتب الفرق فى محمد بن نصير مؤسس هذه الفرقة التى اتفقوا على انها تؤله عليا وقال معتنقو هذه العقيدة : « وانما اثبتنا هذا الاختصاص (ظهور الروحانى بالجسد الجسدانى) بعلى دون غيره لانه كان مخصوصا بتأييد من عند الله تعالى مما يتعلق بباطن الاسرار »[١٠٩] وكانت حجتهم فى ذلك ظهور جبريل ببعض الاشخاص كما هو معروف فى الاسلام . وقال النصيرية ايضا فى على : « كان هو موجودا قبل خلق السموات والارض ... وعلى هذا قال على : انا من احمد كالضوء من الضوء ، يعنى لا فرق بين النورين الا ان احدهما اسبق والثانى لاحق تال له »[١٠٩] ومن هنا نلمح لاول مرة الجمع بين النبى (ص) وعلى الذى تطور الى المفاضلة بينهما والى اشراك الاخير فى الرسالة . وقد اسند النصيرية هذه الفكرة بحديث يروونه ونصه : فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله ، الا وهو خاصف النعل»[١٠٩] ، ونحن نعرف اصل هذا النص الذى نطق به عمار بن ياسر

---

(١٠٨) الملل والنحل ١/٣١٣ .
(١٠٩) المصدر نفسه ١/٣١٧ .

فى صفين ولكن الجديد هنا ان هذا الخبر قد وجه الى تخصيص النبى بالظاهر او العموميات وتخصيص على بالباطن والشرح والتأويل الصحيح ثم تطورت الامور فى المدائن حين وجدنا احد الغلاة يفضل عليا على النبى ويزعم انه هو الذى بعث محمدا (١١٠) تلك هى الذمية وهى عينية نسبة الى حرف العين الذى يبدأ به اسم على ، وظهر بعد ذلك المفوضة الذين روى الرازى انهم « قوم يزعمون ان البارى خلق روح على واولاده وفوض العالم اليهم فخلقوا هم الارضين والسموات . قالوا : ومن هنا قلنا فى الركوع : سبحان ربى العظيم ، وفى السجود : سبحان ربى الاعلى لان الاله الاعلى على واولاده واما الاله الاعظم فهو الذى فوض اليهم العالم» (١١١) . وقد تطورت هذه العقيدة بعد غياب مهدى الشيعة وتنظيم عقائدها وتحديد رجالها من الاركان فرأينا تدبير العالم مضافا الى الاركان ومعهم الصحابى القديم عمرو بن امية الضمرى ويسمى هذا بالتخميس الذى كان موجودا فى بداية القرن الرابع وكان الكرخيون فى بغداد يعتنقونه (١١٢) .

---

(١١٠) الملل والنحل ١/٢٩٣ .

(١١١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٧ .

(١١٢) الغيبة للطوسى ٢٧١ .
الفكرة فى اشراك عمرو بن امية الضمرى فى تدبير العالم انه كان وكيل النبى (ص) فى زواجه من ام حبيبة بنت ابى سفيان : أرسله النبى الى الحبشة بعد ان علم بوفاة زوجها عبدالله بن جحش لاتمام ذلك الزواج (طبقات ابن سعد ٤: ١/١٨٣ ، شذرات الذهب ١/٥٤) فاعتبر اصحاب التخميس هذه الوكالة أمارة على وكالة أخرى باطنية اوسع وأعم – على عادة الغلاة فى التأويل – ومن هنا جاءت هذه الفكرة . ويروى ابن الاثير ان أمية كان رسول النبى الى النجاشى وداعيته الى الاسلام (ابن الاثير «اوربا» ٢/١٦١) . وكذلك يروى ان النبى (ص) ارسله لاغتيال ابى سفيان فى مكة سنة ٤ (ابن الاثير «اوربا» ٢/١٢٩–٣١) فكأنه عمرا كان ثقة النبى ويده فى المهمات والملمات .

اما بعد فلابد ان نختم هذا الفصل بموقف الشيعة المعتدلين من الغلاة لنرى مقامهم فى التشيع ولا يذهب بانحق بهرج الباطل ، فقد كان الصدوق القمى ـ استاذ الشيخ المفيد ـ يقول : « اعتقادنا فى الغلاة والمفوضة انهم كفار بالله ـ جل اسمه ـ وانهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية ومن جميع اهل البدع والاهواء المضلة ، وانهم ماصغر الله جل جلاله تصغيرهم بشيء كما قال الله : ماكان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم الله ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ، ايأمركم الله بالكفر اذ انتم مسلمون ؟! »[١١٣] .

---

(١١٣) اعتقادات الصدوق ٣٩ .

الفصل الرابع

عودة الى تطور التشيع

على بن الحسين

مات ابن الحنفية وانصرف من انصرف الى ابنه ابى هاشم ، ولكن الناس حاولوا ان يلتفوا حول على بن الحسين بن على بن ابى طالب ، غير انه لم يمكن احدا من الدعوة اليه او استغلال اسمه لانه نفض يده من الدنيا ومن الطموح الى الحكم وانصرف الى العبادة فكانه طبق الخطة التى هدد بها الخراسانى ابن الحنفية من انصرافه الى الزهد . وهكذا صار للزهد رأس علوى كما كان له رأس فى العلم والشجاعة وسائر المثل التى كانت تتصل بالمجتمع الاسلامى . وقد ولد على بن الحسين فى المدينة سنة ٣٨ فى حياة على ابن ابى طالب ، وقد قتل جده وله سنتان ، وقتل ابوه فى كربلاء وله ثلاث وعشرون سنة . وشهد بعينيه - وكان عليلا فى الموقعة - مصرع اخوانه واعمامه فاخذه رجل فاخفاه عن القائد الاموى ثم سلمه الى ابن زياد نظير ثلاثمائة درهم وكان الرجل مع ذلك يبكى[1] . وكانت هذه الاحداث التى مرت به قد حملته على ان يعتزل الجاه والمال والرجال وكل ما له علاقة بالطموح والامارة . وعاصر على بن الحسين احداثا واهوالا فى المجتمع الاسلامى ورأى بعينه الناس يبايعون لعبدالملك بن مروان على العبودية له بعد الحرة ، وعاصر ضرب الكعبة بالمجانيق وعاصر الحجاج فى حكمه الجائر للعراق وعاصر الحركات الكيسانية والمختار والقتال الذى اغرق العالم الاسلامى

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/١٥٧ .

فى بحر من الدماء ، فاندفع بعد كل هذا الى اعتزال الدنيـــا والانقطاع الى البكاء على ارحامه واخوانه والمثل التى ضاعت وعلى الافكار الغريبة التى جدت على الاسلام . وكان على زين العابدين يكره اهل العراق ـ كما يبدو ـ وكان يحمل عليهم كثيرا ، وقد اثنى عليه نفر من اهل العراق فقال لهم : « ما اكذبكم وما أجرأكم على الله ، نحن من صالحى قومنا وبحسبنا ان نكون من صالحى قومنا»[٢] وكان كذلك حربا على السبابة من الشيعة السبئية والكيسانية وكان يقول لهم : « اشهد انكم لستم من الذين قال الله عزوجل فيهم : والذين جاؤا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم»[٣] . وكان يكره الغلو ولا يحب ان يرفعه احد فوق منزلة احد من المسلمين وكان يقول : « ايها الناس احبونا حب الاسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا»[٤] . وكان يعتبر نفسه رجلا من الناس يتلقى عن القراء والفقهاء وكان يسأل عن سعيد بن جبير الذى قتله الحجاج سنة ٩٤/٧٠١ ويعترف بانه قد تتلمذ عليه ، وكان يردف كل قول بنفى السمو عن نفسه وقد قال فى هذه المناسبة : « انه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء ، واشار بيده الى العراق»[٥] وقد اشتهر عن على بن الحسين مسالمته الحقيقية وكان يغضى عن المسىء حتى صارت هذه الطريقة قانونا للزهاد فقد كان عبدالله بن عون بن ارطبان من زهاد البصرة ـ اذا اغضبه رجل ـ قال : بارك الله فيك[٦] .

وتأتى أهمية على بن الحسين فى التشيع من أنه الامام الرابع من ائمة

---

(٢) طبقات ابن سعد ٥/١٥٨ .
(٣) مع الشيعة الامامية ٤٢ـ٤٣ ، الحشر : ١٠ .
(٤) حلية الاولياء ٣/١٣٦ .
(٥) طبقات ابن سعد ٥/١٦٠ .
(٦) صفة الصفوة ٣/٢٤٠ .

الامامية والاسماعيلية ، وتزداد اهميته بانه اول امام يتخذ الزهد المطلق منهجا لحياته فلا يشارك فى حرب او نقاش ولا يتدخل فى امر من الامور ، وقد شق للزهاد طريقا ، لم يكن ، بادعيته ومناجياته التى تقطر رقة وعاطفة وبيانا .

ولكن هذا كله يتضاءل فى الاهمية امام الحدث العظيم الذى انطوى فى على بن الحسين الا وهو انه كان ابن اميرة فارسية من اميرات آل ساسان ، وقد اتاح له ذلك ـ فى رأى بعض الباحثين ـ ان تلتف الدعوة الفارسية حوله وتجعله صاحب الحق فى حمل التاج الساسانى ، فيكون له ان يحكم العرب والعجم وعليهم ان يدينوا له بالطاعة والولاء . ويعرض الاستاذ احمد امين لهذه الفكرة بقوله : « ومما يتصل بعقائد الفرس الدينية ـ وكان لها اثر فى بعض المسلمين ـ انهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنهم كائنات الهية اصطفاهم الله للحكم وخصهم بالسيادة وايدهم بروح منه ، فهم ظل الله فى ارضه ... فنظرة الشيعة فى على وابنائه هى نظرة ابائهم الاولين من الملوك الساسانيين وثنوية الفرس كانوا منبعا يستقى منه الرافضة فى الاسلام»[٧] ، وهذا الرأى زبدة رأى جوبينو فى كتابه (الدين والفلسفة فى آسيا الوسطى) وينقله الدكتور حسن ابراهيم حسن فيقول : « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى ان العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة لكونهم وارثى آل ساسان من جهة امهم شهربانو ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، (يسميها ابن سعد غزالة ، الطبقات ١٥٦/٥) والائمة رؤساء هذا الدين حقا»[٨] وقد وافق براون على هذا الرأى ايضا[٩] . والظاهر ان ما حمل اصحاب هذا الرأى على رأيهم هو قول ابى الاسود الديلمى فى زين العابدين :

---

(٧) فجر الاسلام ١٣٧ .
(٨) الفاطميون فى مصر ٦٧ .
(٩) تاريخ الادب فى ايران ٢٤٠ .

وان غلاما بين كسرى وهاشم لاكرم من نيطت عليه التمائم[١٠]

والواقع ان ليس لهذا الرأى اساس صحيح ، فلم تقم دعوة لعلى بن الحسين تدل على الاتجاه الفارسى اليه ، بل لقد قامت فى حياته ثورة المختار التى شارك فيها الموالى اول مشاركة فلم تتصرف اليه الدعوة ولم يذكره ذاكر • ثم قامت ثورة عبدالرحمن بن الاشعث وكانت مادتها من الموالى ايضا ، ولم يرفع احد منهم صوتا فى الدعوة لعلى بن الحسين مع انه كان ذا صلة علمية بأحد فقهاء الموالى الكوفيين وهو سعيد بن جبير كما مر بنا • ولم يكن على بن الحسين متصلا بالموالى خاصة ولا بحزب معين سواء اكان دينيا ام سياسيا • وحقيقة الامر ان جوبينو وبراون قد ربطا بين نظرية النور الذى ينتقل من الانبياء الى الائمة واحدا بعد الاخر ـ وظهرت هذه النظرية فى خراسان ـ وظنا انها دارت حول على بن الحسين على اساس النظرة الفارسية التى تنقل النور الملكى من ملك الى آخر • وقد قال بفكرة النور عبدالله بن الحارث وهو مدائنى من انصار عبدالله بن معاوية وكان يرى ان عبدالله هو الامام « وهو العالم بكل شىء حتى غلو فيه وقال : ان الله عز وجل نور وهو فى عبدالله بن معاوية »[١١] ، وقد توفى على بن الحسين سنة ٩٤/٧١٢ـ١٣ وتوفى عبدالله بن معاوية سنة ١٣٠/٧٤٧ـ٤٨ • وكان من عقيدة عبدالله بن الحارث « الغلو والقول بالتناسخ والاظلة والدور »[١٢] ، وكان من عقائد الجناحية : اتباع عبدالله بن معاوية « ان روح الاله دارت فى آدم ثم فى شيث ثم دارت فى الانبياء والائمة الى ان انتهت الى على ثم دارت فى اولاده الثلاثة ثم صارت الى عبدالله بن معاوية »[١٣] • وبذلك يكون النور الذى

---

(١٠) اصول الكافى ١٢٤ •
(١١ ، ١٢) فرق الشيعة ٣٤ •
(١٣) مختصر الفرق بين الفرق ١٥٣ـ٤ •

هو الله قد حل فى عبدالله بن معاوية بن جعفر بن ابى طالب بعد حلوله فى الانبياء والائمة السابقين وهذه هى اصل هذه الفكرة التى لاحظها جوبينو وزعم انها ترتبط بعلى بن الحسين فاذا صح ارتباطها به فلابد ان يكون ذلك متأخرا جدا • يضاف الى ذلك ان كتب الفرق جميعا لاتتعرض لهذه الفكرة ولا تلمح اليها ، وكتب التاريخ تسكت عنها ، ولعل جوبينو وبراون ثم احمد امين ارادوا ان يعقدوا بين الفرس والشيعة صلة فتنبهوا الى هذا النسب الفارسى من ناحية الام ولم يلتفتوا الى ان القاسم بن محمد بن ابى بكر وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب يشاركان على بن الحسين هذه الصفة ايضا (١٤)• والغريب ان هذه الاميرة التى دارت حولها هذه الضجة قد تزوجت بعد الحسين (ع) مولى له اسمه زيد (ولعله زيد) فولدت له عبدالله بن زيد فهو اخو على الاصغر (زين العابدين) بن الحسين (١٥) •

ونعود بعد جلاء هذه النقطة الهامة الى ان الصفة الغالبة على على بن الحسين كونه زاهدا من الطراز الاول ينبع زهده من حزن مادى دفين ارتفع شيئا فشيئا الى حزن معنوى روحى ملأ نفسه واستغرق حياته كلها • وقد اورد لنا ابو نعيم نصا بين فيه جوهر زهد على بن الحسين ، وذلك انه سئل عن كثرة بكائه فقال : « لاتلومونى فان يعقوب فقد سبطا من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم انه مات ، وقد نظرت الى اربعة عشر رجلا من اهل بيتى يقتلون فى غزاة واحدة • افترون حزنهم يذهب من قلبى؟ » (١٦) ، وقد عبر عن هذا البكاء وذلك الحزن تعبيرا صوفيا جميلا يشبه تلك العبارات المركزة المليئة بالمعنى مما نراه عند المتصوفة الكبار بقوله : « فقد الاحبة غربة » (١٧)

---

(١٤) وفيات الاعيان ، مصر ١٩٤٨ ، ١/٤٢٩ـ٣٠
(١٥) طبقات ابن سعد ٥/١٥٦ •
(١٦) حلية الاولياء ٣/١٣٨ •
(١٧) صفة الصفوة ٢/٥٣ •

ونظرة الى سيرة على بن الحسين ـ مما تورده كتب التصوف ـ تصوره لنا صوفيا كاملا ، فان فيه طبيعة الملامتية الخلص ، فقد كان يقول : « انى اعوذ بك ان تحسن فى لوائح العيون علانيتى وتقبح فى خفيات العيون سريرتى • اللهم كما اسأت واحسنت الى ، فاذا عدت فعد على »[١٨] • بل لقد كان فى زين العابدين طبيعة الفتى ممزوجة بالملامة ، فان ابا نعيم يروى ان على بن الحسين « كان يبخل • فلما مات وجدوه يقوت مائة اهل بيت بالمدينة ، قال جرير فى الحديث ـ او من قبله ـ : انه حين مات وجدوا بظهره آثارا مما كان يحمل بالليل الجرب الى المساكين »[١٩] ، ويروى انه كان يتصدق سرا ويقول : « صدقة السر تطفىء غضب الرب »[٢٠] • ولم يقتصر الامر على ذلك بل جعل اصحاب كتب التاريخ على بن الحسين يسبق المتصوفة الى رقى المقامات ، فاننا نلمح حال المحو من القصة التى يوردها صاحب اخبار الدول من انه « سقط ابن له فى البئر ، ففزع اهل المدينة لذلك حتى اخرجوه فكان قائما يصلى فى المحراب فمازال عن مكانه • فقيل له فى ذلك فقال : ما شعرت لانى كنت اناجى ربى »[٢١] ، وتلك قصة نحلها واضح •

وهذه الاخبار تبين الى اى مدى اتخذ على بن الحسين الزهد منهجا لحياته ، فانصرف الى المثل الاعلى يغرق روحه فيه ولا يلتفت الا اليه ، وكان ذلك كله متجسما فى صلاته ودعائه فكان اول من بدأ الذكر الذى يؤدى الى التطهير الصوفى • ويروى ابو نعيم وابن الجوزى ان على بن الحسين كان اذا فرغ من وضوئه للصلاة وصار بين وضوئه وصلاته اخذته رعدة ونفضة ، فقيل له فى ذلك فقال : ويحكم اتدرون الى من اقوم ومن اريد ان اناجى ؟[٢٢]

---

(١٨) حلية الاولياء ٣/١٣٤ •
(١٩) نفس المصدر السابق ٣/١٣٦ •
(٢٠ ، ٢١) اخبار الدول ١١٠ •
(٢٢) حلية الاولياء ٣/١٣٣ ، صفة الصفوة ٢/٥١ •

وقد يبدو هذا الحزن نابعا عن شعور بالاثم او خوف من الموت او شك فى العقيدة ، ولكن على بن الحسين – بعد ان بين انه انما يبكى اخوانه الذين قتلوا امامه عيانا ، وبعد ان ركز همه فى الانقطاع الى الله – ارسل قولا يعد فيه اول من اشار الى فكرة الحب الالهى ، وذلك انه نادى : « ان قوما عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد وآخرين عبدوه رهبة ، فتلك عبادة التجار ، وقوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار » . وتلك عبارة مرادفة لما ينسب الى رابعة العدوية انها قالت : ما عبدته خوفا من ناره (الذين عبدو الله رهبة) ، ولاحبا لجنته (الذين عبدوا الله رغبة) فاكون كالاجير السوء (عبادة التجار) . عبدته حبا وشوقا اليه » [٢٣] (عبادة الاحرار الشكر) . ومما يذكر ان حديث رابعة هذا ينسب الى على فى نهج البلاغة ، ومهما يكن من شىء فان كلا الامامين سبق رابعة . ولا يقتصر التداخل فى المعانى بين زين العابدين ورابعة وحدها بل نجده يقول : « ان الجسد اذا لم يمرض اشر ، ولا خير فى جسد يأشر» [٢٤] . وهو قول عبر عنه جعفر بن سليمان الضبيعى : احد زهاد البصرة من معاصرى مالك بن دينار بقوله : « ان القلب اذا لم يحزن حزب كما ان البيت اذا لم يسكن خرب» [٢٥] . وقد كان على بن الحسين الى شبه كلامه بكلام الزهاد يصدر عن نفس زاهدة ففتح للزهاد باب السماحة والتواضع ، وكان اول عظيم يرفع من مقام الزهد ويجعل له مكانة سامية فان سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧–٧٨ – وهو شيخ الزهاد فى القرن الثانى – يروى عنه انه : « جاء رجل الى على بن الحسين فقال له : ان فلانا قد اذاك ووقع فيك قال : فانطلق بنا اليه ، فانطلقنا معه وهو يرى انه سينتصر لنفسه . فلما اتاه قال : يا هذا ان كان ما قلت حقا فغفر الله لى ، وان كان ماقلت

---

(٢٣) الكواكب الدرية ١/١٠٩ ، وقوت القلوب «مصر ١٣١٠» بنص مقارب ٢/٥٧ .

(٢٤) حلية الاولياء ٣/١٣٤ .

(٢٥) نفس المصدر السابق ٦/٢٨٧ .

فى باطلا فغفر الله لك» [٢٦] ، وقد رأينا عبدالله بن عون ابن ارطبان ـ اذا اغضبه رجل ـ قال له بارك الله فيك . وكثيرا مانجد فى حلية الاولياء وصفة الصفوة زهادا كانوا يستغرقون فى صلاتهم حتى ليحسبهم الناس فى الظلام جذوعا [٢٧] ، وكان على ابن الحسين يصلى فى كل يوم وليلة الف ركعة ، وتهيج الريح فيسقط مغشيا عليه [٢٨] . وقد هز المتصوفة ان يكون امام من اوائل الائمة مغرقا فى الزهد فاضافوا اليه هم وكذلك الشيعة مايزيد زهده عمقا . وقد كان على بن الحسين زاهدا فى وقت كان يمكنه فيه ان يعيش فى رفاهية ودعة ولكنه آثر هذه الحياة فحمد الناس له هذا المشرب وزادوا عليه اخبارا واقوالا حتى جعلوا منه شاعرا صوفيا ، ورووا عنه انه لقى الحسن البصرى فى الكعبة وكان على زين العابدين متلثما يبكى ويتضرع بهذه الابيات :

الا ايها المأمول فى كل حاجة ... شكوت اليك الضر فارحم شكايتى
الا يا رجائى انت كاشف كربتى ... فهب لى ذنوبى كلها واقض حاجتى
وان اليك القصد فى كل مطلب ... وانت غياث الطالبين وغايتى
اتيت بافعال قباح ردية ... فما فى الورى خلق جنى كجنايتى
فزادى قليل لا اراه مبلغى ... أ للزاد ابكى ام لبعد مسافتى
اتجمعنى والظالمين موافقا ... فأين طوافى ثم اين زيارتى
اتحرقنى بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى ثم اين مخافتى
فيا سيدى فامنن على بتوبة ... فانك رب عالم بمقاتى

---

(٢٦) صفة الصفوة ٢/٥٢ .
(٢٧) حلية الاولياء ٥/٤٠ .
(٢٨) صفة الصفوة ٢/٥٦ .

قال الحسن : فدنوت منه فاذا هو الامام بن الامام زين العابدين على بن الحسين ، فقبلت رجليه وقلت : يا سلالة النبوة ، ما هذه المناجاة والبكاء وانت فى أهل البيت ؟ وقال الله عزوجل : ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ، قال : دع يا ابن ابى الحسن ، خلقت الجنة لمن اطاعه ولو كان عبدا حبشيا ، وخلقت النار لمن عصاه ولو كان حرا قرشيا ، وقال (ص) : ايتونى باعمالكم لا بانسابكم »[٢٩] ونظرة واحدة الى هذا الخبر تفضح تهافت نسبة الابيات الى على بن الحسين ، فان اسلوبها الركيك ينبىء بانها وضعت فى وقت متأخر ، ثم ان تقبيل الرجلين لم يكن يرضى به على بن الحسين ولا يأتيه الحسن البصرى ، ولكن الخبر على كل حال جمع بين الحسن البصرى زاهد البصرة وبكائها وبين زاهد المدينة وبكائها الهاشمى ، ورواية ابن الجوزى للخبر يراد بها عقد صلة بين الزهد البصرى والامام على بن الحسين اولا ـ وذلك يخدم موضوعنا ـ ويبين ان الصلة ـ حتى على فرض امتناعها ـ قد ارادها مؤلفو كتب التصوف واخباريوه . ثم ان رواية الخوانسارى ومعصوم على فى طرائق الحقائق [٣٠] لهذا الخبر بالذات تعنى موافقتهما على مضمونه من ان الحسن كان يحس بانه ادنى من على بن الحسين الى حد انه قبل قدميه وان له ـ لذلك ـ صلة بالتشيع . ولكنهما لم يلتفتا الى انهما هدما ـ بموافقتهما على هذا الخبر ـ ركنا ركينا من التشيع دون ان يشعرا بذلك ، فانهما قد نفيا العصمة عن على بن الحسين باعترافه وهكذا تتحالف الظروف على اضعاف هذا الخبر وتتقطع به الاسباب .

ثم يأتى تيار مقابل من ابن عربى ، وذلك انه قد روى عن السجاد : على بن الحسين : « انه قال او تمثل بالابيات التالية :

---

(٢٩) روضات الجنات ٢٠٨ . عن المنتظم لابن الجوزى «المطبوع منه يبدأ بعد سنة ٢٥٧ » .

(٣٠) طرائق الحقائق ١/٣٤ .

انى لاكتم من علمى جـواهره ... كى لايرى الحق ذو جهل فيفتننا
وقد تقدم فى هذا ابو حسن ... الى الحسين ووصّى قبله الحسنا
يا رب جوهر عـلم لو ابوح به ... لقيل لى : انت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى ... يرون اقبح ما يأتونه حسنا (٣١)

وفسرها ابن عربى بقوله : « ونبه ـ بقوله : يعبد الوثنا ـ على مقصوده ، ينظر اليه تأويل قوله (ص) ان الله خلق آدم على صورته ـ باعادة الضمير على الله تعالى ـ وهو من بعض محتملاته » (٣٢) .

والظاهر على هذه الابيات التأخر ايضا وان كان اسلوبها آنق وانعم من الابيات السابقة وايرادها ينقض الابيات السابقة .

ومن أهم مايرد فى هذا المجال ـ وهو ظاهر التهافت ايضا ـ ما اورده الجنيد البغدادى الصوفى المتأخر المتوفى فى أواخر القرن الثامن الهجرى ـ وهو غير الجنيد شيخ الطائفة المتوفى سنة ٢٩٨ ـ عن على بن الحسين رواية عن محمد بن كعب القرظى الذى قال :

« كنت فى مسجد الكوفة بعض الليالى ، فأتى على بن الحسين زين العابدين ـ رضى الله عنه ـ فى نصف من الليل حتى بلغ باب المسجد وهو يقول فى بعض مناجاته :

---

(٣١) الفتوحات المكية ١/ ٢٦٠ ، كتاب الامام المبين لمحيى الدين بن عربى ورقة ٤ب ـ ٥ ، التدبيرات الالهية لابن عربى ايضا ١١٣ .
نسب ابن عربى البيتين الاخيرين الى على بن الحسين نفسه وتمثلا منه بهما ـ كما مر . وتخلصا من الشك نسبها ابن عربى كلها الى « الشريف الرضى حفيد على بن ابى طالب رضى الله عنه » . وليست الابيات للشريف الرضى الذى نعرفه ولكن ابن عربى قدم عبارة « الشريف الرضى » للوصف لا لتحديد الشخصية ، ولابد انه اخذها من مصادر شيعية . وقد اوردها الحاج معصوم على ونسبها الى الامام السجاد المذكور (طرائق الحقائق ١/ ٣٤) .

(٣٢) الفتوحات المكية ١/ ٢٦٠ ، الكواكب الدرية ١/ ١٤٠ .

يا حبيبي وقرة عيني ، غلقت الملوك ابوابها وطافت عليها حرّاسها وبابك مفتوح . ثم دخل المسجد وصلى ركعتين ، ثم أنشد :

لبيك يامن انت مولاه فارحم عبيدا اليك ملجاه
طوبى لمن كان خائفا أرقا يشكو الى ذى الجلال بلواه
وما به علة ولا سقم اكثر من حبه لمولاه

فاذا بهاتف من السماء يقول :

لبيك عبدى وانت فى كنفى وكل ما قلته علمناه
دعاؤك ،عبدى، يجول فى حجبى فذنبك اليوم قد غفرناه
صوتك تشتاقه ملائكتى فحسبك ، الصوت قد سمعناه
سلنى بلا حشمة ولا رهب ولا تخف ، اننى انا الله
هذا يرى ربّه فيؤنسه سبحان من السلام حيّاه
لو هبّت الريح من جوانبها خرّ صريعا لما تغشّاه (٣٣)

وليس من الصعب دحض التفاصيل ونسبة الابيات الى زين العابدين والملائكة ، فلم ينزل الامام الكوفة ولا زار مسجدها وانما كانت اقامته كلها فى المدينة ، الا فترة اسره لما جاء مع ابيه الى كربلاء ثم أعيد الى الحجاز . ثم ان هذه الابيات من الركة وهذا الهاتف من الضعف بحيث لايمكن ان يقاوما عوامل التهافت والدحض وان كان الجنيد نفسه اثبتها فى رسالته .

ولكن المسألة كلها تنحصر فى ارادة اضافة الزهد الصوفى الى على بن الحسين وهو حفيد على بن ابى طالب الذى اجمع اصحاب كتب التصوف ان

(٣٣) القصد الى الله ٢٢ .

له صلة وثقى بأصولهم . وقد كان من مقام على زين العابدين فى المجتمع العربى ان قال فيه رجل كان واضح العثمانية وهو الجاحظ : « لم ار الخارجى فى أمره الا كالشيعى ، ولا العامى الا كالخاصى» [٣٤] وعلى بن الحسين هو الذى يدور حوله شعر الفرزدق فى قصيدته الشهيرة ومنها :

يغضى حياء ويغضى من مهابته ولا يكلم الا حين يبتسم [٣٥]

فابرز لنا جانبا من خلقه عبر عنه ضرار حين وصف عليا فى مجلس معاوية بقوله : « وكان – مع تقريبه ايانا وقربه منا – لانكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه لعظمته » ولعل رأى من يرى خطأ نسبة القصيدة الى الفرزدق قد وجه الى هذا التوافق . وقد نسب الكلينى الى على بن الحسين انه كان له رأى فى الزهد واقسامه ، وانه كان يقول « الزهد عشرة اجزاء : اعلى درجة الزهد ادنى درجة الورع واعلى درجة الورع ادنى درجة اليقين ، واعلى درجة اليقين ادنى درجة الرضى » [٣٦] ، وعزز الكلاباذى هذا الاتجاه بان جعل على بن الحسين « ممن نطق بعلومهم (يعنى المتصوفة) ونشر مقاماتهم ووصف احوالهم قولا وفعلا بعد الصحابة رضوان الله عليهم » [٣٧] . ويعود الكلينى فينسب الى على بن الحسين رأيا فى التوكل بقوله « رأيت الخير كله قد اجتمع فى قطع الطمع عما فى ايدى الناس . ومن لم يرج الناس فى شىء ورد امره الى الله عز وجل فى كل اموره استجاب الله له فى كل شىء » [٣٨] ، وذلك قول فيه مسحة زهدية ويعنى الاستغناء عن الناس كما فى قول معروف الكرخى : «التصوف الاخذ بالحقائق واليأس مما فى ايدى الخلائق» [٣٩] . والتوكل

---

(٣٤) العلم الشامخ ١٠ .
(٣٥) اخبار الدول ١٠ .
(٣٦) اصول الكافى ١٦٩ .
(٣٧) التعرف ١١
(٣٨) اصول الكافى ١٨٩ .
(٣٩) الرسالة القشيرية ١٤٩ .

باد فى قول السجاد المذكور . وادخل منه فى التوكل مايرويه الكلينى ايضا من ان على بن الحسين كان يتخوف من فتنة ابن الزبير ، فلقيه رجل عليه ثوبان ابيضان فقال له : « يا على بن الحسين هل رأيت احدا دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا . فقال : فهل رأيت احدا توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ، قال : فهل رأيت احدا سأل الله فلم يعطه ؟ قال : لا . ثم غاب عنى»[٤٠] ، وهذا الرجل الذى غاب لابد ان يقرن بالامام فلعله الخضر او جبريل ، والكلينى يريد ان يرتفع بالامام زين العابدين عن مستوى الزهاد فاضاف اليه هذا الاتصال بهذا الملك ـ على الارجح ـ لان البياض يدل على ذلك .

يبقى امر مهم هو الصحيفة التى تنسب الى على بن الحسين ، وتتضمن أدعية ومناجيات حفظها الشيعة ونشروها ، وجاء فيها ـ فى المقدمة ـ انها بخط الامام زيد بن على وباملاء ابيه زين العابدين ، وكانت نسخة منها عند متوكل بن هرون وكان من الشيعة الامامية . ويجرى بين هرون هذا ويحيى بن زيد حديث يهدف الى أن يكون العلم عند الصادق وابيه اعمق منه عند الائمة الزيديين ، لان يحيى بن زيد يقول : « كلنا له علم غير انهم يعلمون كل ما نعلم ولا نعلم كل ما يعلمون»[٤١] . وفيها ان سبب التفاف الناس حول محمد الباقر وجعفر الصادق هو « انهما دعوا الناس الى الحياة ونحن (الزيدية) دعوناهم الى الموت» وفيها مقدمات غيبية واسرار وتنبؤات . وتتضمن الصحيفة ادعية ، لكل دعاء منها مناسبة كدعاء التحميد لله ودعاء الصلاة على محمد وآله والادعية فى الاوقات المختلفة والمهمات والاعتراف وطلب التوبة والظلامات ، ودعاء يقرأ عند ختم القرآن ، وأدعية للمناسبات كشهر رمضان والاعياد والجمعة وهكذا ، ثم ادعية فى دفع كيد الاعداء والرهبة ...

---

(٤٠) اصول الكافى ١٦٩ .

(٤١) الصحيفة السجادية ٢ .

ولا شك فى نسبة كثير من اجزاء الادعية المذكورة الى الامام زين العابدين ، ولكن يبدو ان اضافات كثيرة قد اكتنفت النصوص الاصيلة وسادتها الصنعة البلاغية بحيث طالت نصوصها ، والمفروض فى نص الدعاء ان يكون قصيرا ليسهل حفظه كالدعاء الذى يورده صاحب اخبار الدول : « يا موضع كل شكوى ، يا سامع كل نجوى ، يا شافى كل بلوى ، يا عالم كل خفية ويا كاشف ما تشاء من كل بلية ، ادعوك دعاء من اشتدت فاقته وضعفت قوته وقلت حيلته : دعاء الغريب الفقير الذى لايجد لكشف ماهو فيه الا انت يا ارحم الراحمين ، لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين » (٤٢) . ويورد ابن بابويه القمى فى (من لايحضره الفقيه) ان على بن الحسين كان يقول فى سجوده : « اللهم ان كنت عصيتك فانى قد اطعتك فى احب الاشياء اليك وهو الايمان بك منا منك لامنا عليك » (٤٣) وتختم هذه الادعية بفاصلة من فواصل القرآن ، كعبارة : يا ارحم الراحمين ، انه ولى حميم ، آمين يارب العالمين ، وانت على كل شىء قدير ... الخ .

وفى ادعية السجاد ذكر للصحابة والتابعين ودعاء لهم ، ومن ذلك : اللهم واصحاب محمد (ص) خاصة ، الذين احسنوا الصحابة والذين ابلوا البلاء الحسن فى نصره وكانفوه واسرعوا الى وفادته وسابقوا الى دعوته واستجابوا له حيث اسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الازواج والاولاد فى اظهار كلمته ، وقاتلوا الاباء والابناء فى تثبيت نبوته وانتصروا به ... اللهم واوصل الى التابعين باحسان الذين يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان خير جزائك ، الذين قصدوا سمتهم وتحروا وجهتهم ومضوا على شاكلتهم : لم يثنهم ريب فى بصيرتهم ولا خالجهم شك فى قفو آثارهم ...» (٤٤)

---

(٤٢) اخبار الدول ١١٠ .
(٤٣) من لايحضره الفقية ، طبع ايران ١٣٧٦ ، ص٩١ .
(٤٤) الصحيفة السجادية ٣٤ .

ومن دعائه فى الاستعاذة من المكاره : « اللهم انى اعوذ بك من هيجان الحرص وسورة الغضب وغلبة الحسد وضعف البصر وقلة القناعة وشكاسة الخلق والحاح الشكوى وملكة الحمية ومتابعة الهوى ومخالفة الهدى وسنة الغفلة وتعاطى الكلفة وايثار الباطل على الحق والاصرار على المأثم واستصغار المعصية واستكبار الطاعة ومباهاة المكثرين والازراء بالمقلين وسوء الولاية لمن تحت ايدينا وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا ... صل على محمد وآل محمد واعذنى من كل ذلك برحمتك وجميع المؤمنين والمؤمنات يا ارحم الراحمين» (٤٥) . وكان من دعاء السجاد اذا اعتدى عليه أو رأى من الظالمين مالا يحب : « يا من لايخفى عليه انباء المتظلمين ، ويامن لايحتاج فى قصصهم الى شهادات الشاهدين ، ويامن قربت نصرته من المظلومين ، ويامن بعد عونه عن الظالمين ، قد علمت يا الهى ماناللى من فلان بن فلان مما حضرت وانتهكه منى مما حجزت عليه بطرا فى نعمتك عنده واغترارا بنكيرك عليه . اللهم فصل على محمد وآله وخذ ظالمى وعدوى عن ظلمى بقوتك وافلل حده عنى بقدرتك واجعل له شغلا فيما يليه وعجزا عما يناديه ...» (٤٦) ، ولعلنا لاحظنا ان كلمة : قصص تعنى الاوراق التى تكتب فيها المظالم مما كان مصطلحا عليه ايام الدولة العباسية ولم يستعمل هذا اللفظ لاداء المعنى قبل ذلك فيما نعلم . ويرد فى دعائه عند : الشدة والجهد وتعسر الامور ، عاطفة صوفية وبيان جميل كقوله : اللهم انك كلفتنى من نفسى ما انت املك به منى وقدرتك عليه وعلى اغلب من قدرتى . فاعطنى من نفسى ما يرضيك عنى وخذ لنفسك رضاها من نفسى فى عافية . اللهم لا طاقة لى بالجهد ولا صبر لى على البلاء ولا قوة لى على الفقر ، فلا تحظر على رزقى ولا تكلنى الى خلقك بل تفرد

---

(٤٥) ، (٤٦) المصدر نفسه ٦٥ .

بحاجتي وتول كفايتي وانظر لي في جميع اموري ، فانك ان وكلتني الى نفسي عجزت عنها ولم اقم مافيه مصلحتها ، وان وكلتني الى خلقك تجهمونى ، وان الجأتني الى قرابتي حرمونى ، وان اعطوا اعطوا قليلا نكدا ، ومنوا على طويلا وذموا كثيرا • فبفضلك اللهم فاغنني وبعظمتك فانعشني وبسعتك فابسط يدى وبما عندك فاكفني ••»[٤٧] وفى دعائه فى التذلل اسلوب جديد فيه اصالة وتجديد وحضارة تعز على ابناء القرن الاول الهجرى فالامام زين العابدين السجاد يقول :

مولاى مولاى انت المولى وانا العبد وهل يرحم العبد الا المولى ؟!
مولاى مولاى انت العزيز وانا الذليل وهل يرحم الذليل الا العزيز ؟!
مولاى مولاى انت المعطى وانا السائل وهل يرحم السائل الا المعطى ؟!
مولاى مولاى انت الخالق وانا المخلوق وهل يرحم المخلوق الا الخالق ؟!
مولاى مولاى انت الباقى وانا الفانى وهل يرحم الفانى الا الباقى ؟!
مولاى مولاى انت الدائم وانا الزائل وهل يرحم الزائل الا الدائم ؟!
مولاى مولاى انت الحى وانا الميت وهل يرحم الميت الا الحى ؟!
مولاى مولاى انت القوى وانا الضعيف وهل يرحم الضعيف الا القوى ؟!
مولاى مولاى انت الكبير وانا الصغير وهل يرحم الصغير الا الكبير ؟!
مولاى مولاى انت المالك وانا المملوك وهل يرحم المملوك الا المالك ؟![٤٨]

وهذا الدعاء الاخير يصلح للحفظ والترنم والذكر لانه بسيط ورقيق وفيه صنعة وفيه عاطفة ورقة وذلة حقة • ومهما يكن من أمر نسبة الصحيفة الى الامام على بن الحسين فان فيها روحا وزهدا وان فيها رقة وتواضعا وقد كان السجاد يتصف بها كلها •

---

(٤٧) الصحيفة السجادية ١٠١ •
(٤٨) المصدر نفسه ٢٧١ •

اما بعد فيم يكن على بن الحسين صاحب مجـاهدة ولا كـان يلبس الصوف ، بل يروى ابن سعد انه كان يخضب ويلبس فاخر الثياب ويقرر انه لم يكن زاهدا الا فى صلاته (٤٩) . وتلك حقيقـة يجب ان تبين لان الصوف سيسود العالم الاسلامى بعد على بن الحسين وسنرى ابنه وحفيده ممن يلبسونه . فزهد على بن الحسين نفسى وعقلى باطن وذلك اجدى من الزهد القائم على الجوع ولبس الصوف لان الاول يمليه الادراك وتقيمه النظـرة العميقة الى الحياة ، اما اللباس ففيه تظاهر . وقد رأينا عـلى بن الحسين يساعد ويعين فى الخفاء فكان للملامة والفتوة سابقة جميلة . وتوفى الامام السجاد على بن الحسين زين العابدين فى المدينة سنة ٩٤ أو ٩٥ بعد أن تعهد غرسه بالرى والسقيا ونشأ ولده الامام محمد الباقـر هـذه النشـأة وكذلك حفيده العظيم جعفر الصادق الذى سنرى دوره الكبير فى التصوف وبخاصة التأويل الصوفى .

محمد الباقر

وكان محمد بن على الباقر سر أبيه زهدا وانقطاعا اليه وبعـدا عـن السياسة ، ولكنه برز فى ناحية جديدة طال عليها الزمن بعـد عـلى ، فان الاحداث التى هزت العالم الاسلامى وانشغال الائمة العلويين الثلاثة بعـد على فى التطورات التى اصابت العالم الاسلامى لم تمكنهم من التفرغ للعلم ولم تتح لهم حتى الجمع بين العلم والعمل الى ان جاء الباقر بعد ابيه الزاهد هادىء النفس مملوء بالثقة بعيدا عن الاضطراب النفسى والطموح السياسى فجعل العلم قبلته ولم يعكر صفو هذا الاتجاه معكر طوال حياته . ولم يفارق الباقر الزهد لان المجتمع الاسلامى قد تلون به بحكم الاحداث التى هزته وصرفته عن طلب المال الذى كان سببا فى ذبح الحسين وعن الرأى الذى كان داعيا لمذابح الخوارج وعن العقيدة التى كانت مثارا للمآسى التى نزلت بانصار

---

(٤٩) ابن سعد ٥/١٦١

المختار ومحمد بن الحنفية من الشيعة وقد لقب الامام الباقر بذلك عملا بنبوءة للنبى بولادته القاها الى جابر بن عبدالله الانصارى الصحابى الشيعى المشهور الذى كان يقول : «سمعت رسول الله يقول : « انك ستدرك رجلا منى : اسمه اسمى وشمائله شمائلى ، يبقر العلم بقرا» [٥٠] وكانت ولادته بالمدينة سنة ٥٧/٦٧٦-٧ وورث الامامة عن ابيه سنة ٩٥/٧١٣-١٤ وتوفى سنة ١١٩/٧٣٧ على الارجح [٥١] .

وتتجلى فى الباقر الصفة الاساسية فى الشيعة الاوائل من الحفاظ على الاسلام ومحاولة منع من يفعل غير ذلك بالعدل والروية والحسنى ، وقد كان الباقر معاصرا لابى هاشم الذى التف الغلاة حوله ثم عاصر حركة الغلاة وكان - مع ذلك - يؤدى الواجب الذى أخذ الشيعة الاصليون على عاتقهم اداءه ، فكان يقول لجابر : « بلغنى ان قوما بالعراق يزعمون انهم يحبوننا وينالون من ابى بكر وعمر رضى الله عنهما ويزعمون انى امرتهم بذلك . فابلغهم انى الى الله منهم برىء . والذى نفس محمد بيده ، لو وليت لتقربت الى الله بدمائهم، لانالتنى شفاعة محمد ان لم استغفر لهما »[٥٢] وكل هذا مصداق لجوهر التشيع وواجبه المقدس تجاه الاسلام ولهذا فقد كان الباقر يقول : « يا معشر الشيعة : شيعة آل محمد ، كونوا النمرقة (اى الوسادة) الوسطى يرجع اليكم الغالى ويلحق اليكم التالى »[٥٣] ، وفسر الغالى بانه من يقول فيه مالايقول فى نفسه والتالى بانه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه» [٥٤] ، وهذا هو السبب فى ان الائمة لم يدخلوا فى معترك الصفات والجبر والاختيار والقدر ولم

---

(٥٠) اصول الكافى ١٢٥ ، ابن قتيبة ١/٢١٢ .
(٥٢) حلية الاولياء ٣/١٨٥ .
(٥١) فى الطبرى(ليدن ٢/١٧٠٠) انه توفى قبل خروج زيد بالكوفة سنة ١٢١
(٥٣) اصول الكافى ٣٦ ، طرائق الحقائق ١/٣٩ .
(٥٤) المصدر نفسه ٣٦ .

يدلوا بدلوهم فى طريق الكلام المتشعبة الا ليجمعوا الاراء كلها فيخرجوا منها كما دخلت هى فى القرآن • ومعنى هذا ان اصحاب الجبر اختاروا ناحية من القرآن واختار اصحاب الاختيار ناحية اخرى وكذلك الامر فى الصفات، والكل يستند الى آيات من القرآن ، وكان دور الائمة ان يعودوا بهذه الاراء الى القرآن من جديد فيحملوا على التحديد والاختيار ويردوا الامر الى نصابه ، فحين سأل الباقر عن الجبر والاختيار قال : « ان الله ارحم بخلقه من ان يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله اعز من ان يريد امرا فلا يكون • فسئل : هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة ؟ قال : نعم ، اوسع مما بين الارض والسماء » • فالباقر ينفى الجبر على الاطلاق اولا ثم ينفى الاختيار على الاطلاق ايضا ومعنى هذا انه يجمعهما ثم يجعل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة • وهكذا يعيد الباقر المياه الى مجاريها الحقيقية قياما بواجبه الذى يحتمه عليه جوهر التشيع الاساسى •

وكان الزهد نفسه ـ كما رأينا ـ يعنى اجتناب الخروج على الدولة بالسلاح وتجنب الخروج عليها بالرأى ، وتحامى الخروج عليها بالعقيدة المختارة من بين ما يضم القرآن من اشارات ، فالزهد اذن هو البعد عن الدخول فى كفاح باليد او اللسان ، وانما هو الاعتزال ، وكان الباقر ومن قبله ابوه من هذا الرأى ولهذا رأينا الزهاد والمتصوفة بعدئذ يجعلون الصادق واباه وجده منهم ويجمعون معهم اسلافهم كما فعل الكلاباذى حين قال فى رجال الصوفية : « ممن نطق بعلومهم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقاماتهم ووصف احوالهم قولا وفعلا ـ بعد الصحابة رضوان الله عليهم ـ على بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن على الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق (ر) ـ بعد على والحسن والحسين رضى الله عنهم ـ واويس القرنى وهرم بن حيان والحسن بن ابى الحسن وابو حازم سلمة بن دينار المدينى ومالك بن دينار وعبدالواحد بن زيد وعتبة الغلام وابراهيم بن أدهم والفضيل

بن عياض ...» [٥٥] ، وكان الباقر – كالزهاد – نفورا من القتال ، وكان ذلك سبب الخلاف بينه وبين اخيه زيد بن على ، وكان فى ذلك يقول : « قال الله فى الصيد : ولاتقتلوا الصيد وانتم حرم ، فقتل الصيد اعظم ام قتل النفس التى حرم الله ؟ [٥٦] ، وقد روى ابو نعيم ان هذه المسالة مؤقتة وذكر ان محمدا الباقر قد قال : « ان الله يلقى فى قلوب شيعتنا الرعب ، فاذا قام قائمنا وظهر مهدينا كان الرجل اجرأ من ليث» [٥٧] ، ثم يحدد الشيعى بانه من اطاع الله عزوجل [٥٧] ، وهكذا يتبين الاندماج – فى المبادىء – بين الزهاد والشيعة المعتدلين . وكان الباقر يلوم زيدا على اخذه عن واصل بن عطاء المعتزلى (٨٠/٦٩٩ – ١٨١/٧٩٨) لانه كان يجوز الخطأ على جده (على بن ابى طالب) [٥٨] ولم يكن ذلك من الباقر تعصبا لجده مطلقا بل احالة الى التشيع الاصيل الذى اقترب منه الزهد فى تحامى الدخول فى تفاصيل عقلية تحدد وتقيد بل كان مبدأ الشيعة الجوهرى ان يأخذوا الاسلام كله دون ان يتركوا شيئا منه ثم صار مبدأ الزهاد ان يتركوا كل هذه الامور التفصيلية ويتجهوا الى الله وحده وتلك نقطة تلاق بين الشيعة والزهاد الى درجة ما . فاذا اضفنا الى ذلك نفور الباقر من الغلو تمت له صفة الزاهد ولكن اى زاهد ؟ الزاهد الشيعى الاصيل كأبى ذر وسلمان وعمار والشيعة الاوائل . ولهذا فان النظرة الاولى الى محمد الباقر تظهره اماما شيعيا من طراز على بن ابى طالب من حيث نطقه بالاسرار واندماجه على العلم اللدنى . وقد قسم محمد الباقر العلم السرى قسمين : « علما لايعلمه الا هو تعالى وعلما علمه ملائكته ورسله . فما علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه» [٥٩] . وقد شرح

---

(٥٥) التعرف ١٠–١١ .

(٥٦) اصول الكافى ٩٢ .

(٥٧) حلية الاولياء ٣/١٨٤ .

(٥٨) هذا الخبر مشهور يرد فى كتب الفرق كثيرا ، انظر مثلا الملل والنحل ١/٦٥ .

(٥٩) اصول الكافى ٦١ .

جعفر الصادق ذلك بقوله : « ان سليمان ورث داود ، وان محمدا ورث سليمان ، وانا ورثنا محمدا . وان عندنا علم التوراة والانجيل والزبور وتبيان مافى الالواح» [٦٠] ، ثم اضاف الى ذلك « ليس هذا هو العلم . ان العلم الذى يتجدد يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة» [٦٠] . فهذا العلم السرى المستمر يعود بنا الى اراء سلمان وحذيفة . والعلم المذكور لايبدو محصولا من القراءات والثقافات فقط ، وانما هو استعداد والهام الهيان وتمكين منه بحيث يستطيع الامام – بما لديه من استعداد روحى شخصى – ان يصدر عن الحق دائما كما وصف ضرار الامام عليا بقوله : « يتفجر العلم من جوانبه » وهذا الذى اكتسبه الائمة بالاعداد والتمكين قد طمح اليه المتصوفة بالمجاهدة وتطهير النفس حتى لقد وجدنا فريد الدين العطار يصف الباقر كما يصف اى متصوف كبير بقوله : « وكان مخصوصا بدقائق العلوم ولطايف الاشارة» [٦١] وهذا جانب فى الشيعة واضح الصلة بالتصوف وسنرى تفصيله فى موضعه المناسب .

وقد صب مؤلفو كتب التصوف جوانب الامام الباقر فى قالب صوفى زهدى بحيث بدا واحدا منهم . واول ما يجب ان نلتفت اليه البكاء الذى يضاف الى الباقر المعاصر للحسن البصرى البكاء المشهور وكذلك عاصر الحسن على بن الحسين كما رأينا . وقد سمعنا عليا زين العابدين يعلل بكاءه بفقده العلويين الاربعة عشر الذين قتلوا على مذبح اطماع الامويين : رآهم يقتلون رأى العين فى كربلاء ، فلم ترقأ له دمعة طول حياته ، وكانت صورهم تملأ عليه نهاره وليله [٦٢] ، ثم تطورت الفكرة تطورا زهديا عبر عنه زين العابدين بقوله : « فقد الاحبة غربة » [٦٣] ، وهذا محمد الباقر ابنه يقول : « ما اغر ورقت عين

---

(٦٠) المصدر نفسه ٥٢ .
(٦١) تذكرة الاولياء ٢٦٦/٢ (ترجمة) .
(٦٢) حلية الاولياء ١٣٨/٣ .
(٦٣) صفة الصفوة ٥٣/٢ .

بمائها الا حرم الله وجه صاحبها على النار » . بل ان محمدا الباقر يقسم البكاء كما قسم المعرفة (وقد فعل ابوه كذلك من قبل) [٦٤] فقال : « فان سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة . وما من شيء الا له جزاء الا الدمعة ، فان الله يكفر بها بحور الخطايا . ولو ان باكيا بكى فى امة لحرم الله تلك الامة على النار » [٦٥] ، وهكذا نرى جذور البكاء فى الزهد والتصوف حتى تحول الى الذكر الذى يصفى القلوب كما يصفيها بكاء الشيعى على الحسين الذى كانت مجالس البكاء عليه تعقد زمن المأمون (فى نهاية القرن الثانى) جهارا [٦٦] . وقد ربط محمد الباقر البكاء بالذكر صراحة فقال « الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولا تصيب الذاكر » وقد رأينا البكاء ومنزلته ، فلابد ان يقترن بالذكر لتمحى الذنوب . وهكذا اسس الشيعة - كما يبدو - جذور المجاهدة فى الذكر ببكائهم على شهيدهم .

وقد زكى ابن حجر الباقر صوفيا بقوله فيه : « وله من الرسوم فى مقامات العارفين ماتكل عنه ألسنة الواصفين ، وله كلمات فى السلوك والمعارف لاتحتملها هذه العجالة» [٦٧] ومن تلك الكلمات مايدخل فى سلسلة السند فى روايته ابو على الروذبارى وسفيان الثورى وذلك فى نقل قول الباقر فى التوكل «الغنى والعز يجولان فى قلب المؤمن ، فاذا وصلا الى مكان فيه التوكل اوطناه » [٦٨] ، وقد رأينا التوكل عند الحسين ثم عند على بن الحسين وهذا محمد بن على الباقر . ثم نجد الحب عنده ايضا كما وجدناه عند ابيه من قوله لجابر بن عبدالله الانصارى : « اعلم يا جابر ان اهل التقوى ايسر اهل الدنيا مؤونة ... قطعوا محبتهم لمحبة ربهم ووحشوا الدنيا لطاعة

---

(٦٥) صفة الصفوة ٢/ ٦١ .
(٦٤) تفسير على بن ابراهيم ٤١٦ .
(٦٦) الشيعة فى التاريخ ١٨ .
(٦٧) الصواعق المحرقة ١٩٩ .
(٦٨) حلية الاولياء ٣/ ١٨١ .

مليكهم» [٦٩] . وهذا النص يرد فى اصول الكافى للكلينى وهو اهم مرجع لاحاديث الائمة واخبارهم وثبت لاصول الشيعة . ولهذا فان هذا النص يعتبر شهادة شيعية بزهد الباقر المنبنى على الظروف الاسلامية الجديدة ، وهذه المحبة التى يعبر عنها الباقر المتوفى بين سنة ١١٧-١٢٦ / ٧٣٥-٧٤٤ سبقت الحب الالهى الذى ظهر فى البصرة وركز فى رابعة العدوية المتوفاة بعد ذلك بحوالى سبعين سنة .

وقد كان التواضع الذى صار من اهم صفات الزهاد - لا المتصوفة - من ابرز صفات محمد بن الباقر وكذلك كان من صفات ابيه ، وقد كان تواضعه مبنيا على نظر ورأى يتصلان بقدر المعرفة الذى يتناسب عكسيا مع الكبر والعجب ، فقد كان يقول : « مادخل قلب ابن آدم شىء من الكبر الا نقص من عقله مثل مادخله من ذلك : قل او كثر» [٧٠] ، واذا صدر من مثل الباقر مثل هذا القول فلابد ان يكون مثلا اعلى يطمح اليه ومبدأ يطبق . وهكذا اختط للزهد اساسا من اسسه . ولكن فريد الدين العطار لايفلت هذه الفرصة بل رفع من تواضع الباقر حتى جعل منه مقاما ساميا لايصل اليه اصحاب الكبر والجبروت ، فقد نقل انه سئل احد خواص الباقر : كيف يقضى الامام ليله؟ فقال : « اذا جاء الليل وفرغ من ترديد الاوراد ، قال فى صوت عال : الهى وسيدى ، حل الليل وآنت ولاية تصرف الملوك وظهرت النجوم ونام الخلائق» [٧١] ، وهكذا ارتفع التواضع فى نظر المتصوفة حتى صار جلالا بعده جلال السلطان المادى . وروى عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١/٧٩٧ حكاية تجعل الباقر كالخضر ، وتجعل له كرامة الصوفية المتأخرين وتنطقه باسلوبهم ، حدث عبدالله بن المبارك قال : « كنت بين مكة والمدينة ، فاذا انا

---

(٦٩) اصول الكافى ١٨٥ .

(٧٠) صفة الصفوة ٢/٦٠

(٧١) تذكرة الاولياء ٢/٢٦٦ ترجمة ، وانظر اول صفحة ١٦٣ من هذا الكتاب .

بشبح يلوح فى البرية ، يصهر تارة ويغيب اخرى حتى قرب منى ، فتأملته فاذا هو غلام سباعى او ثمانى ، فسلم على فرددت عليه السلام فقلت : من اين ؟ قال: من الله ، فقلت والى اين ؟ فقال : الى الله ، فقلت : علام؟ قال : على الله . فقلت : فما زادك ؟ قال : التقوى ، فقلت : ممن انت ؟ قال : انا رجل عربى ، قلت : ابن لى قال : انا رجل قرشى ، فقلت : ابن لى قال : انا رجل هاشمى فقلت : ابن لى ، قال انا رجل علوى ، ثم انشد :

فنحن على الحوض رواده نذود ونسعد وراده
فما فاز من فاز الا بنا وما خاب من حبنا زاده
ومن سرنا نال منا السرو ر ومن ساءنا ساء ميلاده
فمن كان حقا لنا غاصبا فيوم القيامة ميعاده

ثم قال : انا محمد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . ثم التفت فلم اره فلا اعلم هل صعد الى السماء ام نزل فى الارض »[٧٢] ، وقد توفى عبدالله بن المبارك سنة ١٨١/٧٩٧ وهو هنا يروى عن الباقر فى طفولته مع انه توفى قبله باكثر من خمسين سنة . والمهم ان عبدالله بن المبارك كان ممن تفقهوا على سفيان الثورى ، فروايته عن الباقر تجرنا الى ان الزهاد والمتصوفة قد اعجبهم من الائمة الاوائل زهدهم فارادوا ان يجعلوا منهم قدوة يقتدون بها وجعلوا مبادئهم الخلقية والسياسية الموازية لمبادىء الزهاد شيئا يهتدون به ، وكانت اسس التصوف فى بداية وضعها فاستفاد الزهاد من الائمة استفادة ظاهرة حتى رأيناهم فى النهاية ينسبون التصوف كله الى على عن طريق اولاده هؤلاء وسنرى ذلك كله فيما بعد . وقد صرح العطار بذلك فقال فى محمد الباقر الذى انهى بسيرته كتابه : تذكرة الاولياء مانصه : « ذلك حجة اهل المعاملات ، ذلك برهان ارباب المشاهدات ذلك امام اولاد النبى ، ذلك كريم

(٧٢) طرائق الحقائق ٢/٨٨ عن كشف الغمة .

احفاد علي ، ذلك صاحب الظاهر والباطن : ابو جعفر محمد الباقر رضى الله عنه • والسبب الذى من اجله بدأنا هذه الطائفة بجعفر الصـــادق ـ لكونه من ابناء المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ هو السبب الذى ختمنا من اجله هذه الطائفة بالباقر» (٧٣) هذا هو الباقر فى امامته وزهده وشيعيته الاصيلة التى حددناها فى اول هذه الرسالة • وقد خلف الامامة لابنه جعفـــر الصادق الذى سار بكل هذه السبل الى نهايتها واوضح ما كان صعبا على الباحثين الانتباه اليه من شؤون العلم والاسلام والعقيدة •

اما بعد فيجب ان لاتفوتنا ملاحظة مهمة هى ان الباقر قد عاصر حركة شيعية كبيرة صارت منهجا لكثير جدا من الشيعة : حركة تعتمد عـلى نفـاد الصبر والخروج على الظلم بالسيف تحت قيادة رأس علوى هو زيد بن على• وقد غذى هذه الحركة مارأيناه من مسالمة على زين العابدين وبكائه المستمر ومتابعة الباقر لهذه السياسة وهو وصى ابيه ووارث علمه ومقامه ، تلك هى الزيدية التى بدأت سنة ١٢١/٧٢٩ بالكوفة ومازالت باقيـــة حتى الان فى اليمن ، وسنرى ذلك فى الفصل المقبل •

زيد والزيدية

كانت الحركات الزيدية ثورات دموية على الظلم والجور بعـد ذلك الركود الذى اصاب الحركات الشيعية بعد قتل الحسين وقد كان جوهـر حركات الزيدية قول امامهم الاول زيد بن على : « ماكره قوم قط حر السيوف الا ذلوا» (٧٤) وزيد هو القائل : « والله لو ددت ان يدى معلقة (بالثريا) فاقع على الارض او حيث اقع فانقطع قطعة قطعة دون ان اصلح بين امة محمد» (٧٥)

---

(٧٣) تذكرة الاولياء ٢/٢٦٦ (ترجمة) •
(٧٤) خطط المقريزى ٤/٣٠٩ •
(٧٥) مقاتل الطالبيين ١٢٩ •

وهذا الاصلاح الذى يعنيه زيد هو الخروج بالسيف ، وقد خرج زيد فقتل سنة ١٢١/٧٣٩ فى الكوفة وصلب بعد قتله خمسين شهرا عريانا ثم احرق (٧٦) فصار مثلا اعلى لابنائه وابناء عمومته يتأسون به ويضحون بانفسهم فى سبيل تحقيق المثل العليا التى كانوا ينشدون تحقيقها ولقى ابنه يحيى المصير نفسه سنة ١٢٥/٧٤٢(٧٧) . وكانت حركة زيد اول دعوة التف حولها انصار من المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والرى وجرجان مع اهل الكوفة انصار العلويين المعهودين . ويجب ان نضيف الى ذلك ايضا ان زيدا كان رجلا شعبيا بكل مافى هذه الكلمة من معنى وان امه كانت امة سندية اهداها المختار الى ابيه . وكانت حركة زيد وشخصيته تمثلان ثورة على طبيعة الامام الشيعى ، فانه عادة كان رجلا واحدا يطيعه العلويون والشيعة ، ولكن زيدا سمح لنفسه ان يخرج على امامة اخيه محمد الباقر فاجتمع امامان فى وقت واحد وصارت هذه الخطة منهجا للزيدية فيما بعد فلم يمنعوا ان يكون لكل ناحية امام على ان يجمع الصفات المطلوبة فيه (٧٨) . وقد سمح زيد لنفسه بامر لم يكن احد من الشيعة يجرؤ على الظهور به ـ بله الامام ـ وذلك انه نزل من علياء الامامة وسموها وامتيازها ورضى ان يتلقى العلم من رجل عادى للعقل عنده المقام الممتاز ، ولا تدخل العناية الالهية ولا السمو الروحى فى عقائده ذلك هو واصل بن عطاء الغزال الذى كان

---

(٧٦) مروج الذهب ٢/١٨٢ .

(٧٧) ذكر ابو الحسن الاشعرى (فى مقالات الاسلاميين ١/٧٥ـ٨٥) ثمانية وعشرين ثائرا من آل البيت ابتداء من ايام الحسين الى بداية القرن الرابع الهجرى . ويلاحظ ان الاشعرى قد تفادى الاشارة الى الفاطميين ورجالهم وعقائدهم بتة . ولعل لذلك مدخلا الى الحالة السياسية آنئذ او لعله كتب الكتاب قبل ظهورهم جهارا . **وقد توفى ابو الحسن** سنة ٣٢٤ .

(٧٨) الزام النواصب ٨ .

يرى احتمال كون على فاسقا [٧٩] . واتخذ المنهج العقلى المأخوذ عن المعتزلة سبيلة فى العقائد الرئيسة للزيدية . وطلع زيد على العالم الاسلامى بمذهب جديد فى الخلافة حل به عقدة طالما ابعدت الناس عن العلويين وشيعتهم . ذلك ان مذهب زيد كان «جواز امامة المفضول مع قيام الافضل» [٨٠] وشرح زيد ذلك بقوله « كان على بن ابى طالب افضل الصحابة الا ان الخلافة فوضت لابى بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة» [٨٠] وقد اجاب من ناقشه فى الفرق بين من ظلم حق على دون ان يوسم به ، على رأى زيد ، ومن ظلم العلويين عندئذ بقوله : « ان هؤلاء ليسوا كاؤلئك : ان هؤلاء (يعنى الامويين) ظالمون لى ولكم ولانفسهم ، وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه (ص) والى السنن ان تحيى والى البدع ان تطفأ » [٨١] وقد صرح زيد بانه ما سمع احدا من أهل بيته يتبرأ من ابى بكر وعمر رضى الله عنهما ولا يقول فيهما الا خيرا [٨٢] فخرج زيد من الخلاف الشخصى الضيق وحصر مسألة الخلافة التى حرم على منها فى ظلم وقع على على شخصيا دون ان يشمل الظلم المجتمع والدين . وقد اضاف زيد شرطا شعبيا آخر الى الامام هو ان يكون قائدا حربيا يشترط فيه الخروج [٨٣] (بالسيف) فصار الائمة الزيديون مجموعة من المهديين ولم يحتاجوا ـ لذلك ـ فى مذهبهم الى التعلق بفكرة المهدى المنتظر كغيرهم من الشيعة الذين ركنوا الى السكون فى انتظار الخروج مع مهديهم الذى سيخرج بالسيف فى يوم من الايام . وهكذا تميزت الدعوة الزيدية بالمذهب العقلى اخذا عن المعتزلة وقربت به الرأى فى الفقه الذى اخذته عن ابى حنيفة

---

(٧٩) الملل والنحل ١/٦٥ .
(٨٠) الملل والنحلل ١/٢٥٠ .
(٨١ ، ٨٢) الطبرى ٨/٢٧٢ .
(٨٣) الملل والنحل ١/٢٥٢ .

المتوفى سنة ١٥٠/٧٦٧ وقد قيل: انه كان تلميذا لزيد سنتين[٨٤] ومهما يكن من شيء فان المنهج العقلي واضح في اخص خصائص مذهب زيد الذى جعل الامام انسانا كالناس يتعلم ويسمع ويتناقش . وقد كان زيد زاهدا شأن المتدينين المخلصين في ذلك الوقت الذى انتشر فيه لبس الصوف تعبيرا عن معارضة صامتة ازاء ما فرضه سليمان بن عبدالملك المتوفى سنة ٩٩ وكذلك هشام المتوفى سنة ١٢٥/٧٤٣ من لبس الخز كما سنرى فيما بعد . وكان زيد « يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل : مايرجع على الدنيا »[٨٥] ، واخبرنا محمد بن ايوب : « ان اهل النسك كانوا لايعدلون بزيد احدا »[٨٥] . وقد اتاح هذا الاتجاه الزيدى ـ من النزول بالامام من عليائه بالاضافة الى ظهوره بمظهر الزهاد ـ للمتصوفة فيما بعد ان يطمحوا الى السمو مادامت الامامة قد خرجت من حد النص الالهى وصارت مجموعة من المثل الخلقية تتمثل في رجل « فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج بالامامة »[٨٦] « باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص »[٨٧] ، فرأينا مجموعة من الزهاد تلتف حول زيد كمنصور بن المعتمر الذى كان يدعو الى الخروج مع زيد[٨٨] وسفيان الثورى الزاهد المشهور الذى كان الزيديون يعتبرونه واحدا منهم[٨٩] . ولم يقتصر الامر على التفاف الزهاد حول زيد بل رأينا قوما من شيعة اخيه محمد الباقر يلتحقون بدعوة زيد ويضيفون الى المذهب الجديد ما يسبغ عليه القداسة التى حاول زيد ان يخفف منها ، ومن ذلك ما قاله ابو الجارود المتوفى بعد سنة ١٥٠/٧٦٧ : « الحلال حلال آل

---

(٨٤) تاريخ الكوفة ٢٢٧ عن الروض النظير ٨ (طبع بومباى ١٣١٥ هـ) .
(٨٥) مقاتل الطالبيين ١٢٨ .
(٨٦) الملل والنحل ١/٢٤٩ .
(٨٧) مقدمة ابن خلدون ٢٠٠ .
(٨٨) مقاتل الطالبيين ١٤٠ .
(٨٩) المصدر نفسه ١٤٦ .

محمد (ص) والحرام حرامهم والاحكام احكامهم ، وعندهم جميع ما جاء به النبى (ص) ، كله كامل عند صغيرهم وكبيرهم ، والصغير منهم والكبير فى العلم سواء ، لايفضل الكبير الصغير : من كان منهم فى الخرق والمهد الى اكبرهم سنا »[٩٠] . وهكذا عاد السمو والتوفيق الالهى والعلم اللدنى فائضا على آل محمد جميعا بعد ان كان متركزا فى الامام المفرد وحده ، وصار الرجل منهم « ليس يحتاج ان يتعلم من احد منهم ولا من غيرهم : العلم ينبت فى صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، فان الله ـ عزوجل ـ قد علمهم بلطفه كيف شاء» [٩١] . ويجب الا يفوتنا هنا ان ابن عربى يوافق على هذه الفكرة الشيعية بقوله : « ولا يتبغض اهل البيت ... فمن خان اهل البيت فقد خان رسول الله ومن خان ماسنه رسول الله (ص) فقد خانه صلى الله عليه وسلم فى سنته»[٩٢] ، وموافقة ابن عربى تعكس ـ فى الواقع ـ ما احسه الصوفية قديما من الروح بالتخفيف من الصعوبة التى تحول دون بلوغ الناس العاديين منزلة الولاية بالمجاهدة والسلوك ، فان تركز الولاية فى واحد والنص عليها نصا الهيا يمنع غير المنصوص عليه بها من بلوغ منزلته ، فجاء الزيدية فازالوا هذا الحد وجعلوا القيادة وحدها للفاطميين وجعلوا العلم شائعا بين الناس يطلبه من يستطيعه ، ولم يجعلوا العلم خاصا ولا سريا ففتحوا السبيل للجادين لبلوغ مايجدون من اجله ، وهكذا رأينا الطموح الصوفى الى الولاية يتنفس . ومما يوضح هذه الفكرة ان ابن عربى قد تبنى فكرة امامة المفضول التى نادى بها زيد وحل بها اشكال خلافة ابى بكر وعمر ، بل ان ابن عربى ليسند ذلك بخبر يرويه عن النبى ، وذلك ان رسول الله (ص) صلى خلف عبدالرحمن بن عوف بلا خلاف وقضى ما فات» [٩٣] واضاف الى

---

(٩٠) فرق الشيعة ٥٥ .
(٩١) فرق الشيعة ٥٦
(٩٢) الفتوحات المكية ٤/١٣٩ .
(٩٣) المصدر نفسه ١/٤٤٨ .

ذلك تعليقه « احسنتم اعتبار ذلك ، الفاضل يصلى خلف المفضول ليرقى همته ويرغبه فى طلب الانفس والاعلى » [٩٣] ، وبذلك نجد الحل المنشود والتوفيق بين سمو اهل البيت وبين اتاحة الفرصة لغيرهم من المسلمين لبلوغ منزلتهم لا بالنسب والوراثة الروحية بل بالعمل والمجاهدة ، وسنجد الحلقة المفقودة التى تنقص صورة الصوفى فى رقيه المستند الى الافكار الشيعية عند الاسماعيلية بعد بحثنا لجعفر الصادق .

وقد استهوت الحركة الزيدية الغلاة من الشيعة رغم ما بينهما من تناقض فرأينا اصحاب المغيرة بن سعيد العجلى يقولون ـ بعد موته ـ بمهدية محمد بن عبدالله الحسن الزيدى الذى خرج بالمدينة سنة ١٤٥/٧٦٢-١٣» [٩٤] . وقد ناصر اصحاب الحديث والفقهاء والزهاد الحركات الزيدية لانهم وجدوا فيها الروح مما كانوا يعانونه من ضيق مادى وعقيدى ، فقد حلت العقيدة الزيدية مشكلة التشيع وصبت الناس فيه ووجدنا مالك بن انس يفتى بالخروج مع محمد بن عبدالله بن الحسن [٩٥] وخرج معه الزاهد عبدالله ابن عطاء وبنوه التسعة جميعا [٩٦] ، وكان سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨ يقول فيه : « ان يرد الله خيرا بهذه الامة يجمع امرها على هذا الرجل .... وهل ادركت خيار الناس الا الشيعة» [٩٧] ، وكان الزاهد ابن هرمز الذى بايع زيدا من قبل [٩٨] قد خرج مع محمد بن عبدالله بن الحسن فى محفة وقال : مافى قتال ولكن احب ان يتأسى بى الناس [٩٩] ،

---

(٩٤) الملل والنحل ١/٢٩٤ .
(٩٥) مقاتل الطالبيين ٢٨٣ .
(٩٥) مقاتل الطالبيين ٢٨٣ والطبرى ٩/٢٠٦ .
(٩٦) المصدر نفسه ٢٩٣ .
(٩٧) المصدر نفسه ٢٨٩ .
(٩٨) تاريخ الكوفة ٣٣٨ .
(٩٩) الطبرى ٩/٢٢٩ .

وقد كان ابو حنيفة الذى سمه المنصور سنة ١٥٠/٧٦٧ يرى « ان القتيل مع ابراهيم بن عبدالله (اخى محمد) يعدل قتله ـ لوقتل ـ يوم بدر ، وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة » [١٠٠] ، ويروى ابو الفرج ان اصحاب الحديث جميعا خرجوا مع ابراهيم بالبصرة [١٠١] مع انها كانت معقل العثمانية .

وأشار ابو الحسن الاشعرى الى خروج المعتزلة فى البصرة مع ابراهيم وأنهم قتلوا بين يديه (مقالات الاسلاميين ١/٧٩) . وقد بقى الرأى المعتزلى فى الزيدية منذ نشأته وما زال فيها . وقد كانت حركات الزيدية تلعب بقلوب الناس وتنال اعجابهم لما فيها من اخلاص وتجرد حتى لقد وجدنا العامة من اهل بغداد يتولون الثائر يحيى بن عمر بن الحسن بن زيد» [١٠٢] الذى ظهر سنة ٢٥٠/٨٦٤ [١٠٣] .

وكان الائمة الزيديون ـ كزيد ـ مجموعة من الزهاد المتقشفين ، بل كان منهم من يسمى بالصوفى كمحمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن عمر بن على بن ابى طالب الذى قتله الرشيد محبوسا [١٠٤] ، وكان محمد ابن جعفر الصادق يخرج الى الصلاة بمكة فى سنة ٢٠٠/٨١٥-١٦ بمائتى رجل من الجارودية وعليهم ثياب الصوف وسيماء الخير ظاهر [١٠٥] ، وكان ثائر زيدى آخر يوصف بالصوفى وهو محمد بن القاسم .... لانه كان يدمن لبس الثياب من الصوف الابيض [١٠٦] .

---

(١٠٠) مقاتل الطالبيين ٣٦٩ .
(١٠١) المصدر نفسه ٣٧٧ .
(١٠٢) تاريخ الكوفة ٣٦٤ .
(١٠٣) مروج الذهب ٢/٤١٠ .
(١٠٤) مقاتل الطالبيين ٤٠٨ .
(١٠٥) المصدر نفسه ٥٤٠ .
(١٠٦) المصدر نفسه ٥٤٠ .

وقد يبدو هذا الزهد العام فى أئمة الزيدية عاملا صـــار له اثر فى الزهد والتصوف ، غير ان الواقع يحكم بخلاف ذلك لان اتجـــاه الزيدية المعتزلى فى الاصول واتخاذهم الرأى فى الفقه قد طبع عقيدتهـــم بالطابع العقلى الذى ينفر منه التصوف ، بل كانت الحركات الزيدية تلقى هوى مـــن الناس لانها كانت تشبع روح التذمر فيهم ، والخروج على الدولة ليس من طابع الزهد والتصوف بل العكس هو الصحيح . ذلك لان الخروج يستلزم التجمع ، والزهد والتصوف فرديان ، وقد قال رويم البغدادى فى ذلك : « ما تزال الصوفية بخير ماتنافروا» (١٠٧) . وكان عبدالواحد بن زيد يقول فى وصف الزهاد : « القائمون بعقولهم على همومهم ، والعاكفون عليهـــا بقلوبهم » (١٠٨) ، وقال السرى السقطى : « من اراد ان يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه فليعتزل الناس» (١٠٩) . بل لقد ذهب الكلاباذى الى ابعد من ذلك فصرح فى جلاء ان الصوفية : « لايرون الخروج على الولاية بالسيف وان كانوا ظلمة» (١١٠) وليس هذا بدعا فى التصوف فان سفيان الثورى نفسه ـ على تأييده حركة محمد بن عبدالله بن الحسن ـ الثائر الزيدى ـ يعيب على ابن خالد الاحمر الزاهد المتوفى سنة ١٨٥/٨٠٥ خروجه مع ابراهيم» (١١١) وكان من الغريب فى الزيدية ـ وهم شيعة يعتمـــدون فى الاصل على القيم الروحية ـ ان تتجرد عقيدتهم هذا التجرد الواضح مـــن الروحانيات ـ ولم يكن ذلك بالامر الطبيعى ـ ولهذا فان الزيدية مالت قليلا قليلا عن هذا الجفاف فدخلها ـ اول مادخلها ـ رأى الجارودية (وهم فرقة من الزيدية) التسوية فى العلم بين صغير آل محمد وكبيرهم وهو العـــلم

---

(١٠٧) الرسالة القشيرية ١١٦ .
(١٠٨) اللمع ٢٥ .
(١٠٩) طبقات الصوفية ٤٨ .
(١١٠) التعرف ٣٣ .
(١١١) مقاتل الطالبيين ٣٥٦ .

النبوى»[١١٢] ثم ادخل ابو الجارود النص على امامة على على صورة مخففة هى النص بالوصف لا بالاسم • وقد كان ابو الجارود من انصار محمد الباقر من قبل • وكان السليمانية – وهى فرقة زيدية – اتباع سليمان بن جرير يكفرون عثمان وطلحة والزبير وعائشة »[١١٣] وتلك من سمات الشيعة بعد على وان تكن فيها سمات التقاليد المعتزلية • ومن الطريف انهم لم يستطيعوا الاستمرار على تطبيق مانادوا به من امامة المفضول وذلك ان الشهرستانى يخبرنا انهم « مالوا بعد ذلك عن القول بامامة المفضول وطعنت فى الصحابة طعن الرافضة»[١١٤] •

وكان اصل كتاب الجفر الذى حوى علم ماسيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص مرويا عن جعفر الصادق عن طريق راوية زيدى هو هرون بن سعيد العجلى وكان من رؤوس الزيدية القدامى[١١٥] ونحن نعلم ان المعجزات والكرامات والنبوءات امور تنكرها المعتزلة والزيدية التى اتصلت بها واخذت عنها ، غير ان الكرامات بدأت تقترن بالائمة الزيديين ابتداء من المنصور بالله القاسم بن على العيانى الذى ظهر فى الشام وانفذ رسله الى اليمن سنة ٣٨٨/٩٩٨ « وكانت كراماته لاتحصى»[١١٦] وكانت للحسين بن قاسم (٣٨٤-٤٠٤/٩٩٤-١١٤) كرامات ايضا[١١٦] ، ويصف الشيخ الواسعى الامام الهادى الحقينى المتوفى سنة ٤٩٠ بانه « كان معه من العلم مايكفى اثنى عشر اماما »[١١٧] ، وكان الامام الكيسمى الحسينى مستجاب الدعوة[١١٧] ، وكان الامام المتوكل على

---

(١١٢) فرق الشيعة ٥٥ •
(١١٣) الملل والنحل ١/٢٥٩ •
(١١٤) المصدر نفسه ١/٢٥٤ •
(١١٥) مقدمة ابن خلدون ٣٣٤ •
(١١٦) تاريخ اليمن ٢٥ •
(١١٧) المصدر نفسه ٢٨ •

الله (٥٠٠-٥٦٦/١١٠٦-١١٧١) يقول الشعر الفصيح فى حال الطفولية [١١٨] ، وكان الامام المنصور بالله (٥٦١-٦١٣/١١٦٥-١٢١٧) فرغ من قراءة القرآن وهو فى الرابعة من عمره وفى هذا التاريخ كان يتأسف على تفريطه بالعلم [١١٨] ، وهكذا غلبت على تطبع الزيدية طبيعة الشيعة الاصلية • ويقرر الشيخ صالح المقبلى ان ثلب بعض الصحابة قد عاد الى الزيدية شأن الشيعة الاقدمين مع ان الامام المنصور بالله الزيدى كان يقول « لا اسأل عن عدالة ثلاثة قرون» [١١٩] • بل ان الزيدية يقولون بالتقليد [١٢٠] وهو من اهم مميزات الشيعة فى الفقه • والتقليد هو ان ينتخب الشيعى فقيها يجعله شيخا له ومعتمدا فى معرفة الحلال والحرام ويسلم اليه زكاته وخمسه ويستشيره فى امور دينه بعد ثقته فى صدقه وعدالته ونزاهته وصدق تدينه • وصار الاجتهاد عنصرا مهما عند الزيدية كما هو كذلك عند الشيعة الامامية ، وقد اقتضت طبيعة الزيدية التى تجعل الامامة فى من يجمع الناس على عدالته ونزاهته وشجاعته ان تختار القول بالاجتهاد ، وهو اتجاه شيعى امامى • بل لقد اختاروا فى الفقه ان يكونوا مصوبة يرون ان كل مجتهد مصيب وتلك فكرة دخلت الزيدية من ايام المهدى ابى عبدالله الداعى [١٢١] • ولقد دخل الحذر الذى يقرب من التقية التى حاربها الزيديون فى عقيدتهم لانهم يحرمون صلاة الجمعة فى بلد السلطان ليس على شرطهم [١٢٢] ولعل ذلك يعنى تجنب الفتنة وهو داخل فى التقية كما يبدو • بل لقد عاد الزيديون الحاليون الى ما تجنبوه من صدام مع الفرق الاخرى من اقامة الحداد على الحسين وما كان يتبع ذلك من اثارة للاحقاد

---

(١١٨) تاريخ اليمن ٢٩ •
(١١٩) العلم الشامخ ٣٠٧ •
(١٢٠) المصدر نفسه ٣٦١ •
(١٢١) المصدر نفسه ٣٧٧ •
(١٢٢) المصدر نفسه ٣٥٢ •

وهم الان يفعلون ، [١٢٣] واخيرا يخبرنا امين الريحانى ان العصمة لحقت ائمتهم فى القرن العشرين ، ولعلها كانت كذلك من قبل [١٢٤] . وهكذا نفرغ من الزيدية التى تميزت باستغنائها عن المهدية باستمرار الامامة عندهم على ان يكون الامام رجلا عادلا ورعا نزيها ينتخبه الناس ويشترط فيه ان يكون من نسل الحسن او الحسين ، ويخبرنا الشيخ المَقْبَلى ان العوام فى اليمن يكادون يلحقون الامام بالنبى ويحاربون معه بلا جعل كسائر الملوك [١٢٥] . ونعود من هذه الجولة ـ التى رأينا فيها الزيدية قد حررت الصوفية من القيد الذى تقيد به الشيعة من جعل الامام فى مقام لايمكن لانسان اخر ان يرتقى اليه ـ نعود الى التشيع من جديد لنرى ماجد عليه حين رجعت الامامة من محمد الباقر اخى زيد الى جعفر بن محمد الصادق الذى عرف بانه اشهر واظهر امام عند الشيعة .

جعفر بن محمد الصادق

وجاء الصادق جعفر بن محمد بن على بن الحسين فأرسى للتشيع أسسه وأقام بناءه ، فقد تفرغ هو كما تفرغ ابوه من قبل ـ للعلم وخدمته ، وترك السياسة والملك لطالبيهما وما كان اكثرهم . فقد عاصر الصادق حركة الغلوفى اعنف مراحلها وحركة ابى مسلم الخراسانى وحركة عبدالله بن معاوية وحروب مروان بن محمد وحركات الخوارج وحركة الزهد ثم حركات الزيديين ، حتى استقر الامر واستوت الامور لابى جعفر المنصور . وظل الصادق فى كل هذا بمنأى عن التيارات واصر على ماهو فيه من انقطاع للعلم . وقد خدم الصادق وابوه الباقر العلم نصف قرن من الزمان فى وقت كان المجتمع العربى فيه طافحا بالنشاط العقلى والحربى . وقد كان الصادق

---

(١٢٣) ملوك العرب ١/ ٩٠ .
(١٢٤) المصدر نفسه ١/ ١٠٢ .
(١٢٥) العلم الشامخ ٣١٨ .

وابوه ابرز ائمة الشيعة بلا منازع ، وقد اجمع الباحثون على فضل الصادق لهذا التجرد للعلم فقال فيه الشهرستانى : « وهو ذو علم غـــزير فى الدين وأدب كامل فى الحكمة وزهد فى الدنيا وورع تام عن الشهوات • وقد اقام بالمدينة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له اسرار الحكمة • ثم دخـل العراق واقام بها مدة ما تعرض للامامة قط ولا نازع احدا فى الخلافة ، ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط ومن تملّى الى ذروة الحقيقـة لم يخف من حط»[١٢٦] • وقد نقل ابو نعيم عن عمرو بن المقـدام قوله : « كنت اذا نظرت الى جعفر بن محمد علمت انه ســـلالة النبيين»[١٢٧] • ويجب ان نذكر ـ قبل ان يستغرقنا البحث ان المنصور هو الذى اطلق عليه لقب الصادق[١٢٨] لانه تنبأ له بان امر الخلافة سيكون للعباسيين بعد الامويين، وتنبأ بالقتل للثوار العلويين[١٢٩] ، ولعل هذا هو سر استطاعة الصـــادق نزول الكوفة دون ان يتعرض له السلطان بالمطاردة والحرب ، ولعل المنصور قد شجعه على ايثار العلم ليخفف من اندفاع الشيعة للثورة عليه مع الزيديين•

وقد كان الصادق استاذا لجيله المعاصر ، ويرى دونالدسون انه « قـد كانت له شبه مدرسة سقراطية »[١٣٠] ويجعل جرجى زيدان من تلامذته ابا حنيفة المتوفى سنة ٧٦٧/١٥٠ ، ومالك بن انس المتوفى سـنة ٧٩٥/١٧٩ وكذلك واصل بن عطاء شيخ المعتزلة المتوفى ســـنة ٧٩٧/١٨١[١٣١] ، ويضيف اليهم ابن حجر : يحيى سعيد وابن جـريج وشـــعبه وايوب

---

(١٢٦) الملل والنحل ١/٢٧٣ •
(١٢٧) حلية الاولياء ١/١٩٣ •
(١٢٨) مقاتل الطالبيين ٢٥٦ •
(١٢٩) المصدر نفسه ٢٠٦ •
(١٣٠) عقيدة الشيعة ١٤٨ •
(١٣١) الامويون والعباسيون ١٥٣ •

السختياني[١٣٢] ، ويورد ابو نعيم قائمة طويلة من تلامذته والرواة عنه منهم : مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح المشهور[١٣٣] . وروى النجاشي انه كان في مسجد الكوفة وحده تسعمائة شيخ من تلاميذه[١٣٤] . ويرى السيد أمير علي ان « مدرسة الصادق في المدينة كانت استمرارا لمدرسة علي بن ابي طالب من قبل »[١٣٥] ، وقد نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان[١٣٦] . وكان هذا المقام داعيا لكثرة النسبة اليه حتى عاد هذا الاجماع على فضله والاخذ عنه مورثا للضد منه الى حد دفع البخاري الا يروى عنه شيئا من حديثه[١٣٧] .

وقد علل الكشي ـ وهو من اوائل مصنفي الشيعة ـ ذلك بخبر نقله عن شريك حين سأله رجل عن علة تضعيف حديث الصادق ، فرأى أنه « كان ابن محمد رجلا صالحا مسلما ورعا ، فاكتنفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر بن محمد ويحدثون باحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم ...»[١٣٨] . وقد استمر الصادق محافظا على رسالة الشيعة من الاستقلال في العقيدة وتجنب اختيار وجه منها وتفضيله على آخر كما كان المجتمع الاسلامي يفعل وقد كانت سورة الآراء المتناحرة في الصفات والخلق والجبر والقدر وغيرها على اشدها يومئذ . ولهذا فقد كان الصادق يقول في الارادة : « ان الله تعالى اراد بنا شيئا واراد منا شيئا ، فما اراده بنا

---

(١٣٢) الصواعق المحرقة ١٩٩ .
(١٣٣) حلية الاولياء ٣/١٩٨ .
(١٣٤) كتاب الرجال ، بومبي ١٣١٧ ، ٢٩ .
(١٣٥) مختصر تاريخ الاسلام ٧٦ .
(١٣٦) الصواعق المحرقة ١٩٩
(١٣٧) ضحى الاسلام ٣/٢٦٥ .
(١٣٨) معرفة اخبار الرجال ٢٠٨ .

طواه عنا ، وما اراده منا اظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما اراده بنا عما اراده منا » [١٣٩] ، ويضيف الشهرستانى الى ذلك معلقا بقوله : « وهذا قول فى القدر هو امر بين امرين : لاجبر ولا تفويض» [١٣٩] .

وقد تبنى المتصوفة نحوا من هذا الاتجاه وحاولوا الاستقلال عن خصومات الفرق ومتكلميها ، فقال ابن عربى :

فان قلت بالتنزيه كنت مقيدا وان قلت بالتشبيه كنت محددا

وان قلت بالامرين كنت مسودا وكنت اماما بالمعارف سيدا [١٤٠]

ويروى الكلينى ان الصادق كفر المرجئة والقدرية والحرورية [١٤١] ويضيف اليه قوله : « فان الكلام فى الله لايزداد صاحبه الا تحيرا » [١٤٢] . ولكن الفرق الاسلامية - على اختلافها - ادعت الصادق لنفسها ، فقد نفى عنه الشهرستانى القول بالغيبة والرجعة والبدأ والتناسخ والحلول والتشبيه [١٤٣] ، مع ان امامة موسى بن جعفر ولده قد وصلته بالبداء الذى رأيناه عند اصحاب المختار اولا ، وكذلك انتقلت الامامة الى الحسن بن على الامام الحادى عشر من اخيه بالبداء ايضا . اما الحلول والتشبيه

---

(١٣٩) الملل والنحل ١/٢٧٣ .

(١٤٠) ورقة ٧٨ب فى المخطوط المرقم Or. 3684 فى المتحف البريطانى بلندن الذى يتضمن رسائل ومقالات صوفية .

(١٤١) اصول الكافى ٢٣٤ .

(١٤٢) المصدر نفسه ٢٠ .

ويورد ما سينيون عن تفسير البقلى عبارة تبين اتحاد نور محمد بالائمة وكونهما من عنصر واحد أزلى ، فروى عن الصادق انه قال : « اول ما خلق الله نور محمد(ص) قبل كل شىء واول ما اوجد الله - عز وجل - من خلقه ذرة محمد -صلعم- واول ما جرى القلم : لا اله الا الله ومحمد رسول الله» (الطواسين ١٥٩ «التعليقات» عن تفسير البقلى) .

(١٤٣) الملل والنحل ١/٢٧٣ .

والرجعة والغيبة فان الشيعة قد اضافوها اليه فعلا كما اضـــافوها الى سابقيه وكانت تلك العقائد ضرورة ماسة لهم • وقد تعلق الغلاة بالصادق ايضا حتى الهوه (١٤٤) ، ومنهم من جعل منه مهديا منتظرا(١٤٥) ، وسنرى منزلته فى الزهد والتصوف فى موضعها • وعلينا الآن ان نبتدر فنقول : ان من كتب عنه من سائر الباحثين انما جعله اماما للشيعة كما رأينا ذلك عند الشهرستانى • فالامامة الشيعية تطغى عليه وتغلب على احاديثه وافكاره ، ولكنها امامة علمية وروحية ليس من جوهرها السياسة والمادة • وقد روى لنا الكلينى ان الصادق يرى للائمة منزلة روحية سامية تقرب من منزلة النبوة الا انهم ليسوا بانبياء ولا يحل لهم من النساء مايحل للنبى ، اما ماعدا ذلك فهم بمنزلة النبى(١٤٦)، وهو بذلك يجعل لهم مقام الابلاغ عن النبى وكأن تعاليمهم هى تعاليم النبى نفسها • وذلك ان الامامة وراثة روحية وهى من صلب تعاليم الاسلام وردت ـ كما يرى الشيعة ـ فى القرآن ، ومن ذلك ما رواه ابو بصير عن جعفر الصادق قال : « سالت ابا عبدالله (يعنى الامام الصادق) عن قوله عز وجل : اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم(١٤٧) فقال : نزلت فى عـلى ابن ابى طالب (ع) والحسن والحسين(١٤٨) ، بل ان الكلينى يروى لنا ان الامامة حلقة فى سلسلة النبوات فى العالم كله بنقله عن ابى عبدالله ايضا انه « اوصى موسى الى يوشع بن نون ، واوصى يوشع الى ولد هارون ولم يوص الى ولده ولا الى ولد موسى ، ان الله له الخيرة يختار من يشاء ممن يشاء ، وبشر موسى ويوشع بالمسيح فلما بعثه الله عز وجل قال المسيح : انه سوف يأتى من بعدى نبى اسمه احمد من ولد اسماعيل : يجىء بتصديقى وتصديقكم

---

(١٤٤) فرق الشيعة ٤٢ •
(١٤٥) الملل والنحل ١/٢٧٣ •
(١٤٦) اصول الكافى ٦٥ •
(١٤٧) النساء : ٥٩ •
(١٤٨) اصول الكافى ٧٠ •

وعذرى وعذركم» [١٤٩] وهكذا تتصل الامامة بالنبوة فى رأى الصادق وسندها القرآن دائما . ولكن الكلينى يورد لنا خبرا لايتسق هو وهذه الاخبار ، وذلك انه جعل النص على الامامة واردا فى وصية مستقلة عن القرآن كما يروى لنا معاذ بن كثير بن ابى عبدالله ان « الوصية نزلت من السماء على محمد كتابا لم ينزل على محمد كتاب مختوم الا الوصية » [١٥٠] . وهو بذلك يفتح بابا لم يغلق من خصوصية الائمة واستقلالهم الروحى عن البشر . ويستتبع هذا طبعا ان يكون الائمة من طينة غير طينة البشر فروى عن ابى عبدالله قوله : « ان الله خلقنا من طينة مكنونة تحت العرش فاسكن ذلك النور فينا فكنا نحن ، خلقنا بشرا نورانيين» [١٥١] ، ولولا هذه الطينة لصار الائمة مخلوقين من نور ، والنور والنار عنصر واحد وبذلك تقوم الصلة بين التشبيح والثنوية ، ولكن هذه الطينة قد عزلت هذا الرأى وجعلته شيئا قائما بذاته . ويعود ذلك بنا الى النور الذى اسبغه عبدالله بن الحارث على عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن ابى طالب واخذ به الغلاة واسبغوه من جديد على جعفر بن محمد الصادق ومقالتهم فى ذلك انه : « كان النور الذى هو الله فى عبدالمطلب ثم صار فى ابى طالب ثم صار فى محمد ثم فى على ابن ابى طالب : فهم الهة كلهم» [١٥٢] ، وكانت تلك العقيدة مبدأ بزيغ ومعمر (المعاصرين لابى عبدالله) . وتؤدى بنا هذه الافكار الغنوصية الى روحانية الامام وشمول الله له بالعناية والرعاية بحيث كان لدى الصادق والائمة كتابان سريان هما الجفر والجماعة فيهما اسرار العلم واسماء الانبياء

---

(١٤٩) اصول الكافى ٧٣ .
(١٥٠) المصدر نفسه ٦٧
(١٥١) المصدر نفسه ١٠٢ .
(١٥٢) فرق الشيعة ٤٣ .

والملوك [١٥٣] وكان لديه مخلفات الرسول وغيره من الانبياء ، لان الامام وارث علومهم ومخلفاتهم كألواح موسى وعصاه وخاتم سليمان بن داود بالاضافة الى سيف رسول الله ورايته ودرعه .... الخ [١٥٤] وكان سلاح رسول الله (ص) هو علامة الامامة فان الامام الشرعى هو الذى يحتفظ بـه عنـده ويسلمه الى الامام التالى كما كان التابوت فى بنى اسرائيل ينتقل من نبى الى نبى [١٥٥] . وهكذا تتعقد بساطة الاسلام فى الامامة الشيعية بحيث يحتاج الباحث الى بذل الجهد الشديد فى الفهم والربط . ويؤدى بنا امتياز الائمة فى الخلق والخلق الى البحث فى جوهر علمهم ، فبينما يروى الكلينى حديثا ينفى فيه الصادق علم الغيب عن الائمة يقابلنا حديث آخر يقرر فيه الصادق نفسه « ان الامام اذا اراد ان يعلم علم » [١٥٦] ويذكر « ان سـليمان ورث داود وان محمدا ورث سليمان وانا ورثنا محمدا . وان عندنا علم التـوراة والانجيل والزبور وتبيان مافى الالواح» [١٥٧] وهذا الذى ذكرناه يعود بنا الى وحدة العلم لدى الانبياء كما وجدنا عندهم وحدة من نور النبوة الالهى وهذا يدفعنا دفعا الى عقد صلة بين هذه الافكار السابقة كلها ومبادىء المتصوفة فى كل خصيصة من خصائص الشيعة غلاة ومعتدلين . ثم يسأل الصـادق سائل عن حدود العلم وهل هو العلم الذى ذكره ممتدا من التوراة والـكتب السماوية السابقة الى القرآن ومعرفة اسرارها كلها فاجاب الصادق : « ليس هذا هو العلم ، ان العلم الذى يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة» [١٥٨] . وذلك يستتبع العناية والتوفيق الالهيين وان لدى الامام استعدادا وموهبة لتلقى ذلك العلم ونفع الناس به فى حياتهم . وقد رأينا أسرار العلم وخطر البوح بها

---

(١٥٣) اصول الكافى ٥٧ .

(١٥٤) المصدر نفسه ٥٤ .

(١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦) المصدر نفسه ٥٤ .

(١٥٧ ، ١٥٨) المصدر نفسه ٥٢ .

كما هى لما قد يحدث من اعراض بعض الناس عن التصديق بها ولذلك روى عن الصادق عن الرسول انه (ص) قال : « انا معاشر الانبياء نكلم الناس على قدر عقولهم» [١٥٩] وتلك مقالة اخرى دخلت التصوف من التشيع مما رأيناه من أقوال الحلاج الذى دفع حياته ثمنا لبوحه باسرار ما كان له ان يبوح بها ، وكان ذلك نفسه دافعا الصادق الى الاجابة على سؤال رجل واحد اجابتين مختلفتين بحسب عقلية السائل مرة ومحافظة على التقية مرة اخرى كما حدث لعمر بن الرياح الذى انكر امامة الصادق لانه اجاب على سؤال واحد اجابتين متخالفتين [١٦٠] ، وكان الصادق يقول « وددت والله انى افتديت خصلتين فى الشيعة لنا ببعض لحم ساعدى : النزق وقلة الكتمان» [١٦١] ، ولعل هذا الخبر يفسر السبب فى اختلاف اجابات الصادق . والظاهر من هذه الكلمات ان التشيع قد دخل فى الطور السرى خوف السلطان وخشية ان يقرن بالثورة ، فآثر الصادق ان يحصر تعاليمه فى اضيق الحدود ، وكان مقامه العلمى فى العالم الاسلامى يسبب له ان يروى عنه ماقال ومالم يقل ولاسيما من شيعته ولهذا وجدناه يقول : « ليس من احتمال امرنا التصديق له والقبول فقط . من احتمال امرنا ستره وصيانته من غير اهله ...» [١٦٢] وذلك يفيد انه قد صار على الائمة ان يكافحوا فى جبهتين ـ كما فعل ابن الحنفية من قبل ـ عليهم اولا ان يبصروا الناس بحقيقة الاسلام وثانيا ان يكبحوا جماح انصارهم ويرقبوا روايتهم الاحاديث الكثيرة عنهم مستغلين بذلك قربهم منهم وثقة الائمة بهم . وكانت سياسة الصادق للغلاة هى نفس سياسة ابن الحنفية ـ وهى مصداق هذا الذى رأيناه ـ فقد قال الصادق : « لاتقاعدوهم ولا تؤاكلوهم ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ولا تناكحوهم ولاتوارثوهم» [١٦٣]

---

(١٥٩) اصول الكافى ٥٢ .
(١٦٠) فرق الشيعة ٦٠
(١٦١ ، ١٦٢) اصول الكافى ٢٠٦ .
(١٦٣) معرفة أخبار الرجال ١٩١ .

ويبدو ان الصادق – بحكم علمه الغزير وانقطاع كثير من الناس اليه ونسبه العلوى – قد اضيف اليه علم كل ما كان فى عصره من معرفة • وليس ذلك غريبا فقد رأينا العلوم الاسلامية كلها تضاف الى جده على بن ابى طالب ، ولهذا فقد اضيف الى الصادق فيما اضيف كلام فى الكيمياء والزجر والفأل واضافوا اليه كتاب الجفر الذى يخبرنا ابن خلدون ان « هارون بن سعيد العجلى – وهو رأس الزيدية – كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص : وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الاولياء ، وكان مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير ، فرواه عنه هارون بن سعيد العجلى وكتبه وسماه باسم الجلد الذى كتب فيه »[١٦٤] ومع هذا فان ابن قتيبة يروى ان هارون هذا قد تبرأ من الجفر ومن تجفر[١٦٥] • وقد دخلت هذه الكتب السرية فى التصوف وقد نقل لنا الاستاذ سعد محمد حسن انه « كان تناول هذه الكتب وشرحها موضع اهتمام المشتغلين بالسحر والطلاسم • وكثيرا ما اسهم الصوفى الكبير محيى الدين بن عربى وحجة الاسلام الغزالى بنصيب كبير فى الاشتغال بهذه الكتب»[١٦٦] •

وقد نشر بول كراوس مجموعة من رسائل جابر بن حيان نجد فيها تعاليم جعفر الصادق فى الكيمياء تختلط فيها الفلسفة اليونانية بالاسرار والغنوص وتبدو عليها مسحة متأخرة • ففى كتاب اخراج مافى القوة الى الفعل يقرر الصادق ان معنى الطلسم مقلوبة (اى مسلط) « من جهة الغلبة والتسليط»[١٦٧] والواقع ان الكلمة يونانية معربة[١٦٨] من (Talisma)

---

(١٦٤) مقدمة ابن خلدون ٣٣٤ •
(١٦٥) عيون الاخبار ٢/١٤٥ •
(١٦٦) المهدية فى الاسلام ٨٣ •
(١٦٧) مختار رسائل جابر بن حيان ٧٨ •
(١٦٨) انظر شفاء الغليل لاحمد الخفاجى «مصر ١٣٢٥» ، ١٣٢ •

ويروى جابر « فخررت ساجدا فقال : لو كان سجودك لى ـ وحدك ـ لكنت من الفائزين • قد سجد لى آباؤك الاولون وسجودك لى يا جابر سجودك لنفسك ...»[١٦٩] • ونجد فى موضع آخر تعرضا للحدود وذكرا للهيولى والمادة ونجد حد العلم النورانى : انه العلم بحقيقة النور الفائض على الكل ، وحد العلم الظلمانى : انه العلم بالضد للنور وكيفية مضادته له ولميته (من أداة الاستفهام لم) وانما لم نذكر الهلية والمائية (من : هل و ما) فى هذا العلم لان العلم باحد الضدين علم بالاخر فى الجملة ... وحد العلم الباطن انه العلم بعلل السنن واغراضها الخاصة اللائقة بالعقول الالهية»[١٧٠]

وتعرض الرسائل للاكسير وتعرف العلم به بانه « العلم بالشىء المدبر الصابغ القالب لاعيان الجواهر الذائبة الخسيسة الى اعيان الجواهر الذائبة الشريفة •• وحد العلم بالحجر الذى هو المادة للاكسير : هو العلم بالذات التى تحتاج الى تبديل اعراضها لتصير اكسيرا ...»[١٧١] ، وتبدو الكيمياء هنا نوعا من السلوك المادى ينصب على العناصر كما ينصب السلوك الانسانى على الانسان حتى يجعل منه مخلوقا ساميا شريفا • ويذكر جابر بن حيان فى موضع آخر : « ان جميع ما يمر بك فى هذه الكتب مما ذكرناه لسيدنا (ع) فيه اغراض لايمكن كشفها لك • ولو كشفت لك ما هو فيها حتى تكون مثل جابر بن حيان ، فاذا كنت مثله لم تحتج الى ان يكشف لك عنها كما لم يحتج هو الى ذلك»[١٧٢] • وهكذا تبدو هذه الرسائل على صورة محاورات

---

(١٦٩) مختار ٧٨ •

(١٧٠) المصدر نفسه ١٠٤ •

وينبغى ان ننبه هنا الى ان ابا يعقوب السجستانى ، من اسماعيلية القرن الرابع ، يروى ان «الحكماء يرون ان معرفة الاشياء تتم باربع أدوات : هل وما وكيف و لم » (كشف المحجوب للسجستانى ، طهران ١٩٤٩) •

(١٧١) مختار ١٠٦ـ١٠٧ •

(١٧٢) المصدر نفسه ١١٦ •

افلاطون التى يرويها عن استاذه سقراط . وقد كان هذا العلم الكيمياوى من الاسرار ايضا ، وقد قال فيه الصادق : « والله يا جابر ، لولا انى اعلم ان هذا العلم لايأخذه الا من يستأهله ، واعلم علما يقينا انه مثلك لامرتك بابطال هذا الكتاب من العالم »[١٧٣] .

ويصطبغ ميل جابر بن حيان بالصبغة الاسماعيلية المتأخرة التى تنحو منحى غنوصيا حين يعرض للاشخاص الذين يكونون سلم علم الباطن وهم خمسة وخمسون اولهم النبى ثم الامام فالحجاب فالبسيط فالسابق فالتالى فالاساس ... وهكذا حتى تنتهى السلسلة بالناسك فالحياة فالناهى فذى الامر الذى اذا ظهر فلابد له منهم ، اذ كان كل واحد منهم مندوبا لامر لايخالطه فيه غيره»[١٧٤]، وتتأكد اسماعيلية جابر فى المقالة السابعة والثلاثين التى يذكر فيها « اذا استقامت الامامة والا فنبوة جديدة والقوم قد نصبوا لكل دور ستة اشخاص»[١٧٥] وتفاصيل الاسماعيلية سترد فى فصل مستقل . ويجب ان نذكر بان جابر بن حيان يجمع بين الغلاة والصوفية ـ فى رسائله المزعومة ـ فى الاعتقاد بان الشخص الواحد يجمع الظاهر والباطن وينص على ان ذلك هو المفوض عند الغلاة والصوفية»[١٧٦] ومهما يكن من أمر صحة نسبة هذه الرسائل الى جابر بن حيان فان فيليب حتى يذكر « ان البحث العلمى الحديث قد انكرها »[١٧٧] ، ولكن ما يعنينا من ذلك ان جابر بن حيان الذى كان يسمى صوفيا وان ابا هاشم الكوفى الذى يسميه صاحب طرائق الحقائق مخترع الصوفية كان معاصرا لجابر وكان كلاهما معاصرا للامام الصادق[١٧٨]

---

(١٧٣) مختار رسائل جابر بن حيان ٣١١ .
(١٧٤) المصدر نفسه ٤٨٩ .
(١٧٥) المصدر نفسه ٤٩٣ .
(١٧٦) المصدر نفسه ٤٩٩ .
(١٧٧) تاريخ العرب ٢/٣٢٥ .
(١٧٨) طرائق الحقائق ١/١٠١

والملاحظ ان الكيمياء قد اقترنت بالتصوف عند اول ظهوره وكان الصادق استاذ اول رجل اطلق عليه هذا الاسم • والظاهر ان الكيمياء اليونانية التى تعتمد على الاكسير وتطمح الى تحويل المعادن الخسيسة الى شريفة هى الجسر المادى الذى استعان به الزهاد لتحويل النفس الارضية الى نفس سماوية ثم انفصل • ويجب ان نذكر ان ذا النون المصرى الذى يقرن اسمه دائما باسم جابر بن حيان « كان منتحلا لصناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم الفلسفة» (١٧٩) ويورد ابو نعيم اهتمام ذى النون بالعقل كما اهتم جابر تلميذ الصادق بالعقل ايضا ، ويلاحظ نيكلسون ان « الكيمياء والسحر قد اتصلا منذ عهد بعيد بصلات وثيقة بعلم الطلسمات والثوسيوفيا» (١٨٠) وقد كان خالد بن يزيد بن معاوية ـ وكنيته ابو هاشم ـ اول من اهتم بالكيمياء كما يخبرنا بذلك الطبرى» (١٨١) فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر وطلب اليهم ان ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية» (١٨٢) ، ويرى الدكتور حسن ابراهيم حسن ان اولئك اليونانيين « لعلهم ترجموا لنا شيئا لم يصلنا خبره» (١٨٣) •

وينسب اليه ابن النديم كتاب « قصيدة خالد بن يزيد فى الاحداث والملوك» (١٨٤) مما يدخل فى هذه العلوم السرية التى راجت فيما بعد رواجا كبيرا ولم يكن العرب فى القرن الاول يعرفونها اللهم الا اذا اعتبرنا علم ابى هاشم السرى وتنبوءاته بالحوادث • والصلة واضحة ـ على كل حال ـ

---

(١٧٩) اخبار الحكماء ١٢٧ •
(١٨٠) فى الفلسفة الاسلامية ١١ •
(١٨١) الطبرى ١٦/٧ •
(١٨٢) تاريخ الاسلام السياسى ٥٥٢/١ •
(١٨٣) المصدر نفسه ٥٥٣/١ •
(١٨٤) الفهرست ، ليبزج ١٠٤ •

بين هذا التبحر في الكيمياء وبين زهد خالد في الامارة وانصرافه الى العلم والعمل وتلك سابقة قد تكون مقدمة اشتغال الصادق او طلابه ـ على الاقل ـ بهذه العلوم ايضا ، واتصال هذه البداية بالامام الصادق جائزة ان صدقا او انتحالا وذلك يدل على وجود صلة على كل حال • ولعله قد بدأ الاشتغال بالكيمياء لدى نزوله الكوفة التي عرفت بالاهتمام بالسحر منذ القديم ولعلنا نعلم انها قد بنيت بالقرب من بابل المشهورة بهذه العلوم ولعل الامير خالدا هو ابو هاشم الصوفي الذي لقب بالكوفي نتيجة لاتصال هذه العلوم بهذا المصر منذ القديم • والرأي عندنا ـ بالنسبة الى الامام الصادق ـ ان ملاك الامر يكمن في ربط العلوم به ، وقد قال فيه اتباعه من الناووسية انه « كان عالما بجميع معالم الدين في العقليات والشرعيات»[١٨٥] واعتبروه شبه استاذ روحي للجيل كله كما كان جده علي بن ابي طالب أبا للعلوم كلها • ويستتبع انقطاع رجل كالصادق للعلم ان يكون زاهدا ، وقد كان الامام كذلك فعلا ، بل ان الكليني يجعله بكاء من طراز جده علي بن الحسين زين العابدين • ويجعل الصادق للبكاء صفة معنوية سامية فانه يقول : « ما من شيء الا وله كيل ووزن الا الدموع ، فان القطرة تطفيء بحارا من النار فاذا اغرورقت العين بمائها لم يرهق وجهها قتر ولا ذلة ، فاذا فاضت حرمه الله على النار ولو ان باكيا بكى في امة لرحموا»[١٨٦] • وكان الصوف قد صار لباسا رسميا للزهاد ايام الصادق وقد عجب سفيان الثوري ـ الذي روى عن الصادق كثيرا من الاخبار الزهدية ـ كيف يلبس الصادق الخز ولا يلبس الصوف فقال له : «يا ابن رسول الله ، ليس هذا من لباسك ولباس آبائك» ، فاتضح له ان الصادق كان يلبس الصوف لصق جسده لئلا يحمل الناس ذلك عليه محمل التظاهر والشهرة[١٨٧] ويصطبغ زهد الصادق بصبغة علمه واتصاله بالنبوات السابقة ، فانه كان

---

(١٨٥) اصول الكافي ٢٤٨ •
(١٨٦) مختصر الفرق بين الفرق ٥٧ •
(١٨٧) حلية الاولياء ٣/١٩٣ •

يدعو بدعاء الياس النبى فى سجوده ويقول : « اتراك معذبى وقد اظمأت لك هواجرى ؟ اتراك معذبى وقد عفرت لك فى التراب وجهى؟ اتراك معذبى وقد اجتنبت لك المعاصى ؟ اتراك معذبى وقد اسهرت لك ليلى ؟ قال : فاوحى اليه الله : ان ارفع رأسك فانى غير معذبك»(١٨٨) ، ويروى له اليعقوبى نصا ناجى به الله موسى : « يا موسى لاتنسنى على حال ولا تفرح بكثرة المال ، فان نسيانى يميت القلب ، وعند كثرة المال تكثر الذنوب . يا موسى كل زمان يأتى بالشدة بعد الشدة وبالرخاء بعد الرخاء والملك بعد الملك ، وملكى قائم لايزول »(١٨٩) ، وكان الصادق يقول : « كان فى وصية لقمان الاعاجيب ، وكان اعجب ما فيها انه قال لابنه : خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، ورج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك»(١٩٠) .

وكان الصادق كجده على بن الحسين فى فتوته بقوله : « لايتم المعروف الا بثلاث : تعجيله وتصغيره وستره (١٩١) ، وذلك امر صادر عن الرضى الذى اورد لنا الكلينى نصا صريحا فيه وذلك ان الصادق سئل : « باى شىء يعلم المؤمن بأنه مؤمن ؟ قال : بالتسليم له والرضى فيما ورد عليه من سرور او سخط» (١٩٢) ، ويضيف اليه العطار ماكان يتصف به الزهاد من خوف من الآخرة ويروى عنه « انه كان يوما جالسا مع مواليه فقال : تعالوا نتعاهد على ان يشفع من يكون له قدم صدق يوم القيامة لبقية المتعاهدين . فقالوا : يا ابن رسول الله ، ما حاجتك الى شفاعتنا وجدك شفيع جملة الخلائق؟ فقال الصادق : انى لاخجل من افعالى الى حد اننى استحى من مواجهة جدى

---

(١٨٨) اصول الكافى ١٧٠ .
(١٨٩) اليعقوبى ٤/١١٦ .
(١٩٠) اصول الكافى ١٧٠ .
(١٩١) اخبار الدول ١١٢
(١٩٢) اصول الكافى ١٦٩ .

يوم القيامة »[١٩٣] . ويفلسف لنا سفيان الثورى الزهد فى روايته عن جعفر الصادق ويبين جوهره فى ذلك العصر الذى اتصف بالاضطراب والقلق وقال : « سمعت جعفر بن محمد الصادق يقول : عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها . فان تكن فى شىء فيوشك ان تكون فى الخمول . وان طلبت فى الخمول ولم توجد فيوشك ان تكون فى التخلى ، وليس كالخمول . فان طلبت فى التخلى ولم توجد فيوشك ان تكون فى الصمت وليس كالتخلى . فان طلبت فى الصمت ولم توجد فيوشك ان تكون فى كلام السلف الصالح ، والسعيد من وجد نفسه فى خلوة يشتغل بها»[١٩٤] . وهكذا يضع الصادق اسس المقامات والاحوال ويعلل لنا سر الزهد الذى تطور الى التصوف ويعزز كل ذلك بالنتيجة : « من خاف الله اخاف الله منه كل شىء ، ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شىء »[١٩٥] ، وهذا هو جوهر التوكل فى عصر مضطرب لا يأمن الانسان فيه على نفسه من الغوائل والدسائس . وقال : « من أعطى ثلاثا لم يمنع ثلاثا : من اعطى الدعاء اعطى الاجابة ، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية »[١٩٦] ، وقال ـ وكأنه يؤسس للصوفية عقائدهم ـ : « اذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله وكان عند اهل الدنيا كانه خولط ، وانما خالط القوم حلاوة حب الله فلم يشتغلوا بغيره»[١٩٧] ، ولهذا فان القشيرى يروى عنه انه سئل : «ما بالنا ندعو الله فلا يستجاب لنا ؟ فقال : لانكم تدعون من لاتعرفونه»[١٩٨] ، وسيقول ابراهيم بن ادهم قياسا على هذه المقالة وجوابا على السؤال نفسه :

---

(١٩٣) تذكرة الاولياء ٩/١ (ترجمة) .
(١٩٤) صفة الصفوة ٩٦/٢ .
(١٩٥) اصول الكافى ١٧٠ .
(١٩٦) المصدر نفسه ١٦٨ .
(١٩٧) روضات الجنات ٢٣٢ .
(١٩٨) الرسالة القشيرية ١٥٦ .

«لانكم تعرفون الله ولا تطيعونه ...»[١٩٩] ، ويورد ابو طالب المكى نصا يفهم منه ان الصادق قد بلغ مقاما عاليا فى التصوف على صورته الناضجة المتأخرة وهو يرتبط بالنص الذى ذكرناه : فقد قال الصادق : « والله لقد تجلى الله ـ عز وجل ـ لخلقه فى كلامه ولكن لايبصرون » ، وقال ايضا ـ وقد لحقه شىء فى الصلاة حتى خر مغشيا عليه ... ـ : « ما زلت اردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعانى قدرته تعالى»[٢٠٠] ، ويضيف ابو طالب الى هذا النص تعليقا منه : ان الخصوص كذلك . وهذه بداية للذكر الذى صار بعدئذ مجلبة للوجد وسبيلا الى المحو وواسطة للاتحاد صدرت عن الصادق ـ اذا صدقت هذه الروايات ـ ومرد كل ذلك الى علمه وفضله وصدقه وارادة كل ذوى طريقة من العلم ان يصلوه بهم ليكون رئيسا لمدرستهم يفخرون به ويسعدهم ان يصدروا عنه ويتصلوا به .

وقد جعل السلمى اكبر مفسرى المتصوفة لجعفر الصادق مقاما محمودا فى التأويل الباطن بحيث اعتمد عليه اعتمادا كليا ولكنه لم يورد من تأويلاته ما يفهم منه انه امام للشيعة وانما انصبت تأويلاته على اظهاره بمظهر صوفى كامل ليس له شأن بمشرب آخر ، ومن ذلك ان الصادق يفسر آية : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا بقوله «لو اطلعت عليهم ـ من حيث انت ـ لوليت منهم فرارا ، ولو اطلعت عليهم ـ من حيث الحق ـ لشاهدت فيهم معانى الوحدانية والربانية»[٢٠١] ، ويفسر الصادق ذلك بقوله: « أى يا سيد ـ مخاطبا لنبيه عليه السلام ـ بقوله (ص) : انا سيد ولد آدم ولا فخر ، ولم يمدح بذلك نفسه ولكنه اخبر عن معنى مخاطبة الحق اياه

(١٩٩) تذكرة الاولياء ١/٨٦ «ترجمة» .
(٢٠٠) قوت القلوب ١/٧٢ .
(٢٠١) حقائق التفسير ٣٢٥ ، الكهف ١٨ .

بقوله تعالى : يس»[٢٠٢] ، ويفسر : والنجم اذا هوى ، بان النجم « هو محمد (صلعم) اذا هوى انشرح منه الانوار اذا انقطع عن جميع ما سوى الله تعالى»[٢٠٣] ويفسر : ماضل صاحبكم وما غوى ، بقوله : ماضل عن قربه ويفسر الكوثر بانه « نور قلبك دلك على وقطعك عما سوانا»[٢٠٤] وقد ذكر السلمى فى المقدمة انه يعتمد فى التأويل على اقوال لجعفر الصادق وآيات متفرقة نسب تأويلها الى ابى العباس بن عطاء[٢٠٥] وهو فى تأويله يستند الى منهج جعفر الصادق القائل بان «كتاب الله على اربعة اشياء : العبادة والاشارة واللطائف والحقائق : فالاشارة للخواص والعبادة للعوام واللطائف للاولياء والحقائق للانبياء » وذلك مؤسس على قول على ابن ابى طالب : مامن آية الا ولها اربعة معان : ظاهر وباطن وحد ومطلع ، فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد هو احكام الحلال والحرام والمطلع هو مراد الله تعالى من العبد بها »[٢٠٦] ، وهكذا تتبين صلة مهمة جدا بين التشيع والتصوف فى التأويل • وقد كان من مقام جعفر الصادق ومنزلته فى الزهد والتصوف ان مؤلفى كتب التصوف يروون عنه ويعقدون ـ فى صفحات كتبهم ـ الندوات ويجمعون الامام بالزهاد المعاصرين له لو لم يلقهم ، فاننا نجد كثيرا جدا من الاخبار الصادرة عن الصادق يرويها عنه سفيان الثورى ثم اننا نجد داود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ / ٧٨١-٢ يطلب المشورة من الصادق لان قلبه قد اسود ، فعجب الصادق كيف يطلب داود المشورة وهو زاهد زمانه فقال داود : « يا ابن رسول الله انكم افضل الخلق ، والمشورة منكم واجبة • فأجابه الصادق : انى اخاف ان يأخذ جدى بيدى يوم القيامة ويقول : لم لم تتبعنى حق الاتباع • فلا ينسب هذا القول الى الصحة والشرف وانما يعود الى عناية

---

(٢٠٢) حقائق التفسير ٥٣٥ •
(٢٠٣) المصدر نفسه ٦٣٧ •
(٢٠٤) المصدر نفسه ٧٤٧ •
(٢٠٥) المصدر نفسه ١ •
(٢٠٦) حقائق التفسير ٥ •

الله ، فبكى داود وقال : الهى اذا كان من عجنت طينته بماء النبوة وركبت طبيعته من اصل حجة جده الرسول وبرهانه وامه البتول فى هذه الحيرة فما داود حتى يعجب بمعاملته»[٢٠٧] ويروى القشيرى مناقشة بين الصادق وشقيق البلخى المتوفى سنة ١٩٤ فقد كان شقيق يرى الفتوة فى قوله : « ان اعطينا شكرنا وان منعنا صبرنا فقال جعفر الصادق : الكلاب عندنا فى المدينة كذلك تفعل • فقال شقيق : يا ابن بنت رسول الله ، ما الفتوة عندكم ؟ قال : ان اعطينا آثرنا وان منعنا شكرنا»[٢٠٨] ، مع ان العطار يورد هذه المحاورة بين ابراهيم بن ادهم وشقيق [٢٠٩] ، ولكن ايراد مناقشة الصادق له دلالته الكبيرة ايضا فهل التقى شقيق بالامام حقا وقد سبقه الى الموت بستة واربعين عاما ؟ •

ويجب – فى نهاية حديثنا عن الصادق ان نتطرق الى فكرة الصوفية عنه : هل كانوا يتصلون به ويأخذون عنه باعتباره واحدا منهم ام باعتباره اماما شيعيا له مقامه فى التشيع ؟ لقد مر بنا ان السلمى فى اقتباسه من تأويلات الصادق اظهره فى مظهر زاهد ليس له بغير الزهد صلة فهل كان ذلك مجرد تظاهر ام ان للصوفية فيه نظرة اخرى ؟ الواقع ان فريد الدين العطار قد صرح بهذه النظرة فى عرضه للامام الصادق فى تذكرة الاولياء واوضح مقامه ، ويحسن بنا ان نترجم صفحة مما كتبه فيه ليتبين ما نقول •

قال فريد الدين العطار : « ذلك سلطان الملة المصطفوية ، ذلك برهان الحجة النبوية ، ذلك العامل الصديق ، ذلك عالم التحقيق ، ذلك فاكهة قلوب الانبياء ، ذلك قلب سيد الرسل ، ذلك الناقد العلى ، ذلك وارث النبى ، ذلك العارف العاشق : جعفر الصادق رضى الله عنه • وقد قلنا : اننا – اذا

---

(٢٠٧) تذكرة الاولياء ١٢/١ (ترجمة) •
(٢٠٨) الرسالة القشيرية ١٣٦ •
(٢٠٩) تذكرة الاولياء ١٦٧/١ •

تطرقنا الى ذكر الانبياء والصحابة واهل البيت – ينبغى ان نصنف كتابا خاصا بهم • اما هذا الكتاب فشرح لحال الاولياء الذين جاؤا من بعدهم • والسبب فى تبركنا بالبدء بالصادق انه كان بعد هؤلاء وكان من أهل البيت • ولان التعبير عن طريقته كان اوفر والرواية عنه اكثر فسنورد له بعضا من اقواله فان اهل البيت كلهم شىء واحد اذا جاء ذكر احدهم فكأنما جاء ذكرهم جميعا : الا ترى ان من يذهب مذهبه فقد ذهب مذهب الاثنى عشرية اى الواحد اثنا عشر والاثنا عشر واحد ولكنى اخشى ان اصفه بلسانى وعبارتى خوف العجز • لقد كان فى جملة العلوم والاشارات كاملا فى غير تكلف ، وكان قدوة لجميع المشايخ ، وكان موضع اعتماد الكل • كان شيخ الآلهيين وامام المحمديين • كان مقدم اهل الذوق ودليل اهل العشق كان مقدم العباد ومكرم الزهاد • كان منقطع القرين فى مصنفات الحقائق ولطائف التفسير واسرار التنزيل ، وقد نقل عن الباقر اقوالا كثيرة • وانى لاعجب من قوم ذوى اوهام من اهل السنة والجماعة يتساءلون عن حقيقة طريقة اهل البيت ، فان عليهم ان يرجعوا الى الحق ولست اعرف احدا من أهل الباطل الا فى خيال باطل • والذى اعرفه ان من يؤمن بمحمد ولا يؤمن بأبنائه فما آمن بمحمد وقد كان الشافعى يحب اهل البيت حبا نسب معه الى الرفض وحبس من أجله ، وقد قال فى هذا المعنى شعرا :

لو كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان انى رافضى (٢١٠)

اما بعد فهذا هو الصادق فى شخصه وعلمه وزهده ومقامه ، وقد كان عظيما الى حد انه استطاع ان يجمع الشيعة حوله ويوحد صفوفهم فى العلم والمعرفة والعقيدة دون ان يعرضهم للاضطهاد والتشريد والقتل ، وقد بدت عظمته ناصعة بعد ان انتقل الى جوار ربه حين تشقق التشيع وتفرع وتفتت وسنرى ذلك فى الفصول الاتية •

---

(٢١٠) المصدر نفسه ١/١ «ترجمة» •

الفصل الخامس

تشعب التشيع التقليدي واستقراره

الاسماعيلية

ظهرت الاسماعيلية بعد وفاة الصادق وكانت حركة مفاجئة مستمدة من الافكار الغالية التى عاصرته وسبقته ، وقد انشق الشيعة المعتدلون - بذلك - الى طائفتين : احداهما هذه الاسماعيلية والاخرى الفرقة الرئيسة التى استمرت فى طريقها تملؤها اختلافات حول شخص الامام ولا تنصرف الى طبيعة العقيدة . ولذا حق لنا ان نبحث الاسماعيلية قبل الخوض فى تطور التشيع المعتدل . لقد اصاب الاسماعيلية تعقيد وخلط لكثرة تناول الباحثين لها بالدرس والتقصى دون روية وانعام نظر . ولم يحاول احد منهم ان يتناول الاسماعيلية من جذورها وانما يهجم الباحث منهم على البحث هجوما ويقرن الاسماعيلية بالباطنية مباشرة ثم ينتقل الى الخرمية والقرامطة ابتسارا . وعلينا ان نعرض لهذه الطائفة على المنهج الذى اتبعناه فى بحثنا للفرق الشيعية الاخرى بحيث نتتبعها من اولها ونغوص معها الى الاعماق .

وهيكل الاسماعيلية المذهبى البسيط يقوم على فكرة الامامة بالنص ، وقد كان اسماعيل اكبر اولاد جعفر الصادق(ع) وكان ابوه «يحبه حبا شديدا»[1] وكان معدا لتولى الامامة بعد ابيه بنص منه و «بأتفاق من اولاده» [2] ، ولكن الموت عاجل اسماعيل سنة ١٣٣/٧٥٠-٥١ فى حياة ابيه . ويبدو انه كان يتميز

(١) روضات الجنات ٢٨ .
(٢) الملل والنحل ١/٢٧٨ .

بصفات وعلم ويتميز ايضا بان امه عربية كما كانت ام ابيه كذلك . ويبدو ان قوما من الشيعة كانوا يلتفون حوله فى حياته ويمنون النفس بالاتصال به والاخذ عنه بعد ابيه ، ولم يتحمل انصاره هذه الصدمة فأبوا ان يصدقوا انه مات استنادا الى ترشيح ابيه المعصوم له ، فجعلوه مهديا منتظرا كعادة الشيعة اذا مات عنهم امام لايريدون الاعتراف بمن بعده ، وتلك هى الاسماعيلية الخالصة [٣] ، والظاهر ان انصاره اولئك كانوا من اهل المدينة .

وكان لاسماعيل مولى يسمى المبارك كوفى وهو الذى بدأ فى تثبيت الاسماعيلية بعد ان انصرف الناس بعد جعفر الصادق الى ابنه الاكبر عبدالله الذى توفى بعد سبعين يوما من وفاة ابيه فاجتمع الشيعة على امامة موسى : اخيه الاخر . وقد زعم المبارك واتباعه « ان النص لايرجع القهقرى ، والفائدة فى النص بقاء الامامة فى اولاد المنصوص عليه دون غيره ، فالامام بعد اسماعيل محمد بن اسماعيل» [٤] (توفى سنة ١٩٨) ، و « المباركية يديرون الامامة فى ولد محمد بن اسماعيل كدعوى الباطنية فيه» [٥] وكان لمحمد جماعة ثبتت على امامته ولم تصرفها الى احد غيره بعد موته فقالوا برجعته وغيبته . وباضافة الامامة الى محمد بن اسماعيل بدأت الاسماعيلية الباطنية ، وليست هذه التسمية الا اصطلاحا جديدا وهى – فى الواقع – تنطبق على فرق الغلاة الذين شتتهم المنصور اولا ثم المهدى بعده ، فانصب انصار ابى الخطاب واتباعه فى هذه الفرقة الجديدة التى دبت فيها الحياة فقالت فرقة منهم : « ان روح جعفر بن محمد حلت فى ابى الخطاب ثم تحولت بعد غيبة ابى الخطاب فى محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ثم ساقوا الامامة فى ولد محمد بن

---

(٣) فرق الشيعة ٦٨ .
(٤) الملل والنحل ١/٢٧٨ .
(٥) مختصر الفرق بين الفرق ٥٩ .

اسماعيل» [٦] ويذكر النوبختي ايضا انه « خرج من قال بمقالته (يعني ابا الخطاب) من أهل الكوفة وغيرهم الى محمد بن اسماعيل بن جعفر» [٧] فظهرت الان فرقة مستقلة عن الزيدية الذين صار لهم مجالهم وتقاليـــدهم ومستقلة عن الامامية الذين التفوا حول موسى بن جعفر الصادق ، فالتزم احياء هـذا الاتجاه الجديد الصادر عن الحركات الغالية جماعة جدد من الموالى الذين انضجوا هذه العقيدة الجديدة التى تمتد جذورهـا الى فـكرة ابى منصور العجلى القائل : « كان على بن ابى طالب نبيا ورسولا وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على ... وانا نبى» [٨] فهؤلاء ستة ، ومحمد(ص) اولهم ، فجملتهم سبعة . وكان ابو منصور الى ذلك يقول : « يتولى سبعة انبياء من قريش وسبعة من بنى عجل» [٩] فهو اول من جعل النبوات سلاسل لها عدد ثابت كما فعل الاسماعيليون بعدئذ فى الامامة فجعلوها سلاسل سباعيـة بعضها ظاهر والاخر مستور . بل ان فكرة العدد (٧) تمتد الى المغـيرة الذى « خرج داعيا الى عقيدته فى سبعة نفر وكانوا يدعون بالوصفـاء» [١٠] ويرى ماسينيون ان ابا الخطاب عدّ أبا روحيا لاسماعيل بن جعفر لكونه لقب ابا اسماعيل كما لقب سلمان ابن الاسلام على اعتبار انه « قد انكر الخطابية ان يكون آل محمد قد قدر لهم قدرا سابقا ان يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله (نسل محمد ص) وقال : ان الاختيار الالهى بالتبنى الروحى هو وحده المعتبر» [١١] . والخبر الذى يستند اليه ماسينيون هو ما يورده الكشى عن ابى الخطاب انه كان يعتبر اتباعه انبياء [١٢] . وقد وصف اسماعيل باتباع رأى ابى الخطاب عن طريق

---

(٦) فرق الشيعة ٧١ .
(٧) فرق المصدر نفسه ٦٩ .
(٨) المصدر نفسه ٣٨ .
(٩) البلدان للهمدانى ١٨٥ (ليدن) .
(١٠) الطبرى ٨/٢٤١ .
(١١) شخصيات قلقة فى الاسلام ١٩ .
(١٢) معرفة أخبار الرجال ٢٠٨ .

المفضل بن عمر الجعفي[١٣] . وقد قتل ابو الخطاب سنة ١٣٨ حين اظهر عقيدته وتوفى اسماعيل سنة ١٣٣ ، فالصلة مستبعدة وان كانت قابلة للبحث والتدقيق . وذلك يبين على الاقل الاثر الذى خلفه ابو الخطاب فى الشيعة عموما واتصال الاسماعيلية بهم ووراثة عقائدهم . اما تحول الامامة الى نبوة فقد كان اسبق الى الظهور على لسان ابى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذى كان يقول : « لم يمض مائة عام من نبوة قط الا انتهت امورها »[١٤] ، وبهذا يتضح التسلسل الذى نفتقده فى ابحاث الباحثين فى الاسماعيلية ، وتبرز - بذلك - العلاقة بين الكيسانية الاولى التى كانت اساسا لفرق الغلاة - كما رأينا - وبين الاسماعيلية وذلك ان الغلو الذى اخذ عن الكيسانية اصوله قد انصب فى الاسماعيلية واورثها اسسه فقال الاسماعيليون : « ان محمد بن اسماعيل لم يمت ، وانه فى بلاد الروم ، وانه القائم المهدى . ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد»[١٥] وبدأت فكرة السباعات من اولى العزم ، و « اولو العزم عندهم سبعة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلى ومحمد بن اسماعيل ، على معنى ان السموات سبع وان الارضين سبع وان الانسان سبع : بدنه ويداه ورجلاه وظهره وبطنه وقلبه ، وان رأسه سبع : عيناه واذناه ومنخراه وفمه وفيه لسانه كصدره الذى فيه قلبه ، وان الائمة كذلك وقلبهم محمد بن اسماعيل»[١٦] ويضيف المقريزى الى ذلك ان «الائمة سبعة قد رتبهم البارى تعالى كما رتب الامور الجليلة ، فانه جعل الكواكب السيارة سبعة وجعل السموات سبعا وجعل الارضين سبعا ونحو ذلك مما هو سبع من الموجودات ...»[١٧] ، وهكذا

---

(١٣) المصدر نفسه ٢٠٦ ، ويذكر ابو **الحسن الاشعرى ان المفضل المذكور** كان يقول بامامة موسى بن جعفر ، مقالات الاسلاميين ١/٢٩ .

(١٤) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٠ .

(١٥ ، ١٦) فرق الشيعة ٧٢ .

(١٧) خطط المقريزى ٢/٢٢٩ .

دخلنا فى بحر الباطنيات التى تتصل بالتطابق بين العالم المادى الذى خلقه الله وبين العالم الروحى الذى رتبه الله ايضا متناسقا مع النظام الذى ينعكس من الخلق المادى .

بعد ان تبينا الصلة بين مذاهب الغلاة والاسماعيلية وظهر لنا التدرج فى العقيدة الشيعية حتى بلغت اوجها فى الاعتماد على الباطن عند الاسماعيلية ندخل فى هذا المذهب لنرى كيف بدأ وتطور ومدى اتصال التصوف به . وقبل ذلك كله يجب ان نقرر انه حتى الاسماعيلية الباطنية تعتمد على مهدية محمد بن اسماعيل كما يروى المقريزى الذى يقرر ان « الائمة السبعة هم : على بن ابى طالب والحسن بن على والحسين بن على وعلى بن الحسين الملقب زين العابدين ومحمد بن على وجعفر بن محمد الصادق ، والسابع هو القائم صاحب الزمان .»[١٨] ثم يذكر المقريزى ان الاسماعيلية منقسمون على انفسهم فى من هو المهدى ، ففريق يرى انه اسماعيل وفريق يرى انه محمد بن اسماعيل [١٨] وبذلك تكون الحركة الاسماعيلية ـ ككل الحركات الشيعية المعتمدة على فكرة المهدى ـ معتمدة على اتباع شخص واحد لاعدد من الاشخاص الذين رتبهم دعاة الاسماعيلية فيما بعد .

وتبدأ الاسماعيلية الباطنية من اسرة جديدة تبنت هذه العقيدة هى اسرة عبدالله بن ميمون ابن ديصان القداح المتوفى سنة ٢٦١/٨٧٤ـ٧٥ ومن قبله ابوه ميمون الذى كان مولى لجعفر الصادق [١٩] . والواقع ان الاخبار التى تتصل بهذين الداعيتين مضطربة اشد الاضطراب والذى يستخلص منها ان ميمون بن ديصان كان ملازما لجعفر الصادق وكان فى خدمة اسماعيل ابنه المتوفى سنة ١٣٣/٧٥٠ـ٥١ ، فلما مات اسماعيل فى حياة ابيه وتوفى جعفر

---

(١٨) خطط المقريزى ٢/٢٢٩ .
(١٩) مختصر الفرق بين الفرق ١٧٣ .

الصادق كون ميمون فرقة جديدة تدعو الى مهدية اسماعيل ، ثم لما شب محمد ابن اسماعيل ـ ويبدو انه كان مطاردا بدليل موته فى بلاد الروم كما مر ـ صرف ميمون الدعوة اليه ثم مات ميمون فورث دعوته ابنه عبدالله وسار بالدعوة الى نهايتها • ولكن عبدالله مات بعد وفاة محمد بن اسماعيل بثلاث وسبعين سنة فكيف يستقيم ذلك مع معاصرته له ؟ ونحن مسوقون الى ان نقرر ان عبدالله بن ميمون قال بمهدية محمد بن اسماعيل بعد موته ثم دعا سرا الى ابنه جعفر واستمرت الدعوة الى الائمة الاسماعيليين الاولين الذين دعوا بالمكتومين حتى استطاع عبيدالله المهدى ان يؤسس الدولة العبيدية فى المغرب بعد قرنين من الكفاح السرى الذى لايهدأ • وكانت هذه الدولة معاصرة للعباسين الذين حاربوهم بكل وسيلة ممكنة حتى بالطعن فى نسبهم العلوى • ويجب ان نقرر هنا ان الدعوة السرية دارت حول جعفر بن محمد بن اسماعيل ثم ابنه محمد الحبيب الذى كان يؤمل ظهوره فى اليمن ثم استطاع ابنه عبيدالله ان يكون هذه الدولة[٢٠] • وقد عاصر هؤلاء الائمة المستورين دعاة يبثون لهم الدعوة السرية فبدأت الدعوة من ميمون ثم تلقاها عبدالله ابنه ثم احمدثم الحسين واخوه محمد [٢١] •

واول ما يقابلنا فى الاسماعيلية الباطنية انها تدعى السبعية[٢٢] رمزا الى السباعات التى تتحكم فى العقيدة مما رأينا اصله الذى يتصل بالغلاة الكوفيين ، وقد اورد الشهرستانى ان للاسماعيلية تعلقا برقم اخر هو : ١٢ بالاضافة الى الرقم : ٧ ، وروى انهم قالوا : « انما الائمة تدور احكامهم على سبعة سبعة كأيام الاسبوع والسموات السبع والكواكب السبعة والنقباء تدور احكامهم على اثنى عشر ••• » [٢٣] والنقباء هم الدعاة • والواقع ان الرقم الجديد متأصل من عقيدة الكيسانية ايضا مما رأيناه عند ابى هاشم بن محمد بن الحنفية الذى

(٢٠ ، ٢١) خطط المقريزى ٢/٢٣٤ •
(٢٢) اللباب لابن الاثير ١/٥٣١ •
(٢٣) الملل والنحل ١/٣٣٠ •

وصى محمد بن على العباسى ان يختار دعاته « فليكونوا اثنى عشر نقيبا ، فان الله لم يصلح بنى اسرائيل الا بهم .... فان النبى انما اتخذ اثنى عشر نقيبا من الانصار اتباعا لذلك»[٢٤] وهذا دليل جديد على تسلسل الاسماعيلية عن الكيسانية : اصل مذاهب الغلاة . وسيكون للرقم ١٢ أهمية بالغة عند الامامية الذين سيختمون ائمتهم بالمهدى المنتظر وهو الامام الثانى عشر . وستكون لمجموع هذين الرقمين اهمية عند القرامطة الاسماعيليين الذين ساروا فى الشوط الى نهايته فاستندوا ـ فى تأصيل هذه الارقام ـ الى اسس اسلامية فقالوا : « ان التسمية مركبة من سبعة واثنى عشر (يعنى حروف بسم الله الرحمن الرحيم) وان التهليل (يعنى الشهادتين) مركب من اربع كلمات فى احدى الشهادتين (لا اله الا الله) وثلاث كلمات فى الشهادة الثانية (محمد رسول الله) ، وسبع قطع فى الاولى وست فى الثانية واثنى عشر حرفا فى الثانية[٢٥] . والامر واضح ان الرقم : ١٩ الذى هو عدد حروف التسمية جمع بين عدد الائمة وعدد نقبائهم وامناء سرهم وذلك يعنى ان لعدد النقباء اصلا الهيا قدسيا فيعود بنا الامر الى الانبياء العجليين الذين اسبغوا على انفسهم قداسة الائمة الذين دعوا اليهم . والمهم فى الامر ان قدسية العدد : ١٩ قد انتقلت الى البهائية فجعلوا له هالة قدسية واسسوا عليه ركنا من عقيدتهم بل لقد وصلوا به عدد الاشهر وايامها اذ جعلوا السنة تسعة عشر شهرا والشهر تسعة عشر يوما وبذلك تبدو الصلة بينهم وبين اسلافهم الشيعة الغلاة . ومن الغريب ان الحسن بن الصباح المتوفى سنة ١١٢٤/٥١٨ تنكب هذا الاتجاه بعد ان استطاع ان يسيطر بالقوة على قلعة الموت المشهورة ، بل ان الفاطميين انفسهم قد اهملوا الساعات التى تحدد عدد الائمة الظاهرين والمستورين بعد ان تأسس حكمهم فى المغرب ثم فى مصر فكان عدد خلفائهم ـ وهم ائمة ظاهرون

---

(٢٤) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٠ .
(٢٥) الملل والنحل ١/٣٣٨ .

بالطبع ـ اكثر من سبعة ثم لما زالت الدولة لم يلتفت احد الى الناحية التطبيقية لفلسفة الارقام التى اسسوا عليها عقيدتهم • وقد لخص لنا براون فلسفة هذه الارقام واصولها بقوله : « ومذهبهم فى جملته فلسفى باطنى قد استمد كثيرا من اسسه من المذاهب الايرانية والسامية القديمة كما تطرقت اليه بعض تعاليم الافلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة • وهو مبنى ـ فى كل تفاصيله على العدد الخفى : ٧ ، فهنالك سبع فترات فى فترات الانبياء والرسل : آدم ، نوح ، ابراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ، محمد بن اسماعيل • وكل واحد من هؤلاء الانبياء السبعة اعقبه سبعة من الائمة وأول كل سبعة من هؤلاء الائمة هو الامام الصادق وهو (صامت) ولكنه ناطق ورئيس واساس واصل واس وآخر كل سبعة من هؤلاء الائمة يعقبه اثنا عشر نقيبا تنتهى الفترة النبوية بالاخير منهم وتبدأ بعدها فترة نبوية اخرى • فالفترة النبوية السادسة التى بدأت بمحمد قد بلغت نهايتها على يد محمد بن اسماعيل الذى ادعى الخليفة الفاطمى الاول عبدالله بن المهدى بانه من حفدته وسلالته»[٢٦] • وهذا الذى يقرره براون من علاقة الفيثاغورية والافلاطونية الجديدة بالاسماعيلية قد رآه فليب حتى ولكن على صورة اوثق وذلك انه يعتقد بان قدسية الرقم : ٧ قد كانت موجودة فى الفيثاغورية القديمة[٢٧] ويرى كذلك مع جولد تسيهر ان الاسماعيلية « يتبعون ـ فى حدوث الكائنات فلسفة غنوصية مبنية ـ الى حدما ـ على الافلاطونية الجديدة»[٢٨] وهكذا قادتنا فكرة الاسماعيلية ـ فى اسباغ المعانى الدينية على الارقام ـ الى نظرية التجليات ، فاستعانوا بنظرية الفيض الافلاطونية ـ كما يرى جولد تسيهر ـ وجعلوها اساسا لهم كما فعلت جماعة اخوان الصفا الاسماعيلية البصرية[٢٨] ويضيف جولد تسيهر الى ذلك ان

---

(٢٦) تاريخ الادب فى ايران ٢٤٣ •
(٢٧) تاريخ العرب ٢/٥٣٢ •
(٢٨) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ •

الاسماعيلية « استنبطت من هذه الفلسفة اعمق نتائجها واشدها تطرفا فوضعوا بذلك نظاما فلسفيا هو صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكونى التى وضحتها هذه الفلسفة» (٢٩) . والواقع ان رأى جولد تسيهر هذا ليس جديدا، فان الشهرستانى قد التفت الى ذلك وانتبه الى ان « الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم بكلام الفلاسفة وصنفوا كتبا على ذلك المنهاج» (٣٠) ، ووقفنا على ان الله ـ عندهم ـ « ابدع بالامر العقل الاول الذى هو تام بالفعل ، ثم ـ بتوسطه ـ ابدع النفس الذى هو غير تام .... ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النقص الى الكمال ، واحتاجت الحركة الى آلة الحركة فحدثت الافلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها وتحركت حركة استقامة بتدبير النفس ايضا ، فتركبت من المعادن والنبات والحيوان والانسانية واتصلت النفوس الجزئية بالابدان . وكان نوع الانسان متميزا على سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض تلك الانوار وكان عالمه فى مقابل العالم كله» (٣١) ، وذلك كله مذكور فى تبسيط لطيف فى جامع الحكمتين لناصر خسرو (٣٢) ، هذا عن الخلق عامة . اما ما يتصل بالنبى والامام فعلاقته بنظرية المثل كما يبدو من عبارة الشهرستانى ايضا « وفى العالم العلوى عقل ونفس هو كل فوجب ان يكون فى هذا العالم عقل مشخص هو كل ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ويسمونه الناطق وهو النبى ، ونفس مشخصة هو كل ايضا وحكمها حكم الطفل الناقص المتوجه الى الكمال» واما دور النفوس بالنسبة الى النبى فيعبر عنه الشهرستانى بانه «تحركت النفوس والاشخاص بالشرائع بتحريك النبى والوصى فى كل زمان سائرا على سبعة سبعة حتى ينتهى الى الدور الاخير ويدخل زمان القيامة وترتفع

---

(٢٩) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ .
(٣٠ ، ٣١) الملل والنحل ١/٣٣٣ .
(٣٢) جامع الحكمتين ١٤٩ .

التكاليف وتضمحل السنن والشرائع » [٣٣] . وهكذا نصل بعد لاى الى ان ارتفاع التكاليف لايكون فى الدنيا وانما يكون فى آخر الزمان حين يتصل الناس بالمثل الاعلى فتسقط عنهم النقائص وتنفصل عنهم الشرور فلا يحتاجون الى تبصير بالحسن والقبيح لانهم يعودون الى طبيعتهم الخيرة الالهية بعد ان اتم النبى والوصى مهمتهما فى تطهيرهم ، ولذلك يقول الشهرستانى : « وانما هذه الحركات الفلكية والسنن الشرعية لتبلغ النفس الى حال كمالها وكمال بلوغها الى درجة العقل واتحادها بها ووصولها الى مرتبته فعلا » [٣٤] ويبين ذلك بأنه «من وقت الحركة الى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون الى مالانهاية له هو الكمال» [٣٥] . ويلاحظ جولد تسيهر ان هذه الفكرة تعنى ان » الوحى الالهى لاينقطع ولا ينتهى فى فترة زمنية معينة من فترات تاريخ الخليقة» [٣٦] وبذلك يحكم بان الاسماعيلية ـ من هذه الوجهة ـ تهدم ركنا من اركان الاسلام وهى « ان محمدا قد ختم الى الابد سلسلة الانبياء » [٣٧] والواقع ان بداية الاسماعيلية لم تكن مؤسسة على هذه الفكرة الازلية كما يبدو منها لاننا وجدنا محمد بن اسماعيل مهديا كما كان محمد بن الحنفية ومحمد بن عبدالله بن الحسن والائمة من بعد على بن الحسين من قبل ، ولكن استمرار العقيدة الاسماعيلية واستهواءها للدعاة والناس معا حمل القائمين على تنظيم العقيدة على تطويرها وتطويعها للاستمرار . ويلاحظ جولد تسيهر ايضا ان الصوفية قد استعانوا بالافلاطونية كالاسماعيلية مع فارق واحد هو ان « الصوفية لم تبغ من الاستعانة بهذه الفكرة الا ان توجد دعامة نفسية تبنى عليها الحياة الدينية بينما الاسماعيلية استخدمتها لكى تنفذ الى صميم الديانة الاسلامية وتعمل على تعديل احكامها وعقائدها» [٣٨] وأهمية هذا الرأى تكمن فى ان جولد تسيهر يرى ان الصوفية قد اخذت مما اخذت منه

(٣٣ ـ ٣٥) الملل والنحل ١/٣٣٣ .

(٣٦ ـ ٣٨) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٣ .

الاسماعيلية . وقبل ان نعرض لمراحل السلوك التى يمر بها الاسماعيلى فى تدرجه الى الكمال الدينى نتم هذا البحث فى اصول الاسماعيلية فنذكر بان كل ما اورده الشهرستانى واثبته جولد تسيهر من ارجاع اصولها الى الفيثاغورية والافلاطونية الحديثة قد اعاده البغدادى ببحث مقارن الى العقائد الفارسية القديمة ، فقال : « وذكر اصحاب التواريخ ان الذين وضعوا اسس الباطنية كانوا من اولاد المجوس وكانوا مائلين الى دين اسلافهم ، ولم يجسروا على اظهاره فوضعوا للاغمار منهم اساسا من قبلها منهم صار فى الباطن الى تفضيل دين المجوس ، وتأولوا آيات القرآن وسنن النبى على موافقة اساسهم»(٣٩) ، ولا يترك البغدادى الامر يمر دون برهان ، فيرى ان « بيان ذلك ان الثنوية زعمت ان النور والظلمة صانعان قديمان ... وذكر زعماء الباطنية فى كتبهم ان الاله خلق النفس ، فالاله هو الاول والنفس هو الثانى وهما مدبرا هذا العالم ، وسموها الاول والثانى وربما سموهما العقل والنفس ، ثم قالوا : انهما يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الاربع ، وهذا تحقيق قول الثنوية ان النور والظلمة يدبران امر العالم ...»(٤٠) .

والنوبختى يجد فى الاسماعيليه اصولا مسيحية بقوله « وزعموا ان اسماعيل هو خاتم النبيين الذى حكاه الله عز وجل فى كتابه ، وان الدنيا اثنتا عشرة جزيرة فى كل جزيرة حجة ، وان الحجج اثنا عشر ولكل حجة داعية ولكل داعية يد : يعنون بذلك ان اليد رجل له دلائل وبراهين يقيمها ويسمون الحجة الاب والداعية الام واليد الابن يضاهئون قول النصارى»(٤١) ولكن النوبختى يعود فيرى فى المظاهر الاسماعيلية الاخرى المتضمنة « ان جميع الاشياء التى فرضها الله تعالى على عباده وسنها نبيه(ص) وامر بها لها ظاهر وباطن »(٤٢) انما هى مذهب عامة اصحاب ابى الخطاب كما رأينا نحن

(٣٩ ، ٤٠) مختصر الفرق بين الفرق ١٧٤ .
(٤١ ، ٤٢) فرق الشيعة ٧٥ .

من قبل ، ويرى ابن النديم ان عبـــدالله بن ميمـون القـــداح واباه كانا ديصانيين [٤٣] وذلك يعنى ان الاسماعيلية تشتمل على مبادىء الديصانية وهى كما يروى الشهرستانى « مذهب يثبت اصلين ايضا : نورا وظلاما وهو سابق على المانوية » [٤٤] هذا الاضطراب فى الحكم قد اصاب الاسماعيلية حتى من المعاصرين لها وكان السبب فى ذلك سرية عقائدهم وتعلقهم بالباطن وهـذه الاشارة اليهما مدخل لنا الى اهم مايتميز به المذهب الاسماعيلى • فالمقريزى يقول فى تعرضه لهم : « لكل ظاهر من الاحكام الشرعية باطن ولكل تنزيل تأويل» [٤٥] ويشرح ذلك بقوله : « ان دين محمد (ص) ما جاء بالتحـــلى ولا بامانى الرجال ولا شهوات الناس ولا بما خف على الالسنة وعرفته دهماء العامة ولكنه صعب مستصعب وامر مستقبل وعلم خفى غامض ستره الله فى حجبه وعظم شأنه عن ابتذال اسراره ، فهو سر الله المكتوم وامره المسـتور الذى لايطيق حمله ولا ينهض باعبائه ونقله الا ملك مقرب او نبى مرسـل او عبد مؤمن امتحن الله قلبه للتقوى» [٤٦] ويضيف المقريزى الى ذلك ان « محمد ابن اسماعيل عنده ايضا علم المستورات وبواطن المعـــلومات التى لايمكن ان توجد عند احد غيره وان عنده علم التأويل ومعرفة تفسير ظاهر الامور وعنده سر الله تعالى فى وجه تدبيره المكتوم واتقان دلالته فى كل امر يسأل عنه فى جميع المعدومات وتفسير المشكلات وبواطن الظاهر كله والتأويلات وتأويل التأويلات» [٤٧] • وقد اورد لنا الخوانسارى امثلة من هذه التأويلات كتأويل الوضوء بموالاة الامام والتيمم بالاخذ من المأذون عند غيبة الامام الذى هو الحجة والصلاة هى الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى ان الصلاة

---

(٤٣) الفهرست ٢٦٤ •
(٤٤) الملل والنحل ٢/٨٩ •
(٤٥) خطط المقريزى ٢/٢٢٩ •
(٤٦) خطط المقريزى ٢/٢٢٧ •
(٤٧) المصدر نفسه ٢/٢٣٠ •

تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والاحتلام بافشاء السر الى غريب دون قصد ، والغسل بتجديد العهد ، والزكاة بتزكية النفس بمعرفة ماهم عليه من الدين ، والكعبة بالنبى ، والباب بعلى ، والميقات والتلبية باجابة المدعو ، والطواف بالبيت سبعا بموالاة الائمة السبعة ، والجنة براحة الابدان عن التكاليف ، والنار بمشقتها بمزاولة التكاليف[٤٨] وتلك احكام تعود بنا الى الغلو الذى عرفنا انه رأى ان الدين طاعة رجل وان الصلاة والزكاة وغيرهما انما هى كنايات عن رجال • ثم ان الاسماعيلية تجعل النقباء الهيين ايضا وان كانوا من غير الائمة وتسندهم بان عددهم اثنا عشر رجلا فى كل زمان كما ان عدد الائمة سبعة وانهم مع كل امام قائم منفرقون فى جميع الارض عليهم تقوم[٤٩] ثم يعين المقريزى مركز هؤلاء النقباء او الحجج بان مقامهم هو مقام الفاهم المطلع على اسرار المعانى وينص على ان ظهور امر الامام « انما هو ظهور امره ونهيه على لسان اوليائه» [٥٠] • ويذكر ابو يعقوب السجستانى ان ميراث النبى من العلم يتحول الى الوصى ومنه الى الامام ومن الامام الى الحجة[٥١] • ثم تتضح المسألة اكثر باطلاعنا على النص الذى يورده المقريزى ايضا من ان « الامام انما وجوده فى العالم الروحانى اذا صرنا بالرياضة فى المعارف اليه » [٥٢] • المعنى الذى يعبر عنه السجستانى الاسماعيلى بقوله : » ان هذه العلوم لاتصل الا الى مستحقها بالرياضة ولو كان حبشيا او سنديا » [٥٣] • وبذلك تتضح لنا فكرة السلوك الاسماعيلى الذى يتيح للمريد ان يصل الى حقيقة التأويل عن طريق الرياضة العقلية التى بلغ بها النقيب او الحجة ما بلغه الامام من علم • ويوضح جولد تسيهر ذلك بان « الحقائق لاتوجد الا فى المعانى

---

(٤٨) روضات الجنات ٧٣١ •
(٤٩ ، ٥٠) خطط المقريزى ٢/٢٣٣ •
(٥١) كشف المحجوب فى شرح قصيدة الجرجانى ٦٥ •
(٥٢) خطط المقريزى ٢/٢٣٣ •
(٥٣) كشف المحجوب ٩٢ •

الباطنة • اما المعانى الظاهرة فهى حجب مضطربة واقنعة متناقضة • ومريدو الاندماج فى الفرقة الاسماعيلية تزاح عنهم هذه الحجب والاقنعة بالقدر الذى يناسب استعداداتهم ، ويتدرجون فى هذا المضمار حتى تتهيأ لهم المقدرة على مواجهة الحقائق وهى سافرة»(٥٤) ولابد اننا لاحظنا موازاة هذه المعانى للمثل والمبادىء الصوفية • وقد لاحظ ذلك جولد تسيهر فاورد لنا قصيدة لجلال الدين الرومى الشاعر الصوفى يفصح بها عن فكرتى الجانبين المعبرة عن حقيقة واحدة بقوله : « اعلم ان آيات القرآن سهلة يسيرة ، ولكنها على سهولتها تخفى وراء ظاهرها معنى خفيا مستترا • ويتصل بهذا المعنى الخفى ثالث يحير ذوى الافهام الثاقبة ويعييها • والمعنى الرابع ما من احد يحيط به سوى الله واسع الكفاية من لاشبيه له • وهكذا نصل الى معان سبعة الواحد تلو الاخر ، ولذا لاتتقيد يا بنى بفهم المعنى الظاهرى كما لم تر الشياطين فى آدم الا انه مخلوق من الطين • فالمعنى الظاهرى فى القرآن شبيه بجسد آدم ، فما نراه منه هو هيئته الظاهرة وليس روحه الخفية المستترة »(٥٥) ، وهذا السلوك يصف الانسان بالعلم الالهى الى حد ان الاسماعيلية رأوا ـ كالمتصوفة ـ « ان الانبياء النطقاء اصحاب الشرائع انما هم لسياسة العامة وان الفلاسفة انبياء حكمة الخاصة»(٥٦) ، وذلك ان الفاطميين كانوا « يتدرجون فى دعوتهم فاذا تمكن المدعو من التعاليم الاولى احالوه على ما تقرر فى كتب الفلسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الالهى وغير ذلك من اقسام العلوم الفلسفية ، حتى اذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعى قناعه وقال : « ان ما ذكر من الحدوث والاصول رموز الى معانى المبادىء وتقلب الجواهر ...»(٥٧) والظاهر ان هذه الدرجات متأخرة جدت فى بدأ دولة الفاطميين وليست من اوائل عقائد الاسماعيلية •

(٥٤ ، ٥٥) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٦ •
(٥٦) خطط المقريزى ٢/٢٣٣ •
(٥٧) خطط المقريزى ٢/٢٣٢ •

ويورد عبدالله عنان المراتب التسع فى دار الحكمة التى اسسها الحاكم بامر الله الفاطمى ويذكر ان الطالب يلقن تعاليم الثنوية فى المرتبة السابعة ، وفى الثامنة تنقض كل صفات الالوهية والنبوة ويعلم الطالب ان الرسل الحقيقيين هم رسل العمل الذين يعنون بالشؤون الدنيوية كالنظم السياسية وانشاء الحكومات المثلى ، وفى التاسعة والاخيرة يدخل الى حظيرة الاسرار ويعلم ان كل التعاليم الدينية اوهام محضة وانه يجب الا يتبع منها الا ماهو لازم لحفظ النظام .... وان ابراهيم وموسى والمسيح وغيرهم من الانبياء ليسوا الا رجالا مستنيرين تفقهوا فى المسائل الفلسفية» (٥٨) . والواقع ان هذه النظرة المادية الى المذهب الاسماعيلى تسلبه كل مافيه من غنوصية وروحانية ، فليس الامر كذلك والا ما قامت له خلافة ولا حدثت فى دولتهم طاعة ، بل لقد وجدنا الفاطميين اخلص من غيرهم فى عقيدتهم واسرع الى بذل النفس ، ولا يكون البذل الا بالعاطفة الفياضة والايمان الذى لايتزعزع ، وكذلك يرى الاستاذ محمد كرد على ان «العقل عندهم هو حقيقة معبودهم» (٥٩) ولكن اى عقل؟ انه العقل الالهى لا المادى وهذا ما يورده فيليب حتى من ان « المريد يتدرج بتأن وهدوء فى مراق بطيئة دقيقة حتى يعلو ذروة العقائد الباطنية الخفية بعد ان يكون قد اقسم على الكتمان ومن هذه التعاليم والعقائد الباطنية فكرة نشوء الكون متجليا عن الجوهر الالهى وتناسخ الارواح وحلول الالوهية فى اسماعيل وانتظار رجعته مهديا . والمراتب التى يتدرج فيها المريد سبع وقد تكون تسعا ، وهى تذكرنا بدرجات الماسونية اليوم» (٦٠) . ومع تناول الباحثين لهذه الدرجات بالبحث على انها قضية مسلمة فان آدم متز يشكك فى كل ما يقال عن درجات الاسماعيلية الا ما يذكره ابن النديم من انه « كان عندهم سبع درجات من الاتباع خلافا لما ذكره اخو محسن من درجات

---

(٥٨) الجمعيات السرية فى الاسلام ٤٢ .
(٥٩) الاسلام والحضارة العربية .
(٦٠) تاريخ العرب ٢/٥٣٣ .

تسع»[٦١] . والمهم فى الامر ان كلا من هذه الدرجات له كتاب خاص يلقى على الواصلين اليها ، وكل كتاب يسمى البلاغ والبلاغ السابع هو الذى فيه نتيجة المذهب الكشف الاكبر ويقول ابن النديم : « انه قرأه فوجد فيه امرا عظيما من اباحة المحظورات والوضع من الشرائع واصحابها »[٦٢] . ومادام الوضع من الشرائع واباحة المحظورات مقصورين على الدرجة السابعة فانها تعنى – ان صح قول ابن النديم – ان المريد قد بلغ درجة الحلول وان العقل الاول قد اتصل به فلم يعد ثمة مجال لافهامه لماذا حرم كذا واحل كذا لانه صار بنفسه مصدرا للتشريع ، وتلك عقيدة وجدناها من قبل عند فرق الغلاة وليست هى جديدة على الاسماعيلية . ومن اهم مايرد فى هذا المقام تقرير محمد بن سرخ النيسا بورى الاسماعيلى (المتوفى فى القرن الخامس) ان «ذلك اليوم هو يوم قوة العقل ودولته ، فيه تتعلق بالنفس آثار القائم الذى يعيد للعقل اشراقه ، وتعود الى النفوس الفيوض الالهية التى حجبت عنها من قبل »[٦٣] . وهذه المكانة فى الاسماعيلية تقابلها فى التصوف درجة المحو والاتحاد بحيث يقول الصوفى فى صراحة : انا الله ، وقد رأيناها آتية من الغلاة اولا ثم نظمتها الاسماعيلية واصلتها واسست لها فاخذتها الصوفية جاهزة وقد رأينا فى رسائل جابر بن حيان الاسماعيلى قوله : « ان حد علم الباطن انه العلم بعلل السنن واغراضها الخاصة اللائقة بالعقول الالهية»[٦٤] ، وقد وجدنا هذا التفاوت فى العلم – من قبل – فى هذه الرسائل ايضا ووجدنا ان طبقات الناس الالهيين تعد خمسا وخمسين طبقة للواصلين لاسبعا ولا تسعا كما قال الفاطميون بعدئذ . وتبدأ هذه الدرجات « بالنبى فالامام فالحجاب فالبسيط فالسابق فالتالى فالاساس ... حتى تنتهى بالناسك فالحياة فالناهى فذى الامر

(٦١) الحضارة العربية فى القرن الرابع ٢/٥١ .
(٦٢) الفهرست ٢٨٢ .
(٦٣) شرح قصيدة ابن الهيثم الجرجانى ، طهران ١٩٥٥ .
(٦٤) مختار رسائل جابر بن حيان ١٠٤ .

الذى اذا ظهر فلا بدل منه اذ كان كل واحد منهم مندوبا لامر لايخالطه فيه غيره» (٦٥) .

وقد دخلت فى التصوف فكرة اسماعيلية صريحة اخرى هى فكرة النقباء التى دارت ـ فى الاسماعيلية ـ حول رجال عددهم اثنا عشر يسمون الحجج يبثون الدعوة فى غيبة الامام او فى حضرته وهم مقدسون وعددهم ثابت ويسندهم تكوين العالم الطبيعى كما يسند عدد الائمة السبعة فى السلسلة الواحدة وقد بين لنا المقريزى ان هؤلاء الحجج متفرقون فى جميع الارض عليهم تقوم «ويضيف ان عدة هؤلاء الحجج ابدا اثنا عشر رجلا» (٦٦) . وهكذا يشارك الحجة الامام فى العلم والدعوة والسند الالهى ومن هنا نفذت الصوفية الى منازل القطب والابدال . وهذا ابن عربى يذكر ـ فى الفتوحات عن الصوفية ماذكره المقريزى عن الاسماعيلية فيقول فى النقباء : « وهم اثنا عشر نقيبا فى كل زمان لايزيدون ولا ينقصون على عدد بروج الفلك الاثنى عشر» (٦٧) ، وهذه الاشارة تكفى للدلالة على أخذ المتصوفة فكرة هذه المنازل المقدسة عن الاسماعيلية ، ويجب ان نشير هنا الى ان ابن تيمية قد تنبه الى ان هذه المصطلحات ليست مأثورة عن النبى (٦٨) فكأنه يشير الى ان الصوفية قد اخذوها عن الاسماعيلية الذين قالوا بها اول من قال . وقد تنبه ابن خلدون ايضا الى اخذ المتصوفة ـ وبخاصة ابن عربى ـ عن الاسماعيلية القول « بالقطب وكذلك ابن قسى وعبدالحق بن سبعين وابن ابى واصل : تلميذه » (٦٩) وسيرد كل ذلك فى موضعه من التصوف .

---

(٦٥) مختار رسائل جابر بن حيان ٤٨٩ .
(٦٦) خطط المقريزى ٢/٢٣١ .
(٦٧) الفتوحات المكية ٢/٩ .
(٦٨) ضحى الاسلام ٣/٢٤٥ .
(٦٩) المقدمة ٣٢٣ .

لقد كانت الدعوة الاسماعيلية تقوم على نظام هرمى يبدأ بالامام ثم يستند على الحجج الاثنى عشر ثم على الدعاة المنتشرين فى ارجاء العالم الاسلامى وقد ذكر ناصر خسرو انهم سبعة على نسق الكواكب السبعة يتنازلون من النبى فالوصى والامام فالحجة فالباب فالداعى فالمأذون [٧٠] . فلما اخذ الاسماعيلية ازمة الحكم تحول ذلك النظام الى هيئة رسمية تقوم على تلك الصورة نفسها ولكن تغيرت الاسماء فصار رئيس الحجج داعى الدعاة ومنه يخرج الدعاة . ويذكر لنا آدم متز عن ناصر خسرو ان داعى الدعاة هذا هو اكبر اصحاب الدرجات عندهم وهذه الدرجات دينية بالضرورة كما رأينا . وقد كون المتصوفة المتأخرون عالمهم على ذات النسق بادئين بالقطب والابدال وغيرهم ، وكما استند الاسماعيلية فى اعدادهم الى مظاهر الطبيعة الالهية فعل الصوفية كذلك ، وقد رأينا اشارة ابن عربى السابقة فى النقباء الى ان عدد البروج يسندهم وتلك اشارة المقريزى نفسها الى نقباء الاسماعيلية . فكأن ابن عربى يعبر عن عقول الافلاك التى استندت اليها الفلسفة الاسماعيلية ان صح صدورها عن العقل الاول والنفس الكلية من الفلسفة الافلاطونية الحديثة .

وقد كان من اثر اغراق الاسماعيلية فى الجانب الروحى واضافتهم الصفات الالهية الى الائمة ان قيل بالهية الحاكم بامر الله الفاطمى المتوفى سنة ٤١١/١٠٢٠-٢١ ، وذلك امر ليس بالمستغرب على غلاة الشيعة كما مر بنا فى هذا البحث ، غير ان الحاكم قد كان - دون الائمة كلهم - صريحا فى لبس جبة صوف ابيض وركوب الحمار» [٧١] . وينقل متز عن تاريخ يحى ابن سعيد الانطاكى انه اعتق سائر مماليكه من الاناث والذكور ... وانه رفض اللذة الجسدية» [٧٢] وكل تلك امور اذا اضيفت الى نسب الحاكم

---

(٧٠) جامع الحكمتين ٢٩٦ .
(٧١) تاريخ ابن اياس ١/٥٣ .
(٧٢) الحضارة الاسلامية فى ٢/٥٦ .

العلوى واستناد الدعوة الفاطمية الى روحانية الائمة وحلول الجزء الالهى فيهم تشجع الطامحين الى تأسيس فرقة جديدة الى اهتبال هذه الفرصة . وهكذا استغل الدرزى هذه الظروف كلها ونادى بان روح الاله حلت فى الحاكم[٧٣] ، وكان هناك «حمزة الذى كان اصحابه يركعون عندما يرون الحاكم فى الشوارع ويصيحون قائلين : انت الواحد الاحد والمحيى المميت»[٧٤] ، وتلك امور عهدناها عند الشيعة ايام جعفر الصادق وليست علينا بغريبة ، ولكن الطريف فى الامر ان يكون التألية مكشوفا صريحا وان يسير الحاكم الاله فى الاسواق وان يسجد له الناس ويتجهوا اليه بالدعاء ولعل ذلك ماكان يتمناه الحلاج لنفسه حين ظهر منه الحلول ، بل لعل السر فى هذا المذهب الفاطمى الذى ربما كان الحلاج يدعو اليه كما سنرى عند عرضنا له . وعلى ذلك فان من المتوقع ان تتأثر الصوفية بالاسماعيلية وبخاصة فى الهدف الذى يرمى اليه الصوفية والذى تحقق فى واحد من خلفائهم بعد قتل الحلاج بتسعين سنة ، وقد كانت نهاية الحاكم القتل سنة ٤١١ كما انتهى الحلاج . ومهما يكن من امر ادعاء الحاكم او ادعاء اصحابه الهيته - التى انكرها ولم يعترف بحدوثها ابن خلدون[٧٥] والذهبى[٧٦] وآدم متز[٧٧] - فان مبادىء الاسماعيلية تشتمل على هذه البذرة التى يستطيع الطامحون غرسها وتعهدها بالسقيا لتثمر هذا الثمر ، غير ان الحاكم قد صار مهديا للدروز ينتظرون عودته[٧٨] أو الها كما يذكر جولد تسيهر[٧٩] .

لقد مرت الاسماعيلية فى ادوار كثيرة وتسمت بها فرق عديدة وذلك

(٧٣ ، ٧٤) الفاطميون فى مصر ٢٠٩ ، عن تاريخ يحى بن سعيد ٢٢١ .
(٧٥) المقدمة ٦٠٤ .
(٧٦) خطط المقريزى ٤/١٨٤ .
(٧٧) الحضارة الاسلامية ٢/٧٥٦ .
(٧٨) وفيات الاعيان ٤/١٩١ .
(٧٩) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٢١٨ .

لا يهمنا فى شىء طالما جمعها جميعا القول بالباطن وترتيب المعرفة بحسب مستوى المريد العقلى واضافة السمو الروحى الى الائمة والدعاة اليهم ، ولكن الاسماعيلية – فى تاريخها الطويل – لم تلتفت الى الجنس مع اعتمادها فى فى البداية على الموالى وقد سقطت دون ان تسمع عن ثورة داخلية أو تحكم جنس فى جنس داخل الدولة ولعل للمكان الذى اقيمت فيه دولتهم اثره • لقد جمعت الاسماعيلية « العامة الذين قتلت بصائرهم باصول العلم والنظر كالقبط والاكراد والمجوس والصنف الثانى الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب والصنف الثالث اغتام بنى ربيعة من اجل غيظهم من مضر لخروج النبى منهم» (٨٠) ، ويكفى ان اخوان الصفا : اصحاب الحركة السرية الاسماعيلية كانت «تسعى لتهذيب العامة»(٨١) ، والغرض معروف وهو الثورة على الدولة العباسية ولكنها لم تستند الى عصبية جنسية • وقد اخذ المتصوفة هذا الاتجاه عن الاسماعيلية فاننا لانجد فى التصوف عصبية جنسية ، وكان فى الامكان جدا ان ينشأ التصوف ويتطور معتمدا على العصبية الفارسية ، ولكنه تنكب هذا السبيل لانه – فى جوهره – تحرر من كل القيود • على ان ذلك لايمنع انه تأثر باتجاه سبقه وكان متحققا فى عالم اسس على العصبية الجنسية •

ويجب ان نتنبه الى ان الاسماعيلية مازالت موجودة فى العصر الحاضر وانها تتمثل فى اتجاهين : الاول باطنى مشتق من حركة الحسن بن الصباح الذى كان سند دعوته ضرورة الحاجة الى امام للتمييز بين الحق والباطل(٨٢) كدعوى هشام بن الحكم السابقة ، وهؤلاء هم الاغا خانية(٨٣) الذين ينتسب

---

(٨٠) الفرق بين الفرق ١٨١ •
(٨١) تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع ٧٧ •
(٨٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٧٨ •
(٨٣) الشيعة فى التاريخ ٦٢ •

زعيمهم الى الحسن هذا ، والاتجاه الاخر هو الاتجاه المعتدل الذى كان يمثله المباركية : انصار محمد بن اسماعيل فى بداية الدعوة ، وهؤلاء يتمثلون الان فى البهرة ، وسلطانهم الحالى مولانا سيف الدين (٨٤) . ولا يفرق براون بين الفريقين وانما يجعل كل فريق منهم يدين لولد من ولدى المستنصر آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر ، فالبهرة يدينون بامامة المستعلى والاغا خانية – وهم النزارية – بامامه ابن المستنصر الاكبر نزار (٨٥) .

ويضاف الى هذين الفريقين الدروز وهم فرقة اسماعيلية معاصرة مستقلة عن الفرقتين السابقتين ، وهم يقولون : « ان روح آدم انتقلت الى على ابن أبى طالب ومنه الى اسلاف الحاكم بأمر الله ملك الفاطميين مقمصة من واحد الى آخر ، والدين الحق توحيد الحاكم» (٨٦) ، وقد ذكر المقريزى ذلك كله فى تعرضه للدرزى محمد بن اسماعيل (٨٧) . ويذكر كرد على ان الدروز يعتبرون الصوم صدق اللسان ، وحفظ الاخوان بدل الصلاة ويقرؤون القرآن ويؤولونه ويذهبون الى قدم العالم تبعا لتعاليم الفلاسفة ، ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص (٨٨) ، وقد قال بذلك المقريزى ايضا نقلا عن مرآة الزمان فى ذكره للدرزى (٨٩) .

ومهما يكن من شىء فان الاسماعيلية قد اضافت الى الامامة الدليل العقلى وجعلت الفلسفة فى خدمة العقيدة ، وذلك امر شاق ولكنه تحقق . ويجب ان نذكر – فى نهاية بحثنا للاسماعيلية – انها اضافت الى التصوف كثيرا مما فيه من روحانية وانها كانت اساسا لفكرة القطب والابدال التى شاعت فى التصوف

---

(٨٤) الشيعة فى التاريخ ٦٢ .
(٨٥) تاريخ الادب فى ايران ٢/٢٤٧ (هامش) .
(٨٦) الاسلام والحضارة العربية ٦٦ .
(٨٧) خطط المقريزى ٤/١٨٤ .
(٨٨) الاسلام والحضارة العربية ٦٦ .
(٨٩) خطط المقريزى ٤/١٨٤ .

المتأخر وكانت الاصل فى المناصب الصوفية المتأخرة كمشيخة مشايخ الطرق التى تعادل منصب داعى الدعاة فى الاسماعيلية • وقد كان من التقارب بين الاسماعيلية والصوفية ان اضيف الى خليفة من خلفائهم ما اضيف الى كبار الصوفية ممن قالوا بالحلول كالحلاج والقائلين بقوله من المتأخرين •

الامامية

احدث موت جعفر الصادق تفتتا غريبا فى التشيع فقد كان الشيعة – ممن التفوا حوله – يمثلون اتجاهات مختلفة وثقافات متباينة ونفسيات شتى • وسرعان ما بدت الاتجاهات الجديدة مما رأينا لونا منها متمثلا فى الاسماعيلية، ومر بنا لون آخر هو الغلو فى فصل الغلاة • اما الشيعة التقليديون المحافظون فقد التفوا حول عبدالله بن جعفر الصادق وقالوا بامامته [٩٠] ولكن موته بعد ابيه بسبعين يوما دون عقب [٩١] اعادة الشيعة الى القول بامامة موسى بن جعفر الصادق ، وانصرفت فرقة اخرى الى القول بامامة محمد بن جعفر الصادق الثائر بالمدينة وهم الزيدية [٩٢] • ولابد – فى امام مثل جعفر الصادق – ان يقال بمهديته مادام قد كان الها عند الخطابية ، وقد حدث هذا فعلا اذ قالت الناووسية بمهديته [٩٣] • وقد انصرفت كل فرقة الى مثلها وعقائدها ويهمنا فى هذا الفصل فريق واحد هو الامامية انصار موسى بن جعفر وهم اسلاف الاثنا عشرية الحاضرة • والحديث فى النواحى التاريخية والشخصية يطول ، وملخص مادار من سيرة ائمة الامامية ان موسى بن جعفر قد مات فى سجن الرشيد سنة ١٨٣/٧٩٩ فدارت الامامة حول ابنه على الذى لقبه المأمون بالرضا وولاه العهد من بعده [٩٤] ، وقد كان الرضا من قوة الشخصية وسمو

---

(٩٠) فرق الشيعة ٧٧ •
(٩١) الملل والنحل ١/٢٧٤ •
(٩٢) مقاتل الطالبيين ٥٤٠ •
(٩٣) فرق الشيعة ٦٧ •
(٩٤) مروج الذهب ٢/٣١٦ •

المكانة ان التف حوله المرجئة واهل الحديث والزيدية ثم عادوا الى مذاهبهم بعد موته سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ بطوس[٩٥] وحدث اشكال كبير بعد موت الرضا اذ كان عمر ابنه محمد الجواد سبع سنين[٩٦] فاضطر قوم من الشيعة الى القول بمهدية الرضا وقال قوم بامامة الجواد وحاولوا ان يسندوا امامته بتشبيهه بيحيى بن زكريا وعيسى عليه السلام والصبى الذى حكم بين يوسف بن يعقوب وامرأة الملك وغيرهم[٩٧] بل لقد اجاز الشيعة له العمل بالقياس[٩٨] مع انهم اعدى اعدائه وجوزوا «ان يتولى الصلاة لهم وينفذ احكامهم فى ذلك الوقت غيره من اهل الفقه والدين والصلاح»[٩٩] ، ومات الجواد سنة ٢٢٠/٨٣٥ مخلفا ابنه عليا الهادى فى الخامسة من عمره فعاد امر اضطراب التشيع كما كان وان لم يشر احد الى صغر سنه . ومات الهادى فى سامراء محدد الاقامة سنة ٢٥٤/٨٦٨ ، ووقع الشيعة فى حياته فى اشكال آخر ذكرهم بامامة اسماعيل وذلك ان الهادى كان قد اعد ولده محمدا لتولى الامامة من بعده ولكنه توفى فى حياة ابيه ، فعالج الشيعة الامامة بالبداء ايضا فصارت لابن الهادى الثانى وهو الحسن العسكرى والد المهدى الاثنا عشرى . وقد توفى الحسن فى سامراء ايضا سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤ فاختلف الشيعة فى امر عقبه وقالت اثنتا عشرة فرقة بامتناع ولادة عقب له وتشككت اخرى فى الامر وقالت الرابعة عشرة بتحقق ولادة محمد المهدى له[١٠٠] وانصهرت آراء الشيعة فى هذا الاعتقاد الاخير فتبنت فكرة المهدى واسست عليها عقيدتها واعادت تنظيم افكارها من جديد واقتصرت على الائمة الاثنى عشر الذين ذكرناهم وسميت بالاثنا عشرية التى مازالت موجودة حتى عصرنا الحاضر . ويجب الا يفوتنا انا لم نتطرق الى تفاصيل التنازع فى الامامة لان فى ذلك

---

(٩٥) فرق الشيعة ٨٦ .
(٩٦) ذكر الاشعرى انه كان له اربع او ثمانى سنين ، مقالات الاسلاميين ١/٣١ .
(٩٧ ، ٩٨) فرق الشيعة ٩٠ .
(٩٩) مقالات الاسلاميين ١/٣١ .
(١٠٠) فرق الشيعة ٩٦-١١٢ ملخصا .

تطويلا لا مبرر له ، ولكن يحسن بنا ان نذكر بان الائمة من بعد الصادق قد قيل بمهديتهم جميعا كما يرد ذلك في فرق الشيعة للنوبختي وغيره من كتب الفرق التي تتطرق الى التشيع وتشعبه وينبغي ان نذكر ايضا ان انصار الائمة بعد جعفر الصادق قد انشئوا فرقا غالية شأن اسلافهم من انصار الائمة قبل الصادق • والطريف في أمر المهدى الاثنا عشرى انه قد عاصر غيبته الصغرى – التي تبدأ سنة ٢٦٠/٨٧٣–٤ وتنتهي سنة ٣٢٩/٩٤٠–٤١ – اربعة سفراء كانوا ينوبون عنه في قضاء شؤون الشيعة وهم : عثمان بن سعيد ثم ابنه محمد المعروف بالشيخ الخلاني المتوفى سنة ٣٠٤/٩١٦–٧ ثم الحسين بن روح النوبختي المتوفى سنة ٣٢٦/٩٣٧–٣٨ ثم على بن محمد السمرى او السيمرى المتوفى سنة ٣٢٩/٩٤٠–٤١ ، وقد اخرج السمرى – قبل وفاته – توقيعا من المهدى « ينذر بانقطاع السفارة ووقوع الغيبة الكبرى الى ان يأذن الله سبحانه بالظهور »[١٠١] وبعد انتهاء الوكالة – التي ألفت في سيرهم كتب وذلك في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس[١٠٢] ، تسلم الميراث علماء الشيعة

---

(١٠١) الشيعة في التاريخ ٧٦ •

(١٠٢) راجع رجال النجاشي ، ٦٢ ، ٣٠٨ •

وانظر صفحة ٦٣ حيث ذكر النجاشي احمد بن محمد بن ايوب الجوهري (المتوفى سنة ٤٠١) باعتباره مصنف كتاب « اخبار وكلاء الائمة الاربعة» وكذلك جاء ذكر احمد بن نوح السيرافي ، نزيل البصرة واستاذ النجاشي وشيخه ، بوصفه مؤلف كتاب « اخبار الوكلاء الاربعة» • وانظر صفحة ٣٨ التي نص فيها النجاشي على تأليف هبة الله بن احمد بن محمد الكاتب ابى نصر المعروف بابن برنية ، ابن بنت محمد بن عثمان العمرى ، (وكان حيا سنة ٤٠٠) لكتاب في الوكلاء الاربعة اعتمد عليه السيرافي في تأليف كتابه المذكور •

وانظر معالم العلماء لابن شهر اشوب (ص١٦–١٧) حيث ذكر كتابا لاحمد بن محمد بن عبدالله الجوهري في أخبار وكلاء الائمة مختصرا •

ومما يلفت النظر حقا ان خصوم الشيعة لم يتطرقوا الى الوكلاء حتى في القرن الخامس فلم يعرض لهم مثلا ابن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦) ولا الاسفراييني (المتوفى سنة ٤٧١) •

وفقهاؤهم وجعلوا يلائمون بين عقائدهم القديمة والمعاصرة وينظمون ويصنفون ، فصبوا كل ما قالته الفرق المختلفة فى تاريخ التشيع على صورة منسقة ملطفة مسندة بالمنطق العقلى فى التشيع الاثنا عشرى وشرعوا لعلماء التشيع الاجتهاد ، وهكذا انتهت حياة الائمة لتبدأ حياة المذهب والواقع انه لم يجد على التشيع جديد بل كل ما صنعه العلماء والمصنفون هو التنظيم لا اكثر ولا اقل . ونعود الى الائمة الذين اقر امامتهم التشيع الاثنا عشرى فى النهاية فنجد بعد جعفر الصادق ابنه موسى ثم على بن موسى الرضا ثم محمد بن على الجواد ثم على بن محمد الهادى ثم الحسن بن على العسكرى فمحمد بن الحسن المهدى . وسنتعرض لذكر كل واحد منهم على انفراد لنرى مدى تأثر التصوف بسيرتهم او صدورهم عن المنزع الزهدى .

كان الامام السابع : موسى بن جعفر – ويلقب بالكاظم – اماما من سنة ١٤٨–١٨٣/٧٦٥–٧٩٩ ربع قرن من الزمان ولكنها امامة سرية وكان رجلا مسالما جنى عليه شك الرشيد فى احتمال منازعته الخلافة . وكان الكاظم صورة اخرى من على زين العابدين فى زهده وفى معاملته للناس ، وكانت الصرار التى يتألف بها قلوب مبغضية مشهورة ، فقد كان يرد الاساءة بالاحسان(١٠٣) صنيع جده زين العابدين ، وكان يقول : « ما اهان الدنيا قوم قط الا هنأهم الله اياها وبارك فيها لهم ، وما اعزها قوم قط الا بغضهم الله فيها»(١٠٤) . وكان للامام الكاظم اتصال بالصوفية فان الخوانسارى ينقل عن جامع الانوار ان شقيقا البلخى المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩–٨١٠ « كان من تلامذته وله الرواية ايضا عنه .. وكان استاذا لحاتم الاصم المتوفى سنة ٢٣٧/٨٥١–٥٢ ومصاحبا لابراهيم ابن ادهم المتوفى سنة ١٦١ ، واستشهد (يعنى شقيقا البلخى) فى بلاد

(١٠٣) مقاتل الطالبيين ٤٩٩ .
(١٠٤) تاريخ اليعقوبى ٣/١٤٥ .

ما وراء النهر بتهمة الرفض» [١٠٥] وقد جمع الخوانساری بين معروف الكرخی والامام موسى الكاظم وجعل معروفا بوابا له[١٠٦] ، ويجعل الحاج معصوم على توبة بشر الحافی على يده ايضا [١٠٧] ، ويورد القشيری ان بشرا (المتوفى سنة ٢٢٧/٨٤١-٤٢) رأى فی منامه الرسول(ص) فذكر له (ص) ان « من جملة الاسباب التی رفعه الله بها من بين اقرانه محبته لاصحاب الرسول واهل بيته» [١٠٨] . وينقل صاحب طرائق الحقائق عن ابن الجوزی فی كتابه : (اثارة العزم الساكن الى اشرف الاماكن) - ويسميه صاحب اخبار الدول : (مثير الغرام الساكن) - عن شقيق البلخی انه قال : « قصدت الى الحج ، فنزلت القادسية . فبينا انا انظر الى الناس وزينتهم ، اذ نظرت شابا حسن الوجه شديد السمرة نحيفا ، فی رجليه نعلان ، فجلس منفردا ، فقلت : هذا من الصوفية ، يريد ان يكون كلا على الحجاج ، فقلت : لامضين اليه ولاوبخنه . فدنوت منه فقال : يا شقيق اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم[١٠٩] ، ثم تركنی وولی . فقلت : هذا عبد صالح كاشفنی لالحقنه ليستغفر لی . فاسرعت فی أثره فغاب عنی . فلما نزلنا واقصة اذا هو قائم يصلی واعضاؤه ترتجف ودموعه تجری ، قلت : هذا صاحبی . فلما فرغ قال : يا شقيق اتل قوله تعالى : وانی لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى[١١٠] ، ثم تركنی . فقلت : هذا من الابدال كاشفنی مرتين . ثم رأيته على مورد وبيده ركوة ، فسقطت منه فی البئر ، فرمق الى السماء بطرفه

---

(١٠٥) روضات الجنات ٣٢٨ .
لم يرد فی كتب الصوفية اية اشارة الى الرفض مطلقا ، وسيرد على هذه النقطة تعليق فی موضوع « الزهد فی خراسان» .
(١٠٦) روضات الجنات ٢٠٩ .
(١٠٧) طرائق الحقائق ٢/٨٣ .
(١٠٨) الرسالة القشيرية ١١ .
(١٠٩) الحجرات ٢ .
(١١٠) طه ٨٣ .

وقال : انت ربى اذا ظمئت الى الماء ، وقوتى اذا اردت طعاما ، ثم قال : اللهم – سيدى – مالى سواك فلا تعدمنيها . قال شقيق : فوالله لقد رأيت الماء ارتفع حتى تناول الركوة ، فتوضأ وصلى اربع ركعات ، ثم مال الى كثيب رمل فجعل منه فى الركوة وحركها وشرب . فجئت وسلمت عليه وقلت : اطعمنى من فضل ما انعم الله عليك ، فقال : يا شقيق ، لم تزل نعم الله علينا ظاهرة وباطنة ، فاحسن ظنك بربك ، وناولنى الركوة فشربت منها سويقا بسكر ما شربت الذ ولا اطيب منه وبقيت اياما لا اشتهى طعاما ولا شرابا . ثم رأيته بمكة قد طاف ، واذا له خدم وحشم وموال يلقونه ، وطافوا به يمينا وشمالا ، وانكفأ الناس يقبلون اطرافه فتعجبت وقلت : من هذا ؟ قيل : هذا موسى الكاظم» (١١١) .

وكان الكاظم يلقب بالعبد الصالح (١١٢) ، وهو « الساهر ليله قائما ، القاطع نهاره صائما ، المسمى لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين كاظما . وهو المعروف عند اهل العراق بباب الحوائج ، لانه ماخاب المتوسل به فى قضاء حاجة قط» (١١٣) .

وكان من كرامات الكاظم التى توافق مشرب الصوفية انه « احيى بقرة ماتت لامرأة بمنى وكان لها صبيان فلما نظرت المرأة الى البقرة صاحت وقالت : عيسى بن مريم ورب الكعبة . فخالط الناس وصار بينهم ومضى» (١١٤) .

ويروى صاحب طرائق الحقائق عن الكلينى ان الكاظم كان يتنبأ كما كان على يفعل وكذلك جعفر الصادق من بعده ، وقد رأينا النبى(ص) هو

---

(١١١) اخبار الدول ١١٢ .
(١١٢) اصول الكافى ١٣٠ .
(١١٣) اخبار الدول ١١٢ .
(١١٤) اصول الكافى ٩١ .

القدوة فى النبوآت ، وقد كان العبد الصالح (موسى بن جعفر) ينعى الى رجل نفسه (١١٥) .

ومن متممات سيرة الكاظم ان نذكر انه حمل الى بغداد من المدينة مرتين : الاولى زمن المهدى والثانية سنة ١٧٩/٧٩٥ زمن الرشيد وحبس فى بغداد حتى توفى فى السجن سنة ١٨٣/٧٩٩ بتهمة امامته للشيعة وجباية المال اليه (١١٦) . ويرد فى غيبة الطوسى انه كان بين الكاظم وبين يحيى بن خالد بن برمك صلة لم يكن الرشيد يعلم بها (١١٧) ولعل تلك من اسباب الغضب عليه وذلك امر لايهمنا فى هذا البحث ، والمهم ان الكاظم كان زاهدا يروى عنه الصوفية اخبارا تناسب مشربهم وكانوا فى ذلك الحين يؤسسون قواعد التصوف ويطورون الزهد الصوفى الى صور التصوف العميقة .

وقام على بن موسى بن جعفر بعد ابيه فى المدينة ، وقد ولد سنة ١٥٣/٧٧٠ وولى الامامة عشرين سنة كان فى الاربع الاخيرة منها وليا لعهد المأمون نكاية من المأمون فى عمومته العباسيين الذين شجعوا الامين على خلع المأمون وضربا للثائرين العلويين من اخوة على بن موسى باخيهم (١١٨) .

---

(١١٥) طرائق الحقائق ١/٩٣٨ .
(١١٦) الصواعق المحرقة ١٠١ .
(١١٧) غيبة الطوسى ٢١ .
(١١٨) يرى السيوطى ان المأمون فعل ذلك «لان ابا بكر – لما ولى – لم يول احدا من بنى هاشم شيئا ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم لما على ولى ولى عبدالله بن عباس البصرة وعبيدالله اليمن ومعبدا مكة وقثم البحرين ، وما ترك احدا حتى ولاه شيئا ، فكانت هذه فى اعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت» (تاريخ الخلفاء ٢٠٥) . ويرى ابن العماد ايضا ان ميل المأمون الى العلويين كان « اصطناعا ومكافأة لفعل على كرم الله وجهه لما ولى الامامة لبنى هاشم خصوصا بنى العباس» (شذرات الذهب ٢/٣)، وليست السياسة بهذه البساطة ولا تدخل فى باب العواطف بحال ≤

وقد كانت ام على الرضا نوبية كما كانت ام ابيه فارسية وزوجه نوبية ايضا ، وكانت ازواج الائمة جوارى لانهم لم يكونوا يقوون على التسرى بالجوارى الغاليات ، ويبدو انهم كانوا فى ضيق مادى منعهم الزواج بمن يناسب مقامهم

≤ ومن اهم النصوص التى ترد فى ايضاح هذه المسألة ما علق به نعيم بن خازم ـ وكان عربيا من ثقات المأمون ومستشاريه ـ على تولية الرضا ، لما استشاره المأمون فى ذلك بحضرة الفضل بن سهل وزيره ووليه فى هذا الشأن ٠

قال نعيم ـ بعد ان كلمه الفضل « وخلط لينا وغلظة » :

« انما تريد ان تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ولولا انك اردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده ـ وهى البياض ـ الى الخضرة وهى لباس كسرى والمجوس» ٠

« ثم اقبل على المأمون فقال : الله ، الله يا أمير المؤمنين لايخدعنك عن دينك وملكك ، فان اهل خراسان لايجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه» (نشوار المحاضرة ، مجلة المجمع العلمى بدمشق ، المجلد العاشر ، ص٣١٣ ، الوزراء والكتاب للجهشيارى ٣١٣) ومما يوضح أمر الخضرة أن العبيديين فى مصر اختاروا البياض شعارا لهم ٠ وكان الاولى ـ اذا كانت الخضرة علوية اصيلة ـ ان يختاروها شعارا لهم ٠ وقد رأينا البساسيرى ـ حين خطب للمستنصر العبيدى ببغداد سنة ٤٥٠ ـ يأمر الناس بترك السواد ولبس البياض (اخبار الدولة السلجوقية٢٠) والظاهر ان اعتبار البياض شعارا يتأصل مما ورد فى السيرة من أن راية على بن أبى طالب يوم خيبر ـ وكان فتحها على يده ـ كانت بيضاء (السيرة ، جوتنجن سنة ١٨٥٩ ، صفحة ٧٥٦) ومما ينبغى ان يلتفت اليه فى هذا الشأن ايضا اشارة البحترى الى خضرة لباس كسرى فى وصفة للصورة التى رآها له فى الايوان بقوله فى ديوانه ، طبع الجوائب سنة ١٣٠٠ ، ١/١٠٩ :

والمنايا مواثل وانوشروا ن يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على اصفر يختال فى صبيغة ورس

يضاف الى ذلك ان حمزة بن الحسن الاصفهانى (المتوفى قبل سنة ٣٦٠) ذكر فى كتابه « تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء» ، برلين ١٣٤٠ ، ص ٣٥ ، أن شعار هرمز بن سابور (وكان من الملوك الاشغانية الذين حكموا بعد الاسكندر) كان « احمر موشى وسراويله اخضر وتاجه ايضا اخضر فى ذهب » ٠

من الحرائر ، وقد تنبه الخوارزمى فى رسائله الى ذلك فقال : « والمتوكل زعموا انه تسرى باثنى عشر الف سرية ، والسيد من سادات اهـــل البيت يتعفف بزنجية او سندية» (١١٩) . وقد تطرقنا الى هذا الموضوع لاننا ـ فى كتب الشيعة ـ نصادف اخبارا اسطورية كثيرة جدا تدور حول الجوارى التى يلدن للائمة ابناءهم يحاول بها راووها ان يغطوا على هذه الناحية من سير امهات الائمة التى تسأل عنها الظروف المادية السيئة التى عانوها .

وكان الرضا مشتغلا بالعلم كجده وابيه حتى روى عبدالله بن جعفر الحميرى انه اجاب على خمسة عشر الف مسألة وكان ذلك قبل ان يجمـــع الناس على فضله (١٢٠) ، وكان صاحب كرامات وفراسة يشفى المرضى ويعرف الرجل الاتى من العراق بالاسم قبل دخوله عليه (١٢١) وكان غلامه يصب الماء على يديه فيسيل من بين اصابعه فى الطست ذهبا (١٢٢) ، وكان يمثل فى علمه جده جعفرا الصادق وكانت له آراء فى الامامة وانتقالها وعلاماتها .

وللرضا صحيفة تضم مجموعة من الاحاديث يرويها عن ابائه عـــن النبى ويشترك فى سندها القشيرى الذى يرويها سنة ٥٠١/١٨٠٧ـ٨ (١٢٣) وقد كتب السيد فضل الله الراوندى شرحا للقسم الطبى منها (١٢٤) . وينص الحديث الثانى من صحيفة الرضا على أنه : « قال رسول الله : اربعـــة انا لهـــم شفيع يوم القيامة ولو اتوا بذنوب اهل الارض : المكرم لذريتى ، والقـــاضى لهم حوائجهم ، والساعى لهم فى امورهم ـ عند من اضطروا اليه ، والمحب

---

(١١٩) رسائل الخوارزمى ٨١ .
(١٢٠) غيبة الطوسى ٥٢ .
(١٢١) اصول الكافى ٩١ .
(١٢٢) المصدر نفسه ١٣٣ .
(١٢٣) صحيفة الرضا ٩٢ . مات القشيرى سنة ٤٦٥ .
(١٢٤) روضات الجنات ١٨٢

لهم بقلبه ولسانه»[١٢٥] . وفى الصحيفة احاديث ذوات مسحة زهدية تشى بالتصوف كحديث : «... واول من يدخل النار امير مسلط لم يعدل وذو ثروة من المال لم يقض حقه وفقير فخور» [١٢٦] ويجب ان نتنبه الى ان الفقير الفخور ، فان فى ايام الرضا كانت بداية ظهور التصوف بمعناه الخاص . بل ان فى الصحيفة حديثا ينبىء برفع الوساطة بين الانسان والله ، مع ان الشيعة تعتقد ان الائمة هم شفعاء البشر اليه وهم الواسطة ، وهذا الحديث هو : « قال رسول الله : يقول الله عزوجل : ما من مخلوق يعتصم بى دون خلقى الا ضمنت السموات والارض رزقه فان سألنى اعطيته وان دعانى اجبته ، وان استغفرنى غفرت له »[١٢٧] ، وهذا حديث قدسى التوكل فيه ظاهر . وفى الصحيفة حديث اخر يحض على التوكل ايضا : « لو رأى العبد اجله وسرعته اليه لابغض الامل وطلبه الدنيا»[١٢٨] . وفى الصحيفة مجموعة من الاحاديث الطبية واحاديث تدور حول الطعام وصفات الناس ومنها حديث زهدى يتعلق بالجوع : « ليس شىء ابغض الى الله من بطن ملان»[١٢٩] . وينقل الحاج معصوم على عن صحيفة الرضا ايضا حديثا غريبا يبدو فيه السلوك واضحا ونسبته الى الرضا عسيرة . وهو غير متضمن فى النسخة المطبوعة من الصحيفة ، ويبدو أنه ينقل عن جامع الاسرار وينسب الى الصحيفة . وذلك انه يروى عنه انه قال ـ والاحاديث فى الصحيفة كلها مروية عن النبى (ص) : «ان لله تعالى وتبارك شرابا لاوليائه اذا شربوا سكروا، واذا سكروا طربوا ، واذا طربوا طابوا ، واذا طابوا ذابوا ، واذا ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا وصلوا ، واذا وصلوا اتصلوا ، واذا اتصلوا لافرق بينهم وبين

---

(١٢٥) صحيفة الرضا ٩٢ .
(١٢٦) المصدر نفسه ٩٥ .
(١٢٧) المصدر نفسه ٩٤ .
(١٢٨) المصدر نفسه ١١٣ .
(١٢٩) صحيفة الرضا ١٠٤ .

حبيبهم »[١٣٠] ويروى الخوانسارى هذا الحديث ايضا غير انه يسنده الى جد الرضا : جعفر الصادق ويضيف اليه عبارة : « واذا طربوا طلبوا ...» غير ان الافلاكى روى ان جلال الدين الرومى سئل عن معنى عبارة مقاربة لهاتين على انها حديث نبوى ، فأجاب بأن المقصود بالشراب الخمر الالهية على اساس الحديث « اخترت اللبن واختبأت الخمر لاوليائى »[١٣١] . ومما تجب ملاحظته انه وردت فى الطواسين عبارة مقاربة فى معناها ومبناها ، قال الحلاج : «فكان قاب حين تاب وأصاب ودعى فأجاب وابصر فغاب وشرب فطاب وقرب فهاب ...»[١٣٢] فالشرب الذى يعقبه الطيب الصق بسكر الحلاج ولعل عبارة الامامين مؤصلة من هذا المصدر ومنحولة عليها . والاغرب من هذا ان الحاج معصوم على يروى عن كتاب «فقه الرضا» خبرا يدخل فى التصوف المتأخر ، وذلك انه ينقل ـ عند ذكر تكبيرة الاحرام ـ : « تذكر رسول الله واجعل واحدا من الائمة نصب عينيك . وهذه هى مراقبة الذكر من حيث ان من شروط الذكر حضور صورك اى صور الشيخ الروحانية النورانية التى هى هيكل ومظهر رسول الله ، وثمة رسول ظاهرى ورسول باطنى ومنه السلام على هياكل التوحيد »[١٣٣] ، وقد قال بهذه المقالة بالذات متصوف شيعى متأخر هو الجنابذى المتوفى منذ حوالى نصف قرن ، ونسبها الى جعفر الصادق ، وذلك انه يقول فى تفسير : الصراط المستقيم : « وصح ان يقال : ان بشرية الامام ومعرفة بشريته من دون معرفة نورانيته والاتصال ببشريته ، والبيعة معه طريق الى الله ، وان الطريق الى الله هو نورانية الامام ومعرفتها والاتصال بها ، ويسمى الاتصال بالامام ومعرفته بحسب نورانيته ـ

---

(١٣٠) طرائق الحقائق ١/ ٢٣١ ، جامع الاسرار ورقة ٩٧ أ .

(١٣١) مناقب العارفين لاحمد الافلاكى (متوفى سنة ٧٦٠) اسطنبول ١٩٥٩ ، الصفحة ٣٥١ .

(١٣٢) الطواسين ٣٢ .

(١٣٣) طرائق الحقائق ١/ ٢١٧ ترجمة .

عند الصوفية بالحضور والفكر • واول مرتبة ذلك الاتصال والمعرفة هو ظهور الامام بحسب مقام مثاله على صدر السالك الى الله • وليس المراد بهذا الفكر الحضور وما اشتهر بين مرتاضى العجم من جعل صورة الشيخ نصب العين بالتعمل ، وان كان ورد عن ائمتنا الاشعار بمثل هذا المعنى ، فانه ورد عن الصادق (ع) وقت تكبيره الاحرام : « تذكر رسول الله واجعل واحدا من الائمة نصب عينيك » فانه تقيد بالصورة وشبيه بعبادة الاصنام • بل المراد ان السالك ينبغى ان يجلو مرآة قلبه بالذكر والاعمال المأخوذة من شيخه، فاذا اجتلى الذهن ونوى الذكر وجلا القلب من الاعيان ظهر الشيخ بمثاله على السالك •••• واذا ظهر الشيخ بمثاله رفع كلفة التكليف عنه والتذ بحضوره عند محبوبه ورأى ان كل مايرد عليه انما هو من محبوبه فيلتذ بها ••»[١٣٤] وللرضا ـ بعد هذا ـ صلة بمعروف الكرخى (المتوفى سنة ٢٠٠/٨١٥-١٦) : استاذ السرى السقطى المتوفى سنة ٢٥٣/٨٦٧ ومن اول الشارعين للتصوف طريقته واول قائل بالولاية الصوفية على صورتها التى ثبتت للمتصوفة • ويحدثنا القشيرى عن ابى على الدقاق ان معروفا اسلم على يد على بن موسى الرضا [١٣٥] وكان من مواليه [١٣٦] ويروى القشيرى ايضا ان الرضا نفسه هو الذى شجعه على الزهد بعد سماع معروف لابن السماك وهو يعظ الناس «فوقع كلامه فى قلبى ، فاقبلت على الله وتركت جميع ما كنت عليه الا خدمة مولاى على بن موسى الرضا ، وذكرت هذا الكلام لمولاى فقال : يكفيك بهذا موعظة ان اتعظت» [١٣٧] ، ومن هنا نستطيع ـ ان صحت هذه الرواية ـ ان نجد تعليلا شيعيا معقولا لقول معروف للسرى السقطى : « اذا كانت لك حاجة الى الله فاقسم عليه بى »[١٣٨] وذلك انه اخذ عن

---

(١٣٤) تفسير المنير المسمى ببيان السعادة •
(١٣٥) الرسالة القشيرية ١٢ •
(١٣٦) طبقات الشعرانى ٦٢/١ •
(١٣٧ ، ١٣٨) الرسالة القشيرية ١٢ •

الامام الرضا [١٣٩] . ويذكر الحاج معصوم على نقلا عن كتاب (مجالس المؤمنين) ان معروفا انقذ سفينة من الغرق برقعة زود بها تاجرا هدأ لها الماء حين ثار ، وكان فى هذه الورقة دعاء مأثور عن الامام الرضا وقد كتبه معروف عنه [١٤٠] . وقد كان قبر معروف اقدم مقام صوفى يزوره الناس ويتبركون به ، ويقول فيه القشيرى : « قبر معروف ترياق مجرب» [١٤١] ولعل لذلك مدخلا الى صلته بالتشيع واسلامه على يد امام الشيعة الرضا .

ويوافق الحاج معصوم على ان الامام الرضا كان صاحب طريقة وان « معروفا اخذ عن حضرة امام العالمين وقطب دائرة الامكان : على بن موسى الرضا عليهما السلام الفيض ومنه تعلم الطريق وعنه تسلم منصب مشيخة المشايخ ، واذن له ان يوصل المريدين الصادقى العقيدة وانصار الائمة الى الطريقة الرضوية العلوية المصطفوية التى هى عبارة عن العبادة وتزكية النفس وتصفيتها » [١٤٢] . وينقل عن القاضى نور الدين الشوشترى ان معروفا «.. كان اخذا من العلوم الظاهر والباطن» [١٤٣] ونحن نعلم صلة الظاهر والباطن بالتشيع وعلم الائمة . ويوافق الحاج معصوم على على مايراه الشاعر الصوفى محمد تقى الكرمانى من ان « الشيعة صنفان : فريق اختص بالشريعة وحفظها ، وفريق اختص بالطريقة وهم حملة السر . وكان اوائل حملة السر : سلمان الفارسى واويس القرنى ورشيد الهجرى وكميل بن

---

(١٣٩) كانت الدولة العباسية ايام الرضا شيعية ، وذلك ان المأمون جعله ولى عهده لمحاولة تألف قلوب الناس ضد قومه العباسيين الذين حاربوه ونصروا اخاه الامين . وروى لنا ابن كثير ان المأمون « اظهر فى الناس بدعتين فظيعتين احداهما آثم من الاخرى وهى : القول بخلق القرآن والثانية تفضيل على بن ابى طالب على الناس بعد رسول الله ص» (البداية والنهاية ١٠/٢٦٧-٨)

(١٤٠) طرائق الحقائق ٢/١٢٩ .

(١٤١) الرسالة القشيرية ١٢ .

(١٤٢) طرائق الحقائق ٢/١٣٣ ترجمة .

(١٤٣) المصدر نفسه ١/٢٣٤ .

زياد والشيخ بسطام (يعنى ابا يزيد البسطامى) وشقيق البلخى ومعروف الكرخى • فكان الرواة حملة العلم الظاهرى والعارفون حملة السر القاهرى• وكان الرواة يحفظون الاحكام الظاهرية والعارفون مكلفين بحفظ الاسرار العميقة» (١٤٤) • ويعود الحاج معصوم على فينقل ان الامام الرضا هو مجدد الدين فى المائة الثانية وان معروفا الكرخى هو مجـــدده باعتبـــاره مـــن الزهاد »(١٤٥) • ويكفينا الشيخ محمد باقر الفت الاصفهانى الصوفى الايرانى العالم المعاصر المولود سنة ١٣٠١/١٨٨٣-٨٤ هذا التحسس بان الرضـــا قـــد سلم الطريقة الى معروف الكرخى واختصه بها فانفصلت عن الامامة وبقيت الشريعة والعلم الظاهرى لدى الائمة ابتداء من محمد الجواد الذى تســـلم الامامة من الرضا سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ وله سبع ســـنين (١٤٦) • ويعتبر معروف الكرخى اخر صوفى اتصل بالائمة مع ملاحظة ان الرواة نقلوا لقاء ابى يزيد بالصادق (١٤٧) وذلك امر مستحيل لان الصـــادق توفى فى القرن الثانى سنة ١٤٨/٧٦٥ وابو يزيد متأخر عن ذلك كثيرا • ولم يرد عن اتصال الائمة بعد الرضا بالمتصوفة خبر بل لقد روى عن على الهادى الامام العاشـــر انه كان خصما للصوفية ولو كانوا معترفين بحق العلويين ومكانتهم وقـــد روى عنه انه قال : الصوفية كلهم مخالفونا (١٤٨) وسيمر بنـــا السبب فى هـــذا •

وبذلك يتضح لنا ان الفكرة القائلة بانتقال القسم الباطن من العقيدة الى معروف والمتصوفة ، وبقاء القسم المتصل بظاهر الشريعة فى الائمة بعد الرضا

---

(١٤٤) طرائق الحقائق ٢/١٣٥ ترجمة •
(١٤٥) المصدر نفسه ١/٢٣٥ •
(١٤٦) مقابلة مع الشيخ الفت •
(١٤٧) روضات الجنات ٦٨٤ •
(١٤٨) روضات الجنات ٢٣٣ •

آتية من اتصال معروف الكرخى بالرضا الذى ذكره المتصوفة واصروا عليه وعنهم نقل من نقل من الشيعة • وتلك ظاهرة تبدو فيها محاولة التصوف ان يؤسس له اساسا من التشيع القائل بالظاهر والباطن من بداية تنظيم التصوف وايجاد قواعد له يرتفع عليها بناؤه • ولا يدع اصحاب كتب التصوف معروفا الكرخى بل يلزمونه صحبة الامام الرضا الى مماته بوصفه حاجبـــا له بل يجعلون موت معروف على باب دار على بن موسى حين كسر الشيعة اضلعه بازدحامهم على الباب »(١٤٩) • ومهما يكن من امر العلاقة بين الرضا ومعروف الكرخى فقد كانا متعاصرين والغالب ان الامام لم ينزل بغداد ولم يقم بها وانما التقى بالمأمون فى طوس سنة ٢٠٠ (وهى السنة التى توفى فيها معروف) وتوفى بها (اى الرضا) سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ ، ولم يورد احد خبـــرا ينبىء باقامة الرضا فى بغداد ، ولكن ذلك لايمنع ان يكونا التقيا ، وليس هذا مجـــال مناقشته • على ان ذلك كله ينبىء بزهد الرضا على الاقل ، ومن المعروف انه كان يكثر وعظ المأمون اذا خلا به ومن ذلك انه «رآه يوما يتوضأ للصـــلاة والغلام يصب على يده الماء ، فقال : يا امير المؤمنين لاتشـــرك بعبـــادة ربك احـــدا »(١٥٠) •

ومات الرضا مسموما كما يرى اكثر المؤرخين وخلفه فى الامامة ابنـــه محمد الجواد وكان له سبع سنين كما روينا • وقد حالت حداثة سنه ووفاته دون ان يتجاوز الخامسة والعشرين دون الاستفادة من علمه(١٥١) وجاء بعده ابنه على الهادى وله من العمر ست سنين وكان مراقبا فى سر من رأى • وخلفه ابنه الحسن العسكرى (نسبة الى العسكر فى سر من رأى) ولم تكن ظروفه

---

(١٤٩) طبقات الصوفية ٨٥ •
(١٥٠) مقاتل الطالبيين ٥٦٦ •
(١٥١) يرى ابن خلكان أنه قدم بغداد وافدا على المعتصم ومعه امرأته أم الفضل بنت المأمون فتوفى بها وحملت امرأته الى قصر عمها المعتصم فجعلت مع الحرم (وفيات الاعيان ، باريس ١٨٣٨ ، ١/٦٣٢) •

احسن من ظروف ابيه ، ومات الحسن وله من العمر ثمان وعشرون سنة عام ٢٦٠/٨٧٣-٧٤ وخلف طفلا فى الخامسة على اكثر تقدير او ولد بعد موته بثمانية اشهر كما سيتبين لنا فيما بعد . ولكن هذا الوليد لم يظهر للناس اماما وانما اختفى من يوم وفاة ابيه وغاب غيبة صغرى - بعد تسليم الوكالة عنه الى سفرائه الاربعة - وانتهت الغيبة الصغرى سنة ٣٢٩/٩٤٠-٤١ ، فغاب ثانية ولم يظهر حتى الان . والشيعة ينتظرون ظهوره ليملاء الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا . ويحسن بنا ان نقف هنا قليلا لنرى كيف تطورت فكرة المهدى بعد ان تركناها عند محمد بن عبدالله بن الحسن .

المهدى :

ولد محمد بن الحسن سنة ٢٥٦ وصار اماما للناس وله من العمر خمس سنين حين توفى ابوه الحسن العسكرى سنة ٢٦٠/٨٧٣-٤[١٥٢] ، وقد مر بنا ان جد ابيه محمدا الجواد قد صار اماما وله سبع وجده عليا الهادى وله ست ، فصغر السن ليس غريبا على أئمة الامامية المتأخرين وقد رأينا مقارنة الجواد بيحيى والمسيح وها هو صاحب اخبار الدول يقول فى المهدى : « وكان عمره عند وفاة ابيه خمس سنين آتاه الله فيها الحكمة كما اوتيها يحيى عليه السلام صبيا »[١٥٣] . والغريب ان محمد بن الحسن لم يتسلم الامامة لكى يعكسها على الناس بنفسه وانما تسلمها وغاب عنهم ، وقد رأينا المهديين السابقين يسبغ عليهم هذا الوصف بعد موتهم كجل الائمة السابقين او يعتبرون مهديين فى حياتهم يراد منهم الثورة وتبديل الظلم والجور بالقسط والعدل كما تطلب الناس من محمد بن الحنفية وكما فعل محمد بن عبدالله بن الحسن . اما مهدى الامامية - الذين صاروا الان الاثنا عشرية بعد ختام أئمتهم بالمهدى - فقد اختفى مهديهم وهو صغير حال امامته لهم ،

---

(١٥٢) الغيبة للطوسى ٢٥٦ .
(١٥٣) اخبار الدول ١١٧ .

وبعد ان كانت المهدية عامل قوة للشيعة صارت عامل ضعف كما يبدو ذلك من تصريح الشيعة بان غيبة المهدى انما كانت خوفا عليه من الطلب (١٥٤) .

ويجب ان نلتفت هنا الى ان فكرة جديدة قد دارت حول مهدية اخرى هى مهدية الاسماعيلية التى رأيناها تعنى انتهاء رسالة دينية وبداية رسالة اخرى وكان رأسها محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ١٩٨/٨١٣-١٤ . وبذلك يتبين لنا اتجاهان يضافان الى الاتجاه الاثنا عشرى فى المهدية : الاتجاه الزيدى الذى اتخذ المهدية شرطا للامامة ، ويعنون بذلك ان الامام هو القائم بالسيف لدفع الظلم واشاعة العدل فصارت المهدية عندهم هى الامامة بذاتها . اما الاتجاه الاخر فهو الاسماعيلى الذى لم يرد من المهدية القيام بالسيف واشاعة العدل ومحق الظلم وانما عنى بها قيام دين يصلح ماتغير من مثل الاسلام او يحل محله . فانفصلت فكرة السيف عن مهدية الاسماعيلية واتصلت بها فكرة معنوية هى تجديد الدين . ثم جاءت خاتمة مهديات الامامية فاتصلت بالسيف من جديد ولكن فى وقت مناسب للقيام ، ولا يعلم هذا الموعد الا الامام وحده (١٥٥) .

ونعود الى محمد بن الحسن من جديد فنجد الشيعة - بعد موت الحسن بن على الامام الحادى عشر - برواية النوبختى افترقوا اربع عشرة فرقة لم تعترف بالمهدى منها غير ثلاث فقط ، وانكرت العشر الباقيات ان يكون للحسن ولد اصلا ، وقالت احدى الثلاث : « ان للحسن بن على ابنا سماه محمدا ودل عليه ... وولد قبل وفاته بسنين» (١٥٦) وقالت الثانية « بل ولد

---

(١٥٤) الغيبة للطوسى ٥٥ .

(١٥٥) يقول ابو الحسن الاشعرى فى وصفه للروافض - ويعنى بهم الشيعة من غير الزيدية والغلاة - : و « اجمعت الروافض على ابطال الخروج بالسيف - ولو قتلت - حتى يظهر الامام وحتى يأمرها بذلك ، واعتلت فى ذلك بان النبى (ص) - قبل ان يأمره الله عز وجل ، بالقتال - كان محرما على اصحابه ان يقاتلوا » (مقالات الاسلاميين ٥٨/١) .

(١٥٦) فرق الشيعة ١٠٢ .

للحسن ولد بعده بثمانية اشهر وان الذين ادعوا له ولدا فى حياته كاذبون مبطلون»[١٥٧] وقالت الثالثة وهى فرقة الاثنا عشرية التى انضمت اليها سائر الفرق الامامية الاخرى بعدئذ بهذين القولين وغلبت الرأى الاول . والغريب فى الامر ان فرقة من فرق الشيعة حين سئلت عن المهدى قالت: «لاندرى ما نقول فى ذلك (الامام) اهو من ولد الحسن ام من اخوته ؟ فقد اشتبه علينا الامر : انا نقول : ان الحسن بن على كان اماما وقد توفى وان الارض لاتخلو من حجة ، ونتوقف ولا نقدم على شىء حتى يصح لنا الامر ويتبين»[١٥٨] . وهكذا نصل فى نهاية الامر الى ان جوهر الامامة هو الذى اوجب القول بالمهدية ، فان بعض الشيعة لم يرضوا بامامة جعفر اخى الحسن بن على فاضطر بعضهم الى العودة الى القول بامامة محمد بن الامام العاشر[١٥٩] على الهادى الذى كان مرشحا للامامة وتوفى فى حياة ابيه كما توفى اسماعيل فى حياة جعفر الصادق ، وقال بعضهم بامامة جعفر نفسه على ماكان له من صلات بالسلطان ، بل لقد قال بعضهم بان جعفرا هذا هو القائم المهدى و «انه افضل الخلق بعد رسول الله»[١٦٠] ، وقال بعضهم بمهدية الحسن العسكرى الامام الحادى عشر و « انه حى لم يمت وانما غاب وهو القائم ولا يجوز ولا ولد له ظاهر لان الارض لاتخلو من امام»[١٦١] . واغرب من هذا كله ان فرقة شيعية قالت فى المهدى : انه « قد مات وسيحى ويقوم بالسيف»[١٦٢] ولعل هذا يفسر لنا الحيرة التى كانت تستبد بالشيعة من غيبة امامهم وخوفهم من الضياع . ويبدو ان هذا الرأى قد رآه النوبختى وهو من كبار الشيعة المعروفين ،

---

(١٥٧) فرق الشيعة ١٦٠ .
(١٥٨) المصدر نفسه ١٠٦ .
(١٥٩) المصدر نفسه ١٠٠ .
(١٦٠) المصدر نفسه ١٠٨ .
(١٦١) المصدر نفسه ٩٦ .
(١٦٢) المصدر نفسه هامش ٩٦ .

بل لقد كان ابو سهل النوبختى خال صاحب فرق الشيعة يرى « ان الامام محمد بن الحسن ولكنه مات فى الغيبة وكان تاليه فى الغيبة ابنه وكذلك فيما بعده من ولده الى ان ينفذ الله حكمه فى اظهاره» (١٦٣) . وهذه الفكرة تخرج بالامامة عن حد الاثنا عشرية وتجعلها امامة تشبه الاسماعيلية المستورة . ومهما يكن من شىء فقد زالت كل الافكار الدائرة حول مهدية الائمة السابقين وغيرهم والتف الشيعة حول مهدية محمد بن الحسن متفقين فى النهاية على انه حى لم يمت وانه ولد سنة ٢٥٦/٨٧٠ .

وكما كان فى النبى(ص) علامة بحث عنها سلمان ووجدناها فى محمد ابن عبدالله بن الحسن الثائر بالمدينة على انه المهدى المنتظر وقد ولد « وبين كتفيه خال اسود كهيئة البيضة عظيم» (١٦٤) كذلك وجدنا فى اخبار المهدى انه كان يتميز بعلامة رآها رجل من اهل فارس حكى عنه ضوء بن على العجلى انه قد شهد ولادة المهدى فاذا هو «غلام ابيض حسن الوجه ، وكشف عن بطنه فاذا شعر نابت من لبته الى سرته اخضر ليس باسود» (١٦٥) ولعل فى هذه العلامة الفرق بين مهدى الاثنا عشرية ومحمد بن اسماعيل مهدى الاسماعيلية الذى ظهر للتبشير بعقيدة جديدة لان الاثنا عشرية قد تحاموا ان يعقدوا صلة بين مهديهم وبين النبى الجديد فغيروا علامة مهديهم تمييزا له عن ان يقرن اسمه بالنبوة ، وعلينا ان نتنبه الى مصدر هذا الخبر فان راوية هو احد العجليين الذين تبنوا الغلو واشاعوه فى بداية القرن الثانى وها نحن فى القرن الثالث وما زال العجليون ممسكين بزمام الاساطير الشيعية .

وهناك شىء اخر هو ان القائلين بمهدية محمد بن الحسن قد عادوا

---

(١٦٣) الفهرست ٢٥١ .
(١٦٤) مقاتل الطالبيين ٢٣٧ .
(١٦٥) اصول الكافى ١٤١ .

يستندون الى الاخبار السابقة التى تقول بمهدية عيسى بن مريم بعد ان تقطعت الاسباب بهذه الفكرة حتى تبددت فى مهدى الاسماعيلية ، وعادت الان فى شخص المهدى الاخير ، وذلك ان ابن بابوية القمى المتوفى سنة ٣٨١/٩٩١

ذكر عن محمد بن الحسن انه هو المهدى الذى اخبر به النبى و «انه اذا خرج نزل عيسى بن مريم يصلى خلفه ، ويكون اذا صلى خلفه كمن كان مصليا خلف رسول الله لانه خليفته» (١٦٦) ، ويروى الكنجى عن سفيان الثورى حتى يصل الخبر الى حذيفة بن اليمان الذى عرفنا منزلته من الاسرار، انه قال : « قال رسول الله (ص) : فيلتفت المهدى وقد نزل عيسى كأنما يقطر من شعره الماء فيقول للمهدى : تقدم صل بالناس فيقول عيسى : انما اقيمت الصلاة لك . فيصلى عيسى خلف رجل من ولدى ، فاذا صليت قام عيسى حتى يجلس فى المقام فيبايعه فيمكث اربعين سنة »(١٦٧) ، وهكذا يتبين الغرض الذى من اجله وصل المهدى بالمسيح وذلك لتبدو امامته من جنس نبوة محمد التى بشر بها المسيح وراقب حدوثها سلمان الفارسى احد الشيعة القدماء ، وهاهو ذا شيعى اخر يروى عنه هذا الخبر الذى وجه الى الغرض نفسه . ولكن الكنجى يفصل فكرة المهدى عن التشيع خاصة ويجعلها ضرورة من ضرورات الاسلام ويقول فى اخباره التى تدور حول المهدى : « وهذه الاخبار مما ثبت طرقها وصحتها عند السنة وكذلك ترويها الشيعة على السواء فهذا هو الاجماع من كافة اهل الاسلام »(١٦٨) ثم ان ابن خلدون يؤيد صلة المسيح بالمهدى ويذكر « ان عيسى يأتم بالمهدى فى صلاته» (١٦٩) ولكنه يعقب على ذلك بان هذا المهدى هو الفاطمى المنتظر ويذكر ان الصوفية تقول بنفس المقالة اخذا عن

---

(١٦٦) اعتقادات الصدوق ٣٨ .
(١٦٧ ، ١٦٨) البيان ٣١٩ .
(١٦٩) المقدمة ٣١١ .

الاسماعيلية [١٧٠] . والواقع ان مهدية الاسماعيلية قد حققت رسالتها وليس لمهديهم صلة بالقيامة واشراط الساعة التى هى علامات ظهور مهدى الاثنا عشرية . وقد غفل ابن خلدون عن هذه الحقيقة ولم يلاحظ ان المهدى قد كان ابن جارية مسيحية [١٧١] ولم يلتفت الى ان صلة مهدى الاثنا عشرية قد جاءت من هذه الناحية . وهكذا تتبين الصلة التى تجددت بين المسيح وبين المهدى من كون امه من نسل الحواريين من بنات الملوك [١٧٢] لتتم بذلك فكرة الامتزاج بين الدين المسيحى والاسلام بالصهر كما امتزجت الديانات الفارسية القديمة بالاسلام بمصاهرة الحسين للفرس بزواجه شهربانو بنت يزدجرد . ومن هنا يتبين لنا ان اية فكرة تربط المهدية بالمسيحية وتمزجهما انما هى آتية من طريق الاثنا عشرية الى الفرق الشيعية الاخرى .

وعلينا ان نذكر ان ابن خلدون يذكر بان الصوفية تقول بمقالة الشيعة فى المهدى اخذا عن الاسماعيلية أما ما يتعلق بالاسماعيلية فقد بيناه ، واما ما يتعلق بالتصوف فتحقيقه ان الصوفية يتصلون فى اكثر عقائدهم الاثنا عشرية لا الاسماعيلية ، وذلك ان اتصال رجالهم بالائمة انما كان قاصرا على الائمة الاثنا عشرية وبخاصة الامام الثانى على بن موسى الرضا الذى رأينا اتصال معروف الكرخى به واخذه عنه ، ولانجد فى كل السلاسل الصوفية سندا يتصل بامام اسماعيلى بعد الصادق ، وانما تقوم الصلة ـ اذا استندت الى سند علوى ـ بادئة من على بن موسى الامام الثامن من الاثنا عشرية حتى تصل الى على ، او تقوم من المتصوفة انفسهم حتى تصل الى على ، وليس هذا مجال الاستطراد فى الافكار الصوفية عن المهدى ولكن هذه اشارة صغيرة لايضاح فكرة طارئة . وعلينا ان نذكر هنا ان ابن عربى ـ فى اكثر ما اورده عن المهدى ـ كان يستند الى اسئلة الترمذى المتضمنة للبحث حول الاولياء والمتعلقة

---

(١٧٠) المقدمة ٣٢٣ .

(١٧١ ، ١٧٢) غيبة الطوسى ١٣٤ .

بالمهدى قطعا ، (وقد توفى الترمذى سنة ٨٩٨/٢٨٥ اى كان معاصرا لغيبة المهدى (الاثنا عشرى) ، وكذلك نجد عند النفرى الصوفى (المتوفى سنة ٩٦٥/٣٥٤) فكرة كاملة عن المهدية ضمنها كتابه المخاطبات الذى نعرض له فيما بعد • وبذلك يحق لنا ان نتلقى بالشك مقالة ابن خلدون عن المهدية من ان المتقدمين من المتصوفة « لم يكونوا يخوضون فى شىء من هذا وانما كان كلامهم فى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والاحوال»(١٧٥) • ويشير ابن عربى فى تعرضه لمستند ختم الاولياء من القرآن انه « ذكّر بما دل عليه ابو يزيد (البسطامى) فى مناجاته بسماء التوحيد وشاركه فى اوضح الاسماء صاحب سورة الاسراء» (١٧٤) • بل ان الحلاج نفسه قد حاول ان يجعل من نفسه وكيلا لمحمد بن الحسن مهدى الشيعة الاثنا عشرية ، ويذكر الطوسى انه صار الى قم (المدينة الشيعية القديمة) وادعى انه رسول الامام ووكيله(١٧٥) ويرد فى نشوار المحاضرة ان الحلاج « راسل ابا سهل بن نوبخت (الذى مر بنا رأيه فى المهدية) يستغويه • وطلب اليه ان ينبت شعرا فى صلعته ليقول : انه نائب الامام»(١٧٦) ولكن الحلاج لم يعد الى مقالته ويرد مثل ذلك فى الفهرست(١٧٧) • بل لقد ادعى سيد حسن العراقى المتصوف المتوفى سنة ٩٧٣/١٥٦٥-٦ انه رأى المهدى ودعاه عنده فى بيته فاقام سبعة ايام بلياليها ولقنه الذكر (١٧٨) • وهكذا يتبين اتصال المتصوفة فى فكرة المهدى بالشيعة الاثنا عشرية • ويزيد ذلك وثاقة ان محمد بن زينب يقول : ان هذه الغيبة لو لم تكن ••• لكان مذهب الامامة باطلا» (١٧٩) •

---

(١٧٣) المقدمة ٣٢٣ •
(١٧٤) عنقاء مغرب ٧٢ •
(١٧٥) غيبة الطوسى ٢٦٢ •
(١٧٦) نشوار المحاضرة ٨١ •
(١٧٧) الفهرست ٢٦٩ •
(١٧٨) طبقات الشعرانى ٢/١٢٦ •
(١٧٩) غيبة الطوسى ٢١٦ •

ونشأت فكرة متى يظهر المهدى بعد ان طال الزمن على غيبته ، والفكرة الاساسية هى ما يعرضه الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠/١٠٦٧-٨ من ان « الله اعلمه على لسان نبيه (ص) واوقفه عليه من جهة زمان غيبته وزمان زوال الخوف عنه ... وانما اخفى ذلك عنا لما فيه من المصلحة . فاما هو فعالم به لايرجع الى الظن» (١٨٠) فالغيبة رهن بالموعد الذى حدد لها والظهور يتوقف على زوال الخوف ، هذا هو توقيت الظهور فى بساطة . ولكن الزمن مضى ، دون ان يظهر المهدى ، وقد قطع الشيعة الطريق على كل محاولة للتوقيت ولعنوا الوقاتين (١٨١) ، وقام بهذه المهمة المتصوفة وبعض قبالى اليهود بان «انتهجوا تأويلا قباليا لآيات القرآن وسوره وتجميعات للحروف والاعداد» (١٨٢) غير ان الشيعة استبدلوا الوصف بالتاريخ فحددوا مظاهر اجتماعية هى علامات الظهور وتدل فى الواقع على الفكرة التى تحوج العالم الى ظهور امام يملؤه قسطا وعدلا كما ملىء ظلما وجورا كتحديد الكلينى ذلك رواية عن محمد الباقر من ان الظهور يكون حين « تخرج الفتاة من خدرها وتوقظ النائم ، ويفزع اليقظان» (١٨٣) ويحدد عمار ذلك باستيلاء الترك والروم على العالم الاسلامى بعد نهاية «خليفتكم الذى يجمع الاموال» (١٨٤) وهذه العلامات تعنى تفسخ العالم خلقيا واجتماعيا وسياسيا ولذلك اختلطت علامات الظهور باشراط الساعة وجوهر الامرين واحد . وهذا سلمان الفارسى يسأل النبى عن موعد الساعة فيجيبه : « فمنها اضاعة الصلوات واتباع الشهوات والميل الى الاهواء وتعظيم اصحاب المال ... ان عندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا ويؤتمن الخائن ويخوّن الامين ... فعندها امارة النساء .. تشارك المرأة زوجها فى التجارة ، وعندها يكتفى الرجال بالرجال والنساء

(١٨٠ ، ١٨١) غيبة الطوسى ٢٧٧ .
(١٨٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٩٣ .
(١٨٣) الغيبة لابن زينب ١٣٣ .
(١٨٤) البيان للكنجى ٢٩٣ .

بالنساء ... ويظهر الربا ويتعاملون بالعينة والرشا ... ويكثر الطلاق ... وتفشو الفاقة ... ويستحسنون الكوبة والمعازف وينكرون الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى يكون المؤمن فى ذلك الزمان اذل من فى الامة .... ويتكلم فى أمر العامة من لم يكن يتكلم ، فلا يلبثون قليلا حتى تخور الارض خورة [١٨٥] وتبدو صلة القيامة بظهور المهدى من انه « اذا قام اشرقت الارض بنور ربها واستغنى الناس ويعمر الناس فى ملكه» [١٨٦] ويوثق ذلك خبر يروى عن عمار بن ياسر ايضا انه قال : ان دولة اهل بيت نبيكم فى آخر الزمان» [١٨٧] . وقد تركزت الرجعة فى قيام المهدى الى حد ان الحديث عنها وتوكيدها والتدليل عليها صار امرا ليس له داع . ومما يذكر الشيعة فى ذلك « ان شعيب بن صالح هو صاحب لوائه » [١٨٨] وشعيب هو الذى ردت له الشمس كما ردت لعلى – فى رأى الشيعة – فيما بعد . ومن اخبار الرجعة ان جيش المهدى يعد ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا عدة اهل بدر» [١٨٩] ، منهم النجباء من اهل مصر والابدال من اهل الشام والاخيار من اهل العراق» [١٩٠] . بل يروى الشيعة ان عليا نفسه سيحكم بعد المهدى ويطلب بدم الحسين [١٩١] والدخول فى هذه التفاصيل لا ضرورة له ولكن علينا ان نتذكر بان كل هذه المثل يراد بها الانتقام ممن قاسى الشيعة على ايديهم الجور والقسوة والقتل .

ونذكر فى ختام هذا الفصل ان الشيعة قد ارادوا من فكرة المهدى ان

---

(١٨٥) تفسير على بن ابراهيم ١٨٨ .
(١٨٦) البيان للكنجى ٢٩٧ .
(١٨٧) المصدر نفسه ٢٨٩ .
(١٨٨) المصدر نفسه ٢٩٣ .
(١٨٩) غيبة الطوسى ٢٩٧ .
(١٩٠) غيبة ابن زينب ١٧٠ .
(١٩١) هامش البيان ٢٩٨ .

يجمعوا امر المسلمين بل امر العالمين على المثل الشيعية العلوية التى رأوا انها خلاصة رسالات الرسل وجوهر اهداف الاديان وقد اورد الطوسى عن الباقر انه قال : « فى صاحب هذا الامر سنن من اربعة انبياء : سنة من موسى وسنة من عيسى وسنة من يوسف وسنة من محمد ...»(١٩٢) . ويرد عن الباقر ايضا تحديد المكان الذى سيظهر فيه المهدى والروح التى تنبعث من ظهوره بقوله : ان القائم اذا قام بمكة واراد ان يتوجه الى الكوفة نادى مناديه : الا لا يحمل احد منكم طعاما ولا شرابا ، ويحمل حجر موسى بن عمران وهو وقر بعير ، فلا ينزل منزلا الا انبعثت عين منه : فمن كان جائعا شبع ومن كان ظاميا روى ، فهو زادهم حتى النجف (مدفن على) من ظهر الكوفة»(١٩٣) . ومكة هى المكان الذى ظهر فيه محمد (ص) والكوفة هى المكان الذى قتل فيه على وانتهى امر الشيعة . اما بعد فهذه هى المثل الشيعية فى فكرة المهدى وسنرى كيف ترد بكل تفاصيلها على صورة صوفية مشتقة من التصوير الشيعى لها . وبهذا نختم كلامنا عن التشيع ، ولكن يجب ان نشير – قبل ان نضع القلم بان ما مر بنا من افكار الشيعة مما كان خاصا بفرقة بعينها لم يلبث ان دخل كله فى التشيع الاثنا عشرى ودعم بالحجج العقلية وبالنصوص . والتشيع الحالى انما هو زبدة الحركات الشيعية كلها من عمار الى حجر بن عدى الى المختار وكيسان الى محمد بن الحنفية وابى هاشم الى بيان بن سمعان والغلاة الكوفيين الى الغلاة من انصار عبدالله بن الحارث الى الزيديين والاسماعيليين ثم الامامية التى صارت اثنا عشرية . وقد قام بعملية المزج

---

(١٩٢) غيبة الطوسى ٢٧٦ .

(١٩٣) اصول الكافى ٥٤ .

متكلمو الشيعة ومصنفوهم . وليس التعرض لهذه العملية مما يفيد البحث
وانما هى عملية غريبة ومزج لاتغير من امر التشيع شيئا ولا تضيف اليه ولا
تنقص منـــه .

الباب الثاني

الزهـــد

يذكار لبا
لـــــه يا

الفصل الاول

الزهـــد ... عموماً

مقـــدمة :

بعد ان فرغنا من بحث التشيع وبينا اصله ومثله ومذاهبه التى تشعبت منه خلال تطوره حتى ثبت على صوره الباقية حتى الان نعرض للجانب الثانى من هذه الرسالة ، وسنبدأ مبحث التصوف بالزهد الذى هو له اصل والتصوف تطور له كما كان التشيع الاول اصلا والفرق الشيعية الحاضرة فـروعا له ، وسيكون المنهج الذى سنطبقه هو ما طبقناه فى التشيع من مصاحبة للتصوف فى مراحله ، وكلما ظهرت فكرة جديدة فيه بسطنا القول فيها وبحثنـاها الى نهايتها ورأينا صلتها بالتشيع ، اى ان عرضنا للزهد والتصوف سيكون محاولة للمطابقة بينهما وبين التشيع او بحثا عن المصادر الشيعية فيهما ، وسنجد من ذلك الشىء الكثير .

ولن نفتتح الزهد بتعريفه لان ذلك صار شغل المتصوفة الشاغل فيما بعـد وتعتبر تعريفاته التى نطق بها المتصوفة عكسا للمراحل التى مر بها قصد بهـا بيان ما بين الزهد والتصوف من فرق وسنعرض لهذه المسألة فى اثناء بحثنـا ولكن يحسن بنا ان نذكر ان لفظ الزهد لم يرد فى القرآن الا مرة واحدة فى سورة يوسف فى آية : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين »[1] ولا تعبر هذه الآية عن مدلول معين للزهد ولا تتصـــل به

---

(١) يوسف : آية ٢٠ .

ولكننا وجدنا كل عقيدة جديدة فى الاسلام توصل بالقرآن وقد مر بنا التشيع وفرقه ورأينا كيف يتعلق اصحاب الفرق بآيات القرآن تعلق الغريق بطوق النجاة ولهذا وجدنا السرى السقطى (المتوفى سنة ٢٥٣/٨٦٧) يصل الزهد بالقرآن ويرى انه من قوله تعالى : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[٢] ، ثم يشرح مرماه بقوله : « ان الزاهد لايفرح بموجود ولا يتأسف على مفقود» [٣] ، وقد لمح القشيرى اختلاف المتصوفة فى تعريف الزهد فصرح بانهم « تكلموا عن معنى الزهد فكل نطق عن وقته واشار الى حده» [٤] ويكفى ان نورد هنا ان سفيان الثورى (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٧٨) قد تار على الزهد الاول الذى تمثل فى زهد الصحابة المادى فى اللباس والطعام فنفى أن يكون الزهد « أكل الغليظ ولا لبس العباء»[٥] وكان فى مقاله هذا يحاول ان يتطور بالزهد ويقلل من اندفاع المسلمين الى لبس الصوف كما سنرى فى اثناء هذا البحث .

ويجب ان نقرر الآن وقبل الدخول فى التفاصيل اننا نفرق بين الزهد الذى جاء به الاسلام والزهد المنظم الذى نادى به زهاد الكوفة والبصرة والشام وصار مقدمة للتصوف ، وسنرى ان الاسلام كان من اصول الزهد الاولى ، ذلك ان الاسلام قد جاء ليحارب الارستقراطية القرشية ويرتفع بمستوى الاجراء والعبيد والفقراء بالاضافة الى الدعوة الدينية والروحية . وقد كان صبغ الاسلام دعوته بالزهد والتقشف العلامة المميزة له عن النظام القرشى فى مكة والشعار الذى يلتف بمقتضاه الضعفاء والمحرومون والعبيد حول النبى ويدخلون فى دين الله افواجا . ذلك ان الاسلام لم يكن منجما من الذهب ولم يكن شركة لها اموال وتجارة وانما كان دعوة تهدف الى اقرار مثل من العدالة والمساواة لم تكن موجودة ، ولو استندت الدعوة الى النظام السائد

---

(٢) الحديد : ٢٣ .

(٣ ، ٤ ، ٥) الرسالة القشيرية :

واشبهته ما رأينا المستضعفين والفقراء والعبيد انصارا له ولكان حركة انقلاب يقصد بها الاستيلاء على السلطة ، ولهذا عجزت قريش عن تحطيم الاسلام المكى وكانت مقاومته محاطة بالأشواك • وقد كان الزهد الذى اصطبغ به الاسلام مانعا لارستقراطيى قريش من الدخول فيه وتقويضه فقد كانت ضريبة دخول الغنى فى الدعوة ان يخرج عن امواله وان يساوى زملاءه فى الفقر ، والامثلة على نزول المسلمين الصادقى الايمان عن ثرواتهم مشهورة ، وهذا ابو بكر وعثمان من الامثلة الناصعة على ذلك • ولعله ليس من الغريب ان نجد حركة الزهد فيما بعد تعكس لنا هذه الصورة نفسها بنزول محمد بن سوقة الزاهد مولى بجيلة عن مائة وعشرين الف درهم من امواله ليدفع بها البلاء عن اهل الكوفة (٦) ، وبهذا يتبين لنا ان الزهد صورة اصيلة من صور الاسلام وفقرة هامة فى منهجه التطبيقى اريد به نزول القادة الى مستوى الفقراء لجمعهم وكسب عطفهم وحماسهم ، فاصطبغ زهد الاسلام بصفات الداخلين فيه من الفقراء والعبيد فكان المسلمون الاولون وحتى خلفاؤهم يلبسون اللباس الخشن ويتناولون الطعام البسيط ولم يكن ذلك منهم نوعا من العبادة الزائدة او شيئا مضافا الى الايمان المتميز وانما كان من طبيعة الاسلام التى دخلت نفوسهم وتقمصتها •

ولعل ابدع مثل يضرب للتدليل على هذه الحقيقة ما اورده ابو طالب المكى من انه « لما جاء عبدالله بن عامر بن ربيعة فى بزته الى ابى ذر (ر) وسأله عن الزهد واخذ يتكلم فيه فجعل ابو ذر يضرط به فى كفه ثم اعرض عنه ولم يكلمه ، فغضب ابن عامر — وكان قرشيا شريفا — وشكاه الى ابن عمر (ر) فقال له : « انت فعلت بنفسك تأتى الى ابى ذر فى هذه الثياب وتسأله عن الزهد» (٧) ، وهكذا اوضحت صراحة ابى ذر معنى الزهد وحكت لنا قصته

---

(٦) صفة الصفوة ٣/٦٥ •

(٧) قوت القلوب ٢/٥٢ • ابن عامر هذا — المتوفى سنة ٥٩ — كان اول من لبس الخز فى الاسلام (الاعلاق النفسية ١٩٢ ، الوسائل الى مسامرة الاوائل) وهو فاتح راسان ايام عثمان (البلدان لليعقوبى ، اوربا ، ٢٩٦) وكان امويا من بنى عبد شمس (البلدان ٢٩٥) •

الحقيقية واوضحت حقيقة المتلبسين بالاسلام من الارستقراطيين القدامى الذين جاء الاسلام لمحقهم .

ويضرب لنا ابو الدرداء ، واسمه عويمر بن زيد بن قيس ، مثلا آخر على هذه الحقيقة بقوله : « كنت تاجرا قبل ان يبعث النبى ـ صلعم ـ فلما بعث محمد زاولت التجارة والعبادة فلم تجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة»[٨] .

وقد رأينا الاسلام يحارب الرهبنة ويجعل الزواج اساسا للزهد لان فقر المسلمين الاولين لم يمنعهم من الزواج ، ولو كان الزواج عسيرا على فقراء مكة وعبيدهم ممن صاروا مادة الاسلام على الاعتبار السابق لرأينا الاسلام ـ على الارجح ـ يحض على البعد عن النساء ولكننا سمعنا عبدالله بن عباس يقول : « لايتم نسك الناسك الا بالنكاح»[٩] ، فعرفنا ان كل ما يقال عن اتصال اصول الزهد بالمسيحية ورهبنتها امور بعيدة عن الصدور عن حقيقة مبينة ، وهكذا دخل الزهد فى قلوب المسلمين منذ اللحظة الاولى وكان شعارا بل ضرورة من ضروراته بحكم كون الفقر والجوع الامرين السائدين فى العالم المكى والعربى ، ولهذا فليس من المستغرب ان يروى عن النبى(ص) انه قال : « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة عام »[١٠] وعلى ذلك فاننا مضطرون الى ان نرى انه ليس دقيقا ـ ان لم يكن باطلا ـ رأى فليب حتى الذى يرى فيه انه «كان التصوف ـ ويقصد به الزهد ـ فى بدئه مقصورا على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل كما كان الحال عند النساك النصارى»[١١] الا اذا كان يعنى به الزهد الذى نضج فى القرن الثانى بعد ان دخلته ثقافات وتقاليد من خارج الدين الاسلامى . ونيكلسون

---

(٨) طبقات ابن سعد ، ٧ : ١١٧/٢ .
(٩) الكواكب الدرية ٦٦/١ .
(١٠) قوت القلوب ١٥٨/٢ .
(١١) تاريخ العرب ٢٢١/٢ .

نفسه يوثق هذه الفكرة فى صورة غير مباشرة بما يذكره من خلو اقوال متصوفة الزهاد من امثال ابراهيم بن ادهم (المتوفى سنة ١٦١/٧٧٧-٨) وداود الطائى (المتوفى سنة ١٦٥/٧٨١-٢) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧/٨٠٣) وشقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-٨١٠) من تأثرهم بالمسيحية « او بأى مصدر اخر الا قليلا » [١٢] ، واذا كان نيكلسون يرى ذلك فيما يتعلق بالزهد المنظم الذى يوشك ان يتطور الى التصوف فان صدور الزهد الاسلامى الاول عن جوهر الاسلام يصبح امرا مقطوعا به • وقد تنبه الى هذه الحقيقة باحثون من المسلمين كالشيخ صالح بن مهدى المقبلى الذى يقول «اعلم ان من اشد الخلاف ضلالا واعمه بلاء وادقه مسلكا واكثره هلكا ومعتركا انه تزهد جماعة من الصحابة رضى الله عنهم - لعله يقصد بهم المسلمين الاولين - برفض الدنيا فقط تابعين لنصيحة الله وسنة رسول الله (ص) ••• ثم نشأ بعدهم زهاد كذلك لكنهم قالوا : لا سلامة الا بالعزلة عن الناس هربا من العوارض » [١٣] ، ويرى الشيخ المقبلى ان هؤلاء النساك التابعين هم الذين تشبه منهم طائفة برهبان النصارى لا الاوائل ، ويضيف نيكلسون ناقلا لرأى جولد تسيهر الى ذلك انه « ترجع العوامل الرئيسية فى ظهور نزعة الزهد الى عاملين هامين : الاول المبالغة فى الشعور بالخطيئة ، والثانى الرعب الذى استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الاخرة »[١٤] ، وهذا رأى له وجاهته ولكنه مع ذلك يدخل ضمن العامل الذى ذكرناه من ان الاسلام قد تبنى الزهد صورة له ، وتلك صورته المادية وهذه المعنوية • فالزهد فى الاسلام اذن ادى اليه عاملان : عامل اجتماعى اسلامى ينعكس من محاربة الارستقراطية باشاعة المظهر الزهدى فى الاسلام والمسلمين وقطع الطريق

---

(١٢) فى التصوف الاسلامى ٣ •
(١٣) العلم الشامخ ٣٦٨ •
(١٤) فى التصوف الاسلامى ٢ •

على الملأ المكى فى الدس له والدخول فيه تظاهرا اثم القضاء عليه ، وعامل نفسى استشفه المسلمون من رسالة الاسلام ومن عذاب الاخرة الذى يرد ذكره فى القرآن ومن التخويف بالنار • وزاد ذلك رقة عاطفة المسلمين الاوائل الذين كانوا فى عامتهم فقراء مستضعفين او عبيدا وهم قد عانوا كثيرا فى سبيل عقيدتهم كما رأينا فى التشيع الاول • ولو لم يكن الزهد جوهريا فى الاسلام الاول لرأينا مظهر المسلمين يتبدل بعد الفتوح التى تحققت ايام عمر ، بل لقد رأينا الزهد الصق بالخليفة والمحيطين به فى هذه الفترة ، ولعل مصداق نظرتنا هذه ان الفتنة الكبرى لم تحدث الا لخروج عثمان على هذا الشعار الزهدى • وكذلك كانت ثورة العراقيين على الامويين مؤسسة على ان الامويين كانوا يعتبرون السواد بستانا لقريش[١٥] ، وكانوا بذلك يخرجون على تقاليد الاسلام من ايثار الزهد والبعد عن الترف وهى السياسة التى استنها الاسلام ودخل فيه العرب على هذا الاساس وكانوا فى النهاية هم الذين حاربهم الاسلام واستقى وجوده من القضاء عليهم • ويؤكد لنا الباحث الايرانى المعاصر الدكتور قاسم غنى هذه الحقيقة ويرى ان قد «كان مسلمو صدر الاسلام فقراء وجياعا يحيون حياة بدوية بسيطة ليس فيها تكلف ، وصار الفتح سببا فى امتلاء ايدى هؤلاء الفقراء بالثروة فاتصل هؤلاء القوم من سكان الصحراء شبه البدائيين بحضارات كثيرة الترف والتكلف واتسعت رقعة المجتمع الاسلامى بنتيجة هذه الفتوح ••• حافلة بالصخب • والخلاصة ان كل هذه العوامل سببت تبدل حياة الاعراب المعتدلة الهادئة البسيطة الى حياة مليئة بالترف على صورة كان الافراط والتفريط زائدا فيها ، وتحمل المسلمون المتعبدون هذه التغييرات والتحولات فى حياة العرب فى صعوبة وضيق • ويحدثنا التاريخ ان عمر لما اطلع على حياة معاوية المترفة وسطوته فى سورية غضب ، ووبخ خالد بن الوليد على اسرافه ، وكان من احد اسباب ثورة

---

(١٥) الطبرى (اوربا) ١/٢٩١٥ •

المسلمين على عثمان الخليفة الثالث انه كان يملك كثيرا من العقارات والمواشي والاراضي بخلاف الشيخين»[١٦] . وهذا يدعونا الى الشك فى صحة مايراه المرحوم محمد كرد على من انه « نشأ فى القرن الاول رجال ربانيون اتقياء عزفت نفوسهم عن بهرج الدنيا وزخرفها فانصرفوا الى العبادة والزهادة لمزاج خاص بهم او جبلة دفعتهم او لسبب من الاسباب التى تعرض للبشر من اخفاق فى طلب مجد او مال او وصال» [١٧] لان الزهد لم يكن نزعة فردية وانما كان لونا اسلاميا اصطبغ به المجتمع الجديد كله ، وهذا ابو طالب المكى يسم المهاجرين جميعا بالفقر والزهد ويجعلهم من جنس اهل الصفة فيقول : « ولا نعلم فى الامة افضل من طائفتين : المهاجرين واهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال : للفقراء الذين احصروا فى سبيل الله[١٨] فقدم وصفهم على اعمالهم : الهجرة والحصر» [١٩] . ويسوقنا هذا النص الى ذكر اهل الصفة الذين جعلهم اصحاب كتب التصوف مقدمة المتصوفة واسلافهم ، ويحدثنا السراج انهم « كانوا نيفا وثلاثمائة لايرجعون الى زرع ولا ضرع ولا الى تجارة وكان اكلهم فى المسجد ونومهم فى المسجد وكان رسول الله (ص) يؤانسهم ويأكل معهم ويحث الناس على اكرامهم ومعرفة فضلهم»[٢٠] ، وكان لاهل الصفة رئيس هو ابو هريرة ، وابو طالب المكى يخبرنا انهم « كلهم كان متبعا لاوامره مجتنبا لزواجره» [٢١] ، ويصفهم بانهم كانوا الصق بالزهد من باقى المسلمين وانهم كانوا يبالغون فيه وكان يشاركهم بعض زهاد الصحابة ذلك ويروى ان احدهم كان «يباشر التراب بجلده ويطرح ثوبه فوقه

---

(١٦) تاريخ تصوف در اسلام ٢٠ (ترجمة) .
(١٧) الاسلام والحضارة العربية ٢٨ .
(١٨) البقرة : ٢٧٣ .
(١٩) قوت القلوب ١٥٩/٢
(٢٠) اللمع ١٣٢ .
(٢١) قوت القلوب ٨٨/١ .

ويقول : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، كأنهم كرهوا الترفع عنها والوقاية منها يجدون ذلك ارق لقلوبهم وابلغ لتواضعهم»[٢٢] .

والظاهر من هذه الاخبار أن أهل الصفة هم المسلمون الذين لم يؤاخ الرسول بينهم وبين زملاء لهم من اهل المدينة وانهم اتخذوا لذلك الصفة سكنا لهم وملجأ ، يدل على ذلك مايورده ابو حفص السهروردى (المتوفى سنة ٦٣٢/١٢٣٤-٣٥) من انه « كان الرجل اذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه فان لم يكن له بها عريف نزل الصفة»[٢٣] ، ويبدو ان عددهم قد حدد بعدئذ وقصد به انيشبه عدد سنى اهل الكهف او عدة جيش النبى(ص) يوم بدر ، وقد روى ابن سعد أن عددهم يتراوح بين ثلاثمائة وثلاثة عشر وثلاثمائة وستة عشر رجلا بحسب روايات الرواة[٢٤]، وقد حدد عدد الابدال فى كتب التصوف بثلاثمائة لهذا السبب على ما يبدو . وقد صنعت رياسة ابى هريرة لهم ليجعلوا من الصفة رباطا صوفيا كما يبدو من تشبيه ابى طالب الرباط بالصفة . ومهما يكن من شىء فاننا وجدنا المهاجرين زهادا أو رأينا الزهد رسميا فى المدينة بدليل مؤانسة الرسول(ص) لهم .

واذا تركنا اهل الصفة وجدنا عبدالله بن عمرو بن العاص الذى كان من « اتقى الصحابة واقواهم حماسة فى الدين واشدهم غيرة وتدقيقا فى اتباع السنة»[٢٥] ، ويحدثنا جولد تسيهر انه « حرم عينه الرقاد ليقضى الليل فى تلاوة القرآن وانه فرض على نفسه صوما دائما ويذكر ان النبى(ص)

---

(٢٢) قوت القلوب ١/٥٢ .
(٢٣) عوارف المعارف ٧٨ .
(٢٤) طبقات ابن سعد ٣ : ٢/١٣٤ .
(٢٥) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٢٤ .

« زجره ليقتصر فى عادات زهده على الحد المعقول» [٢٦] ، وعبدالله قد شارك فى حرب صفين مع ابيه فهل كان ايام النبى فى سن تؤهله لهذا الادراك وتحمله على هذا الصنيع ؟ ومهما يكن الامر فاننا لانعدم امثلة اخرى على لصوق الزهد بالصحابة واختطاطهم له ، وقد رأينا سلمان الفارسى اميرا على المدائن وهو متلبس بالزهد الى حد غريب وكذلك رأينا ابا ذر وعمارا وغيرهم • ويحدثنا ابو طالب ان عمر « كتب الى اهل حمص ان عدوا لى فقراءكم فسموا له فى الكتاب نفرا وكان اميرهم سعيد بن جذيم او عمير بن سعد افقرهم» [٢٧] ، ويحدثنا كذلك ان فضالة بن عبيد والى مصر رؤى اشعث حافيا فقيل : انت الامير وانت هكذا ؟ قال : نهانا رسول الله (ص) عن الارفاه وامرنا ان نحتفى احيانا» [٢٨] ولعل فى ذلك مايقطع بما اوردناه من ان الزهد صفة عميقة من صفات الاسلام لما ذكرناه فى مبحث التشيع ولما اوردناه هنا ايضا • ولعله ليس من التكثر فى ايراد الاخبار ان نشير الى اهمية مقالة ابى سعيد الخدرى : « ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله(ص) الا ببغض على بن ابى طالب» [٢٩] ، واذا عرفنا ان المنافقين هم الارستقراطيون السابقون ادركنا الى اى مدى كان الاسلام متبنيا للزهد لونا لحياته • وبهذا نجد ان الاسلام هو منبع الزهد الذى هو التواضع فى الملبس والمشرب والمأكل والتواضع فى المعاملة اى التطبع بطابع الفقراء الذين كانوا يؤلفون اغلبية المسلمين • وليس الزهد الذى مر بنا فى هذه الصفحات هو الزهد الاصطلاحى الذى تطور الى التصوف وانما هو صورة الفقر التى انعكست على سواد المسلمين الاولين •

وقد وجدنا الاسلام قويا ايام النبى (ص) وايام ابى بكر وعمر ووجدنا عليا نصيرا لهما وناصحا ووجدنا زعماء الصحابة معهما ، وقد بينا فى بداية التشيع ان المسلمين الحقيقيين كانوا الارقاء والفقراء من امثال سلمان وابى ذر

---

(٢٦) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٢٤ •
(٢٧ ، ٢٨) قوت القلوب ٢/ ١٨٠ •
(٢٩) الصواعق المحرقة ١٢٠ •

والمقداد وعمار وحذيفة وصهيب وغيرهم وانهم كانوا يلتفون حول علي : افقه الصحابة واعلمهم واشجعهم واقربهم الى النبى والاسلام ، ثم وجدنا من بقى من هؤلاء الى خلافة عثمان يشاركون فى الثورة عليه وبينا ان كل ما صنعه عثمان هو شعوره بانه رئيس دولة له ان يصنع مايشاء باموال المسلمين ومناصبهم فجعل يوزع الامارات والاموال على اقاربه وارحامه • ولم يكن ذلك كثيرا على رئيس دولة عادية ولكنه كان كثيرا جدا على رئيس المسلمين وخليفة النبى الذى اتخذ الزهد والفقر اساسا لبث دعوته ليضم اليها كل العرب الذين كانوا يشكون الفقر والذل ثم غيرهم ولم تكن حالهم لتختلف عن حال العرب • وهكذا وجدنا مثل الاسلام تتبلور فى جماعة هم الملتفون حول علي وكانوا هم الشيعة الاولين على الصحيح ، ومن ذلك مايرويه ابن الاثير ان «عليا نظر الى قوم ببابه فقال لقنبر مولاه – قتله الحجاج سنة ٨٢/٧٠١ – : من هؤلاء ؟ قال : شيعتك يا امير المؤمنين ، قال : ومالى لا أرى فيهم سيماء الشيعة ؟ فقال : وما سيماهم ؟ قال : خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظما ، عمش العيون من البكاء [٣٠] ، وما يرويه ابو نعيم عن مجاهد ايضا ان شيعة على هم : «الحلماء العلماء الذبل الشفاه الاخيار» [٣١] ، وما يرويه هو ايضا عن الامام على بن الحسين زين العابدين ان «شيعتنا الذبل الشفاه» [٣٢] ، ويختم ابو نعيم هذه السلسلة من الاخبار بقوله : « فالمحققون بموالاة العترة الطيبة هم الذبل الشفاه المقترشو الجباه الاذلاء فى نفوسهم العتاة المفارقون لمؤثرى الدنيا من الطغاة » [٣٣] •

هذا هو الزهد الاسلامى الاصيل المستقل عن المؤثرات السياسية والاجتماعية والنفسية والثقافية • وهناك منبع آخر للزهد لاينضب معينه بل

---

(٣٠) الكامل ٣/٢٠٤ •
(٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) حلية الاولياء ١/٨٦ •

منابع كثيرة صبت فيه هى هذه الظروف التى تدفع المسلم الحساس دفعا الى الزهد فى الدنيا لما يراه من ظلم محيق وطمع وخروج عن جادة الاسلام ، ثم شاركت الثقافات ووجهت الزهد وجهة خاصة سنراها فى الموضع المناسب .

ويجب ان نذكر هنا مع ماسينيون ان « الميل الى حياة النسك كان فى كل بلد وفى كل عصر »[٣٤] ، وذلك امر لايستطيع احد انكاره ولكنه لاينفى شيئا مما رأيناه من ان الاسلام هو دين الزهد حقا ، ونحن لانتكر الشق الثانى من رأى ماسينيون ايضا ن ان تلك الحياة الزهدية « لم تنشب ان انتشرت فى الاسلام فى قرنيه الاولين »[٣٤] ولكننا نزعم ان هذه المؤثرات الخارجية هى التى شاركت فى صبغ الزهد بالوان جديدة تختلف ن بلد الى آخر حتى ادت الى الزهد الصوفى فالتصوف ، وهذا هو السبيل الذى حدثنا عنه ماسينيون ايضا من ان « الاستعداد للتصوف ـ الزهد الان ـ ينشأ فى العادة من ثورة باطنية تخامر النفوس فيثور صاحبها على المظالم الاجتماعية ولا يقف عند مقاومة غيره بل يبدأ بجهاد نفسه واصلاح خطيئاته »[٣٥] . ويجب ان نورد ملاحظة نيكلسون ايضا لنرى مصداق ماكان للظروف من تأثير فى الزهد وتشجيع للميل اليه : قال نيكلسون : « وقد انفرد القرن الاول في الاسلام بالعوامل الكثيرة التى شجعت على ظهور الزهد وانتشاره ، كالحروب الاهلية الطويلة الدامية ـ التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى امية ـ والتطرف العنيف فى الاحزاب السياسية وازدياد التراخى فى المسائل الخلقية وما عاناه المسلمون من عسف الحكام المستبدين الذين يملون ارادتهم وآراءهم الدينية على غيرهم ممن اخلصوا فى الاسم »[٣٦] ، ثم اشار نيكلسون الى التشيع الذى يقصد به اعادة الحق الى على وابنائه فقال : « ورفض هؤلاء علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التى حاول

(٣٤ ، ٣٥) الاسلام والحضارة العربية ٢/٢٨ .
(٣٦ ، ٣٧) فى التصوف الاسلامى ٤٦ .

المسلمون ارجاعها : كل اولئك عوامل حركت فى نفوس الناس الزهد فى الدنيا ومتاعها وحولت انظارهم نحو الآخرة ووضعت آمالهم فيها ، ومن هنا ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة وانتشرت على مر الايام فكان زهدا دينيا خالصا فى بادىء الامر ثم دخل اليها بالتدريج بعض العناصر الصوفية حتى تحولت فى النهاية الى اقدم صورة نعرفها للتصوف الاسلامى» (٣٧) .

ولن نطيل فى ضرب الامثال على الظروف التى تذكى الميل الصوفى وسنقتصر على : قول ابن عمر : ما شبعت منذ قتل عثمان »(٣٨) ، فان فى هذه المقالة هزة نحسها دفعت ابن عمر الذى قال هذه المقالة زمن الحجاج ـ اكبر باعث على الزهد فى القرن الاول الهجرى كما سنرى ـ دفعته الى التمسك بالزهد والاصرار عليه بل لقد زاد الالم من اقتناع ابن عمر ان النبى كان حكيما وان الاسلام دين حق حين امر بالزهد ونهى عن الارفاه كما مر بنا . ولهذا فان علينا ان نلاحظ ان الامصار التى شاركت فى الاحداث وتأثرت بالظروف التى جدت على الاسلام قد اسهمت فى تطوير الزهد ، كل مصر بما حدث فيه وما انصب من احداث وثقافات . ومن المعلوم ان اول عامل كبير من عوامل الزهد هو قتل عثمان وقد وجدنا ان اول حركة زهدية متصلة بالسياسة قد اقترنت بهذا الحادث ، ورأينا سعد بن مالك وسعد بن ابى وقاص وعبدالله بن عمر ومحمد بن مسلمة ـ برواية النوبختى ـ(٣٩) ويضيف اليهم احمد امين : حسان بن ثابت وعبدالله بن سلام يخرجون الى مكة بعدا عن الفتنة ولسان حالهم يقول سعد بن ابى وقاص : « ان رسول الله امرنى اذا اختلف الناس ان اخرج بسيفى فاضرب به عرض الجدار فاذا انقطع اتيت منزلى فكنت فيه لا ابرحه حتى تأتينى يد خاطية او منية قاضية » (٤٠) ، والنوبختى

---

(٣٧) فى التصوف الاسلامى ٤٦ .
(٣٨) قوت القلوب ١/٤٦ .
(٣٩) فرق الشيعة ٤ .
(٤٠) فجر الاسلام ٣١٢ .

يسمى هؤلاء اسلاف المعتزلة ويوافقه نيبرج على ذلك [٤١] ، ولكن النظرة الفاحصة تجعلهم اسلاف الزهاد المتأثرين بعوامل زائدة على الزهد المنبعث من جوهر الاسلام وبخاصة اذا عرفنا ان الاعتزال الرسمى الذى بدأه واصل بن عطاء فى البصرة قد خرج من مدرسة الزهد البصرية التى يتزعمها الحسن البصرى [٤٢] ، ويلاحظ جولد تسيهر انه « تأخذ الحياة الزهدية مكانا فائقا له خطره بين ما يفتخر به المعتزلة من خلال عظيمة ماجدة» [٤٣] ، ومن رأى جولد تسيهر انه «مما يدل على الجهل بتاريخ الاسلام جهلا تماما وضع المعتزلة فى عداد الفرق» [٤٤] .

فمن هذا كله نخرج بان اول اثر سياسى فى الزهد او اول دافع سياسى اليه نشأ بعد قتل عثمان من الخوف من الدخول فى فتن لا اول لها ولا آخر تكون نتيجتها ضياع الاسلام وسيادة الاطماع الشخصية . ولعلنا نذكر - فيما يختص بمكة ايضا - زهد عبدالله بن الزبير (العائد بالبيت) وانقطاعه فى مكه ، ولعل هذه السطور تقوم مقام الزهد المكى .

وقبل ان نختم هذه الصفحات فى الزهد الاسلامى الاول يجب ان نقرر بان النبى نفسه لم يكن زاهدا زهدا ماديا ولم يعرف عنه ذلك لانه كان يعتبر نفسه زعيما للمسلمين ورئيسا لهم يقف بازاء رؤساء قريش الذين جاء لحربهم وليس ذلك غريبا على النبى فانه قد ميز عن المسلمين ماديا فى عدد الزوجات وغير ذلك ليتاح له ان يكون ندا للقرشيين . ولكن الزهاد والصوفية اعتبروا النبى مثلهم الاعلى فى مشربهم لا من مصدره المادى المتمثل فى الزهد فى الطعام واللباس وانما من مصدره الروحى المتمثل فى تصفية النفس والتأمل والخلوة مما ادى فى النهاية الى نزول الوحى عليه ليبلغه اختيار الله له نبيا .

---

(٤١) الاسلام والحضارة العربية ٥٨ .
(٤٢) الملل والنحل ١/٥٧ (هامش) .
(٤٣) العقيدة والشريعة فى الاسلام ٩٨ .
(٤٤) المصدر نفسه ١٦٦ .

الفصل الثاني

الزهد في الكوفة

تمصير الكوفة وعناصرها :

كانت الكوفة معسكرا للجيش العربى الذى فتح فارس وصارت مدينة تسكن سنة ١٧/٦٣٨ للهجرة بأمر عمر بن الخطاب وبنيت بالقرب من بابل[١] فكأنها مركز لموجة سامية جديدة خرجت من شبه الجزيرة العربية وصارت استمرارا للحضارات العراقية القديمة والواقع ان الكوفة جمعت بين طابعى حضارتين حضارة آشور الحربية متمثلة فى استمرار الثورات فيها حتى انطفأت جذوتها بانتقال الحكم الى العباسيين وحضارة بابل العلمية التى اخرجت للعالم اولى الشرائع فى التاريخ ، وكانت الكوفة ـ الى ذلك ـ وارثة الحيرة عاصمة اللخميين التى كانت مجتمعا للقوافل وكانت تربط اعالى آسيا باقاصى اليمن»[٢] .

اما الكوفيون فكانوا من عنصرين : اغلبية عربية جلهم يمانيون واقلية فارسية هم الحمراء الذين انضموا الى الجيش العربى فى القادسية وسكنوا الكوفة مع العرب[٣] وكانوا حلفاء لقبيلة عبد القيس الشيعية [٤] وكان من حسن حظ الكوفة ان كلا العنصرين اللذين حطا فيها الرحال كان على جانب من الحضارة كبير اذا قيس بمستوى العرب الحضارى ، فقد كانت مذحج

---

(١) تاريخ العرب ٢/٣٠٩ .
(٢) خطط الكوفة ٦ .
(٣) فتوح البلدان ٢٨٠ .
(٤) خطط الكوفة ١٠ .

وحمير وهمدان قبائل متحضرة حقا من سكان المدن والقرى اليمانية [٥] يضاف اليهم عناصر نصف متحضرة ككندة وبجيلة وكل اولئك من اليمن ونحن نعرف درجة العنصر الفارسى من الحضارة • وقد اثبت العنصر اليمانى قدرته على تأسيس الثقافة الاسلامية وعلى التمدن والتحضر • وكان اليمانيون اهل تصور وابتكار وكانت فيهم المادة الموجدة لهذين المظهرين الحضاريين [٦] فكان ما ظهر من ثقافة وحضارة فى الكوفة اصيلا له طابع الكوفة الخاص • ويؤكد ماسينيون ان الكوفة هى السبب فى ثقافة البصرة التى لم تتصف بالاصالة [٣] ، ويعدد ماسينيون اوجه الاصالة فى حضارة الكوفة فيخبرنا بانها « طورت الخط الكوفى المأخوذ من المصاحف وانها انتجت نهج البلاغة : مجموعة خطب الامام على وطورت الشعر القديم واوجدت الاحاديث والسير فى حب الله ، ويذكر « انها كانت موطن البهاليل (جمع بهلول وهو المدعى الجنون) وموطن الصوفية الذين ذكر الغزالى مكانتهم واهميتهم وكانت فى السياسة تهدف الى العدل الاجتماعى وكانت فى الحقوق تلتزم الاجتهاد ، وهى مهد الفقهاء والمشرعين الاقدمين ، وكانت فى النحو تبحث عن اوضاع الشواذ (التى تدل على فهم لقواعد النحو وفصاحة عميقة بحيث طرحت البحث فى النحو العادى وتعمقته ببحثها عن الشواذ فيه) [٧] • وهكذا تتبين المبادين التى عكستها حضارة اليمن فى الكوفة فاثبتت اصالتها واستقلالها عن الثقافات والمعارف التى شاركت فى بناء هذه الحضارة • واذا عرفنا ان « الكوفة كانت مجتمعا تختلط فيه الديانات القديمة من نصرانية ويهودية ومانديه وزراد شتية ومزدكية وان الكوفيين كانوا يألفون النصارى واليهود وكان منهم قوم فى جيش على [٨] وان العنصر الفارسى لم يؤثر فى صبغتها العربية

(٥ ، ٦) خطط الكوفة ١٢ •

(٧) المصدر نفسه ١٢-١٣ مختصر •

(٨) حركات الشيعة المتطرفين ١٨ •

الادبية[٩] ادركنا الى اى مدى كانت الكوفة اصيلة فى حضارتها . ويتضح من ذلك ان الكوفة كانت بيئة اصالة لا بيئة تقليد وانعكاس مباشر كما كان الامر فى البصرة وقد قيل لهذا : « ان آداب اللغة العربية ميراث الكوفة »[١٠].

وقد كان الكوفيون - واغلبيتهم يمانية - يجمعون الى هذا الاستعداد الحضارى عاطفة منبعثة من جبلة العنصر اليمانى التى يخبرنا ابو الفرج انه يتصف برقته العاطفية[١١] ، ويروى البخارى ان النبى (ص) قال فيهم : اتاكم اهل اليمن - هم ارق الناس افئدة والين قوبا ، الايمان يمان والحكمة يمانية[١٢] .

وهكذا جمع هذا الحديث صفتى العنصر اليمانى : الحكمة والايمان اى الحضارة والعاطفة .

وقد كانت هذه العاطفة السبب الاول فى تشيع الكوفة ، فقد كانت بداية اتصال اليمانيين بعلى حين عجز خالد بن الوليد عن فتح اليمن فارسل اليهم النبى (ص) عليا فبث الاسلام فيهم دون قتال وكانت همدان اولى القبائل اسلاما وكان ذلك سنة ٩/٦٣٠-٣١ للهجرة[١٣] ، ولهذا لم يكن غريبا ان تستجيب الكوفة لدعوة على حين طلب الى الكوفيين الانضمام اليه ضد طلحة والزبير ، وقد قال قائلهم يومئذ ردا على كتاب على الذى ورد فيه : « ولعمرى ما اياى تجيبون ، ما تجيبون الا الله »[١٤] ، قال قائل اليمن « والله لو لم

---

(٩) تاريخ الكوفة ١٣٦
(١٠) المصدر نفسه ١٢٦ .
(١١) الاغانى ٢/١٦٣ .
(١٢) صحيح البخارى ٣/٦٨ .
(١٣) العبر ٢/١١٠ .
(١٤) الامامة والسياسة ١٠٩ .

يستنصرنا لنصرناه سمعا وطاعة »[١٥] ، وكان لهذه الاستجابة السريعة صلة بالايمان المقترن بالعاطفة . ويجب ان نشير الى ان شيعيين هما سلمان الفارسى وحذيفة بن اليمان هما اللذان اختارا بقعة الكوفة[١٦] ، وقد مر بنا ان حضارة اليمن تتركز فى الثقافات التى صدرت عن التشيع مما رأينا منه وجها واحدا هو الفرق الشيعية وسنرى فى هذا الفصل وجها ثانيا من الحضارة الكوفية هو الزهد وسيتبين لنا انه قد صدر عن التشيع ايضا .

شايعت الكوفة عليا بعد انتخابه مباشرة بل لقد كان على مطمح انظار الثائرين على عثمان كلهم وقد كلفت هذه المناصرة الكوفة الكثير من التضحيات فقد كان الامام على طرازا من الرجال غريبا نادرا ، لقد نزل الكوفة بعد ان تطورت عقلية المسلمين وتفتحت اذهانهم للمادة ورأوا كيف يعيش الولاة الامويون الذين عينهم عثمان ورأوا تطور الاسلام من الزهد والاكتفاء بالقليل الى البذخ الذى اظهره عثمان واقاربه فثاروا عليه بعد ان صرح عامله عليهم ان السواد بستان لقريش ويعنى بها بنى امية . وقد انتصرت الثورة واستطاعت ان تنفذ مشيئتها بانتخاب على . ونصرت الكوفة عليا ضد خصومه وكانت تتوقع الغنم المادى من الاسلاب والغنائم والمعنوى الذى يتمثل فى انتقال مركز الاسلام اليه . اما الغنم فقد انقلب غرما لان الغنائم قد حرمها على فى حروبه على اعتبار ان المسلم لايسلب المسلم واما الغرم فقد جاء من انهم كانوا يقتلون اخوانهم وارحامهم وكثيرا ما رأينا ابنا يقاتل اباه وابن عم ينحر ابن عمه ، وهكذا كلف الامام على الكوفيين مالم يكلف النبى المسلمين الاولين فكانت هذه بداية لظهور الزهد فى الكوفة . فقد هال الكوفيين كثرة القتلى فى الجمل ثم صفين ثم النهروان وتعبوا من القتال الموجه الى مثل عليا ليس النفع

---

(١٥) الامامة والسياسة ١٠٩ .

(١٦) العبر (بيروت ١٩٥٦) ٢/٩٥٩ .

احدى نتائجه فتخاذلوا وتواكلوا وفتروا عن الاستمرار فى القتال الذى لانهاية له • ولم يتضح عجز الكوفيين عن الاستمرار فى القتال الا بعد قتل الحسين حين ادركوا انهم قد انتهوا ولم يكن يدور فى خلدهم انهم قد بلغوا هذه الدرجة من الخور والوهن وادركوا مع هذه الحقيقة حقيقة اخرى هالتهم تلك هى انهم قد فرطوا فى حق عقيدتهم تفريطا عظيما • وهنا بدأت عوامل الزهد تزحف على الكوفة ، ويجب هنا ان نورد رأى الدكتور على الوردى الذى علل سرعة تقلب اهل الكوفة فرأى ان العراقى « يفكر بمبادىء لايستطيع تطبيقها ويدعو الى اهداف لايقدر على الوصول اليها ، ولذا تجده يقول للزعماء : انهضوا فانى معكم ثم اذا نهضوا وجد فى نهضتهم مخافة فقبع فى بيته يشكو من تصاريف الزمان»(١٧) ، وبذلك يتضح لنا ان طاقة الكوفى المادية ليست مسايرة لطاقته الروحية والعاطفية ولهذا وجدنا الحياة فى الكوفة تتخذ ثلاثة انماط تدور كلها حول المعارضة وحول التشيع ، فقوم ثبتوا على التشيع وجعلوا يؤيدون كل حركة شيعية ويشجعون الائمة والثائرين على الخروج ، وقوم جعلوا يجمعون حولهم الاتباع ويشققون الافكار الشيعية ليؤلفوا لهم فرقا ترتكز على عقائد شيعية ، والنمط الثانى قوم اتخذوا السيف اداة للمعارضة وهم الخوارج وانظم اليهم كل شيعى لم يطق صبرا على حياة الذل الذى نزل بالكوفة بعد الحسين ، والثالث فريق اعتزل القتال واعتزل الجهر بالعقيدة فانزوى فى بيته او اظهر الزهد للناس وامتنع من القتال ثم دفعته الثورة الداخلية والمرارة والحزن الدفين لعجزه عن ان يصنع شيئا لاحقاق مايراه حقا فظهر بذلك الزهد الاصطلاحى الذى ادى الى التصوف • ومن اجمل ما قيل فى هذا المجال ما اورده ابو طالب المكى الذى قرن حركة الزهاد المتطرفين بحركة الخوارج فبين لنا انهما يستقيان من منبع واحد هو الثورة على الفساد الذى عم الارض والمعارضة له فقال فى الزهاد البصريين – وظروف

---

(١٧) شخصية الفرد العراقى ٤٧ •

الكوفة اقسى من ظروف البصرة ـ : « فهرب هؤلاء من الافن والاغترار فوقعوا فى اعظم منهما من القنوط والاياس فصاروا فى كبائر المعاصى من خوفهم منها ، فمثلهم مثل الخوارج خرجوا على الائمة بالسيف لانكار المنكر فوقعوا فى انكر المنكر من تكفير الائمة ...»[١٨] ، وقد تحالفت الكوارث على الكوفة فزادتهم اندفاعا فى ميادينهم الثلاثة حتى جاء الحجاج فبلغ الغاية فى التنكيل والتعذيب حتى جعل الناس يصرحون بالكفر نجاة من القتل[١٩] . وكان الحجاج نفسه يفضل الخليفة الاموى على النبى بقوله : « اخليفة احدكم فى اهله أكرم عليه ام رسول فى حاجته ؟! »[٢٠] ، ولقد سمعنا ايام الحجاج عجبا فقد كان من مناقب العرب يومئذ « الفرح بقتل الحسين وسب على والحسن والحسين وفاطمة»[٢١] ، وكان مصعب بن الزبير عاتيا على الكوفيين ، واستمرت الاحداث واستمر معها خروج الناس من المعارضة الايجابية الى المعارضة السلبية .

وقائمة الزهاد من الشيعة طويلة ولكنها لم تعرف من قبل ، فقد كان الربيع بن خثيم عامل على على الرى وقزوين اول الزهاد الكوفيين ممن امتنعوا عن قتال المسلمين وفضلوا الخروج الى الثغور[٢٢] ، وكان اويس القرنى المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧-٥٨ شيعيا وصفه الاسفراينى بانه « احد النساك العباد »[٢٣] ورجح انه قتل فى صفين مع على ، وكان اويس يتمتع بمكانة عظيمة فى الزهد الى حد انه ورد فيه حديث نبوى يبشر به وينص على اسمه ويأمر عمر وعليا ان يرعياه ، وقد عين النبى علامة يعرف بها اويس[٢٤]

---

(١٨) قوت القلوب ٢/١٥٣ .
(١٩) الطبرى ، ليدن ، ٢/١٠٩٦-٧ .
(٢٠) مروج الذهب ٢/١٤٥ .
(٢١) المصدر نفسه ٢/١٤٣ .
(٢٢) الاخبار الطوال .
(٢٣) التبصير فى الدين ٢٢ .
(٢٤) صفة الصفوة ٣/٢٢ .

مما رأيناه خاصا بالنبى نفسه ومن ادعى المهدية من بعد من امثال محمد بن عبدالله الحسن والمهدى الاثنا عشرى بل يورد ابن سعد ان رجلا تحول من جيش معاوية الى جيش على حين عرف ان اويسا فيه[٢٥] ، وكان كميل بن زياد النخعى زاهدا شيعيا قديما ولى لعلى ولاية هيت وعانات وآمد وقد قتله الحجاج سنة ٨٣/٧٠٢ ، وكان يقول له : لقد اخبرنى مولاى انك قاتلى[٢٦] ، ولكميل دعاء مشهور يتلوه الشيعة فى مجموعة ادعيتهم وهو من رجال السلاسل الصوفية وتتصل به سلسلة خرقة طريقة النور بخشية فى ايران[٢٧] ، وكان خباب بن الارت ناسكا شيعيا من النواحين البكائين[٢٨] وكان من المعذبين الاولين فى الاسلام ، وكان سعيد بن جبير المقتول سنة ٩٤/٧١٢-١٣ زاهدا شيعيا مع انه ولى القضاء للحجاج وخرج مع ابن الاشعث ودليل شيعيته ان الحجاج - قبل ان يقتله - سأله رأيه فى على وفى معاوية[٢٩] مما كان يتطلب البراءة من على او القتل فى سبيله . وكان زيد ناسكا شيعيا ايضا تمنى سعيد بن جبير لو انقطع اليه وروى عنه سفيان الثورى[٣٠] ، وكان ابو صالح ماهان الحنفى من ضحايا الحجاج ايضا وكان زاهدا ، ولقى رشيد الهجرى وميثم التمار الشيعيان مصيرهما على يد الحجاج ايضا[٣١] ، وقد عرض طلحة بن مصرف نفسه للقتل بالامتناع عن البراءة من على مع انه ندم اشد الندم على اشتراكه فى وقعة الجماجم[٣٢] ، وقد قتل الحجاج قنبرا

---

(٢٥) ابن سعد ٦/١١٢-١١٣ .
(٢٦) الاصابة ٣/٢١٨ .
(٢٧) روضات الجنات ٥٣٧ .
(٢٨) حلية الاولياء ١/١٤٣ .
(٢٩) الطبرى (ليدن) ٢/١٠٩٦-٩٧ .
(٣٠) المصدر نفسه ٥/٣١ .
(٣١) صفة الصفوة ٣/٤٠ .
(٣٢) حلية الاولياء ٥/١٦ .

مولى على ستة ٨٢/٧٠١ لمجرد شهوته لقتل رجل يوالى عليا وكان زاهدا [٣٣] .

وهكذا يتضح لنا فشو التشيع فى الزهد لان انسحاب الشيعة من ميدان القتال قد اورث فيهم هذا الميل من الدخول فى ميدان المقاومة السلبية والمعارضة القلبية او الندم على الخيانة والبكاء من العجز عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويؤيد شيعية الزهد الكوفى ان عليا قد وصف شيعته لقنبر بانهم « خمص البطون من الطوى يبس الشفاه من الظما ، عمش العيون من البكا»[٣٤] وقد مر بنا وصف حفيده للشيعة بالوصف نفسه وكذلك وصف ابى نعيم لهم بانهم الذبل الشفاه المفترشو الجباه .. وبذلك يتضح استغراق التشيع للزهد كما استغرق المحاربين . اما بالنسبة لزهاد القرن الثانى فى الكوفة فمن المعروف انه قد كان جابر بن حيان شيعيا وكذلك الامر بالنسبة لسفيان الثورى شيخ مدرسة الزهد الكوفية ويتبين ذلك من مبايعته لمحمد ابن عبدالله بن الحسن الثائر بالمدينة كما مر بنا فى فصل الزيدية ، وكذلك كان عبدك الصوفى[٣٥] . ويمكن ان يصح هذا القول على اغلب زهاد الكوفة ويمكن اثباته من اخبارهم او اقوالهم ، ولعل مما يقوم مثلا على هذا الرأى ان ابن السماك القاص المشهور المتوفى سنة ١٨٣/٧٩٩ الذى تزهد معروف الكرخى بوعظه كان مولى لبنى عجل[٣٦] القبيلة التى اسست مدرسة للغلو ودولة له كما مر بنا .

اما ميادين الزهد الكوفى فقد تعددت ، فقد وجدنا فيها الزهد الاسلامى الاصيل القائم على التواضع فى الملبس والمأكل والتزام تلاوة القرآن والخوف من عذاب الاخرة . ووجدنا فى الكوفة الزهد المنبعث من

(٣٣ ، ٣٤) حلية الاولياء ٨٦/١ .
(٣٥) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ .
(٣٦) وفيات الاعيان ٦٨٨/١ (باريس ١٨٣٨) .

عذاب الآخرة ، والزهد الاتى من الاحداث التى تناوبت عليها من قتل ذريع ومن خيانة ومن نصرة للباطل ومن حسرة على العجز عن رد الظلم • وسنرى ان الكوفة ستكون مثابة للبس الصوف فى العالم الاسلامى كله وسيتبين لنا ان ذلك كان قاصرا عليها وكان تعبيرا عن معارضة سلبية ، وكان فى الكوفة اول من تسمى صوفيا واول من قال بالولاية الصوفية ، وكانت الكوفة منبع الفتوة الصوفية كما سيمر بنا فى نهاية هذا البحث • وبذلك تبدو اصالة الكوفة فى ميدان الزهد كما رأينا اصالتها فى ميدان التشيع وكما اخبرنا ماسينيون باصالتها فى الميادين الاخرى من الحياة الاجتماعية والعلمية فى القرنين الاول والثانى •

الزهد الاسلامى فى الكوفة :

لقد كان الامام على واصحابه من صحابة الرسول (ص) الذين نصروه والتفوا حوله يمثلون الزهد الاسلامى الاصيل وقد رأينا الامام عليا ازهد الصحابة واعرفهم برسوم الاسلام وقد التف حوله مريدوه يأخذون عنه ويعكسون مثلهم الاسلامية على مسلمى الكوفة • ولقد كان للامام على مثل مقام الرسول فى تذكير الناس بان بهم حاجة الى التوبة والى الندم والى البكاء وكان على يذكرهم بان ظروفهم التى يعيشون فيها انما هى صورة مشبهة لصورة ظروف مكة ايام بعثة الرسول (ص) وقد كان على يقول : « الا وان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه ، والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة حتى يعود اسفلكم اعلاكم واعلاكم اسفلكم ••» (٣٧) • وقد قال الربيع ابن برة قولا يشبه ان يكون استجابة لمقالة على هذه : « ان لله عبادا اخمصوا له البطون عن مطاعم الحرام وغضوا له الجفون عن مناظر الاثام واهملوا له العيون لما اختلط عليهم الظلام رجاء ان ينير ذلك لهم قلوبهم اذا تضمنتم الارض

---

(٣٧) اصول الكافى ٩٦ •

بين اطباقها فهم فى الدنيا مكتئبون والى الآخرة متطلعون ... وهم الذين تقر أعينهم بطلعة ملك الموت عليهم»[٣٨] .

ولم تلبث احوال الكوفة وظروفها ان طغت على الزهد القائم على السلم والاتجاه الى الله بنفس مطمئنة فاصطبغ زهد الكوفة برد فعل للاحداث التى نزلت بساحتها فبدأ الشعور بالاثم فسمعنا الربيع بن خثيم يعلل بكاءه وارقه لامه بقوله : «قتلت قتيلا هى نفسى»[٣٩] ، فاقام لمن جاء بعده من الزهاد والمتصوفة مقام المجاهدة ، وكان اول من قال بها ، ولاحداث الكوفة الفضل الاول فى انطاقه بهذا المعنى . وقد اندفع معضد بن يزيد العجلى - وقبيلته معروفة فى الغالين - الى الصلاة وهجر النوم وكان يقول : « اللهم اشفنى من النوم باليسير »[٤٠] ، وقد ظهر من معضد بداية خطيرة صارت منهجا للزهاد الكوفيين من بعده ، ذلك هو الخروج الى الجبان للعبادة[٤١] وذلك انعكاس مريع للاحداث فقد يئس معضد من فائدة الاحياء فخالط الموتى وانقطع اليهم لانهم لايتنكبون طريق الصواب ولا يوحون بالحق ويأتون الباطل . وكان سعيد بن جبير يخشع حين يردد هذه الاية : « فسوف يعلمون اذ الاغلال فى اعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم »[٤٢] . وقد كان هذا العذاب الدنيوى والاهوال التى قاساها اهل الكوفة ثم انعكست من نفوسهم زهدا وبكاء وخوفا باعثا لهم على ملء وقتهم بالعبادة او قراءة القرآن لانهم كانوا يخشون من الجنون اذا عاشوا كما يعيش غيرهم . بل وجدنا غيرهم ممن اعترفوا بثقل وخز الضمير عليهم يقول : « انى لاذكر الشىء من امر الدنيا الهى به نفسى عن ذكر الآخرة ، اخاف على عقلى»[٤٣] . وهكذا يتبين لنا مبلغ خوف الكوفيين

---

(٣٨) حلية الاولياء ٦/٢٩٨ .
(٣٩) صفة الصفوة ٣/٣٤ .
(٤٠) حلية الاولياء ٤/١٥٩ .
(٤١) طبقات ابن سعد ٦/١١١ .
(٤٢) حلية الاولياء ٤/٢٧٤ المؤمن ٣ ٥ .
(٤٣) المصدر نفسه ٦/٢٤١ .

من التفكير فى الحساب لانهم كانوا يدركون الحد الذى بلغوه من غضب الله فكانوا يشغلون انفسهم بالصلاة الكثيرة والصوم الكثير وقراءة القرآن والانشغال بأية مشغلة تبعد عنهم شبح العذاب الذى ينتظرهم فى العالم الآخر، وكان الزهاد الكوفيون يحاولون ان يكفروا شيئا من تلك السيئات التى قارفوها فى دنياهم ويدفعوا ضريبة ما اقترفت ايديهم من خذلان الحق بعد ان نصروه ، وقد حزّ الندم فى بعضهم حتى تمنى لو قطعت يده ولم يشترك فى قتال(٤٤) . اما المعذبو الضمير الطامحون الى التكفير فقد خرج منهم قوم فقاتلوا بقصد الموت كالتوابين الذين مروا بنا بعد قتل الحسين واما من قعد به الخوف من الموت عن القتال فقد كان يتمنى لو زاد الله فى عذابه فى النزع عند الموت ، وهذا ابراهيم النخعى المتوفى سنة ٩٥ يروى بان الزهاد « كانوا يستحبون للمريض ان يجهد عند الموت »(٤٥) وصارت هذه الفكرة راسخة فى الزهد الكوفى وكان سفيان الثورى (اول زاهد التقت به الولاية الصوفية) يقول : ما من موطن من المواطن اشد على من سكرة الموت ، أخاف أن يشدد على فاسأل التخفيف فلا أجاب فافتن(٤٦) وقد اطال الزهاد التفكير فى الموت فاطالوا التفكير وكان القلق يملأ نفوسهم وكانت احلامهم فى الليل والنهار تطوف حول الموت والآخرة . ولم يلبث ذلك القلق ان ظهر فى اخبارهم فقد « رأى رجل مرة بن شراحيل الهمدانى ـ من زهاد الطبقة الاولى فى الكوفة ـ فى المنام بعد موته فسأله ما منزلتك فى الآخرة ؟ قال : خير منزلة ،

---

(٤٤) حلية الاولياء ٥/١٦ .

(٤٥) صفة الصفوة ٣/٤٨

(٤٦) المصدر نفسه ٣/٨٤ .

قارن هذا بما يروى عن ابراهيم بن سيار النظام المعتزلى (١٦٠ـ٢٣١) من أنه « كان يقول ـ وهو يجود بنفسه ـ : اللهم ان كنت تعلم انى لم اقصر فى نصرة توحيدك ، اللهم ولم اعتقد مذهبا الا سنده التوحيد ، ان كنت تعلم ذلك منى فاغفر ذنوبى وسهل على سكرة الموت ! قالوا : فمات من ساعته» . (طبقات المعتزلة لابن المرتضى الزيدى ، ٧٦٤ـ٨٤٠/١٣٦٣ـ١٤٣٧ ، لبنان ١٣٨٠/١٩٦١) ص ٥٢ .

دار لاينتقل اهلها عنها ولا يموتون»[٤٧] بل ان ربعى بن حراش – من الطبقة الاولى – ايضا مات له اخ – وكان زاهدا ، وحيى بعد موته ، كما يزعم – فقال فى معرض وصفه للآخرة : « وانى وجدت الامر ايسر مما تحسبون»[٤٨] • ونتج شىء آخر من هذه الفتن التى كانت تؤثر فى عواطف الكوفيين فيندفعون الى الخروج ثم لايلبث الميزان ان يختل بين المثل والارادة الضعيفة فترجح الارادة الضعيفة • وقد اورث ذلك الزهاد روحا انفرادية تأبى الاجتماع وتنفر من الالفة بالناس والانس بهم فانزوى جماعة وانقطعوا فى بيوتهم ونفروا من الناس وكان قائلهم يقول : « ماكنت ارى ان احدا يستوحش مع الله »[٤٩] وهكذا بدأت فكرة الوحدة والانفراد وهى وان تكن شبيهة بفكرة النساك المنقطعين للعبادة الا ان منطق الحوادث يجعل هذا الانفراد نابعا من ظروف الكوفة • وقد سار منصور بن المعتمر المتوفى سنة ١٣٢ فى هذا الطريق الى غايته فرأيناه يصوم ستين سنة يقوم ليلها ويصوم نهارها وكان فى كل ذلك يبكى[٥٠] •

وكل هذا الذى ذكرناه من الخوف والبكاء والروع التى استبدت بالكوفة واستغرقت زهادها كان منبعثا من بيئة الكوفة والتقلب واهدار المثل بين لحظة واخرى ولهذا فانه ليس من المستغرب ان تختفى فكرة الحب من الكوفة مع ظهورها واضحة ناضجة فى شقيقتها البصرة ، فلم يكن للحب محل فى الكوفة غير انه انصرف الى طائفة معينة هم الائمة الذين انصرفت اليهم عاطفة الكوفيين وخذلتهم ايديهم فى الاحيان التى تغلب الخور فيها عليهم غير عامدين ولا متآمرين وانما هو القلب الذى لم يعد يحتمل رهبة ولم يعد يستطع تماسكا بعد التجويع والارهاب والموت الزؤام • فالحب اذن قد انصرف فى الكوفة الى

---

(٤٧) صفة الصفوة ٣/١٨ •
(٤٨) المصدر نفسه ٣/١٦ •
(٤٩) الرسالة القشيرية ٦٧ •
(٥٠) حلية الاولياء ٥/٤٠ •

الاشخاص ولم يتسام الى المثل الاعلى الذى هو الله كما كان الامر فى البصرة ، ولعل ذلك يقطع بشيعية زهد الكوفة لان الحب عندهم كان مايزال ماديا موجها الى اشخاص باعيانهم اما الخوف فهو الذى كان يدور حول الله فى الكوفة .

الصوف :

لقد ظهر فى الكوفة نوع من الزهد يتمثل فى البساطة فى اللباس لم يكن ظاهرا فيها قبل نهاية القرن الاول ولكننا رأيناه يطغى عليها فى اواخر القرن الاول واوائل القرن الثانى حتى صار شعارا للزهاد اولا ثم اطلق على الزهد نفسه فصار له اصطلاحا وذلك هو الصوف الذى اشتق منه التصوف . واذا استطعنا ان نثبت انفراد الكوفة بالصوف بعد اثباتنا لشيعية الزهد فيها كان ذلك برهانا جديدا على ان التشيع مصدر الزهد الكوفى الذى يدخل تحته الزهد الاسلامى المعاصر له ثم التصوف .

يكاد الباحثون يجمعون على ان اتخاذ الصوف لباسا انما كان « لان الزهاد المسلمين وعبادهم حاكوانساك النصارى ورهبانهم فارتدوا الصوف الصوف الخشن» كما يقول جولد تسيهر الذى يؤرخ بداية هذه العادة فى ايام عبدالملك بن مروان الذى حكم بين ٦٥-٨٦/٦٨٤-٧٠٥»[٥١] ، وكذلك يروى نيكلسون ولكنه يبين بان بداية لباس الصوف الخشن كانت قبل الاسلام»[٥٢] ، ويروى الدكتور قاسم غنى ذلك ايضا ولكنه يحدد ظهور لبس الصوف اى جبة بيضاء منه باواخر القرن الثانى واوائل القرن الثالث ويذكر ان هذا النوع من اللباس كان النبى يفضله[٥٣] ويؤيد ذلك ما يورده الكلاباذى من ان لباس اهل الصفة الصوف حتى ان بعضهم كان يعرق فيوجد

---

(٥١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ١٣٦ .
(٥٢) فى التصوف الاسلامى ٤٨ .
(٥٣) تاريخ تصوف در اسلام ٤٣ .

منه ريح الضأن اذا اصابه المطر[٥٤] . فنحن فى حيرة متى بدأ لبس الصوف وهل كان تقليدا للرهبان المسيحيين حقا وهم الذين يكاد الباحثون يجمعون على اخذ الزهاد لباسهم المتميز عنهم ؟ اذا رجعنا الى كتب التصوف وجدنا ابا طالب المكى يقول : « كان عيسى ويحيى بن زكريا يلبسان الصوف»[٥٥] ويروى السراج ان «لبس الصوف كان دأب الانبياء والصديقين وشعار المساكين المتنسكين »[٥٦] فاوحى الينا بانه لباس الرهبان ايضا . ويذكر ابن سعد ان النبى لم يطلق لبس الحرير لاحد من الرجال الا لعبدالرحمن ابن عوف وذلك لانه كان رجلا قملا او مصابا بمرض جلدى[٥٧] وذلك لايشير الى ان الصوف كان سائدا ، فليس كل ما يلبس من غير الحرير صوفا ولكنه يوحى بانه كان موجودا وملبوسا ايام النبى مادام اصحاب الصفة مرتدين له . والواقع ان لبس الصوف من حيث هو قماش خشن لايدل على اصل معين نقل عنه وانما يتطلب الامر البحث عن اصله اذا اتخذ لباسا فى الصيف والشتاء معا . لقد اخبرنا ابن الجوزى ان القراء فى الكوفة وكذلك الفتيان كان لهم لباس مخصوص[٥٨] فى القرن الاول فلابد ان كان للزهاد لباس خاص وهو الصوف ، ويجب علينا هنا ان نغفل البحث عن الوقت الذى بدأ فيه لبس الصوف بالتحديد لان ذلك لايؤدى بنا الى نتيجة ، ولبس اويس القرنى للصوف[٥٩] وهو المتوفى سنة ٣٧/٦٥٧-٥٨ لايدل على امر عرفى وانما هو - اذا صح - تصرف فردى ، والنزعة الفردية لاتقوم اساسا للمجتمع . واذا استحضرنا فى الذهن ان

---

(٥٤) التعرف لمذهب اهل التصوف ٦

(٥٥) قوت القلوب ٣/١٩٢ .

(٥٦) اللمع ٤٣ .

(٥٧) طبقات ابن سعد ٣ : ١/٦٢ ، وعن منع لبس الحرير للرجال انظر مثلا « من لايحضره الفقيه» ، طهران ١٣٧٦ ، ص٤٦٧ ومما يذكر هنا ان ابن سعد قد نص على انه « كان المسلمون يلبسون الحرير فى الحرب» الطبقات ٣ : ١/٦٢ .

(٥٨) صفة الصفوة ٣/٤٧ .

(٥٩) طرائق الحقائق ٢/٢٢ .

الزهد هرب من الاحداث الجارية فى الكوفة وانها مازالت حتى الان اعتى مركز للمعارضة بالسيف كما فعل الخوارج ، واللسان والعقيدة كما فعل الشيعة والمعارضة السلبية التى تنبعث عن زهد الزهاد وكف ايديهم عن نصرة الدولة الاموية ثم العباسية او تشجيع العلويين على الخروج ثم النكوص على الاعقاب حين تلمع السيوف او ترن الدراهم والدنانير ، فعلينا الان ان نقرأ هذا الخبر فى شيء من انعام النظر • قال المسعودى فى اخبار سليمان بن عبدالملك الذى ولى الخلافة سنة ٩٦/٧١٤-١٥ أى بعد موت الحجاج الذى فعل الافاعيل فى الكوفة « وكان يلبس الثياب الرقاق وثياب الوشى ، وفى ايامه عمل الوشى الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ولبس الناس جميعا الوشى جبابا واردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وكان لايدخل عليه رجل من اهل بيته الا فى الوشى وكذلك عماله واصحابه ومن فى داره ، وكان لباسه فى ركوبه وجلوسه وعلى المنبر ، وكان لايدخل عليه احد من خدامه الا فى الوشى حتى الطباخ فانه كان يدخل اليه فى صدرة وشى وعلى رأسه طويلة وشى، وامر ان يكفن فى الوشى المثقلة» (٦٠) ، وكذلك فعل هشام بن عبدالملك الذى حكم من سنة ١٠٥/٧٢٣ الى سنة ١٢٥/٧٤٣ «فسلك الناس جميعا فى ايامه مذهبه» (٦١) وبذلك وجدنا لبس الحرير سياسة عامة اتخذتها الدولة الاموية وامرت بها خلفاؤها • واذا عرفنا انه لم يرد للبس الصوف ذكر فى الشام ولا فى مصر التى يسميها متز « مهد الرهبنة» (٦٢) مع ان اول من تسمى صوفيا فيها كان ابا عبدالله الصوفى الثائر الاندلسى بالاسكندرية سنة ١٩٩/٨١٤-١٥ ولم يرد عنه لبس الصوف وان كان هذا التاريخ متأخرا لاينفى ولا يثبت شيئا ، يدل على انتشار لبس الصوف حتى على فرض اتصاله بالرهبنة

---

(٦٠) مروج الذهب ٢/١٦٢ •
(٦١) مروج الذهب ٢/١٦٢ •
(٦٢) صفة الصفوة ٤/١٧٣ •
(٦٣) تاريخ اليعقوبى ٣/٤ ١ •

لم يتحقق الا فى الكوفة معاصرا لحركة نشر التصوف الظاهرى مما رأيناه فى خبر المسعودى • ومادامت دمشق والشام – وكان فيها زهد متميز يختلف عن زهد الكوفة كما سنرى – لم يلبس زهادها الصوف وهم فى قلب المسيحية الشرقية آنئذ فلا ندرى كيف يكون الصوف مرتبطا ارتباطا مباشرا بالرهبنة • بل لقد كان للزهاد فى الشام اسم مستقل ينم عن جوهر الزهد عندهم ويذكر الكلاباذى انهم كانوا يسمون جوعية (٦٤) وسنرى فى تعرضنا لزهد البصرة ان الزهاد فيها لم يهتموا بالصوف وان من لبسه منهم انما كان متأثرا بزهد الكوفة • ونعود الى الكوفة فنجد انها قد اتيح لها موضوع للمعارضة لايستطيع احد ان يؤاخذها عليه ، وكان هذا الوشى الذى فضله هشام وسليمان يصنع فى الكوفة ولعلها كانت من خير المراكز التى يصنع فيها ، والكوفة مشهورة حتى الان ، فانقلب الزهاد الذين كانت معارضتهم خفية سلبية تتمثل فى العزلة الى الصوف المضاد للحرير يلبسونه ويقبلون عليه وصار لباسا خاصا بهم كما كان للقراء والفتيان لباسهم الخاص • ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة انه قد روى عن سفيان الثورى لومه الامام جعفرا الصادق على لبسه جبة من الخز – وكانت بداية امامته فى ايام هشام – فاراه الامام ثوبا من شعر خشن تحت الجبة • ويحدثنا الشعرانى والعطار وابو نعيم ان سفيان قد كان يلبس جبة من الصوف (٦٥) ، ولعل هذا الخبر ينفى مايروى عن سفيان انه اعتبر لبس الصوف بدعة (٦٦) • واذا عرفنا ان الربيع بن ابى راشد المعاصر لسفيان الثورى كان يرى السياحة بدعة (٦٧) وان سفيان الثورى كان سائحا مشهورا يلام على سياحته كما اورد ابى نعيم انه قيل لسفيان « ان للناس مأوى تأوى

---

(٦٤) التعرف ٥ •
(٦٥) طبقات الشعرانى ٢٨/١ ، التذكرة ٩/١ ، الحلية ٩٣/٣ •
(٦٦) تلبيس ابليس ٢٠٩ •
(٦٧) حلية الاولياء ٧٧/٥ •

اليه وللسبع مأوى ومالك مأوى تأوى اليه » وانه كان ينسب الى العجب[٦٨] عرفنا مدى هذا الخبر من الصواب ٠

وبذلك يتبين لنا ان الكوفة هى مركز اتخاذ الصوف شعارا للزهاد وان الكوفيين قد تأثروا مندفعين مع موجة الزهد الذى اتخذ معارضته للامويين من لباسه ـ اقتداء بمن لبس الصوف قبلهم من الزهاد او الرهبان ٠ لكن يجب ان نتنبه الى حقيقة مهمة وهى ان لبس الصوف لم يكن آتيا من تأثر بالمسيحية من حيث هى دين بل من تقليد قوم منهجهم فى الحياة مشبه لمنهج الزهاد الكوفيين الذين ارادوا ان يظهروا معارضتهم للامويين بلبس لباس مضاد لما أمر به الخليفة الاموى ، وتأتى فكرة التأثر بالرهبنة المسيحية فى الدرجة الثانية ٠ ولو كان قوم غير الرهبان يتخذون الصوف لباسا لاخذ الكوفيون عنهم لباسهم تحقيقا لمعارضتهم التى تعلقوا بها ٠ وبذلك يتبين ان لبس الصوف بالذات لم يكن تحريا لتقليد الرهبان وانما كان مقاومة سلبية للاتجاه الاموى لبث الارفاه فى اللباس فى مجتمعهم ٠ واذا عرفنا ان الضرائب والرسوم كانت تجبى من العراق ومن فارس التى فتحت بجهد العراقيين ، وان الحرير نفسه ـ بالاضافة الى بنات فارس ـ كانا يشكلان الاسلاب والغنائم التى كان الحجاج يبعث بها الى الشام[٦٩] ، وان عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة ١٠١ كتب الى عامله فى الكوفة ان « اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور فى احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عما السوء »[٧٠] ادركنا لماذا صارت الكوفة بعد ضعفها وخورها مركزا لاتخاذ الصوف لباسا ٠ واذا تبين لنا ان نيكلسون حائر فى اصل التصوف ونشأته وانه يرى ان التتابع الزمنى فى تطور الفكرة

---

(٦٨) حلية الاولياء ٦/٣٧٤ ٠
(٦٩) راجع ديوان الاخطل ، بيروت ١٨٩١ـ٢ ، ص ٧٤ ٠
(٧٠) ابن الاثير ٥/٢٣ ٠

الصوفية لم يضطلع بدراسته احد[٧١] ادركنا الى اى حد يظلم الباحثون التصوف بالاحكام القطعية فيما لايحتمل احكاما قطعية .

ويحسن بنا فى ختام هذه السطور ، ان نشير الى ان الصوف لم يكن مادة يهتم بها العرب وانما كان شيئا مهملا لم يهتم به أحد . ولعل العرب لم يلبسوا ثيابا منسوجة منه حتى فى الشتاء . وقد ذكر الجاحظ ان اهل البصرة كانوا يلبسون القمص فى الحر والمبطنات فى البرد[٧٢] ، وورد فى نشوار المحاضرة أنهم كانوا يلبسون المحشو[٧٣] ، وهو لباس من القطن يحشى داخله ليقى من البرد ، أو كانوا يلبسون الفرو كما كان داود الطائى يفعل[٧٤] . ومما يلاحظ انه حتى اللغويون ـ الذى دأبوا على جمع كل المعانى والالفاظ ـ لم يثبتوا للصوف وللنسيج المعمول منه اى اسم او نعت او قماش على كثرة ما أوردوا من اسماء النسيج من الخز والقز والحرير والقطن والكتان ، وعلى عديد ما اوردوه من اسماء رقيق الثياب وكثيفها و مزأبرها ومخططها وموشاها الا فى الاكسية التى تلبس فوق الثياب ، وكل هذا يوحى بأن لبس الصوف كان تقليدا غير عربى وبأن الاقبال على اتخاذه لباسا انما كان أمرا جديدا على العالم العربى الاسلامى اخذوه عن غيرهم لتطبيق خطة معينة ، وأن ما اوجب لبسه لم يكن الحاجة اليه بوصفه نسيجا يقى من البرد وانما كان لتحقيق مطلب ملح . ونظرة الى المخصص لابن سيدة [٧٥] (المتوفى سنة ٤٥٨) توضح هذه الحقيقة ، فخلو هذا الكتاب الذى ألف فى منتصف القرن الخامس ، وفى وقت كان التصوف فيه يملأ العالم الاسلامى ، يدل على اهمال الناس والتجار

---

(٧١) فى التصوف الاسلامى ١٢ .
(٧٢) معجم البلدان ٢/٢٠٢ .
(٧٣) نشوار المحاضرة ، الجزء الثامن ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، المجلد العاشر ، ص ١٤٨ .
(٧٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ .
(٧٥) المخصص ، مصر ١٣١٦ ، كتاب اللباس ، وخصوصا ٣/٦٣ـ٨١ .

هذه الصناعة ويدل من ثمه على انه كان لباس الزهاد وبالتالى المتصوفة المتلبسين بالفقر الملتزمين لمظهره .

اول من تسمى صوفيا :

يؤدى بنا البحث فى لبس الصوف الى قضية بدأت فى الكوفة ، وذلك ان اول من تسمى بالصوفى كان كوفيا ولعل ذلك دليل اخر على ما سقناه من علة اختيار الزهاد الصوف لباسا لهم . والباحثون مختلفون فى من هو اول من تسمى بالصوفى وتدور اخبارهم فى هذا الشأن حول ثلاثة من الزهاد الكوفيين هم جابر بن حيان وابو هاشم الكوفى وعبدك الصوفى ويجب ان نعرض لكل منهم بالبحث لنعرف حقيقة مايدور حول كل منهم .

جابر بن حيان :

هو - كما مر بنا تلميذ الامام جعفر الصادق - او عبده (٧٦) - وكان يلقب بالصوفى وقد اورد عنه ابن النديم انه « المعروف بالصوفى» (٧٧) ، واورد كذلك ان الناس مختلفون فى امره ، فالشيعة تزعم انه منهم بل من كبارهم واحد الابواب ، والفلاسفة يرونه منهم لان له مصنفات فى الفلسفة ، وادعى اهل صناعة الذهب انه منهم ايضا ، وقيل انه كان من جملة رجال البرامكة وانه كان منقطعا الى جعفر البرمكى بدل جعفر الصادق ، وقيل فى النهاية : « ان هذا الرجل لا اصل له ولا حقيقة » (٧٨) ، ولكن ابن النديم يرفض هذه النظرية ويدلل على وجود جابر بن حيان بان « امره اظهر واشهر وتصنيفاته اعظم واكبر ولهذا الرجل كتب فى مذاهب الشيعة» (٧٩) ويضيف الى ذلك انه اصله من خراسان فيضعه بذلك بازاء ابراهيم بن ادهم

---

(٧٦) خلاصة الاثر ١/٢١٣ .
(٧٧) الفهرست ٤٩٨ .
(٧٨) المصدر نفسه ٤٩٩ .
(٧٩) المصدر نفسه ٥٠٠ .

الذى عاصره وعاش فى الشام • ثم ينقل ابن النديم نصا يعتبره قاطعا فى حقيقة وجود جابر ، وذلك ان الرازى يقول فى كتبه المؤلفة فى الصنعة : قال استاذنا ابو موسى جابر بن حيان »[٨٠] بل يذكر ابن النديم لجابر طلابا اخذوا عنه كالخرقى[٨١] (الذى تنسب اليه سكة الخرقى بالمدينة) وابن عياض المصرى (الفضيل) (المتوفى سنة ١٨٧/٨٠٣) والاخميمى[٨٢] وقد لاحظ فليب حتى صلة جابر بالصادق وذكر انه اطلق عليه اسم الصوفى ورأى انه ادعى مذهبا خاصا فى الزهد[٨٢] • ويرد فى اخبار الحكماء ان جابر بن حيان كان « مشرفا على كثير من علوم الفلسفة ومتقلدا للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من اهل الاسلام كالحارث المحاسبى وسهل بن عبدالله التسترى ونظرائهم» [٨٣] • ويذكر ابن ابى اصيبعة كتب جابر دون مناقشة ويؤرخ وفاته بسنة ٢٠٨[٨٤] اى بعد وفاة جعفر الصادق بستين سنة وذلك امر قابل للشك على كل حال • ومهما يكن من شىء فقد رأينا خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥/٧٠٢ مصيبا لعلم الكيمياء وانه قد استقدم من مصر كيميائيين ترجموا له الكتب اليونانية والقبطية • اما الشيعة فلا يجدون ضيرا فى الحاق جابر بالصادق لان ذلك لايمس عقيدتهم فى شىء وهم الى ذلك قد وافقوا على ان جعفرا الصادق كان له بصر بالكيمياء لانه جمع كل العلوم بوصفه اماما معصوما محيطا بكل شىء علما • ويشكو الخوانسارى من انه لم يجد لجابر ترجمة خاصة فى شىء من فهارس رجال الفريقين [٨٥] وينقل نصا عن كتاب غاية الحكيم للمجريطى يتضمن هذه العبارة : « واما البارع فى هذه الصناعة على الاطلاق (علوم الطلسمات) فهو المقدم فيها الشيخ الاجل ابو موسى جابر بن حيان الصوفى منشىء كتاب

(٨٠ ، ٨١) الفهرست ٤٩٩ •
(٨٢) تاريخ العرب ٢/٢٢ •
(٨٣) اخبار الحكماء ١١١ •
(٨٤) طبقات الاطباء ٢٠٣ •
(٨٥) روضات الجنات ١٥٤ •

المنتخب»[٨٦] .

ومهما يكن من امر فان كتب الشيعة القديمة لم تورد اسم جابر بن حيان فى سلسلة سند أى حديث ينسب الى جعفر الصادق ثم ان صلة جابر بالتصوف اسمية لانه لم يكن صاحب مجاهدة او خوف او ناطقا باقوال زهدية وانما نقل عنه اشتغاله بالكيمياء ونقلت عنه كذلك مشارب اسماعيلية فى مجموعة الرسائل المنسوبة اليه التى اخرجها بول كراوس . وقد التفت السيد هبة الدين الشهرستانى – من مجتهدى الشيعة المعاصرين – الى هذه النقطة فروى لنا عن استاذه شيخ الشريعة الاصفهانى ان تسمية جابر بن حيان بالصوفى ليست منسوبة الى الصوف وانما النسبة الى سوفيا اليونانية بمعنى الحكمة فقيل : سوفى ثم اشبع العرب السين فصارت (صوفى وصوفية) وقال : واول هؤلاء المسلمين جابر بن حيان المشهور بالصوفى ، ولم يكن هذا الفيلسوف العظيم حاملا لاى مبدأ من مبادىء الطريقة الصوفية»[٨٧] فيبدو من رأى الشهرستانى ان الصوفى هو المتقلد للحكمة اليونانية وعلومها ويرى ان هذا الوصف لم يستقر على الاساس الاصطلاحى الا فيما بعد[٨٨] والواقع ان هذا الرأى قد تعرض له البيرونى فى كتاب (بيان ما للهند من مقولة ، لندن ١٨٨٧ ، ص١٥) وتبناه فون هامر غير ان نولدكه قدأثبت خطأ هذه النسبة (انظر فى التصوف الاسلامى لنيكلسون وترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى ص٦٦–٦٧ ، والصوفية فى الاسلام للمؤلف نفسه وترجمة نور الدين شريبة ص٢–٤) .

اما بعد فان جابر بن حيان – ان صح وجوده – كان رجلا منزويا كزملائه الزهاد ولكنه صرف هذا الانزواء الى الاشتغال بالكيمياء والحكمة اليونانية وذلك يحمل على الحيرة حقا فى بيئة مثل بيئة الكوفة التى شغلت بالحديث والرواية والزهد . وكون جابر خراسانيا كما اخبرنا ابن النديم

---

(٨٦) روضات الجنات ١٥٤ .

فى كتاب غاية الحكيم المجريطى (المتوفى سنة ٣٩٥) ، تحقيق ريتر ، طبع المانية ١٩٣٣ ، صفحة ١٤٦ « ... وأما البارع فى هذه الصناعة على الاطلاق فهو المقدم فيها ابو موسى جابر بن حيان الصوفى ... منشىء كتاب البحث فى صنعة الطلسمات » .

(٨٧ ، ٨٨) املاء للسيد الشهرستانى .

ابعث على الحيرة اذا قرنا به الاشتغال بالكيمياء لان الخراسانيين لم يعرف عنهم ذلك وانما كان جهدهم منصرفا الى البحث فى العلم الظاهر والباطن والدعوة السرية • ولهذا فان كون جابر بن حيان اول من اطلق عليه لفظ صوفى فى الاسلام يصطدم بعقبتين : الاولى انه لم يكن زاهدا بالمعنى المفهوم من الزهد المتأثر بالبيئة المتجهة الى البعد عن المشاركة فى الاحداث والاعراض عن المادة التى سببت فساد الضمير اولا واستيقاظه من بعد ذلك ، يضاف الى ذلك اننا لم نسمع عنه كونه من البكائين او العباد المتنسكين • والعقبة الاخرى هى الشك فى وجوده وخلو كتب الرجال الشيعية والصوفية من ذكره باعتباره حلقة فى سلسلة سند او ملاقيا لشخص يروى عنه رؤية وعيانا • وما نرجحه نحن ان جابر بن حيان كان شخصية اسطورية ، فلقب «صوفى» لم يطلق على ممارسى هذه العلوم المأخوذة عن اليونان الا فى القرن الرابع حين وجدنا منجما يدعى بالصوفى (٨٩) • ثم ان جابر بن حيان، فى روايته للعلوم عن جعفر الصادق ، كان على مثال افلاطون الذى روى انتاج سقراط ، وكان هذا الاخذ عن اليونانيين وانتشاره متأخرين عن التاريخ الذى حدد لوفاة جابر •

ولهذا فان علينا ان نبحث عن رجل اخر يمكن ان تدور حوله كلمة صوفى وان كان ذلك كله لايقدح فى احتمال كونه اول من دارت حوله •

ابو هاشم الكوفى :

وكان كوفى اخر يوصف بهذا الوصف ذلك هو ابو هاشم عثمان بن شريك الكوفى الصوفى ، وقد ذكر الجامى انه كان فى الشام وهو كوفى الاصل وكان معاصرا لسفيان الثورى ، ويذكر ان هذا قال فيه : « لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق الرياء» (٩٠) ويذكر انه بنى اول خانقاه للصوفية فى

---

(٨٩) هو ابو بكر عبدالرحمن بن عمر الصوفى (توفى سنة ٣٧٦) صاحب «صور الكواكب» المطبوع فى حيدر اباد وفى المتحف البريطانى بلندن نسخة منه مخطوطة تحت رقم Add. 7488 •

(٩٠) نفحات الانس ٣١ •

الرملة . ويورد محمد كرد على ان اول من تسمى بالصوفى من أهل السنة ابو هاشم الكوفى سنة ١٥٠/٧٦٧ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ »[٩١] . ويعلل الحاج معصوم على تسميته بالصوفى بانه كان يلبس لباسا طويلا من الصوف كفعل الرهبان ويرى انه كان يقول بالحلول والاتحاد مثل النصارى غير ان النصارى اضافوا الحلود والاتحاد الى عيسى(ع) واضافهما هو الى نفسه وكان مترددا بين هاتين الدعويين ، ولم يعلم على ايهما استقر فى النهاية»[٩٢] . وينقل عن كتاب اصول الديانات انه كان امويا وجبريا فى الظاهر وباطنيا ودهريا فى الباطن وكان مراده من وضع هذا المذهب ان يثير الاضطراب فى الاسلام . وينقل ان صاحب اصول الديانات يرى انه ورد عنه احاديث كثيرة فى الطعن على الائمة المعصومين ويرى « انما سماه المشايخ بالصوفى بقطع النظر عن لبسه الصوف او عدمه وقد نسبوه الى الهاشمية وابى الهاشمية والعثمانية والشريكية مرة بالاسم وطورا بالكنية وتارة باسم ابيه »[٩٣] .

وهذا الاضطراب فى أمر ابى هاشم اذا نخل يبقى منه انه كان زاهدا كوفيا ويبدو انه كان من الموالى ايضا لان احدا لم يذكر عربيته ولم يذكر اسم قبيلته ، وانه لم يطق البقاء فى الكوفة الشيعية فانتقل الى الشام . ومادام قد توفى هناك فى سنة ١٥٠/٧٦٧ – وكان سقوط الدولة الاموية سنة ١٣٢/٧٤٩–٥٠ – فلابد انه انتقل اليها قبل سقوط دولتها . ولكنها كانت مضطربا للحروب بين مروان بن محمد وخصومه من الامويين والعباسيين والشيعة . أو لعله هجر الكوفة قبل ذلك بعد ثورة زيد سنة ١٢١/٧٣٩ او ثورة عبدالله بن معاوية سنة ١٢٦/٧٤٣–٤٤ وكل هذه الافتراضات تزيد الامر اضطرابا ، ثم نجده

---

(٩١) الاسلام والحضارة العربية ٢/٣١ .
(٩٢ ، ٩٣) طرائق الحقائق ١/١٠١ .

صوفيا لانه يلبس الصوف فى رأى الحاج معصوم على ونجده لايلبسه فى رأى صاحب اصول الديانات وانما سمى بالصوفى على وجه تسمية جابر بن حيان به ، ثم اذا به شيعيا غاليا ـ مادام يؤمن بالحلول ـ ثم دعا به الى نفسه فى الشام ، وذلك امر لايصدق • ثم ان قول سفيان الثورى : لولا ابو هاشم ما عرفت دقائق لرياء ، يوحى بانه لم يلبس الصوف الذى كان يدل على الزهاد فى الكوفة وكون الرجل ناهيا عن الرياء يعنى البعد عن التظاهر بالزهد اى البعد عن لبس الصوف الذى هو مظهر الزهد الخارجى • ومهما يكن الامر فان من الواضح ان المراد باسباغ وصف الصوفى على أبى هاشم هو ان يكون بالكوفة صوفى شيعى وبالشام صوفى اموى ـ ولعل ذلك مراد الاستاذ كرد على ـ كما يبدو من معاصرة ابى هاشم لجابر بن حيان الذى اعتبر تلميذا لامام الشيعة جعفر الصادق • وكلا الصوفيين على كل حال كوفى ، ولعل امر المعارضة قد نسى الان بعد ان زالت دولة الامويين فى هذا الوقت وبقى منه الدلالة على الزهد فقط •

ويظهر من كل مادار حول ابى هاشم ان اخباره كانت قليلة وهى فى اضطرابها تعدل الاخبار الواردة عن جابر بن حيان او تزيد ، ولكن ابا هاشم على كل حال كان معاصرا لجعفر الصادق ايضا اى معاصرا لجابر بن حيان • ويسميه الشيعة مخترع الصوفية(٩٤) وينقلون عن الصادق أنه قال فيه : «انه فاسد العقيدة جدا وهو ابتدع مذهبا يقال له التصوف وجعله مقرا لعقيدته الخبيثة»(٩٥) • كل ذلك لينفوا ان يكون التصوف من اختراع شيعى وذلك امر يدل على محاولة التنصل من مسؤولية لم تمحص نتائجها ولا اغراضها • ولعل ابا هاشم الصوفى ـ بعد ـ هو خالد بن يزيد بن معاوية

---

(٩٤) طرائق الحقائق ١/١٠١

(٩٥) الرسالة الاثنا عشرية فى رد الصوفية لمحمد بن الحسن بن الحر العاملى ورقة ١٩ ب •

الذى مارس صناعة الكيمياء ، وكان يكنى بابى هاشم ايضا ( )، ولعله سمى بالصوفى أو الكوفى على أساس اشتهار الكوفة بتلك الصناعة من قديم ، وقد مر بنا ذلك فى فصل جعفر الصادق .

عبدك الصوفى :

اما الزاهد الكوفى الثالث الذى سمى بالصوفى فهو عبدك الذى يذكر الدكتور قاسم غنى نقلا عن ماسينيون انه كان آخر شيوخ فرقة نصف شيعية صوفية تأسست فى الكوفة وظهرت كلمة «صوفية» فى آثار المحاسبى والجاحظ اسما لها ، وان عبدك هذا كان رجلا منزويا زاهدا توفى فى بغداد فى حدود سنة ٢١٠/٨٢٥-٢٦[٩٦] . وقد ذكر ماسينيون ان عبدك هو اول من اطلق عليه اسم الصوفى وكان يطلق فى ذلك الحين على بعض زهاد الكوفة من الشيعة وعلى مجموعة من الثائرين فى الاسكندرية[٩٧] وينقل ماسينيون عن الحمدانى ان اول من سمى ببغداد (لا الكوفة) بهذا الاسم عبدك الصوفى وهو من كبار المشايخ وقدمائهم وكان قبل بشر بن الحارث الحافى والسرى بن المغلس السقطى[٩٨] ويخبرنا الملطى ان عبدك كان رأس فرقة من الزنادقة الذين « زعموا ان الدنيا كلها حرام محرم لايحل الاخذ منها الا القوت من حيث ذهب أئمة العدل ، ولا تحل الدنيا الا بامام عادل والا فهى حرام»[٩٩] .

وذكر المقدسى ان اسم عبدك هو عبدالكريم ، وأن حفيده محمد بن على ابن عبدك الشيعى كان مقدم الشيعة[١٠٠] . وهكذا يبدو عبدك جامعا لاتجاهات عديدة مختلفة نابعة من التشيع الممتزج بالزهد المتأثر بظروف الكوفة التى انتقل منها كثير من سكانها الى بغداد بعد ان صارت عاصمة للدولة الجديدة .

---

(٩٦) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ .

(٩٧) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ١٠-١١ .

(٩٨ ، ٩٩) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ١١ .

(١٠٠) كتاب الانساب لابى الفضل محمد بن طاهر المقدسى (متوفى سنة ٥٠٧) ليدن ١٨٦٥ ، مادة عبدك .

والمهم فى شأن عبدك انه اول كوفى يطلق عليه اسم صوفى بعد انتقاله الى بغداد ، ويبين لنا الدكتور قاسم غنى ان « كلمة صوفى – على هذا الاساس – شاعت فى الكوفة اولا ، ثم لقيت اهتماما كبيرا بعد هذا التاريخ بخمسين سنة ، ويضاف الى ذلك ان المقصود بهذا التاريخ ان المتصوفة كانت تجمع تحت لوائها عارفى العراق وتقابلها كلمة ملامتية التى تطلق على عارفى خراسان . وقد زال هذا الفرق منذ القرن الرابع وصار يقصد بالصوفية كل عارفى المسلمين» (١٠٠ أ) .

اما بعد فان نتيجة هذا كله ان كلمة (صوفى) التى قطع الباحثون المحدثون بصدورها عن الصوف قد صارت كذلك لان الصوف قد عمّ زهاد الكوفة نفسها حيث ظهرت هذه الكلمة اولا ، وقد اشتق التصوف من الصوف . وقد رأينا ان لبس الصوف قد نبع من بيئة الكوفة التى عرف تمسكها بالتشيع ومعارضتها وحربها بالسيف او بالقول او بالقلب لمن نكل بالائمة العلويين ، وذلك – اذا صح – يقطع بان التصوف فى اصوله الاولى كان متصلا بالتشيع ، وسنرى ان هذه البذور الزهدية التى صبت فى التصوف فيما بعد ستضاف اليها بذور اخرى مختلفة الالوان من البصرة والشام وخراسان ليستكمل التصوف ملامحه بعد انتقاله الى بغداد ونضجه فيها .

انتظام الزهد فى الكوفة :

فاذا عدنا الى الكوفة من جديد وجدنا الزهد قد انتظم قليلا وكون له مدرسة بسيطة لها رئيس هو سفيان الثورى ، الذى ولد سنة ٩٧/٧٦٥-١٦ فى خلافة سليمان بن عبدالملك الذى اشاع فى الناس لبس الخز وحضهم عليه . وقد بدأ بسفيان الثورى دور جديد هو الهدوء الذى سيتأدى الى الزهد الهادىء والصمت بعد البكاء والاتجاه الى التفكير بدل الهرب منه . وقد كان احد زملاء سفيان يقول له : ارى الناس يقولون سفيان الثورى وانت تنام الليل،

(١٠٠ أ) تاريخ تصوف در اسلام ٤٢ .

فقال : « اسكت ملاك هذا الامر التقوى» [١٠١] ولكنه مع ذلك كان زاهدا في لباسه الى اقصى حد ، وقد رآه على بن ثابت في طريق مكة فقال : « قومت كل شيء عليه حتى نعليه درهما واربعة دوانيق» [١٠٢] . وتبدأ بساطة المجاهدة عند سفيان الثورى ايضا ، ولكنها مازالت لاصقة بالليل حين تخطر الاشباح في الكوفة مدينة المعاصى والعذاب والموت وكان سفيان يقول لمن سأله أخبرنا كيف تصنع انت فيالليل؟ : «لها عندى اول الليل نومة ، تنام ما شاءت لا امنعها ، فاذا استيقظت فلا اقيلها» [١٠٣] وقد ظهر من سفيان اتجاه زهدى جديد يسد عليه الفراغ الذى يملأ حياة الزاهد بالاشباح والخوف ، فانقطع الى العلم انقطاعا تاما عالله لنا بشر الحافى المتوفى سنة ٢٢٧/٨٤١-٤٢ « بان طلب العلم انما يدل على الهرب من الدنيا ليس على حبها» [١٠٤] ، وذلك يذكرنا بجعفر الصادق وابيه محمد الباقر اللذين انقطعا الى العلم بعد ان قتل اباؤهم وابناء عمومتهم ورأوا الراحة من هذا العناء باطراح الطموح المادى وتركيز الهم والجهد في العلم وطلبه وتلك خدمة تسدى الى الاسلام دين جدهم . وقد ظهر لسفيان امر - بعد ان علم اشياء كان يجهلها - فزاد حزنه وكثر ندمه على هذا العلم الغزير الذى فتح عينيه على الحقيقة المؤلمة ، فقد كان يقول : « لو لم اعلم لكان اقل لحزنى» [١٠٥] ، وهذا هو الفرق بين الامام الشيعى الذى تزيد طمأنينته وصفاء نفسه كلما توغل في العلم وبين غيره من امثال سفيان الثورى الذى فسر طلبه للعلم بقوله : « ليس طلب الحديث من عدة الموت ، لكنه عدة يتشاغل بها الرجل» [١٠٦] وزاده وضوحا بقوله : « ان

---

(١٠١) صفة الصفوة ٣/٨٣ .
(١٠٢ ، ١٠٣) المصدر نفسه ٣/٨٥ .
(١٠٤) حلية الاولياء ٨/٣٤٧ .
(١٠٥) صفة الصفوة ٣/٨٣ .
(١٠٦) حلية الاولياء ٦/٢٦٤ .

هذا الحديث عز ، من اراد الدنيا فدنيا ومن اراد الآخرة فآخرة»[١٠٧] وقد كان سفيان يتنقل فى البلدان كثيرا ولا يقيم فى بلد بعينه ولذلك صلة ـ كما يبدو من ثقافته الواسعة ـ بالسياحة المسيحية فكان لايستقر فى بلد بعينه مع علمه بان ما يفعله بدعة صريحة وقد كان معاصره الربيع بن ابى راشد يقول : « لولا ان تكون بدعة لسحت او همت فى الجبال»[١٠٨] ، وقد علل سفيان الثورى سياحته تعليلا غريبا ووصل ذلك باستجلاب صفاء الفكر وتصور النعيم الاخروى بعد ان ليم فى ذلك فروى انه « اقتحم على اهل الجنة نور فى قبابهم كاد ان يخطف نوره ابصار القوم ، فاذا نور سن حوراء ضحكت فى وجه وليها (يقصد نفسه) ، فما كنت ادع هذا الخير ابدا لقولك»[١٠٩] . وقد كانت سياحته سياحة عزلة المطلوب منها التفرغ الى التأمل والتفكر لان رأيه كان منصرفا الى ان « من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم رائاهم ومن رائاهم وقم فيما وقعوا فيه ، فهلك كما هلكوا »[١١٠] ، وذلك ترديد لمقالة جعفر الصادق التى يرويها سفيان نفسه عنه انه قال : « عزت السلامة حتى لقد خفى مطلبها ، فان تكن فى شىء فيوشك ان تكون فى الخمول ..»[١١١] .

وقد اعترف اهل البصرة لسفيان بالفضل والعلم[١١٢] وكان انتقل اليها فى آخريات ايامه (من سنة ١٥٥/٧٧٣) الى سنة ١٦١/٧٧٧-٧٧٨) ، وصار للزهاد شيخا وصاروا له مريدين الى حد ان ابراهيم بن ادهم نفسه قد اعترف بولايته وامامته على الزهاد جميعا حتى انه رجا سفيان الا يقف عند الصخرة بعد ادائه الصلاة فى صحن المسجد الاقصى لئلا يراه الناس ـ ولعل

---

(١٠٧) حلية الاولياء ٦/٣٦٦ .
(١٠٨) المصدر نفسه ٥/٧٧ .
(١٠٩) حلية الاولياء ٦/٣٧٤ .
(١١٠) قوت القلوب .
(١١١) صفة الصفوة ٢/٩٦ .
(١١٢) حلية الاولياء ٦/٢٦٠ .

ابراهيم يعنى الزهاد – فتكون سنة لهم [١١٣] . والغريب ان سفيان قد وافق ابراهيم على ذلك ولم يعترض عليه . ويتوثق ذلك بان سفيان كان يحضر موت الزهاد – بوصفه شيخا لهم – ويخفف عنهم [١١٤] ، بل يبدو انه كان يجمع اموالا ينفقها على الزهاد مما يروى عنه من قوله : « ما بقى احد يدفع به عن اهل الكوفة الا ابن سوقة (محمد) [١١٥] ، كان عنده عشرون ومائة الف (درهم) فقدمها [١١٥] وقد كان سفيان يرمى بالعجب [١١٦] وطلب الشهرة كما اتهم المتصوفة بعدئذ .

وقد جمع سفيان الى مشيخته للزهاد وولايته احترام اصحاب الحديث وحامليه وكان لهم شيخا الى حد ان الشعرانى يروى انه سمى بامير المؤمنين فى الحديث [١١٧] ، ولا عبرة بتحديد الامارة بالحديث فقط فان سفيان الثورى الذى نشأ فى بيئة الغلاة والمتنبئين والمؤلهين للائمة وخالط الائمة انفسهم لايبعد ان يكون قد شعر بالامامة بنفسه ، ويؤيد ذلك ان قبيلته كانت مشهورة بانها «كثيرة المشايخ والفقهاء والمتعبدين» [١١٨] ، وقد جاء فى سيرة الربيع بن خثيم انه «كان فى بنى ثور ثلاثون رجلا ما منهم رجل دون الربيع» [١١٩] وبذلك يتبين لنا ان اسرة جديدة قد تولت بث مذهب جديد هو الزهد الموازى للتشيع الغالى كما فعل بنو عجل من قبل .

وكان سفيان نفسه زيديا وناصر محمد بن عبدالله بن الحسن الثائر بالمدينة وبايع له كما مر بنا ، وكان السلطان يطلبه لذلك ، ولكنه لم يشارك فى

---

(١١٣) حلية الاولياء ٨/ ٥٠ .
(١١٤) صفة الصفوة ٢/ ٩٦ .
(١١٥) المصدر نفسه ٣/ ٦٥ .
(١١٦) حلية الاولياء ٦/ ٤ ٣ .
(١١٧) طبقات الشعرانى ١/ ٤٠ .
(١١٨ ، ١١٩) طبقات ابن سعد ٦/ ١٢٩ .

القتال لأنه آثر السلم كما يقضى مبدأ الزهاد بذلك ، وآية ذلك انه لام زاهدين هربا من الكوفة الى البصرة متنكرين فى زى الحمالين ولم يكلم احدا منهما على ذلك حتى مات[١٢٠] ، والظاهر ان ميل سفيان الى المذهب الزيدى آت من ان عقيدة الزيدية تقضى بان الامام ليس معصوما وليس اعلم المسلمين ولا يتميز عنهم الا بانه علوى فاطمى يصلح لامامة المسلمين ، اما التفوق فى العلم فميسر لمن انقطع اليه • ويجب ان نكرر هنا ان هذه النظرية الزيدية هى التى فتحت للزهاد باب الولاية واثارت فى نفوسهم الطموح اليها ، فما دام المجال قد انفتح امام المسلم بعمله وجهده لا بتوقيف ونص الهيين فقد زال الحاجز الذى كان يطامن من غلواء الزهاد فرأينا سفيان نفسه يجرؤ على لوم الامام الصادق على لبسه الخز ، وكان عيسى بن زيد بن على يحتكم اليه[١٢١] (اى سفيان) •

وكان من ثقة سفيان فى مكانته فى الزهد انه سلم على المهدى الخليفة تسليم العامة[١٢٢] • والمهم ان ابن النديم قد ايد زيدية سفيان فنقل عن محمد ابن اسحق ان اكثر علماء المحدثين زيدية وذكر سفيان الثورى فى فقهاء المحدثين الزيديين[١٢٣] •

داود الطائى :

ويأتى بعد سفيان الثورى داود الطائى المتوفى سنة ١٦٥/٧٨١-٨٢ ودخل اسمه فى قائمة الزهاد الصوفيين وهو الصلة بين الكوفة وبغداد ، وكان داود الطائى كسفيان تعلما وقد اخذ علمه عن ابى حنيفة[١٢٤] الذى ناصر

---

(١٢٠) مقاتل الطالبيين ٣٥٦ •
(١٢١) المصدر نفسه ٤١٥ •
(١٢٢) تاريخ المسعودى ٢/٢٥٤ •
(١٢٣) الفهرست ٢٥٣ •
(١٢٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ •

محمد بن عبدالله بن الحسن الثائر الزيدى ومات فى السجن لتمسكه ببيعته فلما اتم داود تعلمه قال له ابو حنيفة : بقى العمل به ، فنازعت داود نفسه الى العزلة والوحدة [١٢٤] . وزاد تأثير النساك فى داود حتى رأيناه يتخذ التبتل منهجا لحياته ومظهرا لها ، فبقى اربعا وستين سنة اعزب ، وقد علل ذلك بقوله : « قاسيت شهوتهن عند ادراكى سنة ثم ذهبت شهوتهن من قلبى» [١٢٥] فداود اذن اول زاهد دخل فى زهده العامل المسيحى واضحا ، وقد سبقه سفيان الثورى الى السياحة والتجول . وترد فى سيرة داود اول اشارة الى كونه شيخا لمريد آخر ، فان العطار يذكر انه كان شيخ طريقة الراعى [١٢٦] ويذكر الجامى انه من اقران الفضيل وابراهيم بن ادهم [١٢٧] ، وهذه رائحة التصوف ترد من الكوفة الى بغداد . وقد زادت الولاية وضوحا فى داود بحيث كان الناس يقصدونه وينتظرونه اياما ليلقوه ويسمعوا منه [١٢٨] ، وكان محصول القاصد « صم الدنيا واجعل فطرك الموت ، فر من الناس فرارك من الاسد غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم» [١٢٩] ، ولم يطق داود ان يخرج عن صمته اكثر من ذلك فوثب الى المحراب وقال : الله اكبر [١٣٠] .

وقد انتظمت عند داود مسألة الزهد فى الطعام والاعراض عن زخرف الدنيا ، فكان يقول : « اذا كنت لا اشرب الا باردا ولا آكل الا طيبا ولا البس الا لينا فما ابقيت لآخرتى» [١٣١] . وداود بهذا قد ابتعد عن بساطة الزهد الاول واقترب كلامه من كلام المتصوفة وبدا زهده زبدة ميراثه من احداث الكوفة وعبرها وظهرت فى داود ظاهرة اخرى جديدة هى التفكير والتأمل والتركيز

---

(١٢٤) صفة الصفوة ٣/٧٤ .
(١٢٥) طبقات الشعرانى ١/١٨٥ .
(١٢٦) تذكرة الاولياء ١/١٨٥ .
(١٢٧) نفحات الانس ٤٢ .
(١٢٨) صفة الصفوة ٣/٧٤ .
(١٢٩ ، ١٣٠) صفة الصفوة ٣/٦٥ .
(١٣١) طرائق الحقائق ١/٣٧ .

والبعد عن الهرب بالعلم او بالبكاء فقد روى عنه معاوية بن عمر قال : « كنا عند داود الطائى يوما فدخلت الشمس من الكوة ، فقال بعض من حضر : لو اذنت لى سددت الكوة ، فقال : كانوا يكرهون فضول النظر • وكنا عنده يوما فاذا بفروه قد تمزق وخرج خمله فقال بعض من حضر : لو اذنت لى خيطته فقال : كانوا يكرهون فضول الكلام» [١٣٢] وبذلك يبدو ان داود الطائى اول شيخ يلتف حوله المريدون ويسمعون منه ويبلغون عنه لاتعلما كما فعل هو بل مراقبة واخذا عن اعماله مما سيكون منهجا للصوفية من بعده • وقد بقيت فى داود ظاهرة كوفية بارزة هى استحبابهم طول النزع ، وقد طال نزع داود[١٣٣] فدل ذلك على رضى الله عنه لان عذاب الدنيا ينقص من عذاب الآخرة • وبقيت فى داود ظاهرة اخرى من رواسب الزهد البسيط هى اتصال الزهد بالائمة ، فقد اوردنا فى تعرضنا للصادق ان داود طلب المشورة منه وقال له : يا ابن رسول الله انكم افضل الخلق والمشورة منكم واجبة[١٣٤] •

الفضيل بن عياض :

ويأتى الفضيل بن عياض ليزيد الزهد صلة بالتصوف الذى سيبدأ عما قليل ، واصحاب السير الصوفية حائرون فى اصله ، فقوم يجعلونه مولودا فى سمرقند ناشئاً فى ابى ورد [١٣٦] وقوم يرون انه مصرى [١٣٧] وفريق جعله بخارى الاصل [١٣٨] وآخرون يعتبرونه من الكوفة [١٣٩] بل لقد رأوه عربيا تميميا[١٤٠] ولكنهم متفقون على انه مات بمكة سنة ١٨٧/٨٠٣ • وقصة

(١٣٢ ، ١٣٣) صفة الصفوة ٣/٧٤ •
(١٣٤) تذكرة الاولياء ١/١٢ •
(١٣٥) طبقات الشعرانى ١/٨ ٥٠
(١٣٦) الرسالة القشيرية ٩ •
(١٣٧) الفهرست ٥٠٠ •
(١٣٨) نفحات الانس ٣٨ •
(١٣٩) نفحات الانس ٣٨ •
(١٤٠) صفة الصفوة ٢/١٥٤ •

توبته هى التى تفضح اصله وهى اسطورية من جنس القصص التى تروى عن توبة الخراسانيين التى يبدأ بعدها زهدهم • والتوبة جديدة على الزهد الكوفى بل لم نجدها فى الكوفة ولم يشر اليها احد ، وانما هو الزهد طول الحياة لان الجو مشبع بروحه ولم يكن عملا فرديا يقوم على مطالب الحياة المادية او الجنسية كما تعكس لنا قصة توبة الفضيل التى تروى انه «كان يعشق جارية ، فبينا هو يرتقى الجدار اليها سمع تاليا يتلو القرآن : الم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله[١٤١] ؟ ، فقال : يارب قد آن فرجع »[١٤٢] وصلة الفضيل بالكوفة آتية من انه نزلها فى تجوله فسمع الحديث وانتقل الى مكة ومات بها سنة ١٨٧/٨٠٣[١٤٣] وكان فى الفضيل مظهر آخر لم يكن للكوفيين به عهد وذلك انه كان يغشى عليه عندما يسمع صفة النار[١٤٤] فان ذلك لم يصادفنا فى الكوفة ، ولذلك فالفضيل زاهد خراسانى يحمل صفات الزهد الخراسانى ولكنه نزل الكوفة وتأثر بزهدها وصدر عن روح كوفية ممزوجة بهذه الروح الخراسانية المبالغة فى الحساسية العاطفية حين قال : « لو خيرت ان اعيش كلبا ولا ارى يوم القيامة لاخترت ان اعيش كلبا وأموت كلبا ولا ارى يوم القيامة»[١٤٥] • وقد كان فى الفضيل ولاية ظاهرة قرنها بحمل القرآن وتطلب من حامله الا «يكون له الى الخلق حاجة : لا الى الخلفاء فمن دونهم ، وينبغى ان تكون حوائج الخلق اليه »[١٤٦] وتلك ولاية تقرب من الامامة ، ولعله قد استفادها من الكوفة الشيعية • وهو

---

(١٤١) الحديد ١٦ •
(١٤٢) الرسالة القشيرية ٩ •
(١٤٣) صفة الصفوة ٢/١٣٤ •
(١٥٤) راجع المشتبه فى اسماء الرجال ، وميزان الاعتدال ٢/ ٣٢ •
(١٤٤) صفة الصفوة ٢/١٣٥ •
(١٤٥) حلية الاولياء ٨/٨٤ •
(١٤٦) حلية الاولياء ٨/٩٢ •

الذى روى احاديث «أزرى فيها على عثمان» [١٤٧] . وقد اعتذر البغدادى عنه بأنه « روى ما سمع ، فكان ماذا ؟»[١٤٨] .

ويتبين – بعد – هذا الفرق الظاهر بين الزهد الكوفى والخراسانى معا رأينا طرفا منه عند الفضيل الذى بدا زهده مختلفا اختلافا ظاهرا عن زهد الكوفيين .

فرقد السبخى :

قبل ان ندخل فى تفاصيل زهد فرقد يهمنا ان نصحح خطأ طالما وقع فيه الباحثون ذلك انهم يلقبونه بالسنجى (بالنون والجيم) والواقع انه السبخى (بالباء والخاء) نسبة الى سبخة البصرة التى سكنها كما يخبرنا السمعانى [١٤٩] والفيروزابادى [١٥٠] وكما يضبطه ابن الجوزى [١٥١] والمناوى [١٥٢] وابن العماد [١٥٣] . اما البغدادى والذهبى فينسبانه الى سبخة الكوفة [١٥٤] يمثل فرقد ناحية اخرى من اصالة الزهد فى الكوفة فان نزوحه فى فجر زهده الى البصرة قد اثر فى زهده بحيث صبغه بالهجنة التى جاءته من بيئة البصرة المقلدة فقد انفرد فرقد من بين الكوفيين جميعا بتبنيه الاسرائيليات فى الزهد فكان يسرف فى رواية نصوص عن التوراة او عن بنى اسرائيل وربما تطرق الى ذكر المسيح ، وكان ذلك امرا عجيبا حقا . وكان حتى فى كلماته ونفسه غريبا ، فانه لم يعبر الا عن تفضيل الجوع اما باقى موضوعات الزهد فكان يسندها بالنصوص المستخرجة من الكتب المقدسة القديمة . والمشهور

(١٤٧ ، ١٤٨) ميزان الاعتدال للذهبى ٢/٣٣٤ .
(١٤٩) الانساب (ظهر الورقة ٢٨٨) .
(١٥٠) القاموس المحيط ١/٢٦١ .
(١٥١) صفة الصفوة ٣/١٩٥ .
(١٥٢) الكواكب الدرية ١/١٤٧ .
(١٥٣) شذرات الذهب ١/١٨١ .

عندنا ان النبى(ص) قد قال : الجوع كافر ، اما فرقد السبخى فقد كان يقول : الشبع ابو الكفر[١٥٥] فكان بذلك يعبر عن زهد صادر عن نسبة الفساد وخراب الذمم الى الغنى والشبع اللذين يورثان البطرو الكبر ، ويتضح من ذلك ان فرقدا لم يكن ذا صلة بالاحداث السياسية ، او لعله نظر اليها نظرة الى مورد للمال الحرام ولعل ذلك صحيح ولكن لم يبد من اقواله ما يشير الى اتصال زهده بالاحداث الحربية والعذاب الروحى اللذين كانا يستغرقان الكوفة ، وذلك يعنى انه امضى معظم حياته فى البصرة مع كونه كوفى الاصل برواية الشعرانى والمناوى[١٥٦] ، بل يبدو ان فرقدا كان يتحرز من التعبير الذاتى المباشر اما لخوف او لشك فى قدرته على التعبير وفضل التعبير غير المباشر ، فاستشهد لكل حالة امضته بنص من النصوص المقدسة القديمة . وذلك يدل على ان من المحتمل انه كان لا عربيا ولا فارسيا ولعله كان من انباط العراق بل ان السمعانى يخبرنا مصيبا كما يبدو ، بانه كان من اهل ارمينية[١٥٧] . وقد مر بنا انه استشهد بنص روى عن النبى وعلى بن أبى طالب وزعم انه وارد فى التوراة وذلك هو : من اصبح حزينا على الدنيا اصبح ساخطا على ربه عز وجل ، ومن جالس غنيا فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ، ومن اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانه يشكو ربه[١٥٨] ، وقد روى عن المسيح عليه السلام انه قال : « طوبى للناطق فى آذان قوم يسمعون كلامه . ماتصدق رجل بصدقة اعظم اجرا من موعظة قوم يصيرون بها الى الجنة»[١٥٩] فكأنه هنا يشكو اعراض الناس عن سماع حديثه . ويخبرنا المناوى الى ذلك انه قد « شغله التعبد عن حفظ الحديث »[١٦٠] ولكنه لم ينشغل عن حفظ احاديث السيد المسيح وقراءة

---

(١٥٥) الكواكب الدرية ١٤٧/١ .
(١٥٦) طبقات الشعرانى ٣٢/١ .
(١٥٧) الانساب : ظهر الورقة ٢٨٨ .
(١٥٨) صفة الصفوة ١٩٦/٣ .
(١٥٩) الكواكب الدرية ١٤٧/١ .
(١٦٠) حلية الاولياء ١٤٧/١ .

التوراة والاقتباس منها فكان من نتيجة ذلك ان «اعرض النقلة عن نقل حديثه»[١٦١] . وقد صنف فرقد الخطايا لامن نفسه ولكن من التوراة ايضا فقال : « فى التوراة امهات الخطايا ثلاث : الكبر والحسد والحرص ، فنشأ من الثلاث ست فصارت تسعا : الشبع والنوم والراحة وحب المال وحب الجماع وحب الرياسة»[١٦٢] بل لقد كانت مواعظه لاخوانه البصريين منعكسة عن رؤى اسرائيلية يراها فى المنام ، فقد كان يلوم البصريين ويقول لهم : « يا اشباه اليهود كونوا على حياء من الله ، فانكم لم تشكروا اذ اعطاكم ولم تصبروا حين بلاكم »[١٦٣] . وهكذا يضرب لنا فرقد السبخى مثلا واضحا فى دخول الثقافة الى الزهد وطبعه بطابعها الخاص بحيث رأيناه ينشغل عن رواية الحديث الذى كان شغل معاصريه الشاغل وينصرف الى رواية احاديث المسيح ونصوص التوراة . والغريب ان فرقدا صار من القلائل النادرين الذين اعتبروا عند المتصوفة من اصول التصوف ودخلوا فى سلاسله . ويبقى بعد ذلك ان نذكر انه توفى بالبصرة سنة ١٣١/٧٤٨-٤٩ وقد اخرنا ذكره لنبين كيف كانت اصالة الكوفة نابعة من بيئتها ذات الطابع الخاص وكيف تتبدد هذه الاصالة اذا تحول زاهد منها الى بيئة اخرى تغلب عليها الهجنة والتقليد .

الفتوة الكوفية :

لقد كان من اثر الحروب والاضطهاد والروح العسكرية التى سادت الكوفة ان برز قوم من الزهاد بخلق الفرسان على صورة زهدية جوهرها التضحية المقرونة بالعاطفة الرقيقة والبعد عن الطمع المادى والانصراف الى الزهد والفقر . وقد ظهرت بوادر الخلق الذى ينسب الى الفتوة من سعيد ابن جبير الذى قتله الحجاج سنة ٩٤/٧١٢-١٣ ، وكان سعيد يقول : «لدغتنى

(١٦١-١٦٣) الكواكب الدرية ١/١٤٧ .

عقرب فاقسمت على امى ان استرقى فاعطيت الراقى يدى التى لم تلدغ وكرهت ان احنثها »[١٦٤] . وسعيد بن جبير فى ذلك يعكس التوكل والرضى على اوضح صورهما ويضرب لنا مثلا واضحا - وان يكن بسيطا - على بذور الفتوة التى انشأتها ظروف الكوفة الحربية واساليب القمع التى انتشرت فيها . وظهر فى الكوفة مثل آخر على الفتوة التى انبتتها بيئتها ، وذلك ان ابراهيم التيمى الزاهد قد سلم نفسه لشرطة الحجاج على انه ابراهيم النخعى فحبس من اجل ذلك [١٦٥] ولم يقتصر الامر على امثلة نتصيدها من اخبار الزهاد وانما يخبرنا ابن الجوزى بان اصحاب الفتوة قد كان لهم لباس مخصوص كما كان للقراء لباسهم ، ومن ذلك ان ابراهيم بن يزيد النخعى - الذى يضيفه ابن رستة الى قائمة الشيعة - [١٦٦] كان «يلبس الثوب المصبوغ بالزعفران وبالعصفر وكان من يراه لا يدرى امن القراء هو ام من الفتيان»[١٦٧] وبذلك يتضح ان الفتوة كانت مبدأ جماعة محدودة فى الكوفة لها طابعها الخاص ولباسها المتميز ولابد ان كان لها نظمها ومثلها وان تكن ساذجة بسيطة . ولعلنا - بهذا الخبر الوارد عن ابن الجوزى - نقدم اقدم نص يشير الى الفتوة الاسلامية بحسب ماسيكون لها من اتصال بالتصوف ، وليس ذلك على الكوفة بغريب . ولمعترض ان يلفت ذهننا الى ان موطن الفتوة خراسان لا الكوفة ، فالواقع ان ظروف الكوفة - على مايبدو - هى المسؤولة عن ذلك . يضاف الى هذا أن امتزاجا تاما قد حصل بين سكان الكوفة وخراسان ، فكما كان بالكوفة حمرار الفرس كان فى خراسان كثير من العرب وهذا البلاذرى يحدثنا بان معاوية ارسل عددا كبيرا من عائلات الكوفة والبصرة الى خراسان واسكنهم فيها[١٦٨] ويخبرنا ابن عبد ربه الاندلسى

---

(١٦٤) صفة الصفوة ٣/٤٢ .
(١٦٥) المصدر نفسه ٣/٤٧ .
(١٦٦) الاعلان النفيسة ٢١٩ .
(١٦٧) صفة الصفوة ٣/ ٤ .
(١٦٨) فتوح البلدان ٤١٠ .

ان الحجاج قد شتت الكوفيين فى البعوث والمغازى وكان يرى ان ذلك ادوى دواء لدائهم[١٦٩] ، ويورد الشيخ البراقى ان الاشعريين هاجروا من الكوفة وتوطنوا قم بعد ان قتل الحجاج رئيسهم محمد بن السائب الاشعرى[١٧٠] ، ويزيد ولها وزن الامر وضوحا بان خراسان ـ ويعنى بهـــامرو ـ كانت موجهة من الكوفة[١٧١] بالنسبة للدعاة الشيعة (يعنى العباسيين) وانه بعد عام ١٠٠/٧١٨-١٩ بزمن طويل ما فتىء الدعاة فى خراسان كوفيين فقط وهـم تجار غرباء ، ويذكر ان العرب فى خراسان ذابوا فى المجتمع الخراسانى فلم يعودوا واضحين من بين الخراسانيين[١٧٢] . ولكى ندلل على ماكان للكوفيين من أثر فى غيرهم من المسلمين نذكر ان قبائل برمتها قد هاجـــرت الى الشام احتجاجا على شتم عثمان ، ولـكن معـاوية ـ برغـم ذلك ـ لم يدعهـم فى الشام بل عزلهم فى الجزيرة مخافة افساد اهل الشام[١٧٣] ، بـل لقـــد اخرج الامويون كل عراقى وجدوه فى الحجاز وحذروا الحجازيين مـــن ايوائهم[١٧٤] ، وبذلك يتضح ان نشوء الفتوة فى الكوفة ، وان كان تأثر بما كان فى خراسان منها ، كان للظروف السائدة فيها أثرها الكبير ايضـا فى اخراجها الى حيز الوجود .

وبذلك نختم البحث فى الزهد الكوفى الذى خدم فكرة التصـــوف بظهور مبدأ التفكير فيه ، وكان الصوف الذى اشتق منه التصوف من ثمرات الزهد الكوفى ، وقد رأينا فكرة الولاية الكوفية التى نبعث من الامامة اولا

---

(١٦٩) العقد الفريد ٥/١٧٩ .
(١٧٠) تاريخ الكوفة ١٨٣ .
(١٧١) الدولة العربية وسقوطها ٤٠٦ .
(١٧٢) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٠ .
(١٧٣) حركات الشيعة المتطرفين ٥١ .
(١٧٤) تاريخ اليعقوبى ٣/٣٤ .

وحركات الغلاة ثانيا آتية من الكوفة ، بل لقد كانت فكرة الشيـــخ والمريد نابعة من البيئة الكوفية عن طريق داود الطائى ، ورأينا اخيرا ان الفتوة نشأت فى الكوفة متأثرة بالظروف وبسبق الخراسانيين الذين خالطوا الكوفيين اليها • لقد نبع كل ذلك من اللون الشيعى الذى كان يصبغ الكوفة ومن العاطفـــة الدينية التى كانت تستغرق الكوفيين • ويحسن بنا ان نختم فصل الزهـــد الكوفى بان « الزهرى (محمد بن مسلم المتوفى سنة ١٢٤/٧٤١-٤٢) قارف ذنبا فاستوحش من الناس وهام على وجهه فقال له زيد بن على : يازهرى ، لقنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء اشد عليك من ذنبك • فقال الزهرى : الله اعلم حيث يجعل رسالته ، ورجع الى هله وماله واصحابه[١٧٥] •

(١٧٥) البيان والتبيين ٣/١٥١ •

الفصل الثاني

الزهد في البصرة

تمصير البصرة وبيئتها :

من النادر جدا ان يكون بين بلدين متقاربين فى المكان والعنصر والزمان ما كان بين البصرة والكوفة من اختلاف يكاد يكون تضادا • فقد مصرت البصرة والكوفة سنة ٦٣٨/١٧ بعد ان كانتا معسكرين للجيوش التى فتحت فارس ، وكما انشئت الكوفة على انقاض بابل والحيرة بنيت البصرة بالقرب من ميناء الابلة القديم [١] ولكى نعرف مدى تأثر الابلة ـ التى ورثتها البصرة ـ بالثقافات الاجنبية فعلينا ان نرجع الى معجم البلدان لنجد انها كانت تسمى بارض الهند[٢] • وكانت البصرة ـ من الناحية الادارية ـ مركز حكومة خراسان ايام الامويين[٣] ، وذلك يعنى ان الفرس كثيرا ماكانوا ينزلونها لقضاء شؤونهم التى تتصل بالسلطان ، والعاصمة ـ على كل حال ـ مرجع دائم ومستمر لقاطنى البلدان التابعة لها ، ولعل هذه الحقيقة توضح لنا سببا قد يكون خافيا لتأثر البصرة بالثقافات والمثل الفارسية • وقد نقل الينا الجاحظ هذه الحقيقة على لسان ابى عمرو بن العلاء البصرى حين قال : «لنا دهاء الفرس واحلامهم»[٤] • وكانت البصرة الى ذلك تضم من العرب قبائل مضر بينما سكنت حمير الكوفة[٥] وهذا يعنى انه قد كان فى البصرة اغلبية مضرية من عرب الشمال اما الكوفة فكانت اغلبيتها من اليمن كما رأينا • وهذا

---

(١) معجم البلدان ٢٠١/٢ •
(٢) المصدر نفسه ١٩٦/٢ •
(٣) تاريخ العرب ٣٠٩/٢ •
(٤) البيان والتبيين ٨٩/٢ •
(٥) امير على : مختصر تاريخ الاسلام ٦٦ •

يشرح لنا لماذا اتصفت الكوفة بالاصالة العربية والبصرة بالاختلاط والهجنة ، فقد كان اليمانيون على جانب من الحضارة اتاح لهم ان يتغلبوا على الاثار الواردة الى الكوفة من الحضارات الاجنبية وان يهضموها ، اما العنصر العربى الذى نزل البصرة فقد كان ضعيف الحضارة فغلبت عليه الثقافة الاجنبية التى قابلته فى بيئته الجديدة • ويجب الا يفوتنا ان كون البصرة ميناء يستقبل كثيرا من الزوار والمثقفين والتجار قد اسهم فى ذلك ، ولابد ان يكون لهؤلاء دور واثر فى بيئة البصرة لتقبل كل جديد • ومما يزيد هذا وضوحا ان الاتجاه القبلى الجاهلى كان قانون القبائل النازلة فى الكوفة والبصرة وان اتباع كل شيخ قبيلة كانوا يطيعونه فى الحرب والسلم طاعة عمياء كما يرى الاستاذ احمد امين(٦) • واذا اضفنا الى هذه الحقيقة ان القبائل الكوفية قد اتجهت وجهة عاطفية شيعية وان نصرة هذا المذهب قد استغرقتها وأن البصرة لم تكن ميالة الى تبنى المذاهب العاطفية والافكار الدينية عرفنا لماذا كانت الكوفة اصيلة والبصرة جامعة للاخلاط والاشتات • وقد اسهم كل ما ذكرناه فى شىء آخر اصاب البصرة خيره وشح على الكوفة ، فان الاخيرة قد تأخرت فى التحضير عن البصرة التى « بنيت دورها ومساكنها باللبن والآجر قبل الكوفة بزمن ، وكانت دساكرها السبع القديمة مأهولة وذات منازل ثابتة من قبل »(٧) وبناء على هذا ونظرا لان البصرة قد قامت على تخوم فارس ، فقد « نشأت فيها دراسات اللغة العربية ومنها اصول الصرف والنحو ، وذلك ـ بالاكثر ـ لتعليم الاعاجم الداخلين فى الاسلام • على ان بعض هؤلاء اصبح ـ فيما بعد ـ من مدرسى هذه العلوم وحملتها • وانما دفع الاعاجم الى العربية اولا رغبتهم فى ان يدرسوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم ••• واذن فليس صدفة ان يظهر فى البصرة اول واضع للنحو العربى ـ على قول الرواة ـ وهو ابو الاسود الدؤلى المتوفى سنة ٤٩ هـ

---

(٦) فجر الاسلام ٢٢٩ •

(٧) خطط الكوفة ١٠ •

٦٨٨م»[٨] . ويؤيد ذلك ان موسى بن سيار الاسوارى « كان اذا جلس مجلسه لتفسير القرآن فسر للعرب بالعربية وللذين من دماء فارسية بالفارسية»[٩] . ويخبرنا دى بور ان « سبق اهل البصرة بالانتفاع بالمنطق لم يكن محض صدفة لان تأثير المذاهب الفلسفية ظهر فى البصرة قبل ظهوره فى غيرها ، وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين افسحوا السبيل للحكمة الاجنبية لكى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية »[١٠] وبهذا صارت البصرة كأنها « عجوز شمطاء ذفراء اوتيت من كل حلى»[١١] كما وصفها الحجاج من قديم بينما كانت الكوفة «شابة حسناء جميلة لاحلى عليها ولا زينة»[١٢] ، ومن الانصاف ان نذكر لها انها مازالت كذلك حتى الان بالنسبة للعلوم العربية والاتجاه العربى بالرغم من كثرة من يتعلم فيها من الفرس ويعلم .

ويجدر بنا قبل الخوض فى زهد البصرة ان نبين تهافت الزعم القائل بان البصرة كانت عثمانية معادية للشيعة على اطلاقها ، وقد رأينا الاحنف بن قيس المتوفى فى ولاية مصعب بن الزبير فى الكوفة يعتزل فى معركة الجمل مع عشرة آلاف مقاتل حتى هزم على بن ابى طالب البصريين ثم دخل فى بيعته[١٣] . بل لقد كان الجيش البصرى ثلاث فرق : فرقة مع طلحة والزبير وفرقة مع على ، وفرقة لاترى القتال مع أحد الفريقين[١٤] ، وكانت قبيلة عبد القيس فى البصرة شيعية[١٥] . وقد رأينا ان ابراهيم بن عبدالله

---

(٨) تاريخ العرب ٢/٣٠٩ .
(٩) حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٩ .
(١٠) تاريخ الفلسفة الاسلامية ٣٩ .
(١١ ، ١٢) مروج الذهب ٢/١٤٨ .
(١٣) تاريخ الطبرى ٥/١٩٧ .
(١٤) المصدر نفسه ٥/٢٠١ .
(١٥) خطط الكوفة ٣٨ .

ابن الحسن قد ثار فى البصرة وهو من الائمة الزيديين ويدهشنا ابو الفرج الاصفهانى بروايته ان ديوان ابراهيم قد احصى من اهل البصرة مائة الف رجل[١٦] . ويخبرنا الجاحظ ان بشار (بن برد) «كان يدين بالرجعة»[١٧] وهى من مبادىء الشيعة كما مر بنا . ولكن لايستطيع احد ان ينكر عثمانية البصرة وسنيتها الغالبة من ان اهلها « كانوا ينكرون بكل جرأة ووقاحة الخلاف بين الصحابة »[١٨] كما تقول ماسينيون ولكنها «انقلبت شيعية منذ القرن الخامس الهجرى»[١٨] . .

اسس الزهد فى البصرة :

لقد كانت الحياة فى البصرة رخية سهلة ، قال فتى من اهل المدينة دخل البصرة فى وصفها لاصحابه : « خير البلاد للجائع والغريب والمفلس » وراجع تفصيل ذلك فى معجم البلدان[١٩] ، وكانت التجارة فيها مجزية رابحة كما اتفق عليه سائر المؤرخين ولعل هذا هو السبب فى فخر البصريين « بانهم اكثر اموالا واولادا واطوع للسلطان .....»[٢٠] فقد كانت البصرة هادئة اذا قيست بالكوفة وقد رأيناها تشارك فى قتال على ثم سكتت حتى نصرت حفيدا له من بعد ثم رأينا حوادث الخوارج تخرج منها شأن باقى اجزاء العالم الاسلامى . وقد ظهر الزهد فى البصرة قويا نشيطا ، والنظرة الفاحصة اليه ترجعه الى نوع من يقظة الضمير على تخلفها عن المشاركة فى احقاق الحق وازهاق الباطل وانصرافها الى الربح والتجارة واللهو ، وتلك علة الخوف البصرى كما سنرى كما كان علة الخوف الكوفى الذى كمن فى امتلاء القلب

---

(١٦) مقاتل الطالبيين وكذلك ابن الاثير ٥/٢١١ (مصر ١٣٠٣) .
(١٧) الاغانى ٣/٢٤ .
(١٨) خطط الكوفة ١٤ .
(١٩) معجم البلدان ٢/٢٠٢ .
(٢٠) ضحى الاسلام ٢/٧٨ .

بالايمان بمثل تقصر اليد عن تحقيقها ، فظاهرة الخوف املتها مؤثرات شيعية ولا ريب . ثم ادى هذا الرخاء وضعف العقيدة الدينية او تميعها على الاقل الى الانحلال الخلقى الذى اوضحه زياد فى خطبته بقوله : « ما هذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر »[٢١] ، واشار الحسن البصرى ايضا الى الشذوذ الجنسى الذى كان منتشرا فى البصرة[٢٢] . وقد اشار زياد كذلك الى حدث احدثته البصرة فى الاسلام وذلك تركهم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله» [٢٣] وسبب ذلك « ان السلطان فى البصرة كان بيد القبائل لابيد الحكومة وبما ان هذه القبائل لم تكن موحدة وكانت دوما منهمكة بالا يفوتها نفع فانا نستطيع ان نتصور نتائج ذلك»[٢٤] . ومما زاد الامر صعوبة انه لم يكن لدى البصريين الا مثل فردية تتركز فى الطمع الشخصى دون سند من عقيدة دينية او مثل اعلى لا كما كان الامر فى الكوفة ، ومن المعلوم ان العرب كانوا يأنفون من الحرف والصناعات والزراعة وكان الغنى بالنسبة اليهم يعنى الغارات وما يجنونه من الحروب . وهكذا صار رخاء البصرة بلاء نبه الناس الى الشقاء الذى يعانونه بالاضافة الى الكسل الدينى الذى كان سائدا فيها . وبينما وجدنا فى الكوفة فتوة وفتيانا من الزهاد يضحون بانفسهم فى سبيل المثل العليا ولهم لباس خاص ، فاننا نقابل فى البصرة طبقة مقابلة للفتيان ـ لم يلتفت اليها الباحثون ـ هى طبقة السفهاء الذين اسهموا فى اذكاء القتال فى حرب الجمل وكان انصار على يوحون اليه ان جيش البصرة هين لأن مادته السفهاء[٢٥] . وقد اكد لنا زياد فى خطبته هذه الحقيقة فاشار

---

(٢١) البيان والتبيين ٢/٤٨ .
(٢٢) حلية الاولياء ٦/١٨٦ .
(٢٣) البيان والتبيين ٢/٤٨ .
(٢٤) الدولة العربية وسقوطها ٩٢ .
(٢٥) تاريخ الطبرى ٦/٢٢١ .

الى هؤلاء في ثلاثة مواضع من خطبته [٢٦] ويبدو ان هؤلاء هم خلف الفتوة الجاهلية كما سيتبين لنا جوهرها في فصل مقبل . وقد وصف على البصرة لعبدالله بن عباس بقوله : « اعلم ان البصرة مهبط ابليس ومغرس الفتن فحادث اهلها بالاحسان اليهم واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم» [٢٧] . وبذلك يتضح اساس من اسس الزهد البصرى آت من ظروفها الاقتصادية والاجتماعية واستعلاء المثل القبلية فيها . ومن المهم ان نستعين برأى الزهاد انفسهم في هذا المجال فننقل تعليل احدهم ذلك بقوله : « ضعف الناس والذنوب والشيطان» [٢٨] وقول ابراهيم بن أدهم : « عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به وادعيتم حب رسول الله (ص) وتركتم سنته وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه وقلتم : نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وقلتم : نخاف النار ورهنتم انفسكم بها ... » [٢٩] ويضيف ابو طالب المكى الى ذلك سببا آخر هو البلبلة العقلية وانتشار المذاهب الكلامية وتشعبها في البصرة فادى ذلك الى الزهد فهرب الناس «من الافن والاغترار » [٣٠] .

ويأتي اساس اخر للزهد من العنصر الثانى الذى كان ينزلها ، اولئك هم الفرس الذين كان بعض سراتهم يحتفظون بتقاليدهم الفارسية في الترف الذى نعاه عليهم الحسن البصرى [٣١] وليس هذا - في حد ذاته - مدعاة للزهد ، ولكن الذى يورث هذا الاثر هو ان الزهد كان معروفا في فارس قبل ذلك وكان منتشرا الى حد ان المسعودى يذكر - في معرض بطولة ابى محجن

---

(٢٦) البيان والتبيين ٢/٤٧-٨
(٢٧) نهج البلاغة ٣/٢٠ .
(٢٨) حلية الاولياء ٦/٣١٠ .
(٢٩) المصدر نفسه ٦/١٦ .
(٣٠) قوت القلوب ٢/١٥٤ .
(٣١) حركات الشيعة المتطرفين ٢٠٩ .

الثقفي في القادسية انه «قتل رجالا كثيرا من نساكهم» (٣٢) . وهاتان الحقيقتان تؤلفان مقدمة ونتيجة تتصلان بالزهد الفارسي الذي انتقل الى البصرة بعلته وبعنصره كليهما ولم يكن بسيطا كالزهد الكوفي وانما كانت له اصول ومثل نبدو للدارس الذي لايلم بالبصرة وظروفها مفاجئة ليس لها داع كفكرة الحب والامتناع عن دخول الحمام واطالة الشعر مما لايناسب تقاليد الاسلام التي كان الزهاد القدماء احرص عليها من سائر المسلمين في الكوفة وسنرى ذلك في هذا الفصل .

وكما كان في الكوفة طرازان من الزهد احدهما ينبع من الاسلام والاخر ينبثق من الظروف المحيطة بالمصر ، كذلك كان في البصرة زهدان اسلامي ومحلي وسنتطرق الى كل منهما فيما يلي :

الزهد الاسلامي :

لقد مر بنا ان الاسلام في جوهره انما هو تغليب لمظهر مادته من الفقراء والمستضعفين وانه انما التزم ذلك بالحفاظ على مثله من ان تبيد بفعل اصحاب الاموال والجاه والسلطان ممن جاء الاسلام للقضاء عليهم ، فكان من ذلك بساطة اللباس وخشونة الطعام ورقة العاطفة والاندفاع الى الدفاع عن مبادىء الاسلام بكل حمية وشجاعة واخلاص . فلما غلبت على البصرة مثل غير اسلامية استشعر المتشربون بروح الاسلام الانجاة لهم الا بالاصرار على السلبية والاندفاع الى التطرف في الزهد والبكاء وتعذيب النفس جزاء عجزها عن تغيير ماجد من اخطار تكاد تطيح بالاسلام ، فوجدنا قوما من جنس سعد بن ابي وقاص وعبدالله بن عمر وزملائهما في مكة ومثل الربيع بن خثيم في الكوفة ، ذلك هو الاحنف بن قيس الذي اعتزل جيش البصرة في

---

(٣٢) مروج الذهب ١/٤٢٣ .

الجمل [٣٣] ، وكان الاحنف «يجيء الى المصباح فيضع اصبعه فيه ثم يقول : حس» [٣٤] . وتلك بداية بصرية للمجاهدة وصلتها بالشعور بالاثم والخوف من عذاب الآخرة واضحة . وكان عامر بن عبدالله بن (عبد قيس) من بنى تميم صاحب مجاهدة ايضا وكان يقول لنفسه : « قومى يا مأوى كل سوء ، فوعزة ربك لازحفن بك زحوف البعير ، لئن استطعت الا يمس الارض من زهمك لافعلن . ثم يتلوى كما تتلوى الحية على المقلى ، ثم يقوم فينادى : اللهم ان النار قد منعتنى من النوم فاغفر لى » [٣٥] . ولم يكتف عامر بذلك بل حاول ان ينحو منحى الرهبان من الامتناع عن ملامسة النساء ولكنه لم يجعل ذلك له منهجا وانما قصر رغبته على دعوته لله ان «ينزع شهوة النساء عن قلبه» [٣٦] . وكان عامر يعبر عن حيرة البصريين تعبيرا بديعا بقوله : « اللهم فى الدنيا الهموم والاحزان وفى الاخرة العذاب والحساب ، فاين الروح والفرح » [٣٧] فكان بذلك يفصح عن العذاب الذى كان يعانيه فى دنياه البصرية من ظلم وفساد وضعف عقيدة وبعد عن المثل الاسلامية وتغليب للمصلحة الشخصية وعبث بمال الغير وعرضه ، فكان يدفع الهموم والاحزان عن نفسه باربع آيات يطيل ترديدها يكمن فيها جوهر الزهد البصرى ، وكان تأثيرها فيه انه ـ اذا ذكرهن ـ « لم يبال علام اصبح او امسى » [٣٨] والايات : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده» [٣٩] ، و : « ان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو » [٤٠] و : « سيجعل الله بعد عسر

---

(٣٣) تاريخ الطبرى ٥/١٩٧ .
(٣٤) صفة الصفوة ٣/١٢٤ .
(٣٥) صفة الصفوة ٣/١٢٦ .
(٣٦) المصدر نفسه ٣/١٣١ .
(٣٧) المصدر نفسه ٣/١٢٦ .
(٣٨) صفة الصفوة ٣/١٣١ .
(٣٩) فاطر : ٢ .
(٤٠) الانعام : ١٧ .

يسرا »[41] و : « وما من دابة الا على الله رزقها »[42] وهذه آيات تمثل التوكل والرضى باجلى مظاهرهما مما سيكون لهما شأن فى تكوين العقيدة الصوفية • وهذا يعنى ان اليأس قد ادى بعامر الى التسليم المطلق لقدر الله وارادته وتصرفه فى هذه الامة التى طفح بها كيل الذنوب فكان انه «صلى يوما فدخلت حية من ذيله وخرجت من جيبه فقيل له : لم لاتنحيها ؟ قال : والله ما اعلم بها حين تدخل ولا حين تخرج ، وانى لأستحيى من الله ان اخاف غيره »[43] فجمع ـ بذلك ـ الى التوكل والرضى المجاهدة الشديدة والاتجاه المطلق الى الله وحده • ونظرة الى سيرة عامر تجعله شبيها بالشيعة الاوائل ولعله كان واحدا منهم ، فقد نفاه عثمان من البصرة الى الشام لانه «كان شديدا فى الامر بالمعروف»[44] فيكون عامر صنو أبى ذر فى العمل والجزاء ولعله كان شبيها له فى الروح • وقد يعترض معترض بان معارضة عثمان لاتعنى التشيع ، ولكن الواقع ان البصرة فى الاغلب الاعم عثمانية اى رأى من يطيع دون مناقشة وان كان فى الطاعة اهدار للمثل الاسلامية ، فاعتراض عامر على عثمان ـ وروى ابن قتيبة ما يفيد معارضته له ـ[45] يضيفه الى زملائه ممن اصابتهم نقمته كأبى ذر وعمار بن ياسر اللذين كانا من اوائل الشيعة وبذلك يمكن اضافة عامر الى التشيع ولو باتفاق الميل والمشرب • وكان عامر الى ذلك اول من قال بالحب وسنرى ذلك فى الشطر الثانى من زهد البصرة النابع من بيئتها •

الحسن البصرى :

وكان الحسن البصرى الذى يعتبره جولد تسيهر مؤسسا لمدرسة البصرة

---

(٤١) الطلاق : ٧

(٤٢) هود : ٦ •

(٤٣) الكواكب الدرية ١/١٢٨ •

(٤٤) الكواكب الدرية ١/١٢٩ •

(٤٥) عيون الاخبار ٢/٢٧٠ •

فى الزهد والتصوف[٤٦] زاهدا آخر صدر عن روح الاسلام كما فعل عامر، ولم يختلط زهده بالزيادات التى حتمتها الظروف الا بالقدر الذى لامندوحة عن التأثر به . وقد كان الحسن البصرى من مواليد المدينة سنة ٢٢/٦٤٢-٤٣ وكان ابوه من سبى ميسان [٤٧] وهى بليدة باسفل البصرة[٤٨] وكانت امه مولاة لام سلمة زوج النبى (ص)[٤٩] ، ويقال انه ولد على الرق[٥٠] . والمهم فى ذلك كله ان الحسن قد نشأ فى المدينة ولم يقصد اليها من فارس كغيره من الزهاد الموالى فى البصرة ، فزهده نابع من الاسلام ومن بيت الرسول وهذا هو ملاك ما يرد اليه زهده وهو الذى اسبغ عليه - عند الشيعة - أهمية قصوى . يضاف الى ذلك انه عاصر الخمسة الاولين من أئمة الامامية ومات سنة ١١٠/٧٢٨-٢٩ أى فى حياة الامام الخامس محمد الباقر . وقد ذكر فيه فليب حتى انه «قد تغذت الصوفية طوال الاجيال بآثار زهده وتقاه ، اما اهل السنة فيتناقلون عنه الحكم والاقوال الرشيدة كما ان المعتزلة تحسبه منها» [٥١] ، ويرى ابو طالب المكى ان كلامه « يشبه كلام رسول الله »[٥٢] وقد نظر ابو طالب الى صدور الحسن البصرى عن مثل الاسلام الاول فى زهده وعلل ذلك بمخالطته للصحابة [٥٣] . والواقع ان الشبه قائم بين الحسن البصرى وعلى بن ابى طالب لا النبى(ص) لانه (ص)لم يكن زاهدا بالمعنى الذى صدر عن الحسن والصحابة ، ووجه الشبه بين الحسن البصرى وعلى انهما كانا غاية فى الزهد وان الحسن كان يندمج على علم الباطن اخذا

---

(٤٦) فى التصوف الاسلامى ٤٦ .
(٤٧) الفهرست ٣٥٤ .
(٤٨) روضات الجنات ٢٠٨ .
(٤٩) ابن سعد ٧ : ١/١١٤ ولم يؤكد ابن سعد الخبر وانما قال : «يقال» .
(٥٠) الفهرست ٣٥٤ .
(٥١) تاريخ العرب ٢/٣١١ .
(٥٢ ، ٥٣) قوت القلوب ٢/٢٢ .

عن حذيفة صاحب سر الرسول[٥٤] ، بل ان فريد الدين العطار يروى ان الحسن « شرب فى طفولته من جرة النبى فى بيت ام سلمة ، فقال الرسول عليه السلام : من شرب هذا الماء ؟ قيل : الحسن . فقال : سيسرى اليه من علمى بقدر ما شرب من الماء» [٥٥] وقد التفت العطار الى هذه الصلة التى لاحظناها بين الحسن وعلى فقال : « وكانت ارادته مرتبطة بعلى واخذ العلوم والطريقة عنه»[٥٦] وبذلك يتبين ان الحسن يشبه عليا فى العلم لا لانه قد تعلمه وانما اخذه عن النبى كما يتلقاه اى امام شيعى من جده بالوراثة الروحية وذلك أمر يصل الحسن البصرى بالامامة الشيعية التى لم يكن للبصريين بها عهد . وينبغى ان نلاحظ ان حذيفة الذى سرى منه العلم الى الحسن قد كان متصلا بعلى بن ابى طالب وان العلم السرى كان خاصا بعلى نفسه اما حذيفة فقد كان علمه محدودا يختص بمعرفة المنافقين فقط . ويتبين وصل الصوفية للحسن بعلى ـ وهذا هو الهدف الذى سنبينه ـ من انه نقل عنه قوله فى على : « لقد فقدوه سهما من مرامز طيب» [٥٧] ولما سئل عما رمى به من لومه عليا على الخروج قال : « كلمة باطل حقنت بها دما وعدد لمعاوية اربع صفات موبقات [٥٨] وورد عنه عطفه ـ على الاقل ـ على العلويين فى قوله : « لو كنت ممن رضى بقتل الحسين رضى الله عنه ، وعرضت علي الجنة ما قبلتها حياء من المصطفى (ص)»[٥٩] .

وبعد هذا كله يجب علينا ان نصرح بان شخصية الحسن البصرى قد نسجت ـ عند المتصوفة ـ على مثال شخصية على فنسبوا اليه نشأته فى بيت النبوة وتلك صفة على ، ونسبوا اليه الاطلاع على الاسرار الدينية وعلم الباطن،

---

(٥٤) التعرف ٥٩ .
(٥٥ ، ٥٦) تذكرة الاولياء ١/٢٢ ترجمة .
(٥٧) حلية الاولياء ١/٨٤ .
(٥٨) ابن الاثير ٣/١٩٣ .
(٥٩) الكواكب الدرية ١/٩٧ .

وتلك صفة اخرى لعلي وكان الحسن البصري يعبر عن زهده تعبيرا فيه حكمة وجمال وعمق كما كان يفعل على ـ ولعل هذا هو الاصل فى هذا التشابه ـ وقد سمى الحسن بسيد الفتيان [٦٠] وقد قيل فى على : « لافتى الا على» [٦١] ، بل لقد نسبوا الى الحسن ان عرض رنده كان شبرا [٦٢] ليلحقوه بعلى حتى فى التكوين الجسمى ٠

اما بعد فيحسن بنا ان نذكر انه قد عز على الحسن البصرى شىء واحد هو النسب العربى الذى احس كل اصحاب الكتب التى عرضت لسيرة الحسن البصرى باثره فى الاقلال من السمو الذى ارتفع اليه هذا الزاهد فكلهم نسبه الى نفسه فقالوا الحسن بن ابى الحسن مع ان اباه هو يسار [٦٣]

وقد كان الحسن ذا عاطفة وحساسية نابعتين من تعمق فى الصدور عن الاسلام فكان زهده اسلاميا صادرا عن جوهر المثل الاسلامية دون خروج بالزهد الى نمط جديد يختلف عما عكسه المسلمون الاوائل ، وكل ماجد فيه هو المبالغة فى الحزن والعبادة تجاوبا مع الظروف الجديدة فكان ـ فى حزنه ـ « اذا اقبل فكأنما اقبل من دفن حميمه ، واذا جلس فكأنه اسير قد امر بضرب عنقه ، وكان اذا ذكرت النار عنده فكأنها لم تخلق الا له» [٦٤] ٠ ومن هنا قال « رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فان وافقه حمد الله وسأله الزيادة من فضله ، وان خالفه اعتب واناب» [٦٥] ، وكان يقول : «طول الحزن فى الدنيا تلقيح العمل الصالح» [٦٦] وعلل حزنه بان المؤمن

---

(٦٠) المصدر نفسه ١/٩٩ ٠
(٦١) محاضرة الاوائل ٣٧ ٠
(٦٢) وفيات الاعيان ١/٣٥٤ ٠
(٦٣) ابن سعد ٧ : ١/١١٤ ، مروج الذهب ٢/١٦٣ ، امالى المرتضى ١/١٠٦
(٦٤) البيان والتبيين ٣/١٥٤ ٠
(٦٥) المصدر نفسه ٣/١٢٠ ٠
(٦٦) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ٢ ٠

«لا يسعه غير ذلك لانه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لايدرى ما الله يصنع فيه وبين اجل قد بقى لايدرى ما يصيب فيه من المهالك »[٦٧] وانه « لايؤمن عبد بهذا القرآن الا حزن وذبل والا نصب والا ذاب والا تعب» [٦٨] . وقد كان الحسن يصدر عن نفس اسلامية اصيلة حين اجاب على سؤال من استفهم عن سبب بكائه : « اخاف ان يطرحنى غدا فى النار ولايبالى» [٦٩] فخرج بذلك عن الاختيار والجبر ونفى ان يتحكم احدهما دون الاخر فعل أئمة الشيعة .

وقد كان الحسن ـ الى ذلك ـ يلبس الصوف [٧٠] فعل الكوفيين وقد رأيناه يصدر عن روحهم ، فيتضح بذلك انه كان نسخة بصرية فارسية من الامام علي ولم يختلف عنه الا فى شىء واحد هو ايثار السلم ولعل ذلك لايدخل فى باب الاختلاف ايضا لان عليا كان يؤثر السلم ايام كانت المقاليد بيد غيره فكان ينصح للخلفاء ويطيعهم ، فلما تقيد بالخلافة ورأى انلا سبيل الىالاصلاح الا بما فعل الرسول (ص) مع المكيين ، عندئذ سل سيفه ، وسنرى ان الصوفية قد جعلوا سيفه شيئا روحانيا الهيا ينبعث منه الحق والعدل . اما الخلاف الاخر فهو كون الحسن فارسيا ، وقد حاول كل الذين رووا سيرته سواء اكانوا عامدين ام غافلين ان ينفوا عنه ما يشير الى الفارسية فلم ينسبوه الى ابيه يسار بل نسبوه الى نفسه فقالوا دائما : الحسن كما مر بنا . وهذه المكانة السامية التى احتلها الحسن هى التى وصلته بعلى حتى رأيناه يوصل بسلسلة معروف فى اسناد الخرقة ، « وقد اخذها معروف عن داود الطائى ـ وهو كوفى كما رأينا ـ وهذا عن حبيب العجمى ـ الذى سيرد ذكره ـ وهذا عن

(٦٧ ، ٦٨) حلية الاولياء ٢/١٣٢ .
(٦٩) صفة الصفوة ٣/١٧٥ .
(٧٠) الكواكب الدرية ١/٩٩

سيد التابعين الحسن البصرى عن على عليه السلام عن رسول الله (ص)»[٧١] وقد عزز الحاج معصوم على ذلك بايراده ـ فى السلسلة الكميلية الصوفية ـ ان نسبة الخرقة متصلة بالنبى « البسها علياً فالبسها الحسن البصرى وكميل ابن زياد»[٧٢] وهكذا نجد الاصول الشيعية فى الزهد البصرى كما وجدناها فى الزهد الكوفى • ويجب ان نلتفت هنا اننا سنقابل التصوف فى بعض اصوله موازيا للتشيع لا متصلا به مباشرة كما مر بنا من موازاة شخصية الحسن البصرى لشخصية الامام علي وكما انتبهنا الى الشبه القائم بين عمر ابن عبدالعزيز وعلي ايضا • •

وما دمنا بصدد الخوف ومدرسته فيجب ان نشير الى ان بصريا آخر كان يصدر عن نفس اسلامية اصيلة فى الخوف الزهدى وقد قال ذلك البصرى وهو هرم بن حيان ـ الذى كان عاملا لعمر بن الخطاب ـ : «لوددت انى شجرة من هذه الشجر اكلتنى هذه الراحلة ثم قذفتنى بعرا ولم اكابد الحساب»[٧٣] وذلك يذكرنا بقول النبى (ص) الذى ينسب ـ على الصحيح ـ الى ابى ذر : « لوددت اننى شجرة تعضد»[٧٤] • ثم وجدنا الخوف يتطور والتجاوب له يتطور ايضا الى احد ان بهز بن حكيم ـ من طبقة الحسن البصرى ـ خرميتا لما سمع الاية : فاذا نقر فى الناقور[٧٥] • ثم بدأ البكاء ينفصل عن سماع ايات القرآن وصار مجاهدة ملازمة للزهاد فرأينا عطاء السليمى الذى بروى عنه ابراهيم بن ادهم انه كان «يمس جسده بالليل خوفا

---

(٧١) طبقات الاطباء ٢٥٠ •
(٧٢) طرائق الحقائق ٢/٣٩ •
(٧٣) صفة الصفوة ٣/١٣٧ •
(٧٤) اللمع ٣٧٨ •
(٧٥) صفة الصفوة ٣/١٥٢ ، المدثر : ٨ •

من ذنوبه مخافة ان يكون مسخ » [٧٦] ولقينا هشام بن أبى عبدالله (وهو الاسم الاسلامى الذى اختاره لنفسه سنبر الدستوائى المتوفى سنة ١٥٣) قد « اظلم بصره لطول البكاء » [٧٧] وشعبة بن الحجاج « قد جف جلده على عظمه ليس بينهما لحم» [٧٨] ثم اذا بلغنا نهاية القرن الثانى صادفنا رياح بن عمرو القيسى المتوفى سنة ١٩٨/٨١٣-١٤ الذى « كان له غل من حديد قد اتخذه ، وكان اذا جنه الليل وضعه فى عنقه وجعل يبكى ويتضرع حتى يصبح» [٧٩] بل لقد بلغ من اندفاع بعض زهاد البصرة الى المجاهدة ان رأينا مالك بن دينار المتوفى سنة ١٣١/٧٤٨-٤٩ يتمنى لو استطاع ان يصطنع المجاهدة حتى بعد موته وذلك بان يغل بالحديد بعد وفاته « فادفع الى ربى مغلولا كما يدفع العبد الابق الى مولاه» [٨٠] . وهكذا ننتهى الى ان البصرة قد كانت موطنا للشعور بفساد الارض فكان الزهاد - احساسا منهم بهذه الظروف السيئة التى حاقت بالمجتمع الاسلامى وعجزا عن تداركها واصلاحها- قد انزوى كثير منهم فى عقر داره أو فى سرداب يخلو فيه [٨١] كما فعل عبدالعزيز الراسبى معاصر رابعة العدوية . ويحسن بنا فى ختام بحثنا للزهد التقليدى فى البصرة ان نذكر بان الزهاد فى البصرة قد اتخذوا البكاء والمجاهدة علامة لهم تعكسها مدرسة لها رئيس هو الحسن البصرى ، ومما يذكر ايضا ان المجتمع البصرى الذى كان مليئا بالخطايا والذنوب هو الاساس البارز لهذا المشرب فيها .

مظاهر الزهد البصرى الجديدة :

لقد استطاعت البصرة ان تشكل زهدها النابع من انعكاسات المجتمع على الزهاد باشكال تختلف باختلاف النفسية والاستجابة ، وقد رأينا البكاء

(٧٦ ، ٧٧) صفة الصفوة ٣/٢٤٦ ، ٣/٢٦٢ .
(٧٨) صفة الصفوة ٣/٢٦٣ .
(٧٩) صفة الصفوة ٣/٢٦٣ .
(٧٩) صفة الصفو ة٣/٢٨٠ .
(٨٠) طبقات الشعرانى ١/٣٢ .
(٨١) حلية الاولياء ٦/٢٤٥ .

والخوف فى الصفحات الماضية بحسبانهما صادرين من جوهر المثل الاسلامية التى اهدرت فى البصرة ، وسنرى فى هذا الفصل شكلا اخر من الزهد يتمثل فى الحب المضاد للبكاء والخوف ، ونعقب على ذلك بالتعرض للوعاظ الذين احترفوا الابكاء .

الحب :

من الملاحظ ان البصرة وحدها هى التى استطاعت تطوير الخوف الى الحب ، والسبب فى ذلك ان جوها لم يكن كجو الكوفة مليئا بغبار المعارك التى ادت الى عكس ما كان الكوفيون يتطلعون اليه ، فلم يستطع الكوفيون الخروج الى الحب لانهم كانوا يحسون بثقل الاثم الذى يعانونه ، بل لقد رأوا شدة النزع دليلا على الرحمة . اما البصريون فقد كانت ذنوبهم فردية لاتتصل بخيانة المبادىء او بالكبائر المتصلة بالمثل العليا ولهذا استطاع بعضهم ان يقطع المسافة بين الخوف والحب فى مدة يسيرة قضيت فى التكفير السريع عن السيئات التى بدت ـ اذا ما قيست بمثيلاتها فى الكوفة ـ هينة . يضاف الى ذلك ان الكوفيين ـ فى تشيعهم ـ كانوا يصدرون عن حب عميق لاهل البيت فلم يستطيعوا ان يفصلوه عنهم ويرتفعوا به الى الله على عكس البصريين الذين لم يكن لهم ارتباط بامام يفترض فى اتباعه ان يكنوا له الحب الخالص باعتباره جزء لايتجزأ من صلب العقيدة .

المحبون :

وكان عامر بن عبدالله بن عبد قيس هو اول زاهد استطاع ان يتخلص من احزانه وهمومه بالاتجاه الى الله بالحب فقد كان يقول : «احببت الله حبا سهل علي كل مصيبة ورضاني بكل قضية ، فما ابالى ـ مع حبى اياه ـ ما اصبحت عليه»(٨٢) وبذلك خرج الزهد من حدوده الضيقة التى حاصرها البكاء والحزن الى عالم

(٨٢ ، ٨٣) الكواكب الدرية ١/١٢٩ .

الرحب وابعث على التفاؤل وادعى الى التأسيس والتطور • ويجب ان نبين ان عامرا قد توفى فى بيت المقدس ايام معاوية اى قبل سنة ٦٠ لان هذا التاريخ هو بداية ظهور فكرة الحب فى البصرة وقد كان عامر قد تخلص عندئذ من الحقد والضغينة وامتلأت نفسه بالحب لله والناس معا فكان يدعو لمن وشى به قائلا : « اللهم ••• فاكثر ماله وولده واصح جسمه واطل عمره»(٨٣) •

وما دمنا بصدد الحب فان من المهم ان نذكر زاهدا اخر من قبيلة شيعية فى البصرة صدر عن المشرب نفسه ذلك هو خليد بن عبيدالله العصرى (عصر بطن من عبد قيس الشيعية) فقد كان يقول : « يا اخوتاه هل فيكم من احد لايحب ان يلقى حبيبه؟ الا فاحبوا ربكم وسيروا اليه سيرا كريما»(٨٤) • وكان كهمس بن الحسن القيسى المتوفى سنة ١٤٩/ ٧٦٦ وارثا للمحبة معبرا عنها ايضا وكان يقول فى جوف الليل : « اراك (لعلها اتراك) » معذبى وانت قرة عينى يا حبيب قلباه»(٨٥) •

وجاء من بعده عتبة الغلام المعاصر لعبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣-٩٤) وكان عتبة اكثر اندفاعا فى الحب وافصح فى التعبير عنه فقد كان يقول : « ان تعذبنى فانى لك محب وان ترحمنى فانى لك محب»(٨٦) • ولم يكتف عتبة بان يسأل الله ان ينزع شهوة النساء عن قلبه كما فعل عامر بن عبد قيس بل قرن المحبة بالانقطاع الى الله دون ان يشاركه فى حبه احد فقال : « العرس فى الدار الآخرة»(٨٧) ثم نواجه فارسيا تطور بالحب من الثقة التى استشعرها عتبة الى التبسط والاطمئنان فقد كان يقول : « وعزتك

---

(٨٣) الكواكب الدرية ١/ ١٢٩ •
(٨٤) صفة الصفوة ٣/ ١٥٤
(٨٥) حلية الاولياء ٦/ ٢١٢ •
(٨٦ ، ٨٧) صفة الصفوة ٣/ ٣٨١ •

انك لتعلم انى احبك»[٨٨] وهكذا رأينا الحب يتطور من صدوره عن الحزن عند عامر ثم التجائه الى الله ليذهب عنه الهموم والاحزان التى يعانيها فأحب الله حبا سهل عليه كل مصيبة لانه كان يؤمن به ايمانا لا شائبة فيه الى حد انه قال : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا »[٨٩] ولكى نعرف ما تعنيه هذه العبارة فان علينا ان نلاحظ انها قد نسبت بنصها الى على بن ابى طالب كما مر بنا وهكذا يصدر المحب الاول فى البصرة عن روح علوية نابعة من الرضى واطمئنان القلب بالايمان كانا طابع أئمة الشيعة كلهم . اما خليد فانه نصح بسلوك هذا الطريق لاعتقاده بانه طريق الخلاص الوحيد ، ثم جاء كهمس فصرف الى الحب نفسه وجهده الى حد تساءل معه عن امكان تعذيب الله له ثم قفى على آثار هؤلاء عتبة الغلام الذى صار الحب عنده طريقة ومذهبا ، ولم يكن يقصد بالحب ان يستجلب ثوابا او يدفع عقابا . ثم اذا بنا نشم رائحة القرب يعكسه لنا حبيب الفارسى بتأكده من حب الله له .

رابعة العدوية :

ويحسن بنا ان نذكر رابعة بين المحبين ، فيبدو – قبل كل شىء – انها متأخرة عن هؤلاء جميعا فقد لقيت سفيان الثورى وناقشته وافحمته وانبته على كذبه فى حزنه[٩٠] . ويذكر المناوى انها ماتت سنة ١٨٠ ويروى ماسينيون انها ماتت سنة ١٩٥/٨١٠-١١ ، ويتوسط الدكتور قاسم غنى بينهما فيختار سنة ١٨٥ لوفاتها ، ولكن ابن خلكان يحدد موتها بسنة ١٣٥ ، وكذلك ابن العماد فى الشذرات وذكر ايضا احتمال موتها سنة ١٨٥/٨٠١[٩١] ولكنه لم

---

(٨٨) صفة الصفوة ٣/٢٣٩ .
هو أبو محمد حبيب بن عيسى العجمى ، وقد ذكر السمعانى شهرته الواسعة فى التعشق والعبادة الى الحد الذى كان يفنى معه عن الذكر (الانساب ورقة ٣٨٥ أ) .

(٨٩) اللمع ٧١ .

(٩٠) الكواكب الدرية ١/١٠٨ .

(٩١) شذرات الذهب ١/١٩٣

يؤيد هذا الاحتمال . والراجح انها توفيت بعد سنة ١٥٥ اى بعد نزول سفيان الثورى البصرة [٩٢] . ومهما يكن من امر تحديد وفاتها فانها اشهر من اعتنق عقيدة الحب هذه ولعل جوهر المسألة يكمن فى كونها امرأة .

واول واشهر ماينسب اليها قولها فى وصف حقيقة ايمانها : « ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا فى جنته فاكون كالاجير السوء : عبدته حبا له وشوقا اليه » [٩٣] . وقد رأينا التداخل بين معنى هذا الكلام وبين عبادة الاحرار التى اصطبغ بها ايمان علي بن ابى طالب او حفيده زين العابدين . ثم هناك الابيات المشهورة التى اسندها ابو نعيم الى مجهولة :

احبك حبين : حب الهوى ... وحبا لانك اهل لذاكا
فاما الذى هو حب الهوى ... فذكر شغلت به عن سواكا
واما الذى انت اهل له ... فكشفك للحجب حتى اراكا
فما الحمد فى ذا وفى ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا [٩٤]

ويبدو من هذه الابيات التأخر اولا ، وضعفها باد فى التعبير وفى السبك وعليها مسحة الشعر التعليمى الذى يقصد به ضغط تفاصيل العلوم فى أبيات تحفظ عن ظهر قلب ، ونحله ـ لذلك ـ بيّن وان يكن الاتصال بين عبارة عامر : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا» وبين عبارة : « فكشفك للحجب حتى اراكا » ظاهرا واضحا [٩٥] . وينسب الى رابعة بيتان يحتمل صدورهما عنها وهما :

---

(٩٢) طبقات الشعرانى ١/٤٠ .
(٩٣) الكواكب الدرية ١/١٠٩ .
(٩٤) حلية الاولياء ٩/٣٤٨ .
(٩٥) مما يوضح هذا النحل خبر ينسب الى الكندى الفيلسوف (١٨٥ ـ ٢٥٢) حين عرض عليه شعر شبيه بهذا الذى نسب الى رابعة ، فقد سمع انسانا ينشد ويقول : ⇐

انى جعلتك فى الفؤاد محدثى وابحت جسمى من اراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد انيسى (٩٦)

وذلك يعنى انها فتحت باب الحضور الدائم فى القلب وان حب الله كان الشاغل الوحيد لها . ويستقيم مع هذا الميل الى الحب الالهى قولها لعبد الواحد ابن زيد حين خطبها : « يا شهوانى اطلب شهوانية مثلك »(٩٧) ووثق العطار هذا الاتجاه بخبر اورده فى عرضه لرابعة يشتم منه ارتفاع الفروق الجنسية بين الرجال والنساء فى الزهد ، وذلك امر يدخل تحت الرهبنة المسيحية ولكن التطور الذى مرت به فكرة الحب يجعل وصول الامر الى هذا الحد منطقيا ، اورد فريد الدين العطار « ان المرأة فى سبيل الله رجل وليس فى الاستطاعة ان تسمى امرأة » (٩٨) واسند ذلك بخبر رواه عن زاهدة اخرى قالت : « ينادى فى عرصات القيامة : يا رجال ، فتكون مريم اول من يتقدم من الناس» (٩٩) . وقد سارت رابعة فى القرب الى آخر الشوط وبلغت الولاية فيها اقصاها حتى سوغت لنفسها وهى واقعة تحت هذا الشعور ان تسخف الاتصال الجنسى حتى فى الجنة (١٠٠) فاثارت عليها ثائرة الناس

وفى أربع منى حلت منك اربع فما انا أدرى أيها هاج لى كربى :
خيالك فى عينى ؟ ام الذكر فى فمى؟ ام النطق فى سمعى؟ ام الحب فى قلبى؟
فقال : والله لقد قسمتها تقسيما فلسفيا (سرح العيون ص ١٥٨) .
واذا كان هذا التعداد الجميل يدخل فى باب التقسيم الفلسفى فما اخلق ابيات رابعة ـ والمفروض انها سابقة عليه ان تدخل المدخل نفسه فتنقطع الصلة بين الابيات وبين زاهدتنا العاشقة التى لم تخطر لها المنطقة والترتيب على بال .

(٩٦) الكواكب الدرية ١/١٠٩ .
(٩٧) مجموعة نصوص ٧ .
(٩٨ ، ٩٩) تذكرة الاولياء ١/٥٧ ترجمة .
(١٠٠) الكواكب الدرية ١/١١٠ .

حتى الصوفية انفسهم كل ذلك لترتفع المادية عن الحب ولو كان فى الجنة ويخلو لها وجه ربها الحبيب الفرد للعالمين جميعا • وهى ـ لذلك ـ كانت تريد ان تزيل الحائل الذى يمنع صفاء حب الله حبا مجردا من الغرض ، فقد رؤيت تحمل باحدى يديها ماء وبالاخرى نارا لتطفىء نار جهنم وتشعل الجنة فلا يبقى عند الناس من هدف الا الله « فيتجه عباد الله الى الله دون غرض من رجاء او خوف »[١٠١] •

أما بعد فان الحب قد عجز عن التغلب على الخوف بل لقد اقترن به وبالمجاهدة ، فقد كان عامر بن عبدالله المحب الاول « فرض على نفسه فى كل يوم الف ركعة وكان اذا صلى العصر جلس وقد انتفخت ساقاه من طول القيام»[١٠٢] ، وكان خليد العصرى « يقوم الليل ويصوم النهار»[١٠٣] وكان كهمس يصلى الف ركعة فى اليوم والليلة ، فاذا ملّ قال لنفسه : « قومى يا مأوى كل سوء فوالله مارضيتك لله ساعة قط»[١٠٤] اما حبيب الفارسى فقد كان من اكثر الناس بكاء[١٠٥] وكذلك كانت رابعة التى « كان كفنها لم يزل عندها ويجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء»[١٠٦] وهكذا يتبين لنا ان الحب ـ وان تطور عن البكاء والخوف والمجاهدة فانه مازال فى البصرة مقترنا باصوله التى تفرع منها •

الوعظ والوعاظ فى البصرة :

لقد ظهر فى وضوح ان زهاد البصرة قد اتخذوا البكاء والمجاهدة طابعا

---

(١٠١) مجموعة من النصوص تتعلق بتاريخ التصوف ص٧ (ترجمة) •
(١٠٢) صفة الصفوة ٣/١٢٦ •
(١٠٣) الكواكب الدرية ١/١٠٢ •
(١٠٤) حلية الاولياء ٦/٢١١ •
(١٠٥) صفة الصفوة ٣/٣٣٧ •
(١٠٦) الكواكب الدرية ١/٧٨ •

لهم وان المجتمع البصرى الذى امتلأ بالخطايا والذنوب قد كان فى حاجة الى قوم يذكرونه بأخطائه ويخوفونه ويحذرونه فظهرت طائفة الوعاظ والقصاص التى تأخرت عن ظهور الزهد كما يقضى المنطق بذلك • وكان صالح المرى المتوفى سنة ١٧٢/٧٨٨-٩ من ابلغ الوعاظ واشدهم تأثيرا ، فقد قال فيه سفيان الثورى : « ليس هذا بقاص ، هذا نذير قوم » (١٠٧) والوعظ يذكرنا بما كان الامام علي يفعله فى الكوفة من التذكير بالعذاب والآخرة ومن قرنه حال الكوفة بحال مكة يوم بعث فيها النبى ، ولكن ما يلفت الذهن حقا ان اكثر الوعاظ كانوا فى البصرة وحتى فى الكوفة من الموالى كابن السماك الذى كان مولى لبنى عجل وهذا صالح المرى الذى كان مملوكا فاعتق (١٠٨) • ويجب ان نذكر هنا ان القصاص الذين كانوا يؤثرون فى عواطف الناس فيكونهم قد كان لهم اثر فعال فى بعث الناس الى الزهد واستمالتهم اليه وقد كانت تلك القدرة واضحة فى الفرس وهى مازالت حتى الان ظاهرة فيهم فى المساجد الشيعية فى العراق وايران ، فان قدرة الفارسى على استدرار الدمع تفوق قدرة العربى كما يستطيع ان يلمس ذلك كل من له اتصال بهذه البيئة • وقد كان صالح المرى يجمع بين البلاغة والايمان بالزهد وضرورة البكاء وكان له مجلس فى البصرة يؤمه الناس « فكان - اذا اخذ فى قصصه - كأنه رجل مذعور يذعرك امره من حزنه وكثرة بكائه كانه ثكلى » (١٠٩) •

عبدالواحد بن زيد :

وكان عبدالواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧/٧٩٣-٤ - وقد اعتبره ابن تيمية الصوفى الاول(١١٠) - مؤثرا فى مواعظه الى حد ان رجلا قد مات فى مجلس وعظه مرة (١١١) ، ومات اربعة فى مرة

(١٠٧، ١٠٨) صفة الصفوة ٣/٢٦٥ •
(١٠٩) حلية الاولياء ٦/١٦٩ •
(١١٠) الاسلام والحضارة العربية ٢/٢٨ •
(١١١) حلية الاولياء ٦/١٥٩-٦٠ •

اخرى[١١٢] ، وكان هو نفسه محزونا الى حد انه قيل فيه : « لو قسم بث عبدالواحد بن زيد على اهل البصرة لوسعهم »[١١٣] وكانت مواعظ عبدالواحد تنصب على التخويف من النار بتجسيمها وتحض على الزهد وترك الدنيا وكانت مواعظه من طراز : « يا اخوتاه ، الا تبكون شوقا الى الله عز وجل ؟ الا انه من بكى شوقا الى سيده لم يحرمه النظر اليه . يا اخوتاه ، الا تبكون خوفا من النار ؟ الا انه من بكى خوفا من النار اعاذه الله منها . يا اخوتاه ، الا تبكون خوفا من شدة العطش يوم القيامة ؟ يا اخوتاه الا تبكون ؟ فابكوا على الماء البارد ايام الدنيا لعله يسقيكموه فى حظائر العرش مع خير الندماء والاصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن اولئك رفيقا »[١١٤] . وتذكرنا هذه الموعظة بعبارات علي بن ابي طالب ، وعلى ابن الحسين فى ادعيته ، وفى هذه الموعظة نفسها عبارة تذكر برؤية الله القلبية التى صدرت عن على الا وهى قوله : الا انه من بكى شوقا الى سيده لم يحرمه النظر اليه» .

مالك بن دينار :

ثم يخرج مالك بن دينار عن وعظ الناس فى مجتمعاتهم فيرتقى الى التوجيه السياسى الذى هرب منه اسلافه الزهاد فيعلن - بذلك - بدء حركة جديدة فى الزهد هى استقلاله الاجتماعى وظهور الزهاد بمظهر طبقة قائمة بذاتها ، وذلك ارهاص بانتهاء عهد العزلة وبدء عهد التجمع ، فقد كان يقول : « قرأت فى بعض الكتب : يجاء براعى السوء يوم القيامة فيقال له : يا راعى السوء شربت اللبن واكلت اللحم ولم تؤوى الضال ولم تجبر الكسير ، لم ترعها

---

(١١٢) صفة الصفوة ٣/ ٢٤١ .
(١١٣) حلية الاولياء ٦/ ١٦١ .
(١١٤) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٢ .

حق رعايتها ، اليوم انتقم منك » [١١٥] وكان مالك بن دينار يقول للناس : «اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعنى الدنيا » [١١٦] وذلك صدى لتحذيرات على بن ابى طالب من الدنيا وقوله : «يا دنيا اليك عنى غرى غيرى» [١١٧] . وكان مالك الى ذلك ـ تجاوبا مع طبقته من الوعاظ ـ يرى البكاء والحزن ضروريين للقلب لانه « اذا لم يحزن حزب كما ان البيت اذا لم يسكن خرب» [١١٨] .

وما دمنا اشرنا الى ان اكثر الوعاظ البصريين كانوا من الموالى فلابد لنا ان نشير الى ان شيوخ الزهد الحقيقيين فى البصرة كانوا من الموالى ايضا وان هذا التطور السريع فى الزهد البصرى حدث لانها تأثرت بالثقافات وبحامليها فيها وكانوا من الموالى على الاغلب لما رأيناه من انصراف العرب الى المثل القبلية. ويكفى ان يكون الحسن البصرى فارسيا ليكون للفرس الاثر الكبير فى زهد البصرة . ولابد من الاشارة الى الموالى الاخرين لتنجلى هذه الحقيقة ، فقد كان ميمون بن سياه مولى وايوب السختيانى مولى لعنزة وكان الحسن البصرى يسميه « سيد شباب اهل البصرة» [١١٩] . وكان عبدالله بن عون المتوفى سنة ١٣١/٧٤٨ـ٤٩ مولى وكذلك حبيب الفارسى الذى يسميه الشعرانى « العجمى » ، وكان سنبر الدستوائى مولى لبنى سدوس [١٢٠] وقد توفى سنة ١٥٣/٧٦٩ وصالح المرى وحماد ابن سلمة كذلك .

خاتمة :

ويجب علينا فى ختام عرضنا للزهد فى البصرة ان نلخص ما عرضنا لـه لنجمع خيوطه فى ايدينا فنتبين من الزهد جوهره ومثله وما اثر فيه . لقد كان

(١١٥ ، ١١٦) حلية الاولياء .
(١١٦) حلية الاولياء ٦/٢٨٧ .
(١١٧) صفة الصفوة ١/١٢٢٠ .
(١١٨) حلية الاولياء ٦/٢٨٧ .
(١١٩) صفة الصفوة ٣/٢٠٩ .
(١٢٠) المصدر نفسه ٣/٢٦٢ .

فى البصرة زهد اسلامى مثله لنا الحسن البصرى او زهد متأثر قليلا بالاحداث الحربية كالزهد الصادر عن الاحنف بن قيس الذى فتح باب المجاهدة حتى رأينا رياح بن عمرو القيسى يغل عنقه بالحديد • ثم رأينا البكاء النابع من الحزن والخوف من الذنوب ثم اذا بهما يتطوران الى الحب ويندمجان فيه • وادى الحب الى التبتل مبالغة فى الانقطاع الى الله كما مثل لنا ذلك عتبة الغلام ثم رابعة العدوية ، ثم استقل التبتل عن الحب عند بعض المتصوفة فيما بعد • ثم رأينا فى البصرة اتجاها جديدا هو اظهار شيوخ الزهاد على مثال الائمة على نحو ما رأينا من وصل شخصية الحسن البصرى بشخصية علي بن ابى طالب• وكانت البصرة سباقة الى جمع الزهاد فى طبقة اجتماعية كان رئيسها الحسن البصرى وفاتنا ان نشير الى ان هذه الطبقة كانت تعيش من الصدقات او من تبرعات الزهاد الاغنياء كما فعل حبيب الفارسى وغيره(١٢١) الذين خرجوا من اموالهم لاثبات زهدهم الحقيقى • وظهر فى البصرة اول انحراف عن طريق الزهد الرسمى مما رأيناه من مالك بن دينار الذى خرج من عزلة الزهد الى وعظ الحكام وتوجيه السلطان مما سيكون له اثره البالغ فى مركز المتصوفة فيما بعد •

ومن الاهمية بمكان ان نجمع فى ختام عرضنا للزهد البصرى النقاط التى اتصل منها الزهد بالتشيع فاول ما نشير اليه ان الزهد عموما قد شاع فى الاسلام على صورته الجديدة لان اهل بيت النبى قد قتلوا وشردوا وسالت دماء الناس انهارا فى سبيل نصرتهم ، ورأينا شخصية الحسن البصرى نسخة ثانية من شخصية الامام على مما يقطع باثره فى الزهد البصرى وهو على كل حال ازهد الصحابة كما رأينا ، ثم مر بنا تداخل كلام الحسن البصرى مع كلام الامام على ولم نشر الى ان هارون بن رئاب كان يلبس الصوف تحت

---

(١٢١) صفة الصفوة ٣/١٧٦ ، ٢٧٦ وحلية الاولياء ٦/١٤٩ •

نيابه[١٢٢] صنيع جعفر الصادق . وكان الحسن البصرى يطلق على مريديه من الزهاد القابا اطلقت على الائمة فسمى ايوب السختيانى سيد شباب اهل البصرة[١٢٣] كما سمى النبى الحسن والحسين سيدى شباب اهل الجنة كما هو مشهور . وكان عبدالله بن ارطبان يكتم غضبه ويقابل الاساءة بالاحسان[١٢٤] فعل على بن الحسين . وكان عتبة الغلام ينظر الى قول على فى خطابه للدنيا : قد طلقتك ثلاثا لارجعة لى عليك » فى قوله : « طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لى فيها حتى القاك» [١٢٥] (الخطاب لحورية من الجنة كانت تنتظره فيها) . وقد رأينا البصريين يثورون مع ابراهيم بن عبدالله بن الحسن واحصى ديوانه منهم مائة الف رجل [١٢٦] ورأينا الزهاد ينصرونه .

---

(١٢٢) صفة الصفوة ٣/٢٠٩ .
(١٢٣) صفة الصفوة ٣/٢٠٩ .
(١٢٤) المصدر نفسه ٣/٢٢٩ .
(١٢٥) الكواكب الدرية ١/١٣٧ .
(١٢٦) مقاتل الطالبيين ٣٨٨ .

الفصل الرابع

الزهد في الشام

البيئة الشامية :

كانت الشام عثمانية اموية حكمها معاوية ابتداء من سنة ١٧/٦٣٨ أيام عمر[١] ثلاثا واربعين سنة وكانت له فيها رسالة طبقها ، كان يريدها ان تكون مملكة له وحده كما كان ابوه يحكم مكة . وقد كان اكثر اهل الشام بحكم اعتيادهم الحكم الرومانى واليونانى من قبل مطيعين لينين ولم يكونوا كأهل الكوفة والبصرة قبائل قريبة الخروج من الصحراء ، وهذا هو رأى ولها وزن الذى يضيف الى ذلك انهم « ما كانوا يعصون حكامهم حتى ولو كان هؤلاء الحكام من بنى امية»[٢] . وكان أهل الشام بعد صفين مدللين وكان القتال كله ملقى على عاتق الكوفيين والبصريين كما مر بنا فعاشت الشام فى رخاء لم يذقه العراقيون ولم يحلموا به فى نومهم . وقد كان معاوية من الصحابة يفرض فيه ان يطبق مثل الاسلام الزهدية كما فعل ابو بكر وعمر وعلى ولكنه آثر ان يكون ابن ابى سفيان وحكم الشام كما يحكمها اى ملك رومانى . وقد اورد لنا المسعودى[٣] منهجه اليومى فرسم لنا صورة ملك دنيوى لا صلة له بعمر الذى ولاه الشام ولا بعلى الذى حاربه وكان يأكل الاطايب ويلبس النواعم ويجلس على الكرسى . بل لقد استطاع معاوية ان يبدأ سب على الذى حاربه من قبل فى بدر وغيرها وجعله سنة ينشأ عليها

---

(١) الطبرى ٣/٢٠٣ .
(٢) الدولة العربية وسقوطها ٤٨ـ٤٩ .
(٣) مروج الذهب ٣/٣٩ .

الصغير ويهلك عليها الكبير واستمر السب من بعد موته اربعين سنة اخرى حين قيض للشام حاكم يصدر عن جوهر الاسلام فأعتبره سفيان الثورى الخليفة الخامس (٤) ـ اى بديل معاوية ـ ذلك هو عمر بن عبدالعزيز الذى كان يفرض ان تكون سيرة معاوية سيرته • وبينما كان الزهاد فى الكوفة والمدينة والبصرة يشتغلون برواية الحديث ويتحرون الصدق فيه وكانت الرواية صفة لازمة لاكثر الزهاد كان معاوية يلفق الاحاديث والتأويلات فى ذم علي ويدفع مئات الالوف من الدراهم لنشرها بين الناس (٥) وكان معاوية الى ذلك غنيا وقد تبرع بنصف امواله لبيت المال كأنه اراد ان يطيب له الباقى (٦) • ومن الغريب ان مسلما مخلصا يعكس المثل الاسلامية على حقيقتها لم يستطع ان يحيا فى دمشق أيام معاوية ، ولم يطقه معاوية لانه ينبه الناس الى حقائق هم عنها غافلون : ذلك هو ابو ذر الغفارى الذى رأيناه من رواد التشيع الاول • وقد سار على هذه السياسة جميع من جاء بعد معاوية من خلفاء بنى أمية ، فهم « لايكادون يرون فى الشام رجلا لسنا منطقيا يحاول تنبيه الناس حتى يبعدوه عنها» (٧) •

وهكذا تتبين الشام دولة مدنية قدمت الحياة على العقيدة ـ على عكس باقى الامصار ـ وكانت فى عزلة فكرية اذا قيست بالكوفة والبصرة ، وكان نشاطها مقصورا على بعض « مناقشات دينية بين المسلمين والمسيحيين نتيجة لاتصال الآراء» (٨) • وقد وصف صعصعة بن صوحان الشاميين بانهم « اطوع الناس لمخلوق» (٩) والواقع ان الاطلاع على المثل الاسلامية الحقيقية لم يتح

(٤) صفة الصفوة ٢/٦٣ •
(٥) شرح نهج البلاغة ١/٣٦٢ •
(٦) الطبرى ٦/١٨٢ •
(٧) وعاظ السلاطين ٢١٥ •
(٨) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٩ •
(٩) مروج الذهب ٢/٧٨ •

للشاميين ، وقد كان الصحابة الذين انتقلوا الى بلاط معاوية هاربين من زهد على وتشدده الاسلامى مندفعين الى دنيا معاوية التى تكسو وتشبع ، وكان من هؤلاء عقيل اخو علي بن ابى طالب نفسه • وقد افصح مخلد بن يزيد عن جوهر اهل الشام حين دخل على عمر بن عبدالعزيز فى ثياب الزهاد ـ وكان عمر يتهمه ـ فقال له : « انتم الائمة اذا اسبلتم اسبلنا واذا شمرتم شمرنا»(١٠) وقد بلغ من انعزال الشاميين عن ابسط المعلومات الاسلامية ـ وذلك هو هدف معاوية الذى تحقق ـ ان «اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة حلفوا لابى العباس السفاح انهم ما علموا للرسول قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بنى امية » (١١) ، وكانوا ايام معاوية يعتقدون ان « ابا تراب لص من لصوص الفتن وان عليا هو الذى قتل عمار بن ياسر ، وكان منهم قوم يظنون معاوية ابا فاطمة امرأة النبى بنت عائشة اخت معاوية وان عليا قتل فى غزاة حنين » (١٢) ، بل يروى الجاحظ ان حاجا من اهل الشام كان يعتقد ان احدا سوف يكلمه من الكعبة وكان يجهل محمدا ويظنه ربا» (١٣) •

هذه هى سذاجة الشاميين ايام معاوية وبعدها ، وقد اجتمع الرخاء والسذاجة فناموا ملء جفونهم ايام كان الكوفيون والبصريون ينفرون من الوساد خوفا من الاشباح والرؤى المزعجة • لهذا كله ضعف الزهد فى الشام وكاد يمتنع •

الزهد والزهاد :

لقد كان الامراء الامويون الحساسون هم السباقين الى الزهد كعثمان بن عتبة بن ابى سفيان الذى رفض الخلافة لانه آثر السلم فكان منه ان تزهد ودخل مكة فى حملة ابن الزبير » (١٤) ، وكان معاوية بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٦٥ من هذا الفريق الحساس ايضا وقد كان فى نزعه يقول « اتفوز بنو امية بحلاوتها وابوء انا بوزرها ومنعها اهلها (يعنى العلويين) كلا

---

(١٠) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٥ •
(١١-١٣) مروج الذهب ٢/٧٢
(١٤) مروج الذهب ٢/١٣ •

انى لبرىء منها »[١٥] وقد نسب بنو امية المحافظون هذه الحساسية الى البدع وعلل عمر القوصى معلم معاوية الثانى هذا التصرف منه بانه « مجبول ومطبوع على حب على بن ابى طالب »[١٦] . وهكذا تبدو الحقائق من وراء الاستار ويبدو على قدوة للأمويين المنصفين الصادرين عن جوهر الاسلام . وكان حول الخلفاء نفر من الطامعين الجشعين يستغلون لهو الخلفاء الامويين عن الرعية اشنع استغلال ويزينون لهم حياة الترف ، ومن ذلك ان يزيد بن عبدالملك الذى نشر الخز حاول فى بداية حكمه ان يطبق سياسة عمر بن عبدالعزيز ، فانبرى له هؤلاء الحاشية : « فأتوه باربعين شيخا شهدوا له ان الخلفاء لاحساب عليهم ولا عذاب ، فاقبل على الظلم واتلاف المال والشرب والانهماك على سماع الغناء والخلوة بالقيان »[١٧] . وقد كان فى الامويين ناهون عن المنكر من امثال يزيد بن الوليد الذى ثار على الوليد بن يزيد لما ظهر من فسقه وشمل الناس من جوره سنة ١٢٦/٧٤٣-٤[١٨] وليس لنا ان ننسى عمر بن عبدالعزيز الذى سنعرض له فى اثناء بحثنا للزهد الشامى .

وليس معنى هذا كله خلو الشام من الزهاد ، فاننا سنجد زهادا يصدرون عن روح الاسلام الزهدية وسنجدهم من الصحابة ولكن ذلك يجرنا الى ظهور الزهد فيها على نطاق واسع بعد ان ملأتها الحروب منذ بداية القرن الثانى الى ان زالت الدولة الاموية ، وصارت الشام كوفة اخرى ايام العباسيين وصارت الجزيرة مثابة للخروج[١٩] .

وبذلك يتبين لنا جوهر الزهد الاتى من الظروف السياسية والاجتماعية

---

(١٥) الطبرى ٣/٨٢ .
(١٦) اخبار الدول ١٣١ .
(١٧) شذرات الذهب ١/١٢٨ .
(١٨) مروج الذهب ٢/١٩٣ .
(١٩) تاريخ اليعقوبى ٣/١٤٢ .

والنفسية التى تدفع قوما الى القتال وفريقا الى الانزواء والتعلق بالزهد ، وسنجد الزهد الخراسانى المتأثر بالاحداث الشيعية فيها ينزل الشام ليستقر فيها . وقد كان فى الشام قوم من زهاد الصحابة كأبى الدرداء[٢٠] الذى اصطبغ زهده بالهرب من الحروب كما رأينا من تركه جيش معاوية فى صفين وانقطاعه الى العبادة . وقد كان ابو الدرداء صديقا لسلمان[٢١] ، ويبدو ان زهده لم يعجب الشاميين شأنهم مع ابى ذر فقد كان ابو الدرداء يشكو من ان اهل الشام يمنعونه مودتهم[٢٢] ، ولعل ذلك كان لقوله : « يا اخى ، لاتغترن بصحابة رسول الله (ص) فانا عشت بعده دهرا طويلا ، والله اعلم بالذى اصبنا بعده »[٢٣] . ويبدو ان معاوية اول من انتبه الى دور الزهد فى تثبيط العزائم وايهان القوى والهرب من القتال ، فقد اسبغ معاوية على يزيد بن الاسود شيئا من القدسية فاستسقى به بعد قحط وكذلك كان الامر مع ابن قيس الفهرى[٢٤] .

وكما كان الخوف ركن الزهد فى الكوفة والبصرة وجدناه كذلك فى الشام ايضا ، وقد عكسه لنا يزيد بن مرثد الهمدانى[٢٥] على نحو مبالغ فيه وكذلك ابو بكر الغسانى وامية الشامى فى القرن الثانى[٢٦] ، وكما كان الظلم باعثا للناس فى الكوفة والبصرة على الزهد صار فى الشام كذلك بحيث اصبح موت عبدالملك بن مروان من بعد عظمته العسكرية وحروبه وتقتيله الناس عبرة حدت بصديقه عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية الى الزهد

---

(٢٠) ذكر ابن سعد انه توفى سنة ٣١ أو ٣٢ بالشام فى خلافة عثمان (الطبقات ٧ : ٢/١١٧) .

(٢١-٢٣) صفة الصفوة ١/٢٥٩ .

(٢٤) صفة الصفوة ٤/١٧٣ .

(٢٥) المصدر ٤/١٧٥ .

(٢٦) المصدر نفسه ٤/١٨٧ .

« فاجتهد فى العبادة حتى صار كأنه شىء بال» [٢٧] . وكان الناس حائرين بين ما يبدو من امرائهم الحساسين من تجاوب مع الاحداث وبين ما يرويه لهم شيوخهم واولياء خلفائهم من ان الحق معهم ، ففاه عبدالله بن عبدالاعلى المعاصر لعبدالملك بن مروان بمقالة هى ملاك جوهر الناس ومظهر لنفوسهم وعقولهم وارواحهم قال ـ يعنى الدنيا ـ : « دخلتها جاهلا واقمت فيها حائرا واخرجت منها كارها» [٢٨] وقد كانت هذه الحيرة وهذا الجهل حافزين قويين للناس على الزهد فى الشام كما مر بنا مما اراده الامويون لاهل الشام من جهل وبعد عن النظر الصحيح وحرية التفكير ، وصارت المجاهدة ـ لهذا السبب ـ من مناهج الزهاد فى الشام ايضا على نحو ماكان يفعل ابو مسلم الخولانى المتوفى سنة ٦٥ من قوله : « انا اولى من الدواب بالسوط ، فاذا دخلته فترة مشق ساقه سوطا » [٢٩] .

وقد برز زهد الشام فى أمر جديد هو الجوع وكان يقابل الصوف الذى كان شعار الزهد فى الكوفة والحب والبكاء الذين وجدناهما من ابرز اوصاف الزهد فى البصرة ، ولهذا فان الزهاد فى الشام يسمون جوعيين كما اخبرنا الكلاباذى من قبل . وقد يبدو الجوع غريبا من حيث انه نقطة تجمع المثل الزهدية فى الشام ، ولكن هذه الغرابة تتبدد بمعرفتنا ان الشام كانت ريفا [٣٠] لايجوع فيه انسان فكان الشبع أمرا يورث اللامبالاة فيها وينأى بالنفس عن ادراك ما يحيط بها من مظالم فيقوم الشبع سدا يمنع الناس من التفكير فى غيره . وقد كان عمر بن الاسود السكونى الزاهد القديم « يدع كثيرا من الشبع مخافة الاشر» [٣١] وقد مثل لنا ابو سليمان الدارانى الزاهد

---

(٢٧) صفة الصفوة ٤/١٨٧ .
(٢٨) البيان والتبيين ٣/١٤٨ .
(٢٩) صفة الصفوة ٤/١٨٧ .
(٣٠) ضحى الاسلام ٢/٤ ٨٠
(٣١) صفة الصفوة ٤/١٧٣ .

الشامى المتوفى سنة ٢١٥/٨٣٠ اثر الشبع فى النفس بانه رأى طائرين « يلتقطان الحب ، فلما شبعا اراد الذكر الانثى • فقال : لما شبعا دعته بطنه الى ما ترى »[٣٢] وفى هذا القول اشارة الى تأثير المثل المسيحية فى الزهد الشامى وذلك اننا قد لاحظنا ان ابا سليمان يقرن بين الشبع واللذة الجنسية التى اعتبرها قادحة فى الزهد وذلك تقليد مسيحى واضح •

وقد كانت الشام اول بلد اسلامى يقام فيه رباط صوفى على نحو ما رأينا من انشاء ابى هاشم الكوفى له •

اما بعد فليس من موضوع هذه الرسالة تفصيل القول فى خصائص كل بلد فى الزهد ، ولكن هذه مقدمة لابد منها للتعرف الى الزهد الشامى وقد نبدو الشام ابعد بيئة يمكن ان تتأثر بالتشيع •

عمر بن عبدالعزيز :

واول ما يجب ان ننبه اليه ان عمر بن عبدالعزيز (الذى حكم من سنة ٩٩/٧١٧ الى سنة ١٠١/٧٢٠ بعد سليمان بن عبدالملك الذى اشاع الخز) لم يحكم على مثال عمر بن الخطاب ولم يصدر عن مثل زهده كما هو مشهور بين الباحثين وانما كان صورة من على ابن ابى طالب شأن معاصره الحسن البصرى الذى مر بنا فى زهد البصرة • لقد كان عمر بن عبدالعزيز رجل دين لاسياسة كما كان على ، وكان عمر بن الخطاب يجمع بين الدين والسياسة وقد وجدنا عمر بن عبدالعزيز موضع سخرية دوزى[٣٣] من حيث هو سياسى ، ولو كان على مثال عمر بن الخطاب ما سخر منه ولا انتقده • وكان عمر بن عبدالعزيز يطفىء الشمعة اذا انتهى من نظر امور المسلمين لانها شمعتهم[٣٤] وذلك يذكر بعلى بن ابى طالب الذى قسم رغيفا سبعة اسهم ، ومن الملاحظ انه اول خليفة اموى يبطل سب على على المنابر •

---

(٣٢) حلية الاولياء ٩/٢٦٨ •
(٣٣) الدولة العربية وسقوطها ٢٤٥ •
(٣٤) صفة الصفوة ٢/٦٧ •

وقد جمع اصحاب كتب التصوف بينه وبين الخضر [٣٥] كما فعلوا مع على بن ابى طالب . وكان من المعروف ان التقابل بين الحق والباطل يستغرق الامويين والعلويين فقط ، فكان عمر بن عبدالعزيز يسمى اعمال اهل بيته : مظالم [٣٦] . وكان يردد دائما : اوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء ....» [٣٧] وتلك لازمة على بن ابى طالب التى ترد فى اقواله كثيرا. وكان عمر بن عبدالعزيز يقول : « الا ترون انكم فى اسلاب الهالكين وسيخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتى ترد الى خير الوارثين . فى كل يوم وليلة تشيعون غاديا ورائحا الى الله عزوجل ، قد قضى نحبه وانقضى اجله حتى تغيبوه فى صدع من الارض فى بطن صدع ثم تدعونه غير ممهد ولا موسد ... » [٣٨] ، وتلك معانى على بن ابى طالب التى مرت بنا فيما مضى . وقد كان عمر كتب الى عامله فى العراق ان يكف اذاه عن اهل الكوفة « الذين اصابهم بلاء وشدة وجور فى احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء » [٣٩] وقد كان عمر الى ذلك يقتفى سياسة على بن ابى طالب كما اقتفى أثر أفعاله وأقواله ، فقد احتاجت مدينة الى مرمة ، فكتب عامله يخبره بذلك ، فقيل له : ان بعض عمال على بن ابى طالب كتب بمثل هذا وكتب اليه : اما بعد فحصنها بالعدل ونق طرقها من الجور . فكتب بذلك الى عامله» [٤٠] . وقد كان عمر يرتدى اطمارا غليظة حين ولى الخلافة كما كان على وعمر بن الخطاب يفعلان ، ولم يترك عمر بن عبدالعزيز الا اربعمائة دينار ، وقد كانت غلته لما ولى الخلافة اربعين الف دينار ، وذلك يذكرنا بعلى ايضا [٤١] . وقد كانت نهاية عمر القتل بالسم لان الامويين خافوا ان يخرج ما بأيديهم من

---

(٣٥) الكواكب الدرية ١/١٤٣ .
(٣٦) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٨ .
(٣٧) صفة الصفوة ٢/٦٤ .
(٣٨) المصدر نفسه ٢/٧٠ .
(٣٩) ابن الاثير ٥/٢٣ .
(٤٠) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٩ .
(٤١) حلية الاولياء ٥/٢٥٧ .

أموال وان يخلع يزيد بن عبدالملك من ولاية العهد[٤٢] . وقد كان يقال فى عمر : « الناس يقولون : مالك بن دينار زاهد . انما الزاهد عمر بن عبدالعزيز»[٤٣] . وقد كان الحسن البصرى وكذلك وهب بن منبه يقولان : « ان كان فى هذه الامة مهدى فهو عمر بن عبدالعزيز» [٤٤] . بل لقد اورد السيوطى أخبارا عن ابى عساكر والترمذى وابن سعد رواية عن عمر وابن عمر انه كذلك[٤٥] . ومما لاشك فيه ان زهد عمر بن عبدالعزيز اسلامى خالص يمثل جوهر الدعوة الاسلامية وملاك ما يورده الاسلام ويتطلبه من من خليفة المسلمين .

ابو سليمان الدارانى :

وقد كان فى الشام زاهد آخر من طراز عمر بن عبدالعزيز هو ابو سليمان الدارانى المتوفى سنة ٢١٥/٨٣٠ وكان عراقى الاصل من واسط التى بناها الحجاج لتكون فى منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة . وقد عرضنا لابى سليمان ـ على تأخره ـ لانه ذو أثر كبير فى زهد الشام وفى تاريخ التصوف ، فقد كان اول من اسس للتوكل عقيدة مستقلة . والتوكل فى حقيقته البعد عن مناقشة ما اوجبه الله والتسليم المطلق للارادة الالهية . والنظرة العميقة ترى انه جوهر الاسلام وليس تتبعا لخيط من خيوطه المتشابكة . فليس التوكل جريا وراء التفويض ولا وراء الجبر وانما هو تسليم بواقع الاسلام الذى يجمع كل هذه المعانى ، وتلك خطة تذكرنا بما اختاره الائمة لانفسهم من اتباع الاسلام كله لا اختيار فكرة يتضمن القرآن كثيرا غيرها فيكونون كانما رضوا جزءا من الاسلام وتركوا منه اجزاء . وقد كان ابو سليمان يصدر عن هذه الفكرة لقوله : « من رضى بكل شىء فقد بلغ حد

---

(٤٢) الطبرى ٥/١٨ .
(٤٣) حلية الاولياء ٥/٢٥٥ .
(٤٤) حلية الاولياء ٩/٢٥٧ .
(٤٥) تاريخ الخلفاء ص١٥٢ .

الرضى ، ومن تورع فى كل شىء فقد بلغ حد الورع ، ومن زهد فى كل شىء فقد بلغ حد الزهد» (٤٦) . ويجب ان يفهم الرضى والتوكل فى التصوف على هذا الاساس الشيعى لا على انه نوع من الجبر . ومن هذا التسليم المطلق الذى توحى به الثقة تصدى ابو سليمان لزهاد الكوفة الضعفاء الخائرين الذين كانت الوساوس والرؤى تملأ احلامهم فقال : « انما يجىء الوسواس وكثرة الرؤيا الى كل ضعيف » (٤٧) . وكان هذا الاخلاص من ابى سليمان يدعوه الى القول : « لو شك الناس كلهم فى الحق ما شككت فيه وحدى» (٤٨) وتلك مقالة علي بعينها : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينـــا ، وقوله : وان معى لبصيرتى ما لبست على نفسى ولبس على» (٤٩) . وقد ورد النـــور ـ الذى وجدناه عند الغلاة وقد عنوا به الله ـ فى اقوال ابى ســـليمان الدارانى من عراقيته وقربه من الكوفة ، فقد كان يقول : « لايزهد فى شهوات الدنيا الا من وضع الله فى قلبه نورا يشغله دائما بامور الاخرة» (٥٠) . وكان ابو سليمان الدارانى كالمختار وغلاة الشيعة« يرى الملائكة يكلمونه » (٥١) . لقد وردت فى اقوال ابى سليمان العصمة الشيعية التى جمع الادلة لها هشام بن الحـكم كما مر بنا من قبل ، وابو سليمان هو القائل : « انما عصى الله مـن عصـاه لهوانهم عليه ، ولو كرموا عليه لحجزهم عن معاصيه» (٥٢) وهكذا وصل ابو سليمان الحب بالولاية وجعل منها شيئا واحدا يؤدى بالولى الى مقام الامـام الشيعى المعصوم ، وتلك صلة بارزة بين التشيع والتصوف سيكون لها اثرها فيمـــا بعد فى تطوير فكرة التصوف الى فكرة الحلول والاتحاد . ويجب أن لا نفهم

---

(٤٦) حلية الاولياء ٩/ ٢٦٠ .
(٤٧) المصدر نفسه ٩/ ٢٦٠ .
(٤٨) المصدر نفسه ٩/ ٢٥٦ .
(٤٩) نهج البلاغة ١/ ٣٨ .
(٥٠) تذكرة الاولياء ١/ ٢٣٢ .
(٥١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٥٩ .
(٥٢) صفة الصفوة ٤/ ١٩٨ .

من أقوال أبى سليمان انه كون هذه الافكار فى الشام ونحتها من بيئتها لانه يعترف بكونه زاهدا عاملا منذ كان فى العراق ولكنه يبين انه اشتهر فى الشام(٥٣) . وبذلك تبدو لنا جذور زهده الذى انصب فيه زهد الشام حتى وصل الى بغداد لتتسلمه مدرستها فتمزجه بالافكار التى وصلتها من الكوفة والبصرة ومصر وخراسان فتكون مدرسة التصوف البغدادية التى سارت بالافكار الصوفية شوطا بعيدا .

كعب الاحبار :

ويحسن بنا ان نذكر بان زاهدا قديما قد عبر عن العصمة فى الشام ، ذلك هو كعب الاحبار ـ اليهودى السابق ـ المتوفى سنة ٣٢ الذى كان يقول : «مؤمن عالم اشد على ابليس وجنوده من مائة الف مؤمن عابد لان الله يعصمهم به من الحرام(٥٤) . ولابد ان نشير الى ان كعب الاحبار هذا قد كان سابقا الى البكاء ولعله نقل عن دينه القديم قوله : « لان ابكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتي ، احب الي من ان اتصدق بوزنى ذهبا . والذى نفس كعب بيده مابكا عبد من خشية الله حتى تقع قطرة من دموعه على الارض فتمسه النار ابدا »(٥٥) ، وقصة ايوب تحتل ركنا مهما من الادب الاسرائيلى القديم وهى سنين من البكاء المر ولعل تشابه الظروف يورث ردود فعل متشابهة .

خاتمة :

بقى ان نقول كلمة اخرى فى بيئة الشام ، ذلك انها قد دخلت فيها الآراء الشيعية الغالية ايضا ولكن على صورة جديدة لاتتصل بامام علوى

---

(٥٣) صفة الصفوة ١٩٧/٤ .
(٥٤) المصدر نفسه ١٧٦/٤ .
(٥٥) المصدر نفسه ١٧٦/٤ .

كما فعل الشيعة فى الكوفة ، وانما هى فكرة فردية مائعة كالحلمانية اتباع ابى حلمان الدمشقى الفارسى الاصل الذين كانوا يقولون : « كل شخص حسن فروح الاله حال فيه » (٥٦) « فاذا رأوا صورة حسنة سجدوا لها » ، وكان ابو حلمان يقول : « من كان اعتقاده مثل اعتقادى فلا تكليف عليه ، وكل ما يشتهيه فهو حلال » (٥٧) وتلك افكار واضحة الصلة بافكار الكوفة الغالية بكل دقائقها • ومن ذلك نخرج بان الشام ـ وان كانت اموية الجذور ـ قد تأثرت بالزهد الكوفى النابع من عقيدتها الشيعية الى حد ان افكار الغلاة التى تكون اعلى ما وصل اليه التناقض بين الشام والكوفة قد وجدت لها منفذا الى الشام على هذه الصورة التى عكسها لنا ابو سليمان الدارانى وابو حلمان الدمشقى بالاضافة الى ما رأيناه من أثر على : خصم الامويين الاكبر فى أمرائهم وبعض خلفائهم •

(٥٦ ، ٥٧) البتصير فى الدين ٧٧ •

الفصل الخامس
الزهد فى خراسان

البيئة الخراسانية :

قبل ان نخوض فى الزهد الخراسانى يحسن ان نقرر انخراسان التى نعنيها هى المنطقة التى تستغرق مجموع مدن بلخ ونيسابور ومرو الروذ وبيرود ونسا وغيرها [١] وتقع هذه المنطقة فى الشمال الشرقى من ايران الحالية . ويجب ان نقرر اولا ان خراسان لم تعاصر احدا من الخلفاء الراشدين وهى مسلمة كالبلدان الاسلامية الاخرى ، لانها فتحت صلحا سنة ٣٠/٦٥٠-٥١ أيام عثمان وظلت ثائرة عاصية الى مقتل على بن ابى طالب سنة ٤٠[٢] . وقد ارسل اليها معاوية زهاء خمسين الفا من البصريين والكوفيين بعيالاتهم [٣] ليحاول ان يكسر حدة ثورتها القومية . وكانت خراسان - من الناحية الادارية - مرتبطة بالبصرة ايام الامويين[٤] ، ولكن يبدو انه لم يستطيعوا تحقيق غرضهم لانا وجدناها ثائرة على الدوام . ويخبرنا البلاذرى ان هشام بن عبدالملك ارسل اليها عشرين الفا من اهل البصرة والكوفة لمحاربة الترك فيها [٥] ، وقبل ذلك كتب عاملها الى عمر بن عبدالعزيز يخبره «بان اهلها لا يصلحهم الا السيف والعصا» [٦] ، ولكن عمر بن عبدالعزيز الذى يعلم كيف عوملت خراسان وكيف استعجل الخراسانيون التخلص من الجزية بالدخول فى الاسلام بدون ايمان صادق به وخيب الحجاج املهم باصراره على أخذ الجزية منهم - كتب الى عامله : « بل كذبت ، بل يصلحهم العدل

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٠ .
(٢) فتوح البلدان ٣٩٤ .
(٣) المصدر نفسه ٤٠٠ .
(٤) تاريخ العرب ٢/٣٩ .
(٥) فتوح البلدان ٤١٨ .
(٦) الكواكب الدرية ١/١٤٣ .

والحق فابسطه فيهم »[٧] وهكذا تكون فى قلوب الخراسانيين اول رد فعل ضد الاسلام وكانت معاملة الحجاج لهم اول مأخذ لهم على العرب الذين كانوا يدعون الى الاسلام او الجزية او القتل فلم ينجهم الاسلام من الجزية ولا من القتل وقد ادرك عمر بن عبدالعزيز عيب السياسة الاموية لخراسان فكتب لعامله ما كتب .

لقد كانت خراسان معقلا من معاقل القومية الفارسية لم يستطع الناقلة الكوفيون والبصريون ان ينالوا من شدة تعلقها بجنسها وقوميتها الى حد انه قد اشير على هشام بن عبدالملك بانه « انما يقوى على خراسان من كانت له بها عشيرة من جنودها »[٨] والى حد ان بيئة خراسان قد اذابت الجنس العربى فى تقاليدها وعرفها فكانوا يرون انفسهم خراسانيين[٩] . وعلينا ان نضع هذه الحقيقة نصب اعيننا ونقرر من الان ان خراسان قد كانت فارسية اصيلة لم يؤثر الاسلام ولا تقاليده ولا سيوف الفاتحين ولا منطق اصحاب الفرق فى قوميتهم او تقاليدهم . بل يخبرنا ولها وزن ان لغة السوق فى البصرة والكوفة هى – على ما يقال – فارسية وعربية بمقدار واحد[١٠] ، وذلك يدل على قوة الشعور بالقومية الفارسية وعزتها فيها . وقد عربت المدن الفارسية القريبة من العراق فاستقرت عربيتها وكانت شيعية الهوى فى الاكثر : فكانت المدائن شيعية اصيلة[١١] وكذلك قم التى مصرت سنة ٨٣/٧٢٢[١٢] ونزلها الاشعريون الذين قتل الحجاج قائدهم محمد بن السائب فصارت شيعية[١٣] وصارت مركز الاسحاقية الغالية فيما بعد[١٤] . وكانت المدن الفارسية

---

(٧) الكواكب الدرية ١/١٤٣ .
(٨) الاخبار الطوال ٢٩٢ .
(٩ ، ١٠) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٠ (عن الطبرى) .
(١١) شخصيات قلقة فى الاسلام ٢٣ .
(١٢) معجم البلدان ٧/١٦٠ .
(١٣) تاريخ الكوفة ١٨٣ .
(١٤) الحضارة العربية فى القرن الرابع ٨٠ .

القريبة من العراق كالمدائن على هذه الشاكلة وشاركت العالم الاسلامى فى صدوره عن الاسلام مشاركة ايجابية الا خراسان المتطرفة البعيدة عن التسلط العربى وتأثيره • وقد حملت لواء المقاومة بالسلاح اولا ثم بالعقيدة ثانيا وبالزهد الذى سنراه فى هذا الفصل اخيرا • ولعل خير ما نورده للتدليل على هذه الروح ان ولها وزن يذكرنا بانسقوط الدولة العربية(الاموية) لم يحصل من اهل ما وراء النهر الذين ظلوا ايرانيين مناوئين للعرب بل من الخراسانيين الذين اسلموا(١٥) ، وتلك اشارة الى الخطة التى اختطتها خراسان فى مقاومة الفتح العربى وهى التى تسلمت امانة الدفاع عن الوطن الفارسى وحمايته • وقد رأينا فى بحث التشيع كيف اسهم الموالى فى الثورة التى قادها المختار على أمل المشاركة مع العرب على قدم المساواة فى الافادة من خيرات بلادالاسلام ومثله وكيف نكل بهم مصعب بن الزبير شر تنكيل وكانوا منذ البداية دون العرب حتى فى الحرب فانهم كانوا يباشرون الحرب راجلين(١٦) • لهذا كله وجدناهم يناصرون العباسيين الذين آلت اليهم الدعوة من ابى هاشم بن محمد بن الحنفية ضد الامويين لانه كان يعتمد على نصرهم(١٧) ، ولم يعتمد عليهم جعفر الصادق لانه لم يكن يرى المعارضة الايجابية او يطمح الى قلب نظام الحكم وهذا هو الذى يفسر لنا الثورة التى كانت تتأجج فى صدور الخراسانيين الذين اضمروا الغيظ للدولة العربية التى استعبدتهم فلم تعاملهم بما يليق بهم بل اذلتهم واحتقرتهم • وكان الخراسانيون لب الفرس وفيهم جوهر روحهم الثائرة ، فكان ان حملوا لواء المعارضة واستطاعوا ان يحققوا كثيرا من اغراضهم • ويؤيدنا فيما نذهب اليه باحث فارسى حديث هو الدكتور قاسم غنى الذى يقول : « وكان الفرس الذين يعتبرون انفسهم ابناء الاحرار ـ وكانوا ينتقصون

---

(١٥) الدولة العربية وسقوطها ٢٩٤ •
(١٦) الدولة العربية وسقوطها ٣٩٣ •
(١٧) تاريخ اليعقوبى ٣/٤٠ •

العرب فى زمن الساسانيين ـ قد وصلوا الى درجة من الذل والهوان بحيث اطلق عليهم اسم الموالى وصاروا فى عداد العبيد وابناء الاسرى • وبلغت بهم الحال ان مصعب بن الزبير ضرب اعناق اربعة الاف رجل منهم فى يوم واحد وذلك بعد تغلبه على المختار »[١٨] ، وهو يرى ـ مع براون ـ ان التشيع والتصوف كانا من الاسلحة التى حارب بها الفرس العرب للقضاء عليهم[١٩] • وهو رأى سبقهما اليه ابن حزم [٢٠] • وهذا باحث ايرانى اخر يخبرنا بانه « قد ظهر التصوف فى ايران فى عصر تسلط على وطننا فيه عدو قوى ، فلما لم يجد الايرانيون فى انفسهم قدرة على مخالفة الاعداء ومبارزتهم سلكوا سبيل الهزيمة واتخذوا القوى الغيبية معتقدا لهم ، والقوا سلاحهم فى ميدان تنازع البقاء •••• وعلى هذا فقد كان التصوف حينئذ ضرورة من الضرورات،

---

(١٨) تاريخ تصوم در اسلام ٢١ ترجمة •

(١٩) تاريخ تصوف در اسلام ٣ـ٤ •

(٢٠) لقد اشتهر براون بهذا الرأى وأقر له بأصالته سائر الباحثين المحدثين • وقد عرض ابن حزم للفكرة نفسها وعبر عنها بمعان وكلمات تكاد تطابق ما اوردناه هنا ، فقد ذكر ، فى معرض تناوله الغلو الشيعى، ان «الاصل فى اكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الاسلام ان الفرس كانوا يسمون انفسهم الاحرار والابناء (ابناء الاحرار) وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم • فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ـ وكانت العرب أقل الامم عند الفرس ـ تعاظمهم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الاسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق •••• فاظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا اهل التشيع باظهار محبة اهل بيت رسول الله ـص ـ واستشناع ظلم على ـ رضى الله عنه ـ ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الاسلام •••» (الفصل ٢/١١٥) • هذا ما يتعلق بالتشيع الغالى • واما التصوف فقد قال فيه ابن حزم : « واعلموا ان كل من كفر هذه الكفرات الفاحشة ـ ممن ينتمى الى الاسلام ـ فانما عنصرهم الشيعة والصوفية : فان من الصوفية من يقول : من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم واتصل بالله تعالى » (الفصل ٤/١٨٨) • وقد استشهد ابن حزم لتأييد ذلك بما كان يفعله ابو سعيد ابو الخير (كذا) المعاصر له فى نيسابور (٢/١٨٨) وذكر الحلاج ايضا واتهمه بالتهمة ذاتها (٢/١١٤) •

وليس اليوم كالامس»[٢١] . وقد رد الدكتور قاسم غنى على ما قد يرد من اعتراض المعترضين من الفرس بقوله : « ويجب ان نوضح ـ فى هذا المقام ـ ان ردى الفعل هذين : التصوف والتشيع ، لم يأتيا عن اختيار وعمد وارادة على خطة مرسومة يراد بها الانتقام بل كان اكثر ذلك متأتيا بحكم الانفعال النفسى وبتأثير العواطف والاحاسيس الخفية على صورة يعرفها علم النفس اى ان ذلك قد حدث غالبا دون ان يجد له الناس علة واقعية ودون ان يحللوه ، ولكن ذهنهم كان مسوقا الى هذا العمل بهذه الطرق»[٢٢] .

الزهد والزهاد :

وعلى هذا فقد كان الزهد الذى خرج من خراسان طليعة هذه المقاومة السلبية ، وقد بدأ بخروج عبدالله بن المبارك وابراهيم بن أدهم مع جماعة عدتهم ستون ، وكان الغرض الظاهرى ـ كما قال عبدالله بن المبارك ـ «نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيرى»[٢٣] . ويجب ان نشير هنا الى ان خراسان كانت مركزا من مراكز التشيع غير المتعين . فقد شجعت خراسان ابا هاشم المتوفى سنة ٩٧ كما نصرت زيدا الثائر بالكوفة سنة ١٢١/٧٣٩ وآوت ابنه ، ثم دخلت فى دعوة عبدالله بن معاوية الذى كان يحمى من العباسيين من صاروا خلفاء من بعده ورأينا مولد فكرة النور الذى هو الله فى ذلك الوقت وكان يتناسخ فى الائمة . وقد اله الرزامية بعد ذلك ابا مسلم الخراسانى سياقة للامامة اليه من ابراهيم الامام[٢٤] ، وقال الخرمية بذلك فكان ان قتل المنصور منهم ستين الفا (كذا) سنة ١٣٦/٧٥٣ـ٤ بعد ان ثاروا عليه[٢٥] وبددهم فى الارض سنة ١٤٥/٧٦٢ـ٣[٢٦] وكان الرزامية يقولون فى ابى مسلم مقالة ابن الحارث فى عبدالله بن معاوية من ان روح الاله حلت فيه ، ويرى

---

(٢١) تصوف : مقدمة المترجم ، ترجمة .
(٢٢) تاريخ تصوف در اسلام ٢١ ترجمة .
(٢٣) حلية الاولياء ٧/٣٦٩ .
(٢٤) الملل والنحل ١/٢٤٧ .
(٢٥) مروج الذهب ٢/٢٣٧ .
(٢٦) الاخبار الطوال ٣٢٤ .

الدكتور عبدالعزيز الدورى ان حركة الخرمية لم تكن الا مزدكية مقنعة وان ابا مسلم لم يكن الا المنقذ الذى بشر به زرادشت[٢٧] . لقد كانت خراسان كما مر بنا موطنا لكثير جدا من الكوفيين والبصريين بل لقد رأينا الربيع بن خثيم يهجر الكوفة الى فارس ليشارك فى الفتوح وكان يمثل الزهد الأسلامى الخالص . ولابد ان افكار الزهد الكوفى الدائرة حول المجاهدة والخوف وافكار الزهد البصرى التى تتمثل فى الحب والبكاء قد انصبت فى خراسان بلد الظلم والحركات السرية والعقيدة الغالية . ثم اننا قد رأينا الجيش الفارسى الذى انهزم امام الجيش العربى الفاتح فى القادسية يضم زهادا من الفرس ، وذلك يعنى قدم الزهد فيها وسبقه على الاسلام ، وهذا هو تفسير عودة اصحاب ابراهيم بن أدهم من الشام الى مدينة بلخ الخراسانية [٢٨] ، ذلك انهم ارادوا ان يلائموا بين زهدهم القديم والزهد الاسلامى الجديد ليؤسسوه فى خراسان وينظموه ويحققوا منه هدفهم .

وكان للفرس « نزعة صوفية من مختلف المذاهب تحاول التوفيق بين الاديان وتمزج الدين بالفلسفة »[٢٩] كما يقول دى بور الذى يضيف الى ذلك ان « انو شروان (٥٣١-٥٧٩) اسس فى جنديسابور معهدا للدراسات الفلسفية والطبية ، وكان معظم اساتذته من المسيحيين النسطوريين »[٣٠] « وآوى سبعة من فلاسفة المذهب الافلاطوني الحديث ، جاء بهم من اثينا»[٣١]، ومن المعلوم ان فى الاسماعيلية والتصوف تلك الاصول من الفلسفة الافلاطونية الحديثة . ومهما يكن من شىء فقد اغفل مؤرخو الزهد والتصوف التطرق الى ذكر الزهاد الاقدمين فى فارس وخراسان ، وكان عطاء ابو مسلم اقدم من

---

(٢٧) مقدمة فى تاريخ صدر الاسلام ٨٩ .
(٢٨) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ .
(٢٩) تاريخ الفلسفة الاسلامية ١٢ .
(٣٠ ، ٣١) تاريخ الفسفة الاسلامية ١٨ .

ارخوا له وقد توفى سنة ١٣٥/٧٥٢-٥٣ (٣٢) وكان من بلخ . وبذلك يتبين لنا ان الزهد فى فارس وخراسان قد تأخر ظهوره الى بداية القرن الثانى على الاقل ، وهذا يعنى ان خراسان قد عكست لنا الزهد الصوفى قبل ان تتطور بالزهد الاسلامى البسيط الذى لم يذقه الفرس ولم يدركوا كنهه وفلسفته التى ذكرناها لمناسبة الزهد الاسلامى . ولهذا فاننا نجد بداية الزهد فى خراسان وفارس على صورة تختلف عن طراز الزهد الاسلامى ويتجلى ذلك صورة فى زهد ابراهيم بن ادهم الذى نبحثه فى السطور التالية :

ابراهيم بن ادهم :

لقد تزهد ابراهيم بن أدهم - وكان ابوه من ملوك خراسان - لا لانه مسلم يطبق مثل الاسلام التى تملى على المسلم ان يتواضع فى مأكله وملبسه وخلقه بل وجدناه يتزهد لانه سمع نداء الهيا من قربوس سرجه يقول : « والله ما لهذا خلقت ولا بهذا امرت » (٣٣) ، وتلك قصة تذكرنا بنبوة موسى حين حدثه الله من الشجرة وان كان الباحثون يصلون بين ابراهيم وبوذا . ورأينا شقيقا البلخى يتوب عن التجارة بعد ان بين له تركى فى بيت الاصنام تهافت حجته فى طلب الربح من التجارة مع ادعائه ان له خالقا قادرا على كل شىء (٣٤) . ورأينا الفضيل بن عياض - وهو خراسانى كما مر بنا - يتوب ايضا لدى سماعه قرآنا وهو يصعد الى جاريه كان يعشقها .

ثم اننا نلاحظ ان شيوخ الزهد الصوفى الخراسانى وهم ابراهيم بن ادهم وعبدالله بن المبارك وشقيق البلخى كانوا من الاغنياء وابناء الامراء ولعل ذلك يعكس لنا ما نزل بالفرس من هوان ويوضح ان الزعامة الزهدية لم تكن لمجرد التلبس بالفقر وانما اقترنت به امور لها مدخل الى السياسة والمقاومة ، وآية ذلك ما نطق به ابراهيم بن ادهم حين مد رجليه مستريحا

---

(٣٢) صفة الصفوة ٤/١٢٥ .
(٣٣) حلية الاولياء ٧/٣٦٨ .
(٣٤) صفة الصفوة ٤/١٣٣ .

فى نهر الاردن : « لو علم الملوك وابناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف» (٣٥) • ومع هذه البدايات الغريبة للزهد الخراسانى فاننا نجد ابراهيم بن ادهم ينزل البصرة والاسكندرية ومكة ويعيش فى الشام(٣٦) فيكون بذلك قد صدر عن سياحة كانت معروفة حينئذ فى الكوفة عند سفيان الثورى الذى كان من شيوخ ابراهيم بن ادهم كما مر بنا • وقد تأثر ابراهيم بن ادهم بالزهد البصرى كذلك فكان اساتذته كلهم – فى رأى الدكتور ابو العلا عفيفى – من رجال البصرة(٣٧) ، وبدا اتصال الزهد الخراسانى بالتشيع الكوفى حين وجدنا عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨٩/٨٠٨ يترك خراسان حيث غناه ومنزلته الى الكوفة الشيعية لينقطع الى الله فى بيته(٣٨) ، ولعله ليس من السذاجة ان نسمعه يصف الزهاد بانهم الملوك (٣٩) • وقد صدر الزهاد الخراسانيون عن ولاية واضحة حين قال قائلهم : « ان كنت تحب ان تكون وليا فدع الدنيا والاخرة ولا ترغبن فيهما ...» (٤٠) وذلك قول يعكس الحب البصرى وولاية سفيان الثورى التى رأيناها منبثقة من التقليد الزيدى فى اطلاق الامتياز الروحى للمسلمين جميعا دون قصره على صفوة ممتازة هم ابناء على الارشدين • ثم اننا نجد ابراهيم بن ادهم يقول حين اجاب البصريين عن علة عدم استجابة الله لدعائهم بانهم «يعرفون الله ولا يطيعونه»(٤١) ... الخ ، وتلك مقالة تذكرنا بقول جعفر الصادق فى اجابته على السؤال نفسه لانكم تدعون من لاتعرفونه»(٤٢) وكان ابراهيم بن ادهم يلبس الصوف أو العباء(٤٣) وذلك شعار زهاد الكوفة

---

(٣٥) المصدر نفسه ١٢٤/٤ •
(٣٦) طبقات الصوفية ٣٠ •
(٣٧) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ •
(٣٩) صفة الصفوة ١٠٩/٤ •
(٤٠) مجموعة نصوص تتعلق بالتصوف ٢٢ •
(٤١) تذكرة الاولياء ٨٦/١ •
(٤٢) الرسالة القشيرية ٦٨ •
(٤٣) كشف المحجوب ص٥١ ، صفة الصفوة ١٢٧/٤ •

الصادرين عن التشيع ، وليس من الغريب ان يصدر ابراهيم بن ادهم عن تلك المثل وهو الذى نشأ فى بيئة شيعية فيها الاسرار والمثل الروحية • ويؤكد الخوانسارى هذا الاتجاه فيروى نقلا عن كتاب مجالس المؤمنين ان ابراهيم « انتهى فى ايام سياحته الى خدمة مولانا الباقر (ع) بمكة المشرفة واخذ عن بركات انفاسه ما اخذ» (٤٤) وينقل كذلك عن عدة الداعى لابن فهد الحلى (المتصوف الشيعى المتوفى سنة ٨٤١/١٤٣٧-٣٨) « انه لقى جعفرا الصادق عليه السلام فى الكوفة » (٤٥) • بل ان ابا نعيم يدعى دعوى غريبة مستحيلة التحقق وهى ان ابراهيم بن ادهم رأى على بن ابى طالب كرم الله وجهه (٤٦) ويذكر انه كان من العرب من بنى عجل (٤٧) وتلك محاولة اخرى للربط بين التشيع وبين زهد ابراهيم بن أدهم لانه قد مر بنا ان قبيلة بنى عجل كانت مشهورة بالغلو فى التشيع وانها قد اتخذت ذلك حرفة ووسيلة للملك ومن اخطر ما يصل زهد ابراهيم بن ادهم بالتشيع انه كان يرى نفسه معصوما كأئمة الشيعة الذين عاصرهم وقد بدا شىء من ذلك فى قصة تزهده التى بدت كأنها تكليف من الله بذلك ، وقد قال ابراهيم بنفسه فى قصة توبته التى يوردها ابو نعيم : جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لاعصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى» (٤٨) وذلك تصريح ظاهر التعبير عن العصمة الشيعية • ومما يزيد هذه الصلة وثوقا ان ابن ادهم قد عاصر جعفرا الصادق الذى دارت حوله العصمة واوجبها له هشام بن الحكم كما مر بنا فى عرضنا

(٤٤ ، ٤٥) روضات الجنات ٠ ٤٠

(٤٦) حلية الاولياء ٨/ ٤١ ٠

(٤٧) المصدر نفسه ٧/ ٣٧٣ ٠
نقلا عن ابى قتيبة (عيون الاخبار ٢/ ٣٣٠) ٠ واورد الخوانسارى نسبه فى بنى عجل على الوجه التالى :
ابراهيم بن ادهم بن منصور بن ثعلبة بن سعد بن حلام بن عزية بن اسامة بن ربيعة بن ضبيعة بن عجل بن لجيم (روضات الجنات ص٣٩) ٠

(٤٨) حلية الاولياء ٧/ ٣٦٨ ٠

للامام جعفر الصادق وعصمته . وقد لاحظ الدكتور ابو العلا عفيفى افاضة ابراهيم بن ادهم فى الكلام عن التوكل الصوفى والرجوع الى الله فى كل شىء [٤٩] وتلك خطة الشيعة فى جوهرها لان التوكل كما مر بنا انما هو تسليم لله واوامره كلها بكل ما فيها من تنوع كالجبر والشفويض مثلا . وقد رأينا الشيعة يتحامون ان يختاروا وجهة معينة وانما بقيت فى عقيدتهم كل المثل الاسلامية مجتمعة وهذا هو التوكل الحقيقى المجرد . ومما يؤيد هذا الرأى ان ابا طالب المكى قد استشهد للايمان الذى هو التسليم فى رأيه بقولين للامام جعفر الصادق وابيه محمد الباقر [٥٠] .

شقيق البلخى :

وكان شقيق البلخى المتوفى سنة ١٩٤/٨٠٩-١٠ من افضل تلامذة ابراهيم بن ادهم [٥١] ، وقد تاب وترك التجارة كما تاب استاذه وترك الامارة والجاه ، ولكن شقيقا تاب مرة اخرى حين ذكره عبدالعزيز بن ابى رواد المتوفى سنة ١٥٩/٧٧٥-٧٦ بانه «ليس الشأن فى اكل الشعير ولا لباس الصوف والشعر . الشأن فى المعرفة وان تعبد الله ولا تشرك به» [٥٢] وفسر ذلك بان « يكون جميع ما تعمله خالصا لله » [٥٣] وبذلك سار شقيق بالزهد شوطا الى التصوف بتركه الظاهر واتخاذه الزهد الباطن فنقل الزهد من الجوع الشامى والصوف الكوفى والبكاء البصرى الى أمر قلبى باطن ، فكان ان زاد لصوق زهد شقيق بالتوكل فرأيناه فى اجلى صوره عند تلميذه حاتم الاصم الذى كان يقول : « فما هو الا ان تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه مالم تروا من الاباء والامهات» [٥٤] ولهذا فليس من الغريب ان يظنه السلمى اول من تكلم فى علوم الاحوال بكور خراسان » [٥٥] . وقد ظهرت

---

(٤٩) الملامتية والصوفية واهل الفتوة ٣١ .
(٥٠) قوت القلوب ٢/٣ .
(٥١) فى كشف المحجوب ١٣٨ بنسبه الهجويرى الى الازد .
(٥٢ ، ٥٣) صفة الصفوة ٤/١٣٣ .
(٥٤) صفة الصفوة ٤/١٣٦ .
(٥٥) طبقات طبقات الصوفية ٦١ .

الولاية واضحة فيه بحيث وجدناه قد سافر مرة وفى صحبته ثلاثمائة فقير من العباد والزهاد [٥٦] ، بل لقد توسل المأمون اليه بنفسه حتى اجتمع به [٥٧] .

وقد ظهرت الان رسالة المتصوفة موازية لرسالة العلماء ، فوجدنا شقيقا البلخى يقول : « الرعاة فى كل عصر العلماء والصوفية » [٥٨] . وبينما يرى الجامى انه كان سنيا صادقا من طلاب الامام زفر [٥٩] يورد الخوانسارى انه كان « من تلامذة الامام الهمام موسى بن جعفر وله الرواية عنه ايضا ، وانه استشهد فى بلاد ما وراء النهر بتهمة الرفض [٦٠] ولكن الخوانسارى ليس واثقا من نقوله [٦١] غير ان ملاك الامر فى الفكرة التى يحملها شقيق وهى فكرة التوكل الذى هو الاستقلال الروحى عن المطالب المادية وقد رأيناه مستمدا من الاستقلال الشيعى فى العقيدة وتحامى تبنى فكرة معينة من الاسلام ـ مما ورد فى القرآن ـ دون فكرة اخرى . وقد كان شقيق ـ على عادة الصوفية ـ يرى خصوصية على بالعلم المخصوص وتلك فكرة متصلة بالتشيع فى جذورها وقد تمنى شقيق للمأمون فى وعظه له بلوغ هذا المقام ودعا له بقوله : « واحلك محل على كرم الله وجهه ويطلب (كذا) منك العلم والعدل كما كان » [٦٢] .

(٥٦ـ٥٨) الكواكب الدرية ١/١٢١ .

(٥٩) نفحات الانس ٥١ .

(٦٠) روضات الجنات ٣٢٨ .

(٦١) ينقل الخوانسارى هذا الخبر عن مجالس المؤمنين (طبع طهران ١٢٦٨ ، ص ٢٥٣) مع انه طعن فى اخبار مؤلفة (روضات الجنات ٣/١٨١) . وقد ذكر القشيرى اشتراك شقيق البلخى فى حرب الترك (الرسالة القشيرية ، مصر ١٣١٨ ، ص١٦) وذكر الجامى استشهاده فى ولاية ختلان (نفحات الانس ص٥٠) ومن هنا أخذ صاحب مجالس المؤمنين الاشارة فحورها الى الرفض . ولكن ابن العماد ذكر فى حوادث سنة ١٩٤ انه آستشهد فى غزوة وهذا هو المعقول (شذرات الذهب ١/٣٤٠) .

(٦٢) الكواكب الدرية ١/١٢٢ .

خاتمة :

اما بعد فقد كان الزهاد لايرتضون خراسان سكنا ـ على ما خرج فيها من زهاد ومتصوفة ـ ويذكر لنا الكلاباذى « ان الشيوخ كانوا يهجرون الفقير لثلاث : اذا حج عن غيره بمال ، واذا اتى خراسان واذا دخل اليمن • وقالوا : من اتى الى خراسان لم يأتها الا للرفق ليس بها مباح فيطيب مطعمه» (٦٣) ، وكان سفيان الثورى لاينزلها لان فيها « مذاهب مختلفة وآراء فاسدة » (٦٤) ، وبذلك يصدر زهد خراسان عن بيئتها الفاسدة كما صدر زهد الكوفة والبصرة على الخصوص • ولهذا وجدنا ابراهيم بن ادهم وابن المبارك والزهاد الستين يتركونها ، وقصد ابراهيم بن ادهم الى الشام طلبا للحلال (٦٥) • ويجب ان نقرر فى ختام عرضنا للزهد فى خراسان باننا لم نستقصه لانه متأخر وقريب من التصوف ، وسنبحث كثيرا من اموره حين نبلغ مرحلة المقارنة بين المثل الصوفية والشيعية فى الفصول القادمة • ويهمنا هنا ان نبين ان الزهد فى خراسان قد صدر عن رواسب قديمة فارسية وغير فارسية مزجت مزجا خفيفا بالزهد الاسلامى المتأخر ، وهذا هو السبب فى انه اسرع الى التطور الى التصوف وفى ان متصوفة خراسان او الفرس على العموم هم الذين بلغوا بالتصوف مداه • وقد وجدنا فى هذا الفصل ان التوكل والولاية قد تطورا هنا بفعل المثل الشيعية التى ملأت خراسان ايام الكفاح ضد الفتح العربى الذى لم يتم الا مؤخرا على يد الامويين ممن لم يرعوا لله حرمة فى الخراسانيين فكان ان احسوا برد فعل ادى بهم الى تبنى التشيع والتصوف لحماية كيانهم ورد الفاتحين على الاعقاب •

---

(٦٣) التعرف ١١٣ •
(٦٤) قوت القلوب ٣/١٨٠ •
(٦٥) قوت القلوب ٢/١٩٧ •

الفصل السادس

الزهد في مصر

مقـــدمة :

ليس غرضنا من كتابة هذا الفصل استقصاء ما كان للزهد من منـازع ومشارب فى مصر وانما دفعنا الى ذلك التزام التسلسل فى عرضه والبحث عن الآثار الشيعية فى زهد مصر • فمن المعروف ان المصريين كانوا من زعماء الثائرين على عثمان ، وقد اخبرنا المسعودى انه قد قتل عثمان رجلان منهم هما : كنانة بن بشر التجيبى وسودان بن حمران المرادى (٦٦) ، ومن المتفق عليه ان هدف الثوار على عثمان كان المحافظة على المثل الاسلامية التى تمثلت فى خلافة ابى بكر وعمر ومحاربة الارستقراطية القرشية القديمة التى ارادت ان تميل بالاسلام الى الملكية الطبقية بعد المساواة والديمقراطية ، فكانت مصر – شأن العالم الاسلامى – منذ البداية تريد الاسلام خالصا ومثلا مطبقة لا أقوالا ليس تحتها عمل • وهذا كله يعنى ان مصر قد تحسست الاسلام على حقيقته وارادته ان يكون كذلك ومن هنا يفترض ان يظهر الزهد فى مصر عـــلى صورته الاسلامية التى رأينا حدودها فى الفصول السابقة (٦٧) •

---

(٦٦) مروج الذهب ٤٤٢/١ •

(٦٧) ومما ينبغى ان نذكره ان عبدالرحمن بن ملجم – قاتل على – كان مصريا ايضا (ابن الاثير ، اوربا ، ٣٢٦/٣) وهو يبين حساســية المصريين الشديدة تجاه ماكانوا يرونه الطريق السوى الى تطبيق مثل الاسلام ، فكان منهم الثائرون على عثمان ثم كان منهم اوائل متطـرفى الخوارج فيما بعد •

وقد ذكرت ام الهيثم بنت الاسود النخعية – التى احرقت جثـة ابن ملجم بعد قتله – حقيقة سبق المصريين الى الزهـــد وعكوفهم عـــلى العبادة فى رثائها لعلى فقالت :

لعمر أبى لقد اصحـاب مصر ... على طول الصحابة أوجعونا
وعزونا بأنهـم عـكوف ... وليس كذاك فعل العاكفينا

(مقاتل الطالبيين ص٤١) •

الزهاد :

لقد اهمل المؤرخون واصحاب السير الاشارة الى زهاد مصر الاوائل وقصروا همهم على اخبار اخوانهم فى الكوفة والبصرة فشحت الاخبار وتقلصت النصوص التى تحدد ملامح الزهد المصرى فى القرن الاول . وقد روى ابن الجوزى سيرة زاهد من قبيلة قاتل عثمان وكان دعاء من البكائين وكان ضيق الحال جدا ، ذلك هو حيوة بن شريح التجيبى (٦٨) . وروى ابن الجوزى ان زاهدا آخر ـ هو الفضل بن فضالة ـ كان مجاب الدعوة وكان مع ضعفه طويل القيام (٦٩) وكان ـ الى ذلك ـ قاضيا .

الليث بن سعد :

وكان فى مصر زاهد من طراز جديد هو الليث بن سعد مولى قيس الذى استقل بالفتوى والكرم (وقد توفى سنة ١٧٥/٧٩١ـ٩٢) وكان رقيق العاطفة ، سمع وعظ منصور بن عمار فتأثر به وقال له : « كأنك فتت عضوا من اعضائي » (٧٠) . ويستنتج من سيرة الليث انه استقل بالفتوة مع الفتوى لان الاخبار التى دارت حوله تبين كلها فتوته التى اقترنت بالسخاء والمروءة ، وقد اوضح لنا هذا طلب مالك بن انس من الليث ان يرسل اليه شيئا من العصفر (٧١) وهو المادة التى تصبغ بها الثياب وكان من علامات لباس القراء والفتيان فى الكوفة قبل ذلك (٧٢) .

لقد روى عن الليث اتصاله بجعفر الصادق وقد صورت هذه الصلة على شكل قصة يرويها هو ويتبين منها مدى ما كان للصادق من مقام عند الزهاد فى سائر الاقطار الاسلامية فى القرن الثانى الهجرى خاصة حتى ليبدو الصادق من اولياء الله اصحاب الكرامات وهو هنا بدل من الابدال قال الليث بن سعد : حججت سنة ١١٣/٩٣١ فاتيت مكة ، فلما صليت العصر رقيت أبا قبيس واذا

---

(٦٨) صفة الصفوة ٤/٢٨٢ .
(٦٩) صفة الصفوة ٣/٤٧ .
(٧٠ـ٧٢) صفة الصفوة ٤/٢٨٢ .

انا برجل جالس وهو يدعو ، فقال : يارب يارب ، حتى انقطع نفسه ، ثم قال : الله الله حتى انقطع نفسه ... ، ثم قال : اللهم انى اشتهى من هـذا العنب فاطعمينه اللهم وان بردى قد اخلقا . قال الليث : فوالله ما استتم كلامه حتى نظرت الى سلة مملؤة عنبا ـ وليس عـلى الارض يومئـذ عنب ـ وبردين جديدين موضوعين ، فاراد ان يأكل ، فقلت : انا شريكك ، فقال لى : ولم ؟ قلت : لانك كنت تدعو وانا أؤمن فقال لى : تقدم فكل ، واذا هو عنب لاعجم له فأكلت حتى شبعت والسلة لم تنقص ، ثم قال لى : خذ احب البردين اليك فقلت اما البردان فانا غنى عنهما فقال لى : توار حتى البسهما فتواريت فاتزر بالواحد وارتدى بالاخر ، ثم اخذ البردين اللذين كانا عليه فجعلهما على يده ونزل فاتبعته حتى اذا كان بالمسعى اذ لقيه رجل فقال : اكسنى كساك الله ، فدفعهما اليه فلحقت بالرجل فقلت له : من هذا ؟ فقال : هذا جعفر بن محمد . قال الليث : فطلبته لاسمع منه فلم اجده (٧٣) .

الحسن بن خليل :

وكان الحسن بن خليل ـ المعاصر لليث بن سعد ـ كثير البكاء مصفر اللون وكان مستغرقا فى العبـادة حتى شغلته عن رواية الحـديث ، وكان اذا قرأ القرآن غشى عليه (٧٤) ، وقد نسب الى الحسن هذا انه كان يندمج على قوة روحية استطاع بها ان « يمر على مكة فى كل ليلة» (٧٥) ولعل ذلك كان مما يشارك فيه زهاد مصر عندئذ . وقد شارك الحسن فى رقته عبدالله بن وهب المتوفى سنة ١٩٧/٨١٢-١٣ ، وقد روى عنه انه قرىء عليه كتاب اهوال القيامة « فخر مغشيا عليه ، فلم يتكلم بكلمة حتى مات بعد ذلك بايام» (٧٦) .

الصلات بين الكوفة ومصر :

وكانت الكوفة ذات تأثير كبير فى زهد مصر وكانت مثل الزهد فيها هى

---

(٧٣) مطالب السؤول فى مناقب آل الرسول ٣٣٦ .

(٧٤ ، ٧٥) صفة الصفوة ٤/٢٩٣ .

(٧٦) حلية الاولياء ٨/٣١٩ .

مثل الكوفة كما يتضح ذلك من الامثلة التى اوردناها . يضاف الى هذا انه قد كان فى مصر قوم ينتحلون صناعة الكيمياء كما كان الامر فى الكوفة ، بل لقد أخبرنا ابن النديم ان عثمان بن سويد الاخميمى كان من تلامذة جابر بن حيان الكيمياوى الكوفى (٧٧) وتلميذ جعفر الصادق ، واخبرنا ابن النديم انه « كان مقدما فى صناعة الكيمياء ورأسا فيها» (٧٨) واورد ان له كتاب «صرف التوهم عن ذى النون المصرى» (٧٩) فدل على اتصاله به وبخاصة انهما كانا من مدينة واحدة هى اخميم (٨٠) . واذا وصلنا بذلك ما يرويه القفطى من ان « ذا النون من طبقة جابر بن حيان فى انتحال صناعة الكيمياء وتقلد علم الباطن والاشراف على كثير من علوم » (٨١) ، وان حاجى خليفة قد ذكر ان لذى النون قصيدة فى الكيمياء شرحها ايدمر بن على الجلدكى (٨٢) ، تبين لنا الى اى حد اتصل الزهد المصرى بالكوفى واخذ عنه . ومن امارات الصلة بين الزهدين ان كلمة « صوفى » ظهرت فى الكوفة اولا ولم تطلق على أحد فى الاقطار الاسلامية ـ فيما عدا الكوفة ـ الا فى مصر حيث دارت حول ابى عبدالله الصوفى الذى شارك صحبه الاندلسيون فى الثورة الهادفة الى الامر بالمعروف وكان ذلك فى الاسكندرية سنة ١٩٨/٨١٣-١٤ (٨٣) . ويبدو ان عبدالله قد خيب ظن اصحابه فيه وفى زهده وعدله لانه « كان يسفك الدماء ويقتل المسلمين » (٨٤) فاضطروا الى عزله . وهكذا اقترن لفظ صوفى بالزاهد المصلح الداعى الى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك مبدأ كان قديما فى مصر ولعل اندفاعهم الى الثورة على عثمان يتصل بذلك .

وقد يتساءل متسائل : ما العلاقة بين الكوفة ومصر ولم يكن للاخيرة

(٧٧-٧٩) الفهرست ٥٠٠ .
(٨٠) المصدر نفسه ٥٠٥ .
(٨١) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٢٧ .
(٨٢) كشف الظنون ٤/٥٣٨ .
(٨٣ ، ٨٤) تاريخ اليعقوبى ٣/١٧٤ .

اتصال بعلى ولا بأحد من ابنائه طوال الحكم الاموى ؟ لقد ظهر من روايات الكلينى انه قد كان فى مصر شيعة امامية فى بداية القرن الثالث الهجرى ولعلهم وجدوا قبل ذلك ، فقد روى لنا ان على بن اسباط ـ وهو شيعى مصرى ولعله اخو يوسف بن اسباط الزاهد الذى يروى عن سفيان الثورى ـ قد ذهب الى مقر الامام محمد الجواد الامام التاسع المتوفى سنة ٢٢٠/٨٣٧ وقد اوتى الامامة وله من العمر سبع سنين ، وقال : « خرج على فنظرت الى رأسه ورجليه لاصف قامته لاصحابنا بمصر» (٨٥) وابن اسباط يروى ذلك فى سنة ٢٠٣/٨١٨-١٩ أى ايام المأمون • وروى المسعودى ان مصر ـ لقربها من الحجاز ـ كانت ملجأ ومقصدا للثوار العلويين وحدثنا فى اخبار سنة ٢٥٢/٨٦٦ انه «قدم الى سامراء عيسى بن الشيخ الشيبانى من مصر ومعه مال كثير وستة واربعون رجلا من سائر ولد ابى طالب من ولد على وجعفر وعقيل كانوا خرجوا من الحجاز خوف الفتنة والجهد النازل بهم بالحجاز الى مصر فحملوا منها ، فامر المعتز بتكفيلهم والتخلية عنهم لما وقف من امرهم» (٨٦) • وقد ثار ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن على بن ابى طالب المعروف بابن الصوفى بصعيد مصر وملك مدينة اسنا كما يروى ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٥٦/٨٧٠ (٨٧) اى بعد تسليم الشيبانى للعلويين باربع سنين والملاحظ فى نسب ابن الصوفى انه من نسل ابن الحنفية وهذا يعنى ان حركته لم تكن زيدية ولا امامية ولا اسماعيلية لان هذه الفرق تقصر الامامة على نسل على من فاطمة ، فلابد ـ بناء على ذلك ـ ان يكون انصار ابن الصوفى من الغلاة خلف انصار ابى هاشم الاسبقين وتلك ناحية اخرى لها اتصال بالكوفة وافكارها • والمهم فى امر ابن الصوفى ان جيشه التقى بجيش احمد بن طولون

---

(٨٥) اصول الكافى ١٣٢ •
(٨٦) مروج الذهب ٢/٤٢٨ •
(٨٧) تاريخ الكامل ابن الاثير ٧/٩٥ •

فى نواحى اخميم [٨٧] بلد ابن سويد وذى النون مما يوضح ما اشرنا اليه من وجود البذرة الشيعية والانصار فى مصر قبل ذلك ويفضح اتصال الكوفة بها منذ زمن ، ولعل فى انتقال الشافعى من الكوفة الى مصر دليلا آخر على هذا الارتباط والتبادل بين المصرين [٨٨] وروى لنا الخوانسارى عن رجال من فقهاء الامامية كانوا يسكنون مصر واردين من الكوفة من امثال ابى الفضل الصابونى الذى كان زيديا وعاد اماميا وكان له منزلة بمصر [٨٩] ومحمد بن محمد بن الاشعث الكوفى الساكن بمصر « وكان من اعظم فقهاء الامامية منصوصا على امانته ووثاقته فى رجال النجاشى ... وله من المؤلفات كتاب الجعفريات الذى تضمن الف حديث بالاسناد المتصل كلها عن مولانا الصادق فى كثير من ابواب الفقه ...» [٩٠] ولعل على بن اسباط قد كان كوفيا ايضا فانتقل الى مصر .

اما بعد فقد كتبنا هذا الفصل الصغير للتدليل على الاتصال بين مصر والكوفة وتأثر مصر بالتشيع وصدورها عن منزع الكوفة الزهدى قبل نزول الفاطميين فيها وتأسيس دولتهم . ولم نتطرق الى ذكر ذى النون وما فى تصوفه من آثار شيعية لانه معدود فى المتصوفة لا فى الزهاد فان ذكره سيرد فى باب التصوف فى موضعه المناسب .

---

(٨٨) وقد كان الشعرانى نفسه من نسل محمد بن الحنفية (الكواكب الدرية ، مخطوط محفوظ فى المتحف البريطانى بلندن تحت رقم Add. 2369) ولعله كان من احفاد الثائرين الصوفيين بمصر .

(٨٩) روضات الجنات ٥٥٤ .

(٩٠) روضات الجنات ٥٥٤ .

ثبت الجزء

تصدير أ ـ ب

تمهيد ٣ ـ ٥

الباب الاول : التشيع (٧ ـ ٢٥٢)

الفصل الاول : مقدمات فى التشيع (٨ ـ ٨٤)

التشيع لفظا واصطلاحا ٨

متى ظهر التشيع ١١

الشيعة الاولون ١٨

سلمان الفارسى ٢٠

ابو ذر الغفارى ٢٨

عمار بن ياسر ٣٣

حذيفة بن اليمان ٤٢

المقداد بن اسود ٤٨

الشيعة الاخرون ٤٩

الامام على ٥٣

الفصل الثانى : تميز التشيع وتطوره (٨٥ ـ ١٢٥)

الشيعة بعد على ٨٥

الحسين وحركته ٩٣

الشيعة بعد الحسين ١٠١

محمد بن الحنفية ١٠٧

الرجعة ١١٥

الكيسانية ١٢٠

ابو هاشم بن محمد بن الحنفية ١٢٢

الفصل الثالث : الغلو والغلاة (١٢٦ – ١٥٢)
مقدمة ١٢٦
بيان بن سمعان النهدى ١٢٨
المغيرة بن سعيد العجلى ١٣٠
ابو منصور العجلى ١٣٤
عبدالله بن معاوية ١٣٠
ابو الخطاب الاسدى ١٤١
هشام بن الحكم ١٤٦
النصيرية ١٥٠
الفصل الرابع : عودة الى تطور التشيع (١٥٣ – ٢٠٥)
على بن الحسين ١٥٣
محمد الباقر ١٦٩
زيد والزيدية ١٧٧
جعفر الصادق ١٨٧
الفصل الخامس : تشعب التشيع التقليدى واستقراره (٢٠٦ – ٢٥٢)
الاسماعيلية ٢٠٦
الامامية وائمتهم ٢٢٧
المهدى ٢٤٢
الباب الثانى : الزهد (٢٥٤ – ٣٦٢)
الفصل الاول : الزهد عموما (٢٥٥ – ٢٦٧)
مقدمة فى الزهد العام والزهد الاسلامى ٢٥٥
الفصل الثانى : الزهد فى الكوفة (٢٦٨ – ٣٠٦)
تمصير الكوفة وعناصرها ٢٦٨

الزهد الاسلامى فى الكوفة ٢٧٦
الصوف ٢٨٠
اول من تسمى صوفيا ٢٨٦
جابر بن حيان ٢٨٦
ابو هاشم الكوفى ٢٨٩
عبدك الصوفى ٢٩٢
انتظام الزهد فى الكوفة ٢٩٣
سفيان الثورى ٢٩٣
داود الطائى ٢٩٧
الفضيل بن عياض ٢٩٩
فرقد السبخى ٣٠١
الفتوة الكوفية ٣٠٣
الفصل الثالث : الزهد فى البصرة (٣٠٧ – ٣٣٢)
تمصير البصرة وبيئتها ٣٠٧
اسس الزهد فى البصرة ٣١٠
الزهد الاسلامى : الاحنف بن قيس وعامر بن
عبدالله بن عبد قيس ٣١٣
الحسن البصرى ٣١٥
مظاهر الزهد البصرى الجديدة ٣٢١
الحب ٣٢٢
المحبون ٣٢٢
رابعة العدوية ٣٢٤
الوعظ والوعاظ فى البصرة ٣٢٧
عبدالواحد بن زيد ٣٢٨
مالك بن دينار ٣٢٩
خاتمة ٣٣٠

الفصل الرابع : الزهد فى الشام	(٣٣٣ – ٣٤٤)
البيئة الشامية	٣٣٣
الزهد والزهاد	٣٣٥
عمر بن عبدالعزيز	٣٣٩
ابو سليمان الدارانى	٣٤١
كعب الاحبار	٣٤٣
خاتمة	٣٤٤
الفصل الخامس : الزهد فى خراسان	(٣٤٥ – ٣٥٦)
البيئة الخراسانية	٣٤٥
الزهد والزهاد	٣٤٩
ابراهيم بن ادهم	٣٥١
شقيق البلخى	٣٥٤
خاتمة	٣٥٦
الفصل السادس : الزهد فى مصر	(٣٥٧ – ٣٦٢)
مقدمة	٣٥٧
الزهاد	٣٥٨
الليث بن سعد	٣٥٨
الحسن بن خليل	٣٥٩
الصلات بين الكوفة ومصر	٣٥٩

تصويبات

لم يكن فى الوسع تجنب كثير من الاخطاء المتصلة باثبات همـزة ابن وحذفها وليست القاعدة بخافية على القارىء . وقد اختل فى بعض الاحيان توزيع النقاط على الحروف وذلك مما لايخفى على القارىء اللبيب ايضـــا . ولكثرة ما وقع من هنات مطبعية اولا ولقدرة القارىء على تلافيها ثانيا سنقتصر فى هذا الجدول على الضرورى منها .

أ ـ يضاف العنوان « ابو هاشم بن محمد بن الحنفية » على ما قبـل الفقرة الثانية فى ص١٢٢ ، ويضاف العنوان « موسى بن جعفر الكاظم » الى ما قبل الفقرة الثانية من ص٢٣٠ ، والعنوان « على بن موسى الرضا » الى ما قبل الفقرة الثالثة من ص ٢٣٣ .

ب ـ تصوب الاخطاء المطبعية التالية .

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٠	١٦	صادر من	صادر عن
١٥	١٤	الصدف	المصادفات
٢٣	١٠	للزهد	الزهد
٢٦	٨	ويعوت	ويموت
٣٣	١٢	الربذة	بالربذة
٣٨	٧	فقاله	فقال له
٣٩	٤ (هامش)	من طريق	من طريف
٤٥	٢٠	يريويه	يرويه
٥٢	١	بالناس	الناس
٥٦	٤	فاذا ابصرته ابصرتنى	فاذا ابصرتنى ابصرته
٥٦	٤	واذا ابصرتنى ابصرتنا	واذا ابصرته ابصرتنا
٦٣	٩	تتلمذه على النبى	تلمذته للنبى
٦٧	١٠	الصدفة	المصادفة
٨١	١٤	بلاء	بلاد
٨١	٤ (هامش)	المخطوط فى	المخطوط r. 3634 فى
٩١	١٧	عمر	عمرو
٩٢	١٤	اقطار	افكار
١٠٤	٢	عمر بن قيس	عمرو بن قيس
١١٢	٣ (اسفل)	فرقة قالت بها اولا	(تحذف)
١١٤	١١	حديث	حديثا
١٢٤	١٤	أما ان	اما ابن

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٣٤	١٩	صور انسان	صورة انسان
١٤٤	٧	٣١٨	٢١٨
١٤٥	٢١	آخرها	آخرهم
١٤٩	٢١	الزائدة عن	الزائدة على
١٥٠	١٣	يعلى	لعلى
١٥١	٢٦	فكأنه	فكأن
١٥٢	٨	ولا يأمركم الله أن تتخذوا	ولا يأمركم ان تتخذوا
١٥٢	٩	ايأمركم الله بالكفر اذ	ايأمركم بالكفر بعد اذ
١٦٩	١	فيم	فلم
١٧٤	٢٣	١٨	٦٨
١٨٤	١٥	ابن خالد الاحمر	ابى خالد الاحمر
٢٠٢	١٨	ويفسر الصادق ذلك	ويفسر الصادق يسن
٢٠٢	١٩	بقوله (ص)	لقوله (ص)
٢٠٧	٢٢		وكذا مقالات الاسلاميين ٢٧/١
٢١٢	٢١	الساعات	السباعات
٢١٤	١٦	ونفس هو كل	ونفس كلى
٢١٨	٢٢	خطط المقريزى ٢/٢٣٣	خطط المقريزى ٢/٢٣١ ، ٢٣٣
٢٢٦	٩	مقمصة	متقمصة
٢٢٧	١١	اعادة الشيعة	اعاد الشيعة
٢٢٩	١٣	وبعدانتهاءالوكالة_التى	وبعدانتهاءدورالوكلاءالذين
٢٣٣	١٥	٩٣٨/١	٣٨/١
٢٣٣	١٩	ثم لما على ولى ولى عبدالله	ثم لما ولى ولى عبدالله
٢٣٤	٢٤	وصفة للصورة	وصفه للصورة
٢٣٧	٩	منحولة عليها	منحولة عليهما
٢٣٨	٢٢	بيان السعادة	بيان السعادة : ١٩
٢٤٠	١٦	مخالفونها	مخالفونا
٢٤٢	١٠	سنة ٢٥٦	سنة ٢٥٦/ ٨٧٠
٢٤٤	١٥	ولا يجوز ولا ولد	ولا يجوز ان يموت ولا ولد
٢٤٧	١٥	الامام الثانى	الامام الثامن
٢٤٨	٧	ذكّر	ذكّره
٢٥٧	٢٥	الاعلاق النفسية	الاعلاق النفيسة
٢٥٧	٢٦	مسامرة الاوائل	مسامرة الاوائل : ٧٠
٢٦٠	١	تظاهرا اثم	تظاهرا ثم
٢٦٦	١٩	يقول سعد	يقول بقول سعد
٢٦٧	١٢	العائد	العائذ

9-28-64-1941

THE RELATION BETWEEN SUFISM AND SHI'ISM

Volume I

Shi'ism & Its Origins

By

KAMIL M. AL-SHAIBI

M.A., Ph.D. (Cantab.)

Al-Nahda Press - Baghdad

1382/1963

THE RELATION BETWEEN ṢŪFISM AND SHĪ'ISM.

Volume I

Shī'ism & Asceticism

By

KĀMIL M. AL-SHAIBĪ

B.A., M.A. (Alex.), Ph.D. (Cantab.)

Al- Zahra' Press—Baghdad.

1382/1963

تم انجازه بتاريخ ١٩٦٣/٨/١٩

THE RELATION BETWEEN ṢŪFISM AND SHĪ'ISM

Volume I

Shī'ism & Asceticism

By

KĀMIL M. AL-SHAIBĪ

B.A., M.A. (Alex.), Ph.D. (Cantab.)

Al- Zahra' Press—Baghdad.

1382/1963

تم انجازه بتاريخ ١٩٦٣/٨/١٩

الثمن : نصف دينار

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY